2020
30.12.2019

رواية

بختيار علي

آخر رمّان الدنيا

ترجمة: غسّان حمدان

Bachtyar Ali
دواهه مین هه ناری دونیا
The Last Pomegranate of the World

آخرُ رمَّانِ الدُّنيا

بختيار علي

رواية

ترجمها عن الكردية
غسّان حمدان

تحرير
وليد الشايجي

مراجعة
رفعت فرج



2019

آخرُ رمَّانِ الدُّنيا

بختيار عليّ

Author: Bachtyar Ali.
Duwahamin Henari
Dunya (The World's Last
Pomegranate)

Translated from Kurdish by:
Ghassan Hamdan
Edited by:
Waleed Al-Shaiji

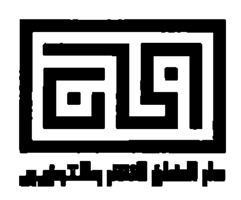
آخرُ رمّانِ الدُّنيا / رواية
(دواهەمین هەناری دونیا)
بختيار علي

ترجمها عن الكردية:
غسّان حمدان
تحرير:
وليد الشايجي
مراجعة:
رفعت فرج

الإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى – 2019

978 - 99921 - 712 - 12 - 4 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2018/1606



هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر: DarAlKhan_kw@
انستغرام: daralkhan_kw

1

منذُ صباح اليوم الأول إيّاه فهمتُ أنّه قد حبسني.

قال لي، في قصرٍ يقع في أعماق غابة خفية، إنّ ثمّة وباءً قاتلاً قد انتشر في الخارج. حين يكذب، كانت جميعُ الطيور تفرُّ هاربةً. منذ طفولته كان هكذا، إذ كانت تحدث أشياءُ غريبةٌ عندما يكذب: كان المطر يهطِل، والأشجار تسقط، أو كانت الطيور كلُّها تحلّق فوق رأسينا. كنتُ سجينَه في قصرٍ شاهق؛ وقد جلب لي كتباً كثيرة قائلاً: اقرأها، فقلتُ: «دعني أخرجَ». فرَدَّ: «لقد انتشر المرض في جميع أنحاء العالم، فابقَ مستقِرّاً هنا، يا مظفّر، في هذا العالم الجميل. فهذا هو القصر ذاتُه الذي بنيتُه لنفسي... لنفسي ولملائكتي... لنفسي ولشياطيني. اجلس هنا وهدّئ من روعِك، فملائكتي لك، وشياطيني لك... فالطاعون قد انتشر في الخارج وعليك أن تبقى بعيداً عنه... بعيداً، أفهمت؟ عليك أن تبتعد عن الطاعون». هناك كنتُ بعيداً عن الطاعون؛ كنّا هكذا منذُ طفولتنا حيث إنّه كان يترك لي أشياءه وأنا أيضاً كنت أترك أشيائي له. فيعقوب الصنوبر شخصٌ إذا نظر إلى السماء فسيحدث شيءٌ ما لا محالة، وينفذ نورٌ أسرعُ من سرعته الاعتيادية إلى قلوبنا، أو يحلّ الليلُ قبل أوانه. في أثناء وجوده لم تكن الطبيعة على عادتها، وفي أغلب الأوقات كنتُ رفيقَ سفره؛ وكانت له سلطةٌ سحريةٌ على الطرق كافّة. كان يمكنه أن يأخذنا عدّة أيام في طريق دون أن نشعر بالجوع، وكنتُ أنا فقط زميلَه القديم، إذ كنتُ أعرفه منذُ طفولته. أولئك الآخرون الذين كانوا يحاربون معنا، كانوا شبّاناً؛ ولاحقاً كان

يتحوّل نصفُهم إلى أعدائه، ونصفهم الآخر كانوا يخدمونه. لا أدري من أين تبدأ قصتي مع يعقوب الصنوبر، إذ لم تترك إحدى وعشرون سنةً من الحبس سوى بعض الذكريات؛ إحدى وعشرون سنة من الحبس صنعت منّي عبداً بالمعنى الحقيقي... وخلال هذه السنين كان هو الوحيد الذي يراسلني عن طريق قُصاصةِ ورقٍ، وكان يكتب لي: «عندما تخرج عليك أن تعيش فترةً في أجمل قصورِ العالم». كان يرسل هذه الرسائل سنة تلو الأخرى، ولم يكن يكتب اسمَه، أو كان يكتب: «الصديق الذي يفتقدك» أو كالماضي كان يرسم طائراً في نهاية الرسالة. كنتُ أشعر سنة تلو الأخرى أنَّ ثمة شيئاً يحدث في خطّه ذاك؛ تغييراً هادئاً وبطيئاً. وطوال المدة تلك لم يكن يصلني أيٌّ شيء من الخارج غير رسائله حتّى أطّلعَ على ما يجري. وكانت رسائله تلك، الطريقة الوحيدة للاطّلاع على ما يجري في العالم.

طوال فترة حبسي كان يكتب العباراتِ ذاتَها، وكانت تصلني جملةٌ واحدةٌ من الخارج، مدة إحدى وعشرين سنة بالتمام، إلا أنّها في كلّ مرة كان لها معنى آخرُ لي، وكنتُ أشعرُ بتحوّلات يعقوب النفسية من خلال خَطّه. لقد كان يعقوب الصنوبر ممتلئاً بالأوهام.

كانت الليلة الأولى في ذلك القصر باردةً وصامتة ومخيفة؛ فقضيتُها وحيداً حالها حال سنيِّ حبسي الطويلة. صمَتُّ إحدى وعشرين سنة، وجهدت كثيراً خلالها كي لا أنسى لغتي. كلا، لم أنسَ لغتي؛ بل كان لديّ الوقت خلال تلك السنوات البعيدة والطويلة كي أخلق لغةً أخرى، لغةً رومانسية. حين خرجت كان يمكنني أن أقول أيّ شيء؛ ولكن على نحوٍ آخر، بحيث لم تكن تُفهم في بعض الأحيان.

حين خرجتُ كانت تفوح منّي رائحةُ الصحراء... ولكلِّ صحراءَ رائحتُها الخاصّة، فمن عاش فترة طويلة هناك يدرك هذا الأمر. كانت تفوحُ منّي رائحة الصحراء، والفترة الوحيدة التي أخرجوني فيها كانت عندما أرادوا مبادلتي مع أسير حكومي؛ إلا أنّ المحاولة لم تفلح، وبعد عشرة أيامٍ أعادوني من سجن آخرَ إلى الصحراء.

استمعتُ مدّة إحدى وعشرين سنةً إلى صوت الرمال؛ وسجني كان غرفةً بعيدة عن العالم، غرفةً صغيرةً وسط بحر من الرمال... غرفةً صغيرةً محاصرةً بين السماء والصحراء، وكنتُ، فترةً ما، معروفاً في بلادي كلّها بالأسير الأكثر رعباً، وغريباً عن العالم وفي نهاية البلاد، حيث ينسى الرب فيه عباده، وتنتهي فيها الحياة ويبدأ فيها الموتُ الذي كان يخلو من بريق نجمةٍ واحدةٍ حتّى. كانوا قد تركوني، فتعلّمت خلال مدة السجن كيف أتكلّم مع الرمال. ولا تستغربوا لو قلتُ إنّ الصحراء ملأى بالأصوات، إلا أنّ الإنسان لا يتعلّم كيف يميّز هذه الأصوات بشكلٍ صحيح. كنتُ أصيخ السمع في الصحراء طوال الوقت، وأفصل رموزَ تلك الأصوات الغامضة المختلفة بعضها عن بعض. لو بقيتَ في غرفة في الصحراء كل هذه السنين فستتعلّم كيف تملأ نهارك، وكيف تخلق لنفسك عملاً؛ والأمر الأهم هو ألّا تفكّر في الوقت. وإن استطعت ألا تفكّر بمرور الوقت فعندئذٍ يمكنك ألا تفكّرَ في المكان أيضاً. فالشيء الذي يقضي على المرء هو التفكير في الزمان والأماكن الأخرى. كنتُ أعدَّ الأيام حتّى السنة السابعة؛ تستيقظ صباحاً ما، فترى فجأةً أنّ كلّ شيء قد تبعثر فيك. منذ البداية، وثانية تلو الأخرى ترتّب كل شيء بصورة منظمة؛ ولكن حين تستيقظ

ترى أنك قد بعثرت كلّ شيء، ولا تعرف أنك هنا منذ ألف سنة أو منذ قرن واحد، أو كيف هي صورة العالم الخارجي، والأكثر رعباً هو أن تعرف أنّ أحدهم ينتظرك في الخارج. وحين تتأكّد أنّه ما من أحدٍ ينتظرك وقد نساك العالم كلّه حينها ستبدأ تفكّر في نفسك. بعد إحدى وعشرين سنة من الحياة في الصحراء فإنّ الرمال هي الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تفكّر فيه. كنتَ تسمع في بعض الليالي أنّ الصحراء تناديك. دائماً ما كنتُ أشعرُ في الليل أو عند الغروب أنّ الصحراء تناديني، ولكن المشكلة الكبرى هي أنك لا تعرف بما تجيبُها. كنت أرى كابوس الصحراء والأشباح التي تخلّفها الرمال وتنثرُها كالإعصار. يلزم وقتٌ كثيرٌ حتّى تتعلّم التحدّث مع الرمال؛ وخلال سنوات حبسي تلك تتعلّم أنَّ فنَّ التحدّث مع الرمال يجري على نحوٍ مختلف... فعند التحدّث مع الرمال عليك ألا تنتظرَ الجواب. أنَّ تتحدّث وتصيخ السمع إلى صوتها فقط. كلا! صوتٌ تأخذه كرماد الأرض فتغور تحت آلاف الأصوات الأخرى.

كانوا يسمحون لي مرة في الشهر أن أخرج إلى داخل الصحراء. كان يأتي أحد الحرّاس وأسير معه عدّة مئاتِ الأمتار على الرمال؛ كانت تلك أسعدَ أيام حياتي... ودائماً ما كنتُ أعدّ نفسي قبل أسبوع من اليوم الموعود. حين كنتُ أخطو على الرمال كان قلبي يكادُ أن يطير. لم يكن لديَّ أيُّ صديقٍ، مدة الأسر، غير الرمال؛ وحين كنت أضع قدميَّ على الرمال كنتُ أشعر بالحياة. كنت أشعر بالأرض، وبأطرافي اللا نهائية التي كانت قد ماتت في تلك الغرفة، وشيئاً فشيئاً نسيت الآخرين. الشيء الوحيد الذي كنت أفكّر فيه هو كليّة العالم. إنّ

إحدى وعشرين سنةً لهي فترةٌ طويلةٌ للتفكير في العالم. وأنا الوحيد في تلك الرمال كنت أفكّرُ في العالم. كنتُ أحتضن الصحراء فتعود الحرارة إلى جسدي؛ وكان اتساعُ الصحراء يخلق لديّ إحساساً عميقاً جداً بالحرية. لو سجنتَ كل هذه السنين في الصحراء فسيأتي يومٌ لن تفكّر فيه إلا بالحريات التي تهبُك إيّاها بحارُ الرمال الواسعة تلك.

لا أذكرُ تماماً بعد قضاء عدة سنواتٍ في السجن، ولا أعلمُ متى توقّفتُ عن التفكير في السياسة. في ليلةٍ ما وعلى ضوء القمر انتبهتُ إلى نفسي. كان القمر قد أضاء سجني بحيث كنت أرى كلَّ شيء بوضوح النهار، وكان ذلك الضياءُ يعطيني قوةً لا أفكّر بأيّ شيء سوى الدنيا. كنتُ قد متُّ منذُ فترةٍ طويلةٍ ولم يكن أحدٌ يعلم أنّني حيٌّ غير يعقوب الصنوبر؛ ولم يكن لديّ أحدٌ أيضاً ليسألَ عنّي... كنتُ قد جئتُ من العدم وأصبحت عدماً.

كانت ذكرياتي سنةً تلوَ الأخرى تصبحُ كالرمال؛ ولم أكن أعلم أين قد سُجنت؛ إذ كانت الصحراء نائيةً ومجهولةً، وهُم أغلقوا عيني في ذلك اليوم الذي أخذوني فيه هناك. كنّا في شاحنة عسكرية عدّة أيام في الطريق، ومن رائحة الطريق عرفتُ أنّنا قد عبرنا الصحراء منذ فترةً طويلة. بعد كل هذه السنين كانوا يأخذونني كي يبادلوني مع شخص مهمّ؛ وفي النهاية أطلقوا سراحي في ليلة مظلمة.

بعد إحدى وعشرين سنةً حين تخرج لا تجد شيئاً غير الرمال، فلا يمكنك أن تفكّر في أيّ شيء آخر غير الرمال. لقد جلبوني إلى هذا القصر وكنت لا أفهم أيَّ شيء ولم أكن أتمنّى فهمَه أيضاً. لقد حدث

كلُّ شيء في تلك الليلة، فحين وصلتُ هنا كنتُ في الظلمات، مع الليل وفي الليل. كان المكان كلُّه مظلماً إذ لم أكن أنتبه لأيّ شيء. لم أرَ الضياء منذ خروجي من السجن حتى فتحت عينيَّ في ذلك القصر؛ وفي الظلام كانت يدٌ تسلّمني إلى يدٍ أخرى. يدٍ أكثرَ صمتاً من الليل، وأكثرَ صمتاً من الجدران، وأكثرَ صمتاً من الأبواب الموصدة على سجين عجوز. أمسك رجلٌ بيدي ووضعني في سيّارة أخرى، لم يقل شيئاً ولم أسمع حتّى صوتَ تنفّسِه أيضاً. كنتُ حتّى ذلك الوقت أستمعُ إلى صرخة الرمال، لم أكن أعرف إلى أين يأخذونني ولم يكن ذلك مهمّاً لي أيضاً. إن فكّرت كثيراً في العالم، فإنّك تتغيّر بحيث لم تعد تخشى أيَّ شيء. كنتُ في الثانية والعشرين من عمري حين ألقوا القبض عليّ، وصرتُ في الثالثة والأربعين من عمري حين أُطلِق سراحي. جاؤوا في ليلةٍ حالكةٍ وعصبوا عينيّ وأخذوني. سألتُ الحارسَ: «أتأخذونني ليقتلوني؟» فأجابني: «كلا، نأخذك كي نحرّرك». لم أفهم ماذا كان يقصد بتحريري، فما من شيءٍ أكثر تفاهةً من أن يتحدّث معك أحدٌ عن الحرية بعد أن تقضي إحدى وعشرين سنة في السجن. لم تكن حرّيتي الكبرى الوحيدة العودة إلى الدنيا، بل أن يسمحوا بالحياة في الصحراء. كنت متأكداً بأنني لا أفقه شيئاً من تلك الدنيا، وكنتُ أخاف جداً من المدينة ومن الناس. بعد عدة سنوات من السجن لم يعد بإمكاني أن أميّز الناس عن الرمال؛ في ذلك الوقت لم أكن قد رأيت شخصاً غير الحرّاس، رجال يبدون أكثر صمتاً وغرابةً من الصحراء. فطوال السنوات تلك، نادراً ما تحدّثوا معي غير بضع كلمات. يبدو وكأنّهم قد ولدوا في الصحراء أيضاً، وعاشوا فيها، ولم يروا مكاناً آخرَ من العالم غير الصحراء. كان القصر كبيراً؛ اجتزنا

طرقاً صعبة حتّى وصلنا هناك. ومن هزّات السيارة عرفت أنّنا نسير في اتجاه منطقة جبلية. كنتُ أشعر بالخوف من رؤية الأوراق حين كنت أنظر صباحاً من زجاج السيارة إلى الخارج. كان صباحاً زاخراً بترنيمة النسيم، وكانت الريح تجلب آلاف الأوراق الخضراء وتأخذها معها. لا تسألوني ماذا كانت تلك الأوراق الخضراء تفعل في الهواء، ولكنني رأيت من بين خوفي وجوه عدّةِ طيور بين الأشجار. كائنات خضراء تلمع عيونُها مثل قطرات الندى. في الَصباح الأول إذ فتحت فيه عيني، لم أرَ شيئاً غير النافذة والخوف، ولم يكن هناك أحدٌ، ولم يُسمَع أيُّ صوتٍ ولا صرخة إنسان ما. كانت جميع النوافذ مغلقة، أصبحت أنا وحدي وقصر واسع؛ والذين غادروا قد وضعوا الأقفال على أبوابه من الخارج، ولا يوجد هنا أو هناك أيُّ علامة تدلُّ على وجود البشر. طالما لم أرَ ذلك اللون الأخضر المخيف، لم أكن أعرف أنّني قد تحرّرت... ربّاه، يا لَلاخضرار القاسي جداً. كانت أشعة الشمس المضيئة تتراقص على الأشجار، وكان ضياؤها يشبه ضياء الصحراء الواسع والشبيه بالمرآة. كان الصباح الأول بعد الحبس إذ فتحت فيه عينيَّ ولم أرَ الصحراء... الصحراء تلك الصديقة القديمة التي استقرّت في روحي. كنتُ أعرف أنّه قد أرسلني هنا، وكنتُ أرى في ذلك القصر علاماتٍ تذكّرني به... يعقوب الصنوبر.

شرعتُ في غرف القصر بالبحث، وشعرتُ أنّ جسمي لا يمكنه الاعتيادُ على ذلك الجوّ الجديد... كانت ليلةً غريبة، ليلةً لا يمكنني أن أنساها أبداً. كنتُ لا أزال في قبضة الرمال، وكان لا يزال صعباً عليّ أن أصدّق حريتي. لا أعلم متى أنزلوني من تلك الشاحنة، ولكنّني

شعرتُ أنّه الفجر... وأنا أميّز الفجرَ عن طريق الشمّ، فالأرضُ في كلّ مكانٍ لصباحِها عطرٌ خاصٌّ بها. بعد إحدى وعشرين سنة كنتُ قد دخلتُ تلك الأرض، ولكنّني كنتُ لا أزالُ أعيشُ في بحر الرمال ذاك؛ وشيئاً فشيئاً قد أصبح الوطن فكرةً خياليةً لي. مع أنّني كنتُ أشمُّ رائحةَ نسيم الصباح، وعطر الأشجار وجوّ الأودية الباردة في أطرافي، إلا أنّ جميع هذه الروائح كانت لا تزالُ ممتزجةً في إحساس عميق من سلطة الرمال اللا متناهية. عندما كنّا نسيرُ على الأرض كان لا يزالُ لدينا ذلك الخوف؛ الخوف من الارتعاش والعجز والغوص في الأعماق. لم أكن أرى أحداً، ولم أكن أشعرُ بوجود أحدٍ ما أيضاً. حين فتحتُ عينيَّ، وجدت نفسي في بيت واسع، وكان الوقت ليلاً، وثمّة ظلام، وكانت شمعة خافتة فقط تومضُ هناك. شمعةٌ في زاوية الظلام؛ كانت شمعةً جديدةً، وكان من الواضح أنّ أحدهم قد أشعلها قبل مجيئي، ثم رحل. صرختُ على اتساع ذلك القصر: «أين أنتَ يا مَن أشعلت الشمعة هذه؟» ولكنّني لم أسمع شيئاً غير انعكاس صوت عميق، صوت يتّجه شيئاً فشيئاً إلى الظلام، ويعود لي من تلك الجهة بصورة فجّةٍ وصامتة... صوتٍ فتح لي بوّابة عالم آخر؛ صوتٍ له ارتعاشٌ آخر. فباستثناء صوت الرمال، لم أرَ شخصاً آخرَ في تلك الليلة، وليس هناك أحدٌ في ذلك البيت؛ كان أحدهم قد أوصلني هنا ورحل، لقد سمعتُ صوتَ سيّارة تبتعدُ عنّي. كان قصرٌ بأشياءَ غريبةٍ ويبدو شبيهاً بمنتجع للملوك، ولكنّني لم أرَ فيه أيَّ أثر للبشر. كنتُ مرهقاً، وكنتُ أريدُ النومَ أو الموت. من النوافذ الكبيرة كنتُ أرى ظلَّ غابةٍ كثيفة. كانت النوافذُ تنظرُ إلى عالم لا متناهٍ، وبدت السماء فوقي كأنّها تريدُ أن تنهار. كان ثمة شيءٌ في سواد السماء يختلف كلّياً عن سواد الصحراء؛ فليالي

الصحراء دائماً ما تتلألأ بلونٍ فضّي. إن للسماء حركةٌ تشبه رقصةَ الرمال التي يبدو سوادُها كسوادِ فحم قد خُمِدَت نارُه. فحم تشعرُ أنّه يشتعلُ بنفخة واحدة؛ ولكن في ذلك الصباح كانت حركةُ الأوراق تخيفني. كان العالم، خلال فترة سجني، يتحرّك على نحوٍ مختلف في نظري؛ وفي تلك الليلة كنت أشعرُ أنّني قد طرتُ من عالمٍ دقيقٍ ومنظّمٍ ومأنوسٍ إلى عالم آخرَ، لأنّني لا أتصوّر أنّني كنتُ أرىَ حُلماً. وبدلاً عن قيامي بالبحثَ في القصر كنت أتمدّد في أول زاوية أجدها وأغرق في النوم. كان ثمّة شيءٌ يجعلني أخشى السرير، الأمر الذي لم يكن يتعلّق بسنوات كنت أنامُ فيها علي الأرضِ حيث لم يكن لديّ سريرٌ مناسب؛ بل كان الأمر يرتبط بشكٍّ قد تّولّد فيّ حول المكان. كانت لحظة من لحظات الحياة السوداء. إحدى وعشرون سنةً كنت أعلم أين أنا ومن أكون، وكنت أعلم لمَ أصبحتُ سجيناً في ذلك القصر، وكان ذلك المكان أكبر من خيالي ولم يكن جسمي قد اعتاد بعدُ على النقل من غرفة إلى غرفة أخرى. كنتُ أشعر أنّ أشياء ذلك القصر تجذب وَحدتي؛ كنت أنتمي إلى جغرافيا خاوية، جغرافيا خاليةً من أيّ تصاميم وتنتمي إلى عالم دونَ الزينات والزخارف. عالم لا يملكُ الإنسانُ فيه أيَّ شيءٍ غير ظلّه، وكان امتدادُ الإنسان فيه عالَمه فقط؛ في حين أنّ امتداد روحِه كان الرمال والسماء فقط. في تلك الفترة كنتُ أظنُّ أنّ الخَواء وعدم النضوج وعدم وجود الزينات أجمل حياة.

الرمال تجعلنا نعتادُ رؤية الإنسان في صورته الأصلية، كما هو؛ دونٍ أيّ نقص وإضافات مصطنعة. كنت أبدو غريباً لكلّ شيء... فكلُّ شيء كان يزرع خوفاً كبيراً بي. في تلك اللحظة كنتُ أبحث

عن حياةٍ خاوية خالية من أيّ ظلّ. كلا، لا تتصوّروا أنّني أختلقُ هذا الكلام. حين تركت سرياس الصباحي كان يبلغ عدة أيام من عمره؛ في ذلك الوقت لم أكن أعرف أنّ سرياس وسرياس وسرياس آخر سيبصرون النور. كلا، لا تظنّوا أنني لم أفكّر في سرياس الصباحي... لا تتصوّروا أنّني كنت أباً سيّئاً، وأنّني فكّرت في الرمال فقط. ولكن إن حدّقتَ إحدى وعشرون سنة في الرمال فقط -الرمال ولا شيء آخر- ستنهض يوماً من نومك وقد خلطت الأمور كلّها؛ تنهض من النوم وترى أنّ ما من صورة قد بقيت في ذهنك لم تكتسِ بصورة الرمال. آه، ما من شيء يبتلع ذكرياتنا كالرمال... كلَّ يوم تستَيقظُ وتشعر أنك قد نسيت جزءاً من ماضيك. كلا، لم أنسَ سرياس الصباحي قطُّ؛ لقد نسيت العالم كلّه ولكنّني لم أنسَ سرياس الصباحي قطّ. الشيء الوحيد الذي لم يتحوّل إلى الرمال كان هو، وكان الوحيد الذي يبدو أخضر دائماً. كنتُ أراه سنوات طويلة كلّ صباح، أنمّيه في ذهني كلّ يوم، وأخلق له آلاف الوجوه؛ وكنتُ أفكّر في جميع احتمالات وجوهه. في النهار كنتُ أنظرُ عبر النافذة إلى الصحراء وأفكّر فيه؛ وفي الأيام التالية التي وقعت فيها تلك الأحداث الغريبة، كنت أتصوّر أنّ كلَّ تلك المصائب قد بدأت من أوقات نهار الصحراء وغروبها الغريبة، إذ كنتُ أخلق فيها دائماً أكثر صور سرياس الصباحي لنفسي. حتّى استيقظتُ صباح ذات يوم وفقدته بين نقوش ذهني وصوره... وسنة تلو الأخرى صرتُ أفكّرُ فيه قليلاً لأنّني لم أكن أعرف بمَ أفكّر، فلم يكن لأفكاري أيّ قالب واتجاه. الشيء الوحيد الذي جعلني ألا أفكّرَ دون أيّ حزن بالإنسان الوحيد الذي تركته خلفي هو فكرة موتي أنا. في تلك الفترة الطويلة كنت متأكّداً أنّني قد متّ وأنّ العالم قد

نسيني. إنّ فكرة أنّك قد متّ وبات العالم يعيش من دونك وتسير حياتهم بشكل طبيعي تعطي ارتياحاً كبيراً. حين لا يكون أحدهم في انتظارك سيكون الأمر بمثابة جنّة كبيرة لك. بعد السنة السادسة أصبحتُ متأكّداً من أنّ سرياس الصباحي قد اعتاد على موتي وعدم وجودي. إنّ الموت مثل السجن، نوع من الاعتياد، ومثل أيّ شيء آخر يحتل مساحة في الإنسان لكي يتمَّ الإحساس بفقدانه على الأقل. مثل أيّ شيء آخر، مثل مزهرية على طاولةٍ ما، أو صوت مذياع يخرج من نافذة، أن يكون قد احتلّ مكاناً ليضيع لاحقاً. ولكن إذا لم يكن في البداية ثمّة شيءٌ، مثل صوت أو لون فإنّك لن تشعر بعدم وجوده. في تلك الفترة كنتُ أشعرُ أنّ حياتي في تلك الصحراء قد وصلت إلى آخر مراحلها دون الحاجة إلى وجود شخص آخر... أنا وتلك الأشياء حولي؛ كنت أعيش وذلك العدم اللا متناهي للعالم حولي في مرحلة من الكمال. كنتُ أشعرُ أنّ العالم حولي أيضاً يغرق في كماله. لم أكن قد احتللتُ مكاناً مهمّاً من العالم، والعالم أيضاً مستمراً بأبهى صوره من دوني؛ والأشياء تحتفظ بحياتها ومعناها من دوني أيضاً. لم أكن أشعرُ أنّ ابتعادي قد خدَش حياة شخص آخر. بعد كل سنين حبسي كنتُ متأكّداً أنّ سرياس الصباحي يعيش حياته الخاصّة، وأيضًا متأكّداً أنّ سرياس الصباحي يحسبُ مثل جميع أولئك الآخرين أنّني قد متّ... وحتّى السنة العاشرة من سجني كانت لديّ أمنيةٌ واحدةٌ وهي أن أرى سرياس الصبّاحي للحظة واحدة ثم أموت. بيد أني حين استيقظتُ في صباح يوم ما تخلّيت عن تلك الأمنية أيضاً. بعد عشر سنوات من الفراق، أي لقاء سيكون لقاءَ آخر. أنا وسرياس كنّا أباً وابناً وهميّين. في صباح أحد الأيام حين كنت أحدّق في الرمال، وأرى

شيخوخة الصحراء، أدركتُ أنّني لن أصبح أباً أبداً... بانغماسِك في الرمال تصبح كأنّه لا يمكنك أن تكون أباً أبداً. أمسيت أظنُّ أنّني مثل تلّ من الرمال، مثل شخص لو مسكه أيّ شيء فإنه سيتحوّل إلى غبار. إنّ الأبوّة تعني حضناً واسعاً ولكنّني كنتُ حفنة تراب أسود... كنتُ عيناً كلّ أفقها صحراء. أصبحت أشعرُ أنّ اقترابي من الآخرين والحكم عليهم هما اقتراب وحكم شخص يرى الحياة كالصحراء دائماً.

حين عدت تلك الليلة لم أكن أعرف أين سرياس الصبّاحي، ولم أكن أعرف أنّني سأضيع معه في صحراء أخرى لم تكن صحرائي ولا صحراءه هو أيضاً.

2

قبل سنوات وفي غروب يوم ما، ذهب محمّد زجاجي القلب، الباحث عن الأسرار، للقاء بائعً الأنتيكات. لم يكن لقاءً حدث مصادفةً كأيّ لقاءٍ اعتياديّ آخرَ، بل إنه كان مثلَ أيّ لقاءِ مهمّ. لقاءٍ ينبغي أن يكشفَ له سرَّ طلسم ما. كان غروباً ماطراً ومفعماً بالتخيّلات العجيبة والغريبة والغائمة؛ ودون أن يفكّر بحاجة الغيوم، هبط بهدوءٍ وهو يترنَّمُ بأغنية ما، من الحارات الشمالية باتجاه الجنوب.

باستثناء المفاتيح والميداليات التي كان يعبث بها، كانت ثمّة ثمرةُ رمّانٍ من زجاج في جيبه أيضاً. كان يرمي المفاتيحَ للهواء ويلتقطُها... ظل يشعر أنها تفتح بوّابة عالم سحري وبلاد خيالية لشابٍّ يرى نفسَه في ذلك الغروب، أسعد شخص على وجه الأرض.

كان الجميعُ يعرفه؛ وكان الجميعُ قد سمعوا بقصّة ذلك المراهق ذي القلب الزجاجي الذي كان قد رأى موته في المنام، الموت الذي كان يرويه كلّ يوم ويتحدّث عنه... حُلم انهيار قلبه وتهشّمه، مثل أيّ قطعة من تلك الأنتيكات الموجودة في الطاولة ذات الواجهة الزجاجية، أو على الرفوف الطويلة والعالية للبيت حيث كان قد رتّبها هناك. عند الغروب حين كان المطر يسقط بهدوء، نظر محمّد زجاجي القلب إلى السماء وفكّر أنّه لم يرَ طوال عمره سُحب مخيفة مثل هذه. كان يلهو باستمرار بمفاتيح بوّاباته الخيالية دون أن يشعر بالخوف، ويترنّم بأغنيةٍ ما. بالنسبة لمحمّد زجاجي القلب الذي كان يتصوّر أنّ أحدَ هذه المفاتيح يفتح باباً له في أثناء هطول المطر، كان غروباً رائعاً.

لم أرَ محمّد زجاجي القلب قطّ، بيد أني أستطيع أن أتخيّله يهبط من الأزقّة صوب الجنوب وهو يعبث بمفاتيحه وينقلها من هذه اليد إلى تلك، ويرميها إلى الأعلى من بين رجليه ويلتقطها في الهواء. يمكنني أن أرى الشابّ السعيد الذي ينظر إلى السماء ويضحك بدلاً عن الشعور بالخوف؛ الشابَّ الذي قد صنع لنفسه، منذ فترة وجيزة، حياةً زجاجية، الحياة التي كان هو فقط من يعرف كم هي رقيقة سريعة التهشّم. بيدَ أنّه كان يسير بجرأة ويترنّم بأغنيةٍ ما. كانت غرفته حافلة بالمزهريّات الغريبة، وأباريق الشاي الخزفية ذات النقوش، وصور الطيور، والصحون الغريبة المنقوش عليها صور التنانين والفهود، والأقداح التي رُسم عليها طيورٌ تنفثُ النار. كانت مكتبته وطاولته وخزّان ملابسه من زجاج، وقد وضع على الطاولة كرة زجاجية رُسم عليها خريطةُ العالم كلّه؛ كأنّها تذكّرنا بالحياة الزجاجية التي كنّا -أنا وأنت- نعيش فيها. كأنّ لديه في ذاته استعداداً مبهماً لتهشّمه. حين خرج محمّد زجاجي القلب في ذلك الغروب، كان مؤمناً بفرص حياته بشدة. وعندما بدأ الغيث كان كعادته يعبث بمفاتيحه، ويستمرّ بلهوه معها حين بدأ المطر بالهطول. كان الناس يركضون مسرعين وهم يحملون المظلّات، ولكنّه لم ينظر إلى السماء ولم يهتمّ للمطر. شيئاً فشيئاً اشتدَّ المطر وجرى سيل كبير، ورويداً رويداً راحت الأشياء تطوف على الماء، ولم يبق أحدٌ في الشوارع والأرصفة. اتجه الناس جميعهم إلى المباني المرتفعة، وصعدوا المآذن وأسطح الفنادق، والقبب الفيروزية، وأشجار الأكاليبتوس والصنوبر والتوت الشامي. صعد الجميع باستثناء محمّد زجاجي القلب الذي كان الماء يجرفه بتهوّر، وينقله السيل من هذه الحارة إلى تلك. ودون أن يغرق كان

يبدو وكأنّه قد جلس على متن زورق غير مرئي، وبقي على الماء؛ جلس متربّعاً على الفيضان وراح ينظر مبتسماً إلى العالم. كان السيل يجرف السيّاراتِ، والفضلاتِ، والكراسيَّ، والغرقى من حول محمّد زجاجي القلب ويخلطهم. امتلأ الفيضان بأشياء المدينة القديمة مثل إطارات السيارات، كومة كتب لم تُقرأ قطّ، أواني وأغطية موائد ملوّنة وجاهزة من أثاث بيت، غريقات ذوات عباءات سوداء، ورجال موتى كانوا لا يزالون يمسكون بنقودهم لكيلا تتبلّل. كان الماء يأخذ محمّد زجاجي القلب وتلك الأشياء ولكنّه كان كمن جلس على سجّادة ما، قد تربّع على الماء وينظر ضاحكاً إلى الذين يشاهدونه من الأسطح وشرفات الأسواق ذات الطابقين، ويرفع يده ملوّحاً لهم، ويرسل إليهم قبلاتِه. كانت الأمواج تحملُه بشدّة بينا هو ينهض ويقف على الماء كأنّه قد اشترك في مسرحية خاصّة. الماء يأخذه وهو يضحك ويلوّح بيده واقفاً للذين يلوّحون له بأيديهم في أطراف الشوارع. الماء يأخذه وهو يضحك، والمطر يهطِلُ وهو يعبث بمفاتيحه ويقف على الأمواج. يرميها إلى الهواء ويلتقطها، ويهبطُ الأزقّةَ كلَّها. يجرفه الماء في كل الشوارع؛ والجميع يرون تلك المعجزة. يرون محمّد زجاجي القلب الذي يلهو بين الجثث. يقف على السيّارات التي يجرفها الماء ومن هناك يقفز إلى الماء، ويمدّ يده ويلتقط التفاح والبرتقال عن سطح الماء ويلهو بها كلاعبي السيرك. يلتقط علب المجوهرات التي جرفها السيل من محلات الصاغة ويرمي الذهب الموجود فيها باتجاه الناس. منظر محمّد زجاجي القلب في تلك الحادثة المحزنة باعث للضحك. يهطل المطرُ ويسير هو في الشوارع كأنّ لديه مجدافاً وهمياً أو زورقاً يحركه الرب. جاء من الشوارع العريضة واجتاز الأسواق

التي قد جرفها الماء، وعبر من بين سوق الجزارين وعانق الجثامين الطافية على الماء حيناً، ورقص مع الحملان المذبوحة والمسلوخة. اجتاز سوق الأحذية، وفي اجتيازه سوق الأنتيكات التقط مزهريةً من الفضّة عن سطح الماء، واحتضنها وهو جالس عليه. سلّم نفسَه للأمواج والماء يقوده باتجاه الأزقّة المظلمة والطرق المغلقة، وإلى الأزقة الجنوبية للمدنية، الأزقّة المغلقة والمنسية التي لم يُسمع منها أيّ صوت ولا أيّ همس حتى... يجرفه الماء شيئاً فشيئاً من السوق والأزقّة والشوارع المكتظّة إلى الأماكن الهادئة والمغلقة. انتبه محمّد زجاجي القلب إلى أنّ أمواج الماء الهادئة تجرفه شيئاً فشيئاً إلى تلك الأماكن، إلى الشوارع الضيّقة والملتوية التي يصل الماء فيها إلى الطبقات العليا. بعد نزهةٍ طويلةٍ في عدّةِ أزقّةٍ ملتويةٍ وصل إلى أزقّة خربة غير واضحة البداية والنهاية. بدأ الماء، بحلول الظلام وهدوء المطر، ينخفض في نهاية شارع ضيق مغلق بلا بداية، فترك محمّد زجاجي القلب أمام بيت ذي طابقين. يريد أن يعود مع تيّار الماء ولكنّه لم يستطع. يريد أن ينهض ويقف على الأمواج، ومن زقاق آخر يسلّم نفسه لتيار الفيضان لكنّه لم يفلح في ذلك. كانت ثمّة قوةٌ مجهولةٌ في الأمواج تقودُه باتجاه ذلك الباب. توقّف هناك، وجلس على الماء وخوف شديد يعتريه حتّى بدأ الليل يحلُّ شيئاً فشيئاً، وتفرّقت الغيوم تدريجياً، فخرج القمر بهدوء وخجل. خرجت صرخة مبهمة من أعماق محمّد زجاجي القلب وقال: «هذا الغروب هو غروب الحبّ». مدّ يده وأخرج مفاتيحه؛ ومن ضمن مفاتيحه، أخرج مفاتيح الحبّ الفاشل... فتح ذلك الباب بخوف، وبانفتاحه جرفه الماء إلى فناء كبير؛ فناءِ بيتٍ قديم، فسيحٍ وعريض. دار حول

البيت كأنّه يطوف حول معبد قديم، وعاد إلى مكانه. ذهب وجاء، نظر إلى النوافذ واستمع إلى الهدوء الشديد للجدران. عاد ودار مجدّداً، فرأى فتاتين من إحدى تلك النوافذ؛ فتاتين ترتديان ملابس بيضاء وقد سلّمتا شعرهما للماء وراحتا تنظران إليه من فوق.

كانت إحداهما لاولاو البيضاء والأخرى أختها الكبرى شادريا البيضاء. أخذه تيار الماء إلى نافذتيهما وقال: «طاب مساؤكما؛ أنا محمّد زجاجي القلب، وقد جلبني السيل هنا. أيمكن أن تفتحا نافذتكما لي؟» فتحت لاولاو البيضاء النافذة وقالت لمحمّد زجاجي القلب: «تفضّل». لم تكن تعرف أنّها بفتحها النافذة قد فتحت باب طوفان كبير على حياتها. دخل محمّد زجاجي القلب ولم يكن معه غير مزهرية من فضّة ورمّانة زجاجية ومجموعة مفاتيح. كان محمّد زجاجي القلب متأكّداً منذ البداية أنّه سيواجه حبّاً صعباً وأفلاطونيّاً. نظر إليهما وشعرهما ينساب خلفهما ويلتفّ على الأثاث ويتموّج ثم يستقر. لم يكن قد رأى منظراً كهذا في السابق. لقد كان ابن أحد رجال مدينة «سليمان الكبير» المعروفين، الرجل الذي كان في الخفاء خازن الأسرار المخيفة لوجهاء تلك المدينة بعد نجاح الثورة.

في السنوات الستّ الماضية لم يكن قد رأى مكاناً جميلاً هكذا؛ لقد كان صانع مفاتيح جميع الأبواب التي لا تفتح. لقد فتحت مجموعة مفاتيحه كلّ الأبواب... وكان الفنّان الأول لفكّ الطلاسم. منذ ذلك الغروب بدأت قصّة حبّ فاشلة؛ فتحت الأختان نافذة الحياة على محمّد زجاجي القلب بمودة وبشاشة، لا سيّما عندما رأتا أنّه شابٌّ وسيمٌ ذو قلب نقيّ ومرح. إلا أنّ لاولاو البيضاء قالت له في الغروب الأول ذاك: «تذكّر

أنّك لم تدخل من الباب». في ذلك الغروب خدمت الشقيقتان محمّد زجاجي القلب مشفقتين عليه؛ جفّفتا شعره وملابسه، وقدّمتا له الشاي وقالتا له: «انظر إلينا بعين أخ وعدَّنا أختَيك». فردّ محمود زجاجي القلب مبتسماً ولكن بغير رضا: «هذا ليس صحيحاً، فإنكما لستما شقيقتَي. لقد جئت في هذا الطوفان لأُغرمَ بإحداكما. لقد جلبني المطرُ هنا كي أقعَ في غرام لاولاو». كان ثمّة طنينٌ غريبٌ في صوت محمّد زجاجي القلب؛ هدوء ممزوج برقصة الحزن وصرخة جميلة. كانت عيناه مفعمتين بالضحك والبكاء، وبالقدر نفسه بالحياء وعدم الحياء؛ كانتا ممتلئتين بصوت الريح وجرس زجاجي. كانت شادريا البيضاء تعرف منذ تلك اللحظة أنّه عليها أن تؤدّيَ دوراً غريباً؛ نظرت إلى عيني الشابّ وأدركت أنّ السيل قد جلبه إلى هذا البيت من أجل أمر غريب. في ذلك الغروب قالت شادريا البيضاء: «نحن لا نعرفك، يا محمّد زجاجي القلب. لقد جلبك الفيضان أو الإعصار... لقد رفعك المطر، أو الدوّامة من فَعَلَت ذلك؛ وعلينا أن نعرفَك». فأجابها محمّد: «الأهم من كلّ شيء هو أنّني أملك قلباً من زجاج، زجاج رقيقٍ جدّاً، وأصغر تحطيم فؤاد سيقتلني. فأنا من زجاج وإذا أصابني الكسر فإنّني سأتهشّم وستبقى جثتي فقط، وإن بقيت جثتني فإنّني سأكون مجرد جثّة قذرة وميّتاً. وإذا متّ فإنّني سأتحطّم بحيث لن يكون بإمكان أحد أن يفسّر كيف تحطّمت حياتي؛ ولهذا السبب لا تحطّموني!». كان كلامُه مزيجاً من التهديد والرجاء. مرّ ذلك الغروب بهدوء، وطلبت منه الشقيقتان أن يهبهما تلك الرمّانة الزجاجية. فقال خجلاً: «هذه الرمّانة ليست لي، بل إنّها رمّانة الأسرار». وبدلاً عن تلك الرمانة أبقى المزهرية الفضّية عندهما للذكرى. لاحقاً وصلت تلك الرمّانة إلى الشقيقتين بنحوٍ ما، وفي فترةٍ لاحقةٍ وصلت

لي، وسرت بها إلى البحر. في تلك الليلة استمعت الأختان إلى كلام محمّد زجاجي القلب حتى وقتٍ متأخّر. خرج بعدها من بيت تينك الشقيقتين، ولكنّه بات أكثر اضطراباً وضياعاً من أيّ لحظة في عمره، وهذه هي تلك اللحظة التي نسي فيها للأبد أن عليه أن يذهب عند السيد مُجده شمس، بائع الأنتيكات الذي كان منذ البداية يعرف جزءاً من أسرار هذه القصة. أسرار كان محمّد زجاجي القلب مولعاً بها في وقتٍ ما. في ذلك الغروب غيّرت يدٌ مجهولة مسار تنزّه زجاجي القلب؛ الرحلة التي كان عليّ أن أنهيَها بعد سنوات. في ذلك الغروب قوة غير مرئية قالت له إنّ هذا ليس طريقك. غيّر الخوف والاضطراب مساره وقاداه إلى مكانٍ آخر. في تلك الليلة تذوق الهواء البارد بكثرة، وتنفّس هواء ما بعد الطوفان بحيث كان يعرف أنّ عدم غرقه في ذلك الفيضان لم يكن خلاصه الغريب والكبير من قبضة الموت، بل إنّه تأجيل قصير المدى ووهمي يتعلّق بأمنياته حول جمالية الموت؛ الموت الذي سوف يثير الضجّة بين أصدقائه لاحقاً. الموت الذي ينظر إليه الآخرون كلعنة إلهية، مثل عقاب شخص يبحث عن فكّ الطلاسم.

في تلك الليلة حين خرج من بيت الشقيقتين البيضاوين لم يكن يعرف إلى أين يتّجه؛ ولأول مرّة كان يشعر بألم شديد في قلبه الزجاجي. كانت آثار السيل ترى في كلّ مكان، وكأنّ الطوفان قد دمّر نصف المدينة. سار عائداً مع مئات الأشخاص الآخرين إلى شمال المدينة. كانت الأمواج لا تزال تتلاطمُ على الشوارع أو على مياه المجاري، والمدينة قد اتخذت وجهاً صامتاً ومخيفاً. أمسى الناس يسيرون في شوارع المدينة وهم يحملون المصابيح اليدوية.

كان المطر قد بعثر نصف أسرار المدينة على الطرقات بوضوح؛ وبعض الأزقّة قد أغلقت بسبب تراكم الأشياء. كانت ليلة تشبه ليلة الأرواح، وثمّة ريح باردة تعصف. ظل يسير عائداً بين مئات الأشخاص المجهولين الآخرين إلى بيته الزجاجي، وكان يشعر بالبرودة والحذر بشكل غير طبيعي أكثر من أيّ وقتٍ آخرَ. كان يسير ويكلّم نفسه: «هذا بسبب الحبّ؛ أنا متأكّدٌ أنّه بسبب الحبّ!». حين وصل إلى غرفته كان ثمّة إعصارٌ شديدٌ في قلبه؛ سيل غير مرئي، أكثر غرابة وشدّة من ذلك السيل الكبير الذي جرفه معه، بيد أنه كان سيلاً زاخراً بالأحلام والنقوش الغريبة. في تلك الليلة رأى محمّد زجاجي القلب حلماً غيّر ذلك الغروب رأساً على عقب. في حلمه كان سيل أبيض يجرفه؛ سيل بلون الحليب، ومليء بالزوارق البيضاء، والكائنات البيضاء. كان الجميع باستثنائه يعبرون من بين السيل؛ ورأى أناساً قد جلسوا متربّعين على الماء ويسيرون. ولكنّه كان نصف ميت والسيل يدحرجه ويجرفه. في منامه وصل أمام بوابة قصر أبيض قد أحاطه بحر أبيض، وهناك أخرج مفاتيحه وأراد أن يفتح الباب. جرب المفاتيح كلّها واحداً تلو الآخر، بيد أن الباب لم يفتح... كانت يداه ترتجفان بهدوء، غيَّر المفاتيح بشكل متوالٍ ولكنّه لم يستطع فتح ذلك الباب. وشيئاً فشيئاً سحبه الماء إلى عمقه الأبيض فبدأ بالصراخ والاستنجاد. حين استيقظ من نومه رأى للحظة أنّ العالم كلَّه بات أبيض اللون كضبابٍ أبيض. شعر بألم شديد في قلبه؛ وبدأ بالبكاء مع إحساسه بالألم. صارَ ذلك الحُلم بداية ظهور الشرخ الأول في قلب زجاجي لشابٍّ تتشكّل أحداث قصتنا من الأطلال المتبقية لعشقه.

3

جاء يعقوب الصنوبر وقبّلني؛ بدا وكأنّه يتحدّث من أعماق مخاوفي... فبدأ بعبارات مدهشة وقال في النهاية أنت هنا معنا، وقد أصبحت أحدَنا... وإن الأرض فقيرةٌ وخاليةٌ في الصحراء، لهذا السبب لدى الإنسان الكثيرُ من الفرص ليفكّر في العالم، ولديه الكثيرُ من الوقت ليفكّر في السماء والنجوم والشمس والله؛ وليحدّقَ في الرمال للأبد. ولكن هنا، في هذه الغابة الصاخبة، تُعدّ الأرض غنية حيث كلّ شجرة منها معجزة بذاتها، وكلّ طير يستحق التفكير والتأمّل. يحتاج كلّ امرئ إلى عُمر ليفكّر ويتخيّل؛ تأسرنا الأرض... فنصبح عبيداً لها... ونكون عبيداً للأشياء المؤقّتة الصغيرة. هنا يغرق المرء في التفاصيل، وينسى المعانيَ الكبيرة. أنت السعادة التي جاءت من بلاد أخرى، وإنّ أحلامَك مجرد معانٍ كبيرة مثل العالم والحياة. جاء يعقوب وقت الظهر ودخل بمفرده، وإن لم يقل اسمُه فربّما لم أكن لأعرفه. لا يزال ثمّة طنين غريب في صوته؛ لقد شاخ قليلاً ولكن بقي لديه مسحةٌ من الهيبة والكبرياء. كانت ثمّة لا مبالاة وجرأة تبدوان ظاهرتين من تصرّفه؛ كنت أتوقّع أن يحتضن بعضنا الآخر في اللحظة التالية وأن نبكيَ على كتفي أحدنا الآخر، ولكنّه لم يحتضنني بحرارة، ولم أفعل أنا ذلك أيضاً. أمسك بيدي وأخذني إلى غرفة أكبر لم أكن قد فتحت بابها حتى تلك اللحظة، غرفة مرتبة وملأى بالأشياء الثمينة والغريبة التي لم أرَ مثلها فيما مضى. قال لي: «لا تستغرب... لقد تغيّر كلّ شيء، والآن نحن من يحكم». لمفردة الحكم في صوته طنينٌ ساحرٌ. كان مطلعاً على الأخبار، وأنا لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك العالم الجديد، بيد أنه الوحيد الذي يعرف

أنّني حيّ وسجين؛ ويعلم بكلّ شيء عن مكان حبسي وأحوالي. بهدوء قال شخص يتحدّث بحزنٍ عميق: «لقد فكّرتُ فيك كثيراً، كثيراً... والعثور عليك ليس سهلاً، وعليّ أن أصرف الكثير لإيصال تلك الرسائل القصيرة إليك... مبالغ كبيرة... ولكن عليك أن تعرف أيضاً أنني أعلم بأنك حيٌّ... ولم أكن قد نسيتك... وعليّ أن أريك شيئاً من إخلاصي». لم يعرف يعقوب الصنوبر أنه بعد إحدى وعشرين سنة من الحبس لم يعد هناك أيّ معنى للإخلاص وعدم الوفاء. أخذ نَفَساً عميقاً، وكان الشهيق الأكثر عمقاً سمعته حتى تلك اللحظة. قال: «أعرف أنك لا تريد أن تفكّر في تلك الليلة، وأنا أيضاً لا أريد ذلك... وما من أحد غيرنا أنا وأنت يعرف بتلك الليلة... ما من أحد. لقد احتفظت بسرّ تلك الليلة مدّة إحدى وعشرين سنة... مثلها... مثلها تماماً... »، فضحكت أول مرّة بعد فترة طويلة، وقلت: «يا صديقي يعقوب، ليس بيني وبينك أيّ سرٍّ، ما من سرٍّ. تحتَّمَ على كلّ شيء أن يبقى كما هو... كنتَ القائد... كنت أهمّ منّي». ضحك بصعوبة شديدة كمن شعر بألم شديد، وقال: «لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ لم يقل أحدٌ لي يا صديقي يعقوب، وقتٌ طويل جدّاً... كم سنة؟» وضعت يدي على يده وأجبت: «إحدى وعشرون سنة... إحدى وعشرون». تنهّد وقال: «أجل، أجل، إحدى وعشرون سنة... إحدى وعشرون».

أراد أن يتكلّم عن تلك الليلة التي أُسرت فيها، عندما حوصرنا معاً في بيت صغير؛ وعلينا إمّا أن نُسجن أو يقاوم أحدنا أمامهم، ليكسر للآخر حلقة المحاصرة ويهرب. في تلك الليلة وضعت يدي على كتفه وقبّلته قائلاً: «سوف أبقى، وإلى أن تبتعد، فإنّني لن أدعَهم وشأنهم... فإننا لن

نلتقيَ بعد ذلك. اهتمّ بسرياس الصبّاحي». ظلت جملتي الأخيرة ترنّ في أذني سنوات طويلة. بإمكاني أن أحرّر نفسي ففرصُ نجاتي أكثر منه، ولكنه القائد وأنا أحد نوّابه المقرّبين جدّاً. ففي النهاية عليّ أن أضحي بكلّ شيء من أجله ليستمرَّ بحياته. لم يكن قد جاء ليحتضنني، بل أراد أن يقول لي إنّه عليّ البقاء في هذا القصر. قال: «لا أحد يبقى حيّاً في الخارج، فثمّة مرضٌ لا اسم له، ولا يمكن وصفه قد انتشر... أفترض أنّه الطاعون، سمِّه ما شئت. ولكن ابقَ هنا... ابقَ هنا حتّى المقدور، فهنا أكثر أماناً من أيّ مكان آخر». نظر لي برهةً ثم استرسل مستغرباً: «سامحني... إذ قلت إنّك منّا، فإنّك لست منّا... كلا، إنك لستَ منّا، فأنتَ تفوحُ بالبراءة، فإن خرجت ودخلت عالمنا فوحدَه الله يعلم ما سيحلّ بك وما سيحدث. إنك أنت فقط... لستَ منّا، ولستَ من هؤلاء. إنك أنت فقط، مظفّر الصبّاحي فقط. وبعد ذلك أنتّ ميّت... وما من أحد غيري يعلمُ أنّك حيٌّ، ومنذ فترة طويلة جدّاً اختفى اسمك من كل مكان، فأنا قد أخرجت اسمك من كلّ شيء شيئاً فشيئاً؛ ومحوت اسمك من كلّ الديون. من كل الديون... ولم يعد هناك أيّ سجلّ يحوي فيه اسمُك، وتبخر اسمُك من أيّ وثيقة لها تاريخ في هذه البلاد. لقد نظّفتك من كلّ العيوب... لم يعد لديك وجود يا مظفّر الصبّاحي، إنّ الخارج ليس مناسباً لك للعيش. لقد جعلتُ كلّ القصص والحكايات تروى بحيث لا تكون فيها. لن يصدّقك أحد... وما من شخص يعلم أنّك كنت زميلاً لي ذات ليلة وضحيت بحياتك من أجلي... ومن يعرف بهذه الحكاية إمّا أنّه قد مات أو هاجر أو نسي كلّ ذلك. لم يعد هناك أحد يعلم». يتكلّم بهدوء، بيد أني لم أعرف ما يقوله بالضبط؛ لديه تلك الإمكانية ليلفَّ ذنوبه بغلاف من السماح والعظمة. ومثل كلّ مرة يظهر

فيها من أيّ مكان، ثمّةَ صمتٌ عميقٌ معه، وهدوءٌ وحزنٌ غريبٌ. دائماً ما يجب أن تفكّر فيه بعد رحيله، كان يجعل كلَّ شيء يغرق في التفكير؛ حتّى الأزهار، والطيور، والأشجار تغرق في التفكير بعد مروره. الهدوء والصمت والعمق المعتم في صوته يخلق نوعاً من الإبهام، وكأنّه يضيعك في حالة سُكر في منتصف ليلة مظلمة في مسارات البساتين الملتوية. وعندما يتحدّث، أشعر دائماً بأنني قد تهت وسط مجموعة من البساتين والنافورات وأحواض ممتلئة بماء الورد. ثمّةَ انتعاشٌ غريبٌ يتموّج في كلامه، فتشعر وكأنك قد وقفت بعيداً من شلالٍ ما وتداعبك الريح برذاذ مائِه. تشعر وكأنك قد رقدت تحت شجرة ما ويوقظك النسيمُ بقُبلةٍ. ولكن هناك جانباً مظلماً من كلامه أيضاً، حيث يجعلك تضيع في متاهاته. دائماً ما يترك أثراً عميقاً وثقيلاً جداً في كلّ شيء؛ شيءٍ يخرج بهدوء من ذاته ويستقرّ في وجودك؛ شيء يبدو لطيفاً وخفيفاً في البداية، مثل قفزة عندليب من هذا الغصن إلى ذاك، ومن هذا البستان إلى ذلك البستان، مثل انفصال ورقة من الأغصان العالية. ولكن بعد فترة، يُشعرك بالألم كأثر الخنجر. ألمٌ غيرُ مرئيٍّ، ألمُ عدم فهم بعض الناس بعضاً، ألمُ التعقيد والامتزاج والترديد. كنت أشعرُ بأنه أينما حلّ، لن يتمكّن أيّ حيٍّ آخر أن ينامَ. وحين ركّزت جيداً، انتبهتُ إلى أنّه بعد رحيله لم يواتِ النوم الطيور والأشجار والأزهار عدّة ليالٍ.

منذ سنواتٍ قد جعلني أتوه في ذاتي... وحين وجدته ذلك الصباح كان، كما عهدتُه، أكثرَ صلابة وقساوة وجرأة من الماضي. لم أعرف ماذا يريد من شخص مهزوم لم يتّضح مصيرُه مثلي، ولمَ قد حبسني في هذا القصر. فسألته: «يا صديقي يعقوب... أنا لا أنفع لأيّ عمل... إنّني

أبحث عن نسيان لا متناهٍ؛ وكنت أزيل مدة حبسي ذكرياتي ليلَ نهارَ، وأنا حبيس الرمال. أزلت قطع وجودي واحدة تلو الأخرى مدّة إحدى وعشرين سنة، وكذلك ليالي والرياح والصحراء والشمس... وذكرياتي وحياتي وصور ماضينا القصير... وأنا أكثر ضعفاً من استخدام حريتي؛ فلا تخشاني. إنّ الصحراء تعلّمك ألّا تطلبَ شيئاً، ولا أيّ شيء. بتُّ منذ فترة طويلة أملكُ روحاً زاهدةً... زاهدةً تروي رؤية الرمال ظمأها».

عاش قائدًا طوال حياته، وظل يحتفظ بكامل وقاره رغم نسيانه لبعض الأشياء. وضع يده على جبينه وقال: «دائماً ما أزهد... دائماً... وفيما مضى كنت أراك درويشاً». تلك حقيقة سامية؛ الحقيقة الأكثر مرارة وصعوبة للحظات حياتي تلك. كنت حياً بالصحراء، ومقتنعاً بها، ولكنني الآن بعيد عنها ولم أعرف ماذا أفعل بهذه الحرية المفاجئة التي وهبوني إياها دون أن يسألوني قطّ. ولمّا كان يعقوب الصنوبر يعلم ما يجري في صميمي، فقال بتأنٍّ عميقٍ وغريب: «إنّ الحرية تقتلنا... وإن لم نكن يقظين فإنها ستدمّرنا». خَطر لي لحظة أنه يريد أن يحفظ حريتي. فكرتُ أنه لا يريد أن يأخذ حريتي معه ويضيعني. لم يقل شيئاً بنفسه، بيدَ أنه يتأمل بين كلامه أحياناً، ويسحب نفساً وينظر من عمق عديم النهاية ويقول لا أعرف... لا أعرف أين ينبغي أن يذهب الزاهدون. كان جلياً بالنسبة لنا نحن الاثنين أننا نتوه. كان فكره عالقاً بي وفي الماضي؛ وقد فكّر فيّ وفي الأشياء الأخرى. كنت أشعر أنه هو أيضاً قد تاه في بساتينه الباردة العجيبة تلك؛ وكنت أقضي حياتي في وهمها وكأن الماضي قد تركني وشأني... فقلت له: «أشعر بالسعادة؛ فما من أحد يعلم أنني حي. ولا أتوقّع أيّ شيء

قط، وما من أحد مدين لي... كلا، يا يعقوب الصنوبر؛ فما من أحد مدين لي. ولكن، قل لي لمَ جئتَ بي إلى هذا البيت، ولمَ لا ألتقي أيَّ شخص آخر؟ ومن جاء بي هنا؟». وبعد مكوث طويل، أجاب متأملاً: «لمَ قد جررتك إلى هذا النزل البعيد النائي في أعماق الغابة؟ إنّ الإجابة عن هذا السؤال صعبة جدّاً». نظرت إلى يديه وأدركت أنه يقول الحقيقة، ومنذ البداية كان هكذا. حين يتكلم لا أنظر إلى عينيه وفمه، بل أنظر إلى يديه أو أتطلع إلى ما حوله. فلديه قدرةٌ عجيبةٌ في تحريك عينيه وفمه، مما جعل الآخرين ينتبهون إلى وجهه؛ لأنهم لم يعرفوا هل يقول الحقيقة أم يكذب. كنت أنا الوحيد الذي يعرف أنه ينبغي النظر إلى يديه عندما يتحدث. في ذلك اليوم حين تطلّعت إلى يديه وجدتهما صادقتين، ولم يستطع أن يشرح لي ما أفعله في ذلك النُّزل، ولمَ يجب أن أكون هناك. كان يقول باستمرار: «إنه الطاعون، الطاعون أو أي وباء قاتل آخر بحيث لا يمكنك أن تقاومه». في تلك الغرفة كنت أنظر إلى مجيئه وذهابه، وأعرف أنه سعيد لحريتي ولم يخشها أيضاً. تتعلق سعادته بتلك الذكريات القديمة التي لم يرد أن ينساها، وأن عدم خشيته يعود إلى اضطرابه وشيخوخته من بين جميع آماله وأمنياته تلك. بعضنا يشبه الآخر إلى حد ما، إذ طوى طريق أحلامِه كلّها حتى النهاية؛ الأحلامِ القديمة والغريبة التي تعود إلى فترة شبابنا... ومن جهة أخرى، فقد طُهّرت تلك الدنيا من وجودي نهائياً. سرنا في مسارَين مختلفَين، فأنا في صحراء شاسعة وهو منشغلٌ بحياته الصاخبة والمرفّهة. ولكن من ناحية أخرى نتقاطع في أمر واحد؛ فقد رأيته لاحقاً وفي مكان آخر حيث كنت متأثراً بالمعرفة وعدم المعرفة بالآخر. فاتضح لي أكثر أنّنا نتشابه، وأنّني نصفُه النائم وقد استيقظت

من النوم ولا أريد النوم بعد. قال مكتئباً وكأنّه قد انتبه إلى أفكاري: «في بعض الأحيان يتشابه الانتصار والموت بعضهما مع بعض». فشعرتُ أنه ينظر لي وكأنّني شبح ما، أو ميت... قتلني في كلّ مكان إلا في ذكرياته. نظر إليَّ مستغرباً وأردف: «أريد أن أتحدّث معك حول الموت». فقلت بشيء من الانزعاج: «إنّني لم أعد من الموت». وبهدوء أشعل سيجارة لمواساتي ووضعها على المنفضة الفضّية دون أن يأخذ نفساً منها، وردَّ قائلاً: «لقد عدنا نحن الاثنين من الموت على نحو ما... فالصحراء والسياسة تتشابهان، وهما أرضان لا ينبت فيهما أيُّ شيء». عندما يتحدث ويذهب صوب النافذة، أشعر أنّه يتكلّم مع شيء أبعدَ منّي، شيء أبعد من وجودنا نحن الاثنين. وبقليل من الاضطراب وعدم الارتياح، وكأنّه يئنُّ من جرح عميق قال: «يا مظفّر الصبّاحي... يا صديقي، لا يمكنني أن أسحبك إلى هذه الحياة القذرة، لا يمكنني أن أراك هناك، فإنّك لست منّا». دائماً ما تصوَّرني خارجاً عن المكان والزمان، ويراني في عالم يختلف عن العوالم الأخرى؛ والآن أيضاً قد جاء بي هنا لأستقرَّ في هذا الإيوان الساحر إلى الأبد. لقد صنع لي عالماً ينسجم مع ذكرياته؛ فقال بهدوء: «هنا نشيخ... أنا وأنت. نشيخ وننظر من هذه النوافذ إلى العالم ونفكّر... فيصبح هنا مكاني أنا وأنت وننظر من النوافذ إلى العالم؛ ونبتعد معاً عن كلّ شيء ونصبح زاهدَين... ونتحدّث ليلاً ونهاراً عن النجوم والأشجار والطيور... سيأتي يوم وقد تعلّمنا لغاتها كلّها ونقضي وقتنا من أجل فهم الأزهار. ومن أجل التعمّق في ذلك الضياء الغريب الذي يومض ليلاً من بعيد، سنتأمّل في روحينا. فحافظ على نقائك، وأنا أيضاً سأفعل ما في وسعي لأتطهر». هذه المرة الأولى التي يتكلّم فيها

على هذا النحو؛ اهتزّت الستائر، وفي الخارج انفصلت عدة أوراق عن غصنها وتغيّر مسارها، وطارت الطيور وساد صمتٌ فجائيٌّ على الخارج. أخفض رأسه بتعب وقال بابتسامة ساخرة: «أتذكر؟ أتذكر يا صديقي؟ كنتُ أقول إنّ الثورة ستنتصر، وإننا سوف نبني مكاناً هادئاً لأنفسنا، ونبني حياة صغيرة ونقية ونستهلك طاقاتنا كلّها من أجل جمال طبيعي... أجل... أجل... أجل... طاقاتنا كلّها، من أجل طعم الأزهار اللذيذ، وجمال الليل... وجمال تلك الأشياء التي لا يدرك أحدٌ جمالها. أتذكر؟ أتذكر يا صديقي؟» فأجبت: «لا أتذكّر شيئاً... أيّ شيء. لقد تعذّبت كثيراً حتّى استطعت أن أمحوَ ذكرياتي من ذهني. ولو لم أقتل كلّ شيء في تخيّلاتي لصرعتني الصحراء، فالصحراء تفرض إتاوةً على أصغر الصور وأكثرها خفية. يا صديقي يعقوب، تطلَّب وقتاً طويلاً حتى أخرجتُ الماضي من وجودي؛ وفي الليالي جلست ساعاتٍ وكأنّني أجري جراحة على قلب عصفور. أخرجت كلَّ تلك الأشياء من رأسي بهدوء... الأشياء التي لم تكن تسمح لي بالتفكير؛ وهذا العمل مثل سَحْب ضياء نجمةٍ من خلال دموع طائرٍ ما، وأزلت جميع الأشياء التي ملأت دموعي بالذكريات. فحين تسجن إحدى وعشرين سنة وسط الرمال، لم يعد بإمكانك أن تجسّد أي ذكرى... أتفهم؟... لا يمكنك، فالرمال لا تسمح لك بالتفكير في أي ذكرى... أتفهم؟... إنها لا تسمح... » كنت أتحدّث وأذرف الدموع، مثل تلك الليالي الباردة في الصحراء التي بكيت فيها... وضعت رأسي بين يدي وبكيت. ودون أن يفهمني وضع رأسه بين يديه وبكى هو الآخر أيضاً؛ لمْ نعرف لِمَ نبكي. مسحنا دموعنا بهدوء، ثم حدّق بعضنا ببرود في عيني بعض. عيناي تشبهان عيني

طائر قد أحرقتهما آفاق الأراضي السبخة المترامية والصحراء... وعيناه مثل ذئب كفّ عن اللهو. شعرتُ لحظةً أنه لا يعرف لمَ جاء عندي، ولا يعرف من أين نبدأ؛ ولكنّه أفهمني بأسلوبه الغريب المعقّد المليء بالحكمة أنّني سجين، وأفهمني أنّني سوف أتدمر في الخارج، ولا أستطيع أن أفهم شيئاً. تكلم مؤكّداً بهدوء وقساوة: «إنك ستبقى هنا... فهنا مكان أحلامنا، والمكان ذاته الذي رأيناه في منامنا». ثم نظر إليّ وأردف قائلاً: «إن ذهبت من هنا، فسوف تتوه طوال عمرك بحثاً عن شيء ولكنّك لن تجده، فالصحراء قد وهبتك شيئاً... وهبتك الوَحدة شيئاً أكثر عمقاً ومعنًى من الأشياء التي تملكها؛ وإن خرجت من هنا، فلن تجد أيَّ شيء أبداً... لقد وصلت إلى العظمة؛ لقد قضيت إحدى وعشرين سنة في خلوة كبيرة، فلا تخرج... لا تخرج يا صديقي... فقد تهشّم كلُّ شيء وتحوّل إلى نتفٍ بحيث لا يستطيع أيُّ شخص أن يلصق بعضها في بعض». سحب نفساً وأضاف: «لا تخرج كي لا تضطرَّ للبحث عن أشياء لن تجدها».

قال هذا وأراد أن يذهب حين أمسكت به قريباً من الباب وقلَتُ: «يا صديقي يعقوب، من يمكنه تحمل الحبس، يمكنه تحمّل الحرية أيضاً... إنني لم أمت. أريد أن أفهم، وأنا متأكد أنني حيٌّ وقد حاربت سنوات من أجل البقاء حياً. لقد حدّقت في الليل والسراب والأشباح، وصرخت. وسوف أبقى حياً. إنني ما زلت حياً... وأعيش. كلا، يا صديقي يعقوب، يا قائدي؛ ليس بيننا أيُّ خصام... إلا قضية صغيرة، أمر صغير فقط. قل لي أين سرياس الصبّاحي؟»

وهكذا... فتحت الباب على الأعاصير.

4

أدّت لاولاو وشادريا البيضاوان كلتاهما منذ فترة طويلة، قسماً أبدياً بعضهما لبعض ألّا تخضعا للزواج حتّى وفاتهما، وألّا تقصّا جدائلَهما، وألّا تغنّيا في غياب الأخرى، وألا ترتديا أيَّ ملابس ملوّنة غير الثياب البيضاء. ويعودُ هذا النذرُ إلى أربع سنوات قبل ذلك الغروب الماطر الذي جلب فيه الفيضان محمّد زجاجي القلب. وحين بدأتِ المنافسةُ الغنائيةُ في بيت هاتين الشقيقتين كانتا في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمريهما وكانتا مغرمتين في سر طفولي؛ وتترنّمان ليلاً ونهاراً بأغنيةٍ ما، لكنَّ المشكلةَ المخيفةَ الوحيدةَ التي تواجههما هي أنهما تنشدان أغنيتين مختلفتين لا تنسجم إحداهما مع الأخرى. كانت المنافسة تمتدُّ فترةً طويلةً، وفي بعض الليالي تنزف حنجرتاهما دماً؛ ومع ذلك تستمرّان بالغناء عناداً للأخرى... ...وتغنّيان حتّى الفجر. يمضي الفجرُ وهما مستمرّتان بالغناء أمام إحداهما الأخرى؛ وبعد ذلك وعند طلوع الشمس تجلسان مرهقتين متقابلتين كمقاتلين عنيدَين قاسيَين. وبعد لحظات ودون أن تعترف أي منهما بالهزيمة، تصمتان معاً وتتهالكان في مكانيهما. لا أحد يعلم كم استمرّت هذه المنافسة، وكم فصلاً استمرَّ تحدّي كلّ منهما للأخرى، وكم إعصاراً وفيضاناً قد مرّ على ساحة قتالهما. مرضت شادريا البيضاء في غروب هذه المنافسات الطويلة وأوشكت على الموت، وتعرف لاولاو البيضاء وحدَها سبب ذلك؛ قصة حبّ فاشلة تبدو جليةً وراءَ سقم شادريا وآلامها. حلَّ الربيع حين أخذوا شادريا وهي ترتدي ثوبها الأبيض، إلى قسم العمليات الجراحية... عصفت

عاصفة رملية طوال الليلة الماضية، ومن ثَمَّ كان صباحاً مظلماً. في ذلك الصباح وقبل أن تخضع شادريا البيضاء لمشرط الجراحة، حيث إنهم لم يَعِدُوها بالشفاء ولا الموت، كان على لاولاو البيضاء أن تزورها وتعتذر منها وتذرف الدموع عند رأسها. لم تَنَم طَوال الليل، وحين وصلت صباحاً إلى المستشفى بعينين ممتلئتين بالدموع والعبرة تخنقها، كانت شادريا تنتظرها بثوبها الأبيض ذاك. وفي طقس غريب ومُبكٍ، نذرتا وكل منهما في حضن الأخرى، ووعدتا بعضهما بعضاً ألّا تعيشا بعيدتين بعضهما عن بعض حتّى يفرقهما الموت؛ وأن تكونا معاً حتّى الموت وأن ترتديا ملابس كإحداهما الأخرى وألّا تقصّا جدائلهما، وأن تغنّيا معاً دائماً. كان مشهد صلحهما محزناً ومبكياً وحماسيا؛ إذ من الممكن أن تزداد نذورهما وتصبح أكثر تعقيداً. حين أخذت الممرضات شادريا إلى غرفة الجراحة، أمسكت يد لاولاو البيضاء حتى الباب، وقبل أن تدخل الغرفة خاطبت شادريا البيضاء لاولاو: «أقسمي على عدم الشعور بالندم أبداً من نذورنا». فردّت لاولاو البيضاء بعينين دامعتين وصوت حزين ومرتعش: «إنني أقسم، ألا أتزوج أبداً، وألّا أغنّيَ بمفردي، وألّا أقصّ شعري، وألا أرتديَ غيرَ الثوب الأبيض». وهذا كان بداية ميثاق أبدي راحت الأختان تجددانه سنة تلو الأخرى.

حياتُهما حافلتان بالأسرار؛ وبعد خروج شادريا البيضاء من المستشفى، جدّدتا نذريَهما في إحدى ليالي الصيف العاصفة والمتربة، وكتبتا عهداً أبدياً مثلَ عشّاق أيام زمان، وختمتاه بالدم ووضعتا الوثيقة في زجاجة سوداء، وأخفتاه في مكان لا يعرفه أحدٌ غيرهما، تحت

شجرة رمّان. الشجرة التي ستصبح لاحقاً قرينة لشجرة أخرى، زرعها رجلٌ باسم «نسيم الأمير» في مكان آخر.

قادت المعتقدات الغريبة والتصرُّفات المشعوذة لتينك الأختين الأحداثَ باتجاه مخيف؛ إذ إنهما لم تشبها الفتيات الأخريات قطّ. وإذا ما حدَّقتا في شيء، سحرتاه دون أن تبديا قاسيتي القلب. يكمن سحرُ عينيهما غير الاعتياديتين في تحديق نظراتهما الباردة والباترة التي تعذّب أيَّ قَلب. وتبدو عيناهما أكبر من حجمهما الطبيعي قياساً إلى الوجه. وحين تحدق فيهما تشعر أنّك لا ترى شيئاً غير طاقة نظرتيهما؛ وإن شاءتا فاضتا بالبرود واللا مبالاة، أو فاضتا بالمحبّة والبراءة. وأضاف ثيابهما البيضاء وشعرهما الطويل الذي نما سريعاً وبصورة غير طبيعيّة هيبةَ السحر عليهما. لم يعلم أحد جيداً أين يكمن سحرهما؛ فهما الفتاتان الوحيدتان اللتان لم ترتديا الزيَّ المدرسي وتحضران مجالس العزاء بثياب بيضاء، ولها الطولُ نفسُه. ولا يمكنُ تمييزُ ثوبيهما في حفلات الزواج عن فستان العروس بسهولة. لهما صمتٌ غريبٌ عميقٌ لا ينقطعُ بسهولة... في الحقيقة لم تكن لاولاو وشادريا البيضاوان قاسيتين أو ساحرتين؛ ولكن طريقة نظرهما وارتدائهما تلك الملابس قد جلبتا لهما ذلك النوع من القصص والخرافات والأوهام التي تتبعانها بجرأة تجعلهما تبدوان غامضتين. إذ إنه في بعض الأحيان تهتمان بالصور الفلكية وتقرآن الفال للحاضرين في حفلات الزواج، ومراسم التأبين؛ وفي الكثير من الأحيان ودون أن تقولا شيئا تنسحبان بصمت، الصمت الذي يدلّ على عدم تبحرهما في علم النجوم وقراءة الفال. الصمت الذي

سبّب قتال الفتاتين، إذ يمكن التنبّؤ بالمصير الأسود للآخرين من خلال أيديهما. الصمت الذي خلّف الشكَّ والقلق كالسحر الأسود. من سماتهما لم ترتديا الملابس كالأخريات ولم تنظرا أو تتصرفا مثلهن، حولتهما إلى غريبتين حقيقيتين. فقد كبرتا فتاتين منطويتين على نفسيهما، فتاتين يتجنّبهما الرجال ليس لأنّهما غير جميلتين، بل بسبب الطاقة الخاصّة في عينيهما؛ الطاقة التي تسبّب الرعبَ للرجال وتجعلهم يبعدون أنفسهم... وهما قويتان، إذ ليس بمقدور الرجال أن يتطلعوا إليهما بسهولة؛ فيهما صوتٌ عميقٌ لا يفضّله الرجالُ المهتمّون بظاهر النساء. وهذه هي الأسباب التي منعت تقرّب الرجال منهما حتى مجيء محمّد زجاجي القلب؛ مع هذا جعلتا تصرّفاتهما الغريبة أساس حياتيهما؛ إذ تنشدان عند استيقاظهما صباحاً أغنيةً جديدةً قبل تناولهما الإفطار. فقد أصبح الغناء نوعاً من العبادة في حياتهما. فتاتان غريبتا الأطوار لعصرهما، إذ لم تؤمنا بالرب ولكنهما تعتقدان بالغناء بشكل عميق. لم يعلم أحدٌ كيف وقع محمّد زجاجي القلب في غرام إحداهما، إذ عالمهما غريبٌ يختلف عن عالم محمّد زجاجي القلب، الذي يحبّ في البداية العالَم الزجاجيّ ويكره أيَّ طلسم وتعقيد؛ وكلّ شيءٍ في عالمه مرئيٌّ من جميع الأطراف. يختلف عالمه عن عالم تينك الشقيقتين؛ عالمين منفصلين بعضهما عن بعض... ولولا خيانة الفيضان لما تعرَّف بعضهم على بعض، غير أنّ محمّد زجاجي القلب يعتقد بالطوفان بشكل غريب... الاعتقاد الذي جرّه في النهاية إلى مصير مظلم. ومحمّد زجاجي القلب شابٌّ يعيشُ في أوهامه، يملك عدّة مفاتيح صنعها بنفسه؛ مفتاح الحياة والموت، مفتاح الوَحدة والحبّ، مفتاح الأسرار ومفتاح الصمت، مفتاح الصداقة ومفتاح

الحقد، مفتاح الأحلام والحقيقة. في تلك الفترة بينما يقضي والده أياماً في الجبال كأحد مناضلي طريق الحرية الأشدّاء، ترعرع في المدينة كاليتيم. لكنّه أدركِ ذات يوم أنّه ابنٌ مدلّل لثورة ناجحة... وبعد نجاح الثورة وعودة الثوّار، تحوّل فترةً إلى أكثر الشبّان سعادة يمكن رؤيتهم في الاحتفالات والكرنفالات. يوزّع، مثلما الأشخاص الموزّعين، الأزهار في المناسبات، تعلو ابتسامة مشرقة شفتيه دائماً؛ ولكن ثمة بريقاً مبهماً خافتاً يتماوج في عينيه دائماً. فنظرته وعيناه من الوضوح بحيث لا يمكن أن يحويا أيَّ سرٍّ، مثل ينبوع زلال يمكن رؤية أيّ شيء فيه. جعلت طيبة تصرُّفاته ووضوحُ نقاء عينيه منه شخصاً مختلفاً وغريباً عن عالم بُني كلُّه بالأسرار. ولمّا عاد والده بنجاح بعد فترة طويلة ببندقيّته ورائحة العرق، من الجبال إلى المدينة، احتضنه وتطلّع في عينيه وقال بنبرة قلقة: «ثمة ضياء عميق في عينيك أكثر وضوحاً وغرابة من الأشياء التي رأيتها حتى الآن».

كان ذلك بداية عصر أصبحت فيه حياته قصراً من كريستال؛ قصراً من زجاج رقيق، وصارت حياتُه صالةَ استقبال بجدران سميكة من آلاف الحُباب الشفّافة والواضحة التي يمكن رؤية كلِّ شيء فيها. لقد عاش زجاجي القلب في فترة ونما فيها حيث كان كلّ شيء سرّيّاً وخفيّاً؛ فالعالمُ يتألّقُ في الظلام، وهو يبصرُ النورَ في سنوات الثورة المظلمة. سنواتِ الجدران والمتاريس والأكياس والتراب والأقبية المدعّمة والأبواب الموصدة. السنوات التي يعمل فيها في الخفاء... وتذبح الحكومة أعداءها بالخفاء، ويعيش خصومها ويتحرّكون في الخفاء. الحياة في تلك السنوات تعني بناء الجدران والظلام، والجميع

منشغلٌ في بناء الجدران، بين البيوت، وبين الأزقّة؛ بين إنسانٍ وآخر، بين الإنسان والسماء، بين الإنسان والأزهار، وبين الإنسان والقمر والليل، وبين الإنسان وطيور الصباح، وقد تحول كلُّ شيء إلى طريق مسدود؛ والجميع يحلمون بالاستيلاء على الجدران في سلوك تافهٍ وعديم المعنى، لتصبح الحياة خلوةً أبدية. لم يكن بإمكان المرء أن يكفر إلا خلف الجدران. لقد قضى طفولته في أحضان أمٍّ قلقة، إذ في طفولته ينقلونه، في الخفاء، من بيتٍ إلى آخر. يعيش مع والدته في خوف دائم عسى ألا تلقي الحكومة القبض عليهما وترسلهما إلى صحاري الجنوب.

أصبح طفلاً وحيداً مذَّاك يلفّه الغموض، إذ لم يكن ليقول اسمه الحقيقي خارج البيت. وعليه ألا يُرى بوضوح وفي النهار كما هو؛ وسرعان ما يغيران أزقتهما وبيتهما ومدينتهما. هكذا قضى محمّد زجاجي القلب حياته في عالم يضجُّ بمثل هذه الأسرار. النموُّ الذي يخفي في ذاته رغبةً خفيّةً للبحث؛ حينها كانت حياة محمّد زجاجي القلب اليومية البحثَ الغريبَ من أجل الرؤية، ولكنّه يشعر بأنّه لا يمكنه الرؤية، وأنّ ما من شيء يمكن رؤيتُه غير الجدران.

وصل ذات يوم إلى هذه الحقيقة المؤلمة التي حدّدت حياته لاحقاً، الحياة التي تشبه الزجاج في شفافيّتها وينبغي رؤيتُها من جميع الجهات؛ ولا تشبه الحيواتِ في تلك البلاد المظلمة. ولزاماً عليه أن يجد مفتاحاً ليفتح الأبواب حتى يتراءى له العالم جليًّا فلا تخفي جدرانه أيَّ شيء خلفها؛ وألّا يطالب المرء بأيّ شيء لنفسه، وتُكشف جميع الأسرار وتتفكّك الطلاسم. بكل هذه الكوابيس المظلمة والثقيلة في

طفولته بقي محمّد زجاجي القلب شاباً وسيماً. عاد والده والحقائق الصغيرة تلمع في عينيه، وأصبح أبوه بعد انقضاء سنة من الثورة من كبار المسؤولين الذين يُحسب لهم الحساب. نوى والده أن يهديَ مكافأةً كبيرةً لابنه تعويضاً عن سنوات الفراق الطويلة تلك، وأن يفعلَ شيئاً يجعله سعيداً للأبد. قال له ذات ليلة مضيئة بضوء القمر: «اطلب شيئاً منّي، أيَّ شيء يمكن أن يفعله الإنسان؛ وسأقضيه لك». وبعد كثير من التأمّل ذهب محمّد زجاجي القلب عند سليمان الكبير في ظهيرة مشمسة قائلاً: «لديَّ أمنيةٌ واحدةٌ، أمنيةٌ صغيرةٌ؛ أريدُ بيتاً صغيراً من الزجاج. وليس شرطاً أن يكون البيت كلّه، ولكن ينبغي عند النظر إليه من كلّ طرف رؤيةُ جميع جوانبه». بدأ منذ تلك الليلة التخطيط لذلك البيت الصغير والغريب، وبُني في إحدى حارات المدينة الهادئة والمرتفعة. بيت أكثرَ رقةً من قناني الخمر الزجاجية والأقداح... بيت صغير على مرتفَع منخفض بين الأبنية الضخمة والإسمنتية؛ أعمدتُه من الحديد وجزءٌ كبيرٌ من جدرانه من الزجاج؛ بيتٍ إذا نظرتَ من كلّ جانب إليه فسترى جميع جوانبه. ويمكنك أن ترى محمّد زجاجي القلب جالساً على كرسيّه، والأقفاص الفارغة لطيور السمان، ولوحة «هلپركي[1] الجبلية» الفنّية، زهرة في الماء، وطيور الصحراء الملوّنة، وسجادة حرير زرقاء ملأى برسوم تجسّد أعماق البحر حيث تضفي من بعيد صورة مستنقع لذلك البيت. يرى كلُ ناظرٍ صباحاً محمّداً وهو يعدُّ فطوره من خلف الزجاج ويغنّي بصوتٍ عالٍ، ويجلس خلف الجدران الشفّافة ويعيش مثل كائن صامت في حوضِ الأسماك.

(1) رقصةٌ كرديةٌ جماعية.

رغبته الغريبة والعميقة من أجل رؤية كلّ شيء وفهمه، تقودُه إلى التفرُّج على الناس وفهم حياتهم. يريد أن يفهم أكثر الأسرار خصوصية وعمقاً، الرغبة القاتلة التي تبحث عن الشفافية. يفعل أشياءَ حتّى يطلّع على أسرار أكبرَ من مستواه. وهكذا امتلأت أحاديثه بالروايات الغريبة حول الحياة والحقيقة؛ ولكن باستثناء أصدقائه، الصبيان الصغار الذين يعرفونه هنا وهناك في الحارات والأسواق، لم ينظر أحدٌ إليه هائماً حقيقياً، بل يعدُّونه شاباً متلصّصاً يبحث عن المعرفة... وبسبب أمنيته، أي الرؤية والشفافية، برز فيه صدق قاتل؛ دون أن يعلم كم أن الحقيقة مهلكة، ودون أن يفهم أنّ الظلام دوماً ما يبقى في الجانب الآخر من الأسرار التي لا تفشى له أبداً.

بدأ ألمٌ يسري في صدره في ذلك الصباح، بعد عودته من بيت الشقيقتين البيضاوين؛ وشعر أنّ دماً زلالاً يقطر من ثقب صغير في قلبه. خلع قميصَه أمام المرآة، وهو يشعرُ بألم شديد؛ وتطلّع إلى تلك الجروح الصغيرة التي تجري منها الدماءُ بهدوء. كان الدمُ قد بلَّل ملابسَه؛ والشيءُ الذي يبدو غريباً هو أنّ جروحه تُفتح ولا تلتئم ليتوقّف النزيف. ومنذ ذلك الصباح كان ثمة رأس دام على صدر محمّد زجاجي القلب، والدم يقطّر بشكل مؤلم على قميصه الذي اشتراه أحد أفراد عائلة سرياس له من محلّات «تاناكورا»؛ دم غير قابل للوصف. ومهما وضع من القطن واللفافات الخاصّة بالجرح عليه، يتبلّل شيئاً فشيئاً ويتّسع لتظهر بقعة كبيرة على صدره. عاد بصدر دام في غروب ذلك اليوم ذاته إلى بيت الشقيقتين؛ وكأنّ أحدهم قد أخبرهما بعودته فانتظرتاه عند النافذة. لقد فتحتا نافذتيهما وأخرجتا

نصف جسميهما منهما والريح تنثر خصلاتِ شَعرهما حتّى مسافة بعيدة، وتبدو في عين محمّد زجاجي القلب وكأنّها قد امتزجت بالغيوم؛ لتمرَّ الطيور والحمائم من بين تلك الخصلات. صرخ أمام البوّابة: «أريد أن أتزوّجك يا لاولاو البيضاء... هل توافقين؟» نظرت كلتاهما إليه نظراتٍ باردة وسحبتا خصلاتهما الأسطورية كقطع غمام إلى داخل الغرفة، وأغلقتا نافذتيهما وأسدلتا الستائر، ونظرَتا إلىَ محمّد زجاجي القلب من خلف تلك الستائر دون أن تقولا شيئاً. فأشار إلى صدره الدامي قائلاً: «هذا دمكما». عاد محمّد زجاجي القلب في ذلك الغروب إلى بيته بهزيمة أخرى، وكان ذلك الغروب بداية مريرة ومؤلمة ومحتمة لموته. غروب يضجُّ بنسيم رطبٍ وغيوم رطبةٍ تأتي وتذهبُ مع أمطار غريزة؛ عاد إلى بيته ونَظر منً خلفً النافذة إلى هطول الأمطار الشديدة، وشعر أنّه في مكان آخر. في مكان أكثر رقة ظهر ثقبٌ جديدٌ في صدره، وشعر أنّ دماءً أكثرُ غزارةً وشفافيةً تجري من جروحِه الصغيرة ثقبَتها خناجرُ غيرُ مرئية. دماءً يعلم أنَّ فورانَها نتيجةَ تحطُّم قلبه. وكلّما مضى الليل ازدادت آلامه سوءاً. وضع يده على صدره، وعاد من الجبال وتحت المطر ورعد الغيوم وبرقها إلى بيت الشقيقتين، حيث دوماً ما كانتا تتطلّعان إليه بعينين بارزتين غريبتين من خلف النافذة.

عدّ محمّد زجاجي القلب ثقوبَ صدره الصغيرة وعرف أنّ هذا الأمرَ هو مباراةٌ بين الوقت والموت؛ فوقف أمام الباب وأمسك بقلبه فتقطّرت الدماءُ تحت قبضتيه وامتزجت بالمطر. وضع يديه الداميتين على البوّابة وصرخ باسمي الشقيقتين. ظهر ظلاهما بخصلات

شعرهما المتموجة على الستائر؛ إذ تنظران في صمت إلى المطر ومحمّد زجاجي القلب. صرخ: «سوف أموت إن كنت لا تحبينني، يا لاولاو البيضاء». جسمُه كلُّه مبتلٌّ كطائرٍ صغيرٍ يقطرُ ماءُ المطر من رأسه وجسمه. وتلمع القطرات على وجهه منثورةً مثلما الذهب المذاب؛ إلّا أن تلك الفتاتَين لم تعيراه بالاً غيرَ إلقاء نظرة هادئة من وراء النافذة.

أراد محمّد زجاجي القلب فتح البوّابة بمفاتيحه، إلا أنّها لم تفتح. جرّب تحت المطر وبيدينٍ داميتين المفاتيح واحداً تلو الآخر؛ إلا أنّه لم يفلح في ذلك. أراد تسلّقَ الجدران ولكنّه لم يستطع، فتسلّق إحدى الأشجار القريبة وصاح من هناك، إلا أنّه لم يسمع شيئاً غيرَ صوت المطر، ولم يرَ شيئاً غيرَ بريقِ ضياءٍ ولمعان دموعه. انقضى الليل وعاد محمّد إلى غرفته وهو ملوّث بالأوحال والدماء؛ عاد إلى بيته تحت كلّ تلك الأمطار والدماء التي نزفها؛ وتحطّم فؤاده شيئاً فشيئاً، واتسعت الشروخ في ثنايا البلور. غطّ في النوم مع بزوغ الشمس بين الدماء والمطر والدموع، ورأى في المنام شجرةً اسمُها آخرُ شجرة رمّان الدنيا. عاد بهدوء إلى زقاق الشقيقتين البيضاوين ليلاً مع بَدء الأمطار والشقيقتان، كالعادة، تنتظرانه هناك خلف النوافذ. سار إلى فنائهما الكبير، ودار بهدوء حول البيت عدّة مرات... لقد بات يعرف أنّه أصبح ضحيةَ مباراةٍ بين عزرائيل والزمان.

جروحُه تنزف باستمرار؛ في تلك الليلة لم يعد إلى بيته بل ذهب إلى أحد مجالس سليمان الكبير الفخمة، والجروح تغطّي صدره. هذا المجلس خاصٌّ بالسياسيّين الكبار، ممتلئٌ بالوزراء والمديرين وأشباه

هارون حديثي الثراء. لم يتعرّف الحرَّاس إليه بادئ الأمر، فقال لهم: «أنا ابنه، ابن سليمان الكبير». بدا مدمياً ومبتلّاً ومنهكاً وقد شحب لون وجهه وصار يبدو كالأموات. لم يتعرّف إليه سليمان الكبير عندما ناداه إلى غرفته، لأنه لم يشبه ابنه ذا القلب الزجاجي، بل مجرد فتى مريض وعاجز؛ إذ غارت عيناه في حدقتيهما، وثمّة جدولٌ صغيرٌ من الدماء يجري خلفه، ويطبع أثرُ قدميه الداميتين على السجّادة والموزاييك والأرضيات. انتصب واقفاً في الغرفة بكل تلك الجروح وقال بصوت خافض جداً: «أرأيتم شخصاً يموت هكذا؟»

يعرف قصّتَه كلُّ من رآه في تلك الليلة؛ إذ يبدو كشجرة شتَويّة تعيشُ في غرفتين زجاجيتين صغيرتين جداً، ويعلمون حاجته وولعه لمعرفة الأسرار. في تلك الليلة بدا مجروحاً ومحطّماً بشدة إذ لم يعد أحدٌ يخشاه. على كرسيّ خلعوا ملابسَه وعرّوه، ووضعوا قطناً وشاشاً نظيفَين على جروح صدره الصغيرة، وجفّفوه. طيلة تلك المدة روى لهم قصة ذلك الحب القاتل الذي وقع فيه في أثناء الفيضانات، وأخبرهم عن اسم الفتاتين؛ اسمين لم يسمع عنهما أيٌّ من رجال ذلك المجلس. بدت تلك الليلة كإحدى ليالي القصص؛ وإكرام الجبلي حاضرٌ هناك، وهو رجلٌ طويلُ القامة يرتدي زيَّ الضباط، دون أن يكون له أيُّ منصب. فعلى أنه رجلٌ صامتٌ لكن في الوقت نفسه نشطٌ جداً في تلك الليلة؛ لأنه الوحيد الذي سهر مع محمّد زجاجي القلب وأبيه حتّى الصباح. وفي الصباح الباكر وقبل بزوغ الشمس -في الفترة القصيرة بين أذان الفجر ونوم المؤذّنين- ذهب سليمان الأب وإكرام الجبلي بسيارة زرقاء صغيرة، لطلب يد تلك الفتاة؛ وعُدَّت هذه الخِطبة

أبكرَ خِطبة في الدنيا؛ إذ لم تتم خطبة فتاة في الساعة الخامسة صباحاً. فتحت أمهما الباب؛ وهي امرأةٌ ضئيلةُ الحجم ودائمةُ الخوف، امرأة تعيش تحت سلطة ابنتيها تماماً. دخل سليمان الكبير ومرافقه البيت على مهلهما وقعدا على كرسيّين صغيرتين. أوقدت إحداهن المدفأة قبل عدة ساعات؛ لأن بقايا دخان إيقاد المدفأة يمكن ملاحظته في الغرفة. جاءت الفتاتان بعيون متعبة من الغرفة الأخرى، ترتديان ثوبين أبيضين، كأنهما قد عادتا من فورهما من إحدى الطقوس السحرية؛ وقد وضعتا شالاً أبيضَ طويلاً على كتفيهما واستقبلتا الضيفين ببرود، إذ هما حافلتان بالغموض والضبابية. في ذلك الفجر البارد الهادئ، وبين الضباب والدخان بدأ سليمان الكبير بالحديث قائلاً: «أنا والد محمّد زجاجي القلب؛ لقد جئت كي أخبركما أنّ محمّد زجاجي القلب على وشك الموت. وأنّ سبب موته ليس الحقدُ أو عدمُ الوفاء، بل الحبُّ... باعتقادي لا يستحقُّ الحبّ أن يموت أحدٌ في سبيله، فإنّني لم أعتد قطّ على رؤية موت أحدٍ من أجل الحبّ. وقد واجهتُ الموت عدة مرات طيلة حياتي، واشتغلتُ مع أشخاص واجهوا الموت على نحو ما... ولكنّني الليلةَ أشعرُ أنّ ابني سيموتُ لسبب غريب، سبب لم يخطَر ببالي قطّ في أن يكون كافياً للموت. وأودُّ أنْ أعرف من منكما اسمها لاولاو البيضاء؟» نهضت لاولاو البيضاء من مكانها وقالت: «أنا لاولاو البيضاء... » فقال سليمان الكبير: «لا أشكُّ في جمالك، ولكنّني لا أريد أن يموت أحدٌ هكذا؛ وتُهان إنسانيّتُه على هذا النحو. أنا أرغب في طلب يدك لابني كي لا يموت». قعدت لاولاو البيضاء في مكانها بهدوء وقالت بصوت خافض ولكن أكثر جرأة من السابق: «اعذرني، ولكنّي لا أرغب في الزواج... » فنهض سليمان بحزنٍ

مفاجئ وخاطبها قائلاً: «المشكلة هي أنّ الخِطبة من أجل شخص على وشك الموت، فما من أحدٍ يأتي في صباح باكر كهذا ليطلبَ يدَ فتاة ما... من حقّك أن تقولي لا، فأنا لا أملكَ القدرة لأفرض شيئاً عليك... يا لَها من ليلة غريبة! لقد اضطررتُ في وقت أذان الصبح أن أجيء وألتمسَك كي تتزوّجي ابني! يا لَها من خطوبة غريبة لا يستسيغها العقلُ! إن لم ترغبي في ذلك في قرارة نفسك، فإنّ مجيئي بلا جدوى، لأنّني أعرف إن لم تكوني في صميم قلبك أسيرةَ غرام ذلك الطائر العاشق بحيث يجعله يطير، فإنّ الأمرَ لا يستحقُّ العناء. آهٍ، يا بُنيّتي، ليست لديَّ أيُّ سلطة. بالتأكيد لو كان أمراً آخر، لفعلت شيئاً ما. لو كان ثمّة جيش يمكنني صدّهم بمساعدة بعض الشبان الأقوياء؛ أو قمة جبل، لتسلّقتها. إلا أنَّ هذا الأمر لا يشبه أيّاً من هذين الاثنين. يكفي أن أقول لك إنّه ابني الوحيد، وهو على وشك الموت بسببك... ولا يمكنني فعل أيّ شيء تجاهك. فكّري... فكّري حتّى المساء، فلم يتبقَّ لنا وقت كثير. أتفهمين؟ لا وقتَ لدينا. تدركين أنّه لم يتبقَّ لنا وقت، فهذه حربٌ غيرُ عادلة مع الزمن... حربٌ بشعةٌ وغيرُ عادلة مع الزمن، حربٌ غيرُ لائقةٍ وغيرُ عادلةٍ أصلاً». نهض من مكانه وأشار إلى إكرام الجبلي الذي نهض بدوره بأبّهته الأسطورية تلك قائلاً: «لا نملكُ شيئاً غير الرجاء، يا آنستاي المحترمتين. لا نملك غير الرجاء». فردّت لاولاو البيضاء بصوت خافض أكثر، يُسمع بصعوبة: «لا أنوي الزواج... لا أريد الزواج نهائياً».

خرجا من البيت في صباح قارس جدّاً وقد اغرورقت عيونهما. لم يبكِ سليمان الكبير منذ فترة طويلة، ولكنّه متأكدٌ أن ابنه سيموت

بصورة تافهة. كلما مرَّ الوقت تحطّم فؤاد محمّد زجاجي القلب أكثر فأكثر. أعادا محمّد زجاجي القلب إلى بيته الزجاجي في ذلك الصباح ولم يعرف الأطباء مرضَه؛ ولم يفهموا شيئاً. قعدا وقد نام على السرير والدم يجري من جسمه باستمرار؛ غطّ في النوم ورأى في المنام شجرةَ رمّان على قمّة جبل بعيد. صرف ضيوفه ومراقبيه في وقت متأخر من المساء، وقال لهم إنّ صحّته قد تحسّنت ولم يعد بحاجة إلى مراقبتهم. أراد في تلك الليلة أن يطّلع على كلّ شيء قبل موته؛ أراد أن يعرف سرَّ حبّه الفاشل. رفع رأسه وانتبه إلى أنه حتى في آخر لحظات حياته تدفعه رغبة شديدة إلى اللقاء. حين حلّ الليل عاد هناك ووقف أمام باب بيت الفتاتين عاجزاً مصفرّ الوجه... وكعادته دخل الفناء بسهولة تامّة، وعند وصوله أمام النافذة رآهما؛ ورأى عيونهما الحزينة والخاملة تنظر إليه ببرود من ذلك الجانب من الزجاج. رجاهما أن تفتحا له النافذة وتكلّماه. فُتحت النافذة أول مرّة وقالت له لاولاو البيضاء بصوتٍ حزين: «سامحني يا محمّد زجاجي القلب؛ هناك ورقة تحت شجرة الرمان تلك، خذها واذهب... خذها ودعنا وشأننا». عند شجرة الرمّان رفع محمّد زجاجي القلب رأسه ورأى القمر؛ وفي ضيائه انتبه إلى أنّ الشجرة التي وقف تحتها هي شجرة رمّان منامه إيّاها. في تلك اللحظة استمع إلى الألحان السماوية وكأنّها ضربان النجوم والقمر؛ الموسيقى ذاتها التي طالما رافقت أحلامه في صباه. أغلق عينيه للحظة وانتبه إلى أنّ شجرة الرمّان التي قد وقف بجوارها ما هي إلا قرينة الشجرة الأخرى. وهناك وجد مخطوطة ميثاق الشقيقتين البيضاوين؛ الميثاق الجحيمي! ميثاق الفتاتين الذي لا يمكن لأيّ قوة أن يبطلَه. بعد قراءة تلك السطور انهار عالم محمّد

زجاجي القلب بالكامل، وثقوب قلبه تتسع مع كلّ كلمة، ويتحوّل قلبه إلى تراب مع كل سطر. مع كل كلمة كان عالمه الزجاجي يتهشّم، وتتحطّم مراياه وكذلك صناديقه الزجاجية؛ وبدأت جدران بيته الزجاجية تتشقّق. مضى في طريقه وراح يقرأ الميثاق عدة مرات، وفي كلّ مرة يقرأ تلك الأسطر يتدفّق الدم من قلبه أكثر. هبط الحارات ماضياً في طريقه ويتدفّق الدم منه؛ رآه الناس يسير مثل الشبح وقد وضع يداً على قلبه وباليد الأخرى رفع الميثاق أمام عينيه ويقرؤه.

رأى الناس أول مرة الدم يفور من صدره كالينبوع؛ سار وهو يقرأ شيئاً، ومع كلّ خطوة تساقط زجاج بيته قطعة قطعة. تهشَّمت الأشياء واستحالت رمالاً؛ وحين وصل أمام بيته الزجاجي وجد نفسه في غبار تهشّم الزجاج. ومع كلّ تدفّق دم منه وانفصال كلّ ذرّة من قلبه تساقطت وتحطّمت قطعة كبيرة من الجدران. استحالت المفاتيح في يده إلى مسحوق أبيض وناعم؛ كما أنّ صندوق أسراره تحوّل إلى غبار. تهالك على السرير ومسك قلبه بيده؛ ورأى غصناً لشجرة الرمّان فوق رأسه. تسمع أذناه صوت تحطّم الأشياء، ورأى أنّ ريح الليل تنشر غبار الزجاج القاتل في أطرافه. أغمض جفنَيه وأصاخ السمع إلى آخر نعرات السماء أعلى رأسه، حيث تحوّلت إلى مسحوق متراكم قبل أن تهوي على الأرض وتذروها الرياح. رفع رأسه ورأى غصن شجرة رمّان التي رغب في الموت تحتها. رفع يده وقبض على الأغصان الخيالية التي قد نمت في هذيانات موته. هبط وجهٌ ملائكيٌّ من كبد السماء، وقبل أن يصل إليه ويمسك بيده تسنت له الفرصة كي يلمس الدم الذي كان يتدفّق من قلبه كالنافورة. سقطت وريقة

الميثاق واستقرّت بين أطلال بيته قبل أن تأخذها الرياح بهدوء. وفي تلك اللحظة أخذ الملاك البهيُّ الطلعة يده وابتسم وقال له: «كيف حالك يا محمّد زجاجي القلب؟ لقد انتهى كلُّ شيءٍ. لقد انتهى كلُّ شيءٍ. انهض لنذهب... ». نهض بهدوءٍ وردّ قائلاً: «نعم؛ لقد انتهى كلُّ شيء، خذ بيدي ولنذهب... » فأخذ الملاك يدَه بوجه ضاحك، وطارا بين غبار الزجاج المميت؛ مثل حمامتين تهربان من غبار الغابة، إلى مكان مجهول. هذا هو الموت الذي سنضيع جميعنا في غباره البارد لاحقاً؛ الموت الذي يبقى بشكل ما جزء غير مرئي وخفي، حيث يرتبطُ مع عدّة أجزاءٍ مريرة لهذه القصّة بشكل مخيف.

5

حين سألته أين سرياس الصباحي، أجابني بهدوء: «لقد مات، لقد مات سرياس الصبّاحي». فقلتُ: «أريدُ أن أعرف كيف مات، فمن حقّي أن أعرف ذلك». لم يجبني، وقال إنّه سيعود لاحقاً، وسيكون لدينا بعض الوقت للتحدّث حول كلّ شيء. لم أكن أتوقّع أن أرى سرياس الصباحي، إذ كنت أتصوّر أنّني لن أخرج من الصحراء أبداً.

لم أكن أعرف شيئاً عن الخارج، إلا أنّ إحساساً داخلياً كان يقول لي إنّه في الوقت الذي كنت فيه أسيراً، نشبت الكثير من الحروب وقُتل العديد من الناس؛ لذلك فإنّ بقاء طفل حيّ من دون أمّه وأبيه وخاصّة في هذه الأيام الصعبة أمرٌ مستبعدٌ. وبعد ذلك اليوم، الذي طرحت أول مرة السؤال عن سرياس الصبّاحي، تركني يعقوب الصنوبر وحيداً عدة أيام، وما لي من عملٍ غير التنزّه القصير في أطراف ذلك النزل الأخضر؛ ولم أردِ الابتعادَ. في الحقيقة لم أعرف إلى أين أتّجه وأذهب، فسرت عدّة أيام بين الأشجار والنهر والمرج في وقت الغروب، ولم أصل إلى شيء. تخيفني الطبيعة بشكل غريب إذ لم أتجرأ على سماع صوت الطيور. افتقدتُ صوتَ الرمال وغناءها، شعرتُ أنّ صراخ أعماق الرمال أكثر ألفة في حياتي. حثثت نفسي أن أذهب أحياناً إلى مكانٍ أبعدَ؛ ولم يبدُ أنّ الأشجار ستنتهي؛ بل بدا أنّ الأشجار يسلّمني بعضها إلى بعض إلى الأبد. فكّرت في أحد الأيام أنّ ذلك البيت بُني وسط مكان ناءٍ، وفي عراءٍ غريب وغير هادئ، بحيث إن أي شخص يذهب إلى ذلك البيت الفاقد الحراسة

لن يجد الخلاص. وقرَّرت في أحد الأيام أن أذهب وأجرّب كلَّ شيءٍ إلا أنّني لم أفعل شيئاً غير مشوار عبثي بين عدة أشجار؛ فشعرت أنّ ما يمنع نجاتي هو بحثي عن الحرية. توجد حالتان لا يحتاج المرء فيهما أيّ حراسة: حين تكون الحرية عديمة المعنى خارج محيطه، وحين يشعر بالحرية في السجن. كنت قد اجتزت المرحلتين، إذ شعرت أنّ الحريات في الخارج لا معنى لها في نظري، وفي الوقت نفسه شعرتُ أنّني حرٌّ تماماً في سجني. في تلك الأيام بينما أتسكع في تلك الغابة، تنتابني تلك المشاعر إياها في أطراف النزل. فالحرية لا تعني لي أن أخرج من هناك وأذهب لرؤية أناس آخرين وأماكن أخرى؛ فإحدى وعشرون سنة من السجن قد قتلت مثل هذا الإحساس بالحرية في أعماقي.

في أثناء خلوتي في الغرفة فكّرتُ في الضياء والظلام، وكلّمتُ نفسي بصوتٍ عالٍ، وطالما شعرت بأني أكثر ألفة مع صوتي وحده دون غيره... وآمنتُ أنّ الذين يتكلّمون مع أنفسهم كثيراً سيصبحون أسرى أصواتِهم شيئاً فشيئاً. كنتُ أسير نفسي؛ ولاحقاً قصة سرياس الصبّاحي هي الأمر الوحيد الذي حرّرني من هذا الأسر.

عاد بعد مرور عدّة أيام. اغفروا لي... ما شعرتُ بمرور الوقت كثيراً، ولم أستطع تمييز النهار عن الليل. بعد عودته بدا أكبر من السابق قليلاً؛ بدأنا الحديث من حيث قد توقّفنا عنده. بعد إلقاء التحية ومجاملة قصيرة عن الصحّة، قال: «لقد مات سرياس الصبّاحي... لا أعلم كيف بالضبط، إلا أنه قد مات. فاعذرني، فموته معقّد ولا يمكن وصفه». كان ينظر إليّ وهو يضع يده على أشياء الغرفة

والكريستالات البرّاقة، وأضاف: «لا أعلم متى وأين مات؛ فلا يمكن تفسير تلك السنوات التي مات فيها. والإحدى والعشرون سنة التي قضيتها في السجن يمكن وضعها كلّها في تابوت ورميه بعيداً. فما من شيء هنا غير الموت... لا يمكني وصف أيّ موت، ولا تفسير أيّ ولادة؛ فجميع هذه الأشياء تحدث دون أيّ منطق، ولكنّني أؤكد لك أنه لم يعش وحيداً ولم يمت وحده أيضاً، وكان مع أصدقائه. ولكن تمهّل... كلا، لا تتصوّر أنّ الحياة والموت مع الآخرين بهذه السهولة؛ فهذا الأمر ليس سهلاً بالمرة. لا أعلم بالضبط من هو، وأيّ شيء كان. ولكنّ أغلبهم قد ماتوا، وهو معهم أيضاً... فأنا متأكد أنّه معهم؛ وكما قلتُ فإنّي لست متأكداً من أيّ شيء؛ لأنه لا يمكنني أن أكون متأكّداً أو لا يمكنني أن أكون واثقاً من نفسي... فقد تعقّدت الظروف لاحقاً بحيث لا يمكن لأيّ شخص أن يكون واثقاً، مثل الشطرنج الذي لا تعرف أيّاً من أحجاره تخصّك؛ حيث تفتح عينيك فجأة وترى أنّ جميع أحجاره أصبحت بيضاء أو سوداء ولا تعرف أيّ حجر عليك تحريكه. ولكن يا مظفّر الصبّاحي، لا تبحث عنه؛ لأنّني الوحيد الذي يعرف أغلب الحقائق... ولكن مع هذا، لا يمكنني أن أرويَ لك تلك الأحداث، فهي تشبه لعبة شطرنج جميع أحجارها متشابهة. ليس لديّ أيُّ وصف، واطمئن فأنا لا أسامح نفسي أيضاً؛ وينبغي أن يكون لدي ما أقوله. إلا أنّني لا أملك ما أقوله يا صديقي مظفّر الصبّاحي، فقد غصنا أنا وأنت في الذنوب بشكل عميق؛ أنا وأنت معاً... ولكن تأكّد أنّه قد مات. متى وكيف وأين؟ لا تسألني عن هذا. كلا، لا تسألني... فإنني لا أعلم». كان كلامه كلّه حفنة من الأحجيات والطلاسم المعقّدة، فسألته: «من هؤلاء؟ ومع من مات؟» فقال: «مع أولئك الذين كانوا

مثله؛ مع أصدقائه... مع أولئك الذين ماتوا في تلك الأيام». صمتَ برهةً، وارتسمت ابتسامة مريرة على شفتَيه، ثم أضاف بملامح واثقة متأمّلاً: «لا أستطيع أن أشرح لك أكثر من هذا، فالأمر ليس أكثر من هذا. ومن أجل أن تفهم أكثر عن هذا الأمر عليك أن تكون هنا؛ عليك أن تكون معي. فبعد ذلك لا تغيّر المعرفة أو عدمها شيئاً... لا شيء. وأنت أيضاً عليك ألا تركز كثيراً على هذه الأمور، وألا تخرج من ذلك الباب؛ فأنت هنا كي لا تدخلَ هذه القرية. دعنا أنا وأنت نسيرُ في شيخوخة أخرى، شيخوخةِ رجلين أوقفا نفسيهما للتأمّل والحكمة. لقد جلبتُك إلى هنا كي تدخل إلى الحياة من كوّة أخرى، حيث لا عَلاقة لها بالموت والماضي؛ حيث لا ترتبط بالحاضر أيضاً، ولا ترتبط أيضاً بالحياة اليومية والثورة والسياسة. اسمعني يا مظفّر الصباحي، يا صديقي؛ أريد أن نعبر نحن الاثنين من باب آخر، أن نجتاز باباً آخر. فالحياة ليست هذه الباب فقط، فأنت الشخص الوحيد الذي تمّ حفظك خارج الزمان... إذ لم تكن أسيراً، بل في الحقيقة، بقيت بعيداً عن تلك المساوئ والقذارة... مثل الاحتفاظ بشيء وسط الثلج، مثل إخفاء صندوق مجوهرات. كان بوسعي أن أحرّرك قبل عشر سنوات، كان يمكنني أن أبادلك بضابط كبير جدّاً؛ ففي فترة ما كنّا نملك مئات الضبّاط الأسرى. وبعد نجاح الثورة، وقع آلاف الضباط والجنود أسرى لدينا؛ في تلك الفترة كان يمكنني أن أبادلك بسهولة، ولكن عندها كان عليّ أن أجلبك هنا، إلى السياسة وقذارة الحياة اليومية. وكان عليك أن تنظر إلى القاذورات كلّها فتنسى ما تعلّمته في الصحراء. لقد دفعت الكثير لأفهمَ أنّك تقضي أيامَك كدرويش في الصحراء، ولم يكن هناك مكانٌ آخرُ كي أحرّرك؛ وكان ينبغي لَي أن

أبيعَك كياقوتة رخيصة، وأن أجرّك إلى أتون الحروب التي شنَنتُها أنا وأولئك الآخرون حيث كان علينا أن نشنّها. فأنت ذهبُ تلك الأيام النقية النقيُّ، وأنت الوحيد الذي لم يرتكب ذنباً خلال إحدى وعشرين سنة، ولم تؤذِ طائراً ما، ولم تشارك في الحروب، فالحرب جَعَلَت منّا جميعاً حيواناتٍ وغيلان. الحرب، الحرب، ودائماً الحرب. الحرب صباحاً وظهراً ومساءً... كلا، لا تتصوّر أنّني كنتُ غافلاً عن تحريرك طيلة تلك الفترة. حتّى في إحدى المرات انتهى كلّ شيء وكان عليّ أن أبادلَك مع عددٍ من الضبّاط الكبار؛ ارتجف جسمي كلّه في تلك الليلة عند توقيعي الأوراق، إذ لم يكن هناك مكان للاحتفاظ بنقائك. فأنت لا تعلم ببراءتك، فأنت مثل طفل لا يعلم ببراءته. لو كنت قد أعدتك لأصبحت مثلهم، وتضيع». فأجبت يائساً وبلهجة معاتبة جداً: «إذاً، كان يمكنك أن تحرّرني ولكنّك لم تفعل، وكان يمكنك ألا تجعلني أتعفّن في تلك الصحراء مدة إحدى وعشرين سنة ولكنّك نسيتني. لقد حوّلتني تلك الصحراء إلى رمال، رمال نقية؛ إلى حفنة رمال متناثرة لا يمكن جمعها قط». فقال: «كلا، في تلك الفترة لم يكن بمقدوري أن أنقذَك؛ فتحريرُك أمرٌ وإنقاذُك من السجن أمرٌ آخرُ. إذ كان يمكنني أن أنقذك وتعود إلى مكانك ذاته، ولكنّك لم تكن مثلنا، كان عليك ألا تعودَ إلينا، كان يجب أن تبقى وحيداً... لا أدري هل تفهمني أم لا؟ ولكن ينبغي لك أن تبقى وحيداً. إنّني أعرف أنّ هذا قراراً صعباً وأنّ الحرية أمرٌ صعبٌ أيضاً؛ ولكن لو لم تبق وحيداً كنّا سنخسر كلَّ شيء».

ملخّص الكلام هو أنّ يعقوب الصنوبر أراد أن يعيش معنا في

ذلك القصر الأخضر، وأن نفكّر معاً، وأن نتحدّث آلاف الساعات عن العالم والموت والسماء والرب. خلال سنوات الثورة قد خصّ الكثير من الوقت لحياته وأموره الشخصية، وبعد الثورة ذاق جميع ملذّات الدنيا أيضاً؛ وقد أوقف حياته للحكم على العالم، بحيث لم تسنح له الفرصة لفهم ماهية الوجود. شعر أنه يعرف جميع طبقات الحياة دون أن يفكّر في جوهر المعنى.

لم أشعر بالحرية في الفترة التي قضيتُها في ذلك البيت الأخضر. في أغلب الأُمسية التي كان يأتي فيها، كنّا نضع كرسيّين بين الأشجار ونقعد هناك؛ ومع أنّني كنت لا أزال أخشى اللون الأخضر إلا أنّ مجالسته متعة كبيرة. كنتُ قد تعلّمتُ نوعاً من الاطمئنان في الصحراء... وهو أيضاً بجبروته ذاك، واضطرابه الذي يبديه وأُبّهته، وبمظهره المختلف ذاك، يجعلني أشعر بارتياح واطمئنان لا أعرف مصدره. لقد زرع بداخلي الاعتقاد بأنّني شخصٌ بريءٌ، وأن ابتعادي عن المصائب والحروب قد صان براءتي. أراد أن نحوّل تلك البراءة إلى شيء خالد؛ أراد أن نصنع خلوة ما كي نستلهم نحن الاثنين منها. وفي كلّ مرة يعود فيها، يحبُّ الهدوءَ والتأمّل، فالبيت الأخضر ذاك كان فردوساً للتأمّل؛ كلا... فأنا أيضاً أعرف أن بعد نجاح الثورة، بنى الزعيم والوزراء والسياسيون مكاناً للاختلاء لأنفسهم، وجميعهم يمتلكون دور ضيافة خاصة بهم، وقد خصّصوا لأنفسهم مكاناً في المدن أو خارجها. ولكن هذا المكان كان إحدى متنزّهاته الشخصية فقط، وقد فهمت لاحقاً أنه يمتلك عشرات الأماكن الأخرى أيضاً... يعيش مثل جميع القواد في رخاء بعد الثورة، إلا أنّه في بعض الليالي كان ثمة خوف

فجائي أو سؤال بلا إجابة وألم شديد يزعزع فؤاده فيأتيني مضطرباً. كان قد وضعني هناك كي يأتيني ويتعلم شيئاً مني عندما تهدأ نفسيّته المضطربة ورغباته الملحّة، وحين تبدأ روحه بالكلام. أنا عنده شخصٌ لا يمكن لأيّ امرئ أن يحلّ مكانه؛ الأمر الذي لم يكن موجوداً في أيّ من السياسيين الأصدقاء والحكّام الأعداء. الكائن الحيّ الذي لم يكن يعرف ما قد حدث، شخص يتحدّث ويتكلّم عن الرمال والصمت والرياح والنجوم. فهو لم يرد أن يمتلك السلطة والقوة والملذّات فقط، بل أراد أن يمتلك الجمال والبراءة والحكمة أيضاً؛ وقد فهمتُ متأخّراً أنه يريد الاحتفاظ بكلّ شيء لنفسه. وأيّ شيء لم يكن تحت سلطته فسيكون مصيره النسيان؛ هو لم يشترِ مقاتليه فقط، لم يشترِ وزراءه فقط، ولم يمتلك الأراضي والشوارع والمباني الجميلة فَقط، إنّه صادر كلَّ شيء لنفسه ولأصدقائه، طيلة سنواتٍ بعد نجاح الثورة. يا إلهي، يا لَلثروة التي يمتلكها! لقد اشترى الشعراء والشاعرات أيضاً، والنحّاتين والرسامات أيضاً، والمهندسين وخطباء الجوامع... يمتلك بستاناً للبلابل فقط، وآخر لأنواع الطيور الأخرى. وآخر لشرب المُدام والسُّكر وبستاناً للرقص والسهرات. يمتلك قصراً لنفسه ولأصدقائه، من أجل إحياء مجالس أسطورية تُعَدُّ على موائدها جميع مأكولات العالم الغريبة. وفي هذه الأثناء حين يشعر بالسأم، يركب سيّارته ويأتي. في تلك الليلة حيث قلت فيها أريد الذهاب ورؤية العالم، قال بهدوء ودونما مواربة: «لا يمكنك... سنشيخ هنا معاً، ونموت هنا».

عشت في ذلك البيت منذ بداية الربيع حتّى نهاية الصيف القائظ جدّاً، وقد كان ممتلئاً بجميع أشرطة الفيديو وآلاف القصص والمأكولات المختلفة التي أُعدّها أنا، ولكنّ أمنيتي الخروج.

في إحدى الليالي أخبرت يعقوب الصنوبر عن أمنيّتي بالحرية. فقال متضايقاً: «هل تؤمن بهذا الهدوء؟ ها؟ أجبني. أتصوّرت أنّ العالمَ كلّه بهذا الهدوء والموسيقية والصمت؟ في هذا البيت تستمع إلى أصوات الطيور، فهل تصوّرت أنّ أحداً آخرَ يعيش في رخاء هكذا كالملوك؟». قطعت كلامه قائلاً: «يا صديقي يعقوب، لقد قضيتُ إحدى وعشرين سنة في الهدوء والصمت... كلا، لا تقل لي إنني أعيش في رخاء كالملوك فطالما هذا الصمت موجود؛ فأنا أسير، وطالما هذا الهدوء اللا متناهي والاضطراب الأبدي موجودَين حولي؛ فأنا أسير، يا يعقوب الصنوبر... كانوا قد سجنوني في الصمت، وقد فكّرت كثيراً... لم يقوموا بتعذيبي، ولم يسألوني شيئاً وكان تعذيبُهم الوحيد لي هو أن أقضيَ حياتي بصمتٍ إلى الأبد؛ وطالما هناك صمتٌ؛ فأنا أسيرٌ أيضاً». وفجأة وكأنّه يريد أن يقضيَ بحقيقة لا أريدُ أن أفهمَها، رفع صوتَه قليلاً وقال: «ولكنّك كنتَ أسيرَ ماذا... أسيرَ الليل؟ أسيرَ الصحراء؟ أسيرَ العالم والنجوم التي كنت تملك الوقت دائماً لرؤيتها؟ يا مظفّر الصبّاحي؛ في إحدى الليالي وفي أثناء المعركة الدامية سحبتُ قوّاتي باتجاه المرتفعات، وفي ذلك الصخب رفعتُ رأسي ورأيتُ السماء، ورأيتُ ملايين النجوم، فشعرتُ بصغري أمام العالم... ووجدتُ مكاني في العالم. في تلك اللحظة فكّرتُ أنّني لم أرَ أيَّ نجمة منذ سنواتٍ طويلةٍ، سنواتٍ مديدةٍ لم تسنح لي الفرصةُ كي أفكّرَ في السماء، وأن أنظرَ إلى القمر، كلا... وفي تلك اللحظة أدركتُ أنّني قد خسرتُ نصفَ ذلك العالم. يمرُّ عمري ولا تسنحُ لي فرصة التفكير في الأشياء التي تمرُّ في هذه الحرب والمجازر. في تلك الليلة ضربتُ رأسي بصخرة ما وصرخت. إنّ مفردة "العالم"

كلمة عبثية ومصطنعة وعديمة المعنى. في تلك الليلة انتصرنا في تلك الحرب، يا مظفّر الصبّاحي. ولكنّني كنتُ قد خسرت... كنتُ قد خسرتُ بحيث نسيت كلّ خساراتي السابقة... كلا، لا أريد أن أخسر. وفكرتُ في ليلةٍ ما أن أعد مكاناً للاختلاء؛ مكاناً أستطيع نسيانَ كلِّ شيء فيه، وأوقف له نفسي وأستمتع بالليل والصمت والطبيعة. مكاناً يعيدني إلى مكانتي، مثل إنسان صغير في عالم واسع... أنتَ سعيدٌ، فجميعنا كنّا أسرى ولكنّك كنتُ أكثرنا سعادة يا مظفّر الصبّاحي، لا يمكنك أن تفهم كم هو صعبٌ لي أن أتحوّل إلى إنسان صغير في هذا العالم الشاسع يا مظفّر الصبّاحي، علّمني كيف أصبح إنساناً صغيراً، وكيف أعود إلى أصلي».

لن أنسى كلامَه طالما حييت، أراد أن يعود إلى أصل شعر أنّهم قد سلبوه منه؛ إلا أنّ مشكلته الوحيدة هي أنه لم يعرف كيفَ يبدأ. يمكنه أن يمتلك أي شيء؛ كلّ شيء. ولكنّه لم يعرف كيف يستعيد مجدّداً تلك الأشياء التي فقدها في ذاته. في هذه الليلة الزاخرة بالنجوم حيث أروي لكم فيها الآن هذه الحكاية، ونستمع إلى صوت الأمواج، قسماً بهذه الأمواج إنّ يعقوب الصنوبر منذ البداية أراد أن يحرّر نفسه من كلّ شيء؛ أراد أن يرمي أشياء حياته الهامشية ويعيش مثل زاهد، ولكنّه لم يكن يعرف كيف يقوم بذلك. ذات يوم قال لي وهو محطّم: «يا مظفّر الصبّاحي، علّمني كيف أعيش مثل أسير؛ وكيف أعيش مثل درويش جوّال في الصحراء... علّمني كيف أعيش بعيداً عن السلطة والثروة والاستمتاع والنساء؛ قم بتعليمي». أقسم إنّه في اللحظة ذاتها

انحنى بهدوء ولثم يدي ونزلت دموعه الدافئة. كرّر كلامه: «علّمني يا صديقي». خلال سنوات صداقتي معه لم أرَ لحظة صادقة كهذه من قِبَله أبداً، فقلت له: «يا يعقوب، لا يمكنني أن أعلمك شيئاً، فسنوات الوحدة الطويلة هي من يمكنها تعليمك وليس أنا. لا يمكنني أن أعلمك، لأنني لم أتعلم بعد، وقد حاربت لفترة طويلة ضدها بكل قواي. لم أكن أريد أن أكون هكذا، فالسنوات الطويلة قتلت رغباتي وأمنياتي. يا يعقوب الصنوبر، أنت لا تدرك هذا الألم الكبير، أن تفكر سنة تلو الأخرى في رؤية الأزهار، أو أن تقضي حياتك في سجن يكون وسط بحر لا متناهٍ من الرمال تماماً، وأن تعيش في الأوهام، وأن تقضم تفاحة في الوهم وتمسك برمانة في الوهم... وتمر الليالي وأنت مستعد كي تبادل حياتك كلها مع أريج رمانة أو تستيقظ في منتصف الليل لترى أن خلاياك قد طفحت بعطر الأشجار، فتنهض وأنت تهذي وتشتاق إلى الماء. والشيء الأكثر غرابة في الصحراء هو حاوية الماء الممتلئة التي يجلبونها لك... تفهم أن العالم موجود ما دام الماء، الذي عن طريقه تدرك أنّ هناك بحراً بعيداً عنك، وثمّة أمواجاً. تخيّل يا يعقوب، كلَّ يوم كنتُ أشمُّ الماء قبل تجرّعه. من يقول ليس للماء رائحة؟ أيّ أحمق يقول ما من رائحة للماء؟ كنت بشمي لذلك الماء أشمُّ العالَمَ كلَّه؛ كنت أشمُّ السمك، كنتُ أشمّه عميقاً بحيث كنت أصل إلى أكثر روائح البحر خفيةً وغموضاً. يقتل مرور السنوات أمنياتك حتى تدرك ذاتَ يوم أنّه يمكنك أن تعيش دون أيّ شيء، وتدرك أنّ جميع الأشياء التي تحبُّها ما هي إلا مجرّد سراب؛ وتدرك أنّ ثقلَ الأشياء هو في أعماقك أنت. عندها يمكنُك ألاّ تفكّر بعدُ في أمنيّاتك، وأن تخلق أوهامك على نحو آخر. يا يعقوب، هناك

وقتٌ، لا أعرف متى، ولا أعرف في أيّ محطّة توجد كلّ تلك الآلام والوَحدة. ثمة لحظةٌ يمتزج السجن والخلوة بعضهما ببعض بحيث لم يعد بإمكانك أن تفصلهما، ولم تعد تعرف هل أنت أسير أم متعبّد؟ وفجأة تتحرّر من كلّ شيء، ومن ثقل كلّ شيء باستثناء ثقل الحياة فيها. لذلك لا يمكنني أن أعلم أحداً قطّ؛ أو متى ستكون تلك الفترة وكيف ستكون، فهي لحظة يعجز فيها اللسان... لا يمكن وصفها أبداً؛ فقد تكون مثل ضياء يبرق من الأعماق».

طيلة الفترة التي كنت أتحدّث فيها كان يمسك بيدي ويذرف الدموع. كان قد جثا على ركبتيه وقد وضع رأسه على يدي والدموع تنهمرُ من لحيته البيضاء. قال: «نعم؛ علّمني...علـ... » كان الأمر غريباً لي، إذ كان يظن أنّ أسري أهمُّ من حرّيته. في تلك اللحظة لم أكن أعرف جيداً ما الأمر، إذ لم يفشِ لي أياً من أسراره، ولم يفصح عمّا يدور في رأسه؛ ولم أكن أعرفَ كم هو عظيم. بيد أني كنت متأكّداً أنّ ثمة يأساً عميقاً في صميمه. لا أريد أن أقسم لكم، ولكنّني أؤكّد لكم أنّ يعقوب الصنوبر كان يريد أن يمتلك شيئاً آخرَ لنفسه؛ شيئاً يمكنه أن ينقذه من جميع الضغوط. كان يشبه كوكباً قد حمّلوه بوزن أكثر من طاقته؛ كوكباً تحيطه أشياءُ بحيث تجعله يفقد بريقه. في تلك الفترة التي نلتقي فيها، لم يثق بأيّ شيء؛ وأراد أن يجعل ذرّات حياته كلها خفيفة كي يسطعَ ذلك الضياء الموجود في أعماقه خارجاً. في تلك الليلة حين انحنى ولثم يدي، قلت له: «إنّ الحياة ضياءٌ في صندوق مغلق، وقد يكون ذلك الصندوق بين صناديق أخرى. وحين تشاء أن تتجلّى الحياة لك، عليك أن تسحبها من بين الظلام، وأن

تفصل أغلفتها وقشورها كلّها... ولكن عليك أن تجعل نفسك خفيفاً. افصل أحمالك الثقيلة، وارم مجوهراتك العديدة واسبح». في تلك الليلة أمسك بيدي وذرف الدموع فترة طويلة، وقد صدّقتُ دموعَه. في النهاية قال: «أريد أن أبدأ حياتي من جديد، ولكن على نحوٍ آخرَ وفي مكانٍ آخر، ولكنّ هذا الأمر أسطورةٌ... أسطورةٌ، وخيالُ عَبثٍ. أليس كذلك؟ خيالٌ فجٌّ وعبثيٌّ. لا يمكن أن تبدأ من الصفر مجدّداً. فهل يمكن البَدء من الصفر يا مظفّر الصبّاحي؟» وكان ينتظر أن أجيب بنعم، ولكنّني قلت ببرود شخص يريد تحطيم الأفئدة: «لا أعرف مما تهرب، لا أعرف... لا أعرف... لكن لا أحد يستطيع البَدء من الصفر، فما من خلوة يمكنها أن تحرّر الإنسان من العالم؛ إذ كنتُ في الرمال إحدى وعشرين سنة، والعالم يلاحقني بشكل مستمر». ضحكت بهدوء وأضفت بنبرة أكثر قسوة: «هنا شيءٌ يسحبُك إلى الخلف دائماً... شيءٌ أكثرُ قوةً من مقدّرات الإنسان، يا يعقوب. لقد تعلّمت شيئاً في تلك الصحراء، وهو أنّ الإنسان كائنٌ عليه ألا ينسى الأمور الكبيرة». فقال بحزن عميق: «أنت لن تهرب من نفسك، أنت لن تشعر بالسأم من نفسك، بل سبحت من شدّة الحياة ومياهها الضحلة الموحلة إلى أماكن أكثر عمقاً».

كنتُ أعلم منذ فترة طويلة أنّ السجن والصحراء قد صنعا منّي سبّاحاً بارعاً، ولكن الآن إذ تحررت لم أعرف ما عليّ فعله؛ هل عليّ أن أبقى في أعماق ذلك البحر العميق للأبد أم أخرج منه؟ أراد يعقوب السباحة معي في ذلك البحر، وأرادني ألا أخرج كي أمسك بيده وأقوده صوب الأعماق المضطربة وعديمة النهاية. ولكنّه، على رغبته العميقة

تلك، قادني إلى الصمت والوَحدة والانتظار. ثمة نداءٌ في الداخل يناديني إلى العالم؛ السؤال الذي لم يمكنني الهروب منه قطّ، السؤال الذي يعيدني إلى العالم: «أين سرياس الصباحي؟ أين هو؟»

لولا سرياس الصباحي، لكانت حياتي على نحوٍ آخر، كنتُ في المكان الأكثر عمقاً وعتمة في حياتي أسمع صراخَ شخص ما، صرخة عالية جداً. كنت أسمع صوتَ بكاءٍ ورجاءٍ مميت حيث دائماً ما يناديني في المنام بنحو مختلف. في بعض الأحيان أشعر أنه يناديني من إعصار بعيد وفي سيل جارف ومطر عديم الرحمة. وفي بعض الأوقات أيضاً أشعر أنّ ثمة صوتاً داخل عاصفة رملية تأخذه الريح بعيداً؛ ومرات أُخر أشعر أنّ العطش على وشك أن يصرعني، مثل شخص لا أرى وجهه قط، مثل شبح يقف في الظلام خلف ستارة ما، وصوته يبدو أكثر بعداً من صورته. في بعض الليالي تصل الأصوات إلى مسامعي بحيث تبدو كأنّها صرخة من أعماق الجحيم. وفي أحيان أخرى أرى مئات الأشخاص بدلاً من شخص واحد؛ وأشمّ رائحة الدماء، والأنفاس الملتهبة... وفي كلّ مرة أستيقظ فيها، أتذكّر سرياس الصبّاحي؛ وقد زرع موته تلك الرغبة في أعماقي أن أخرج من بحر الرمال ذاك. ذات ليلة قلت ليعقوب الصنوبر: «إنّني ذاهب، وأريد أن أرى العالم».

6

سمعت الشقيقتان بعد أكثر من أسبوع نبأ وفاة محمّد زجاجي القلب؛ لأنهما لم تكونا تملكان الكثير من الأصدقاء والأقارب. وحين وُجِدَ محمّد زجاجي القلب في الخرائب الزجاجية، اشتُهرت الشقيقتان وتغيّرت حياتهما تغيّراً جذرياً. جاء سليمان الكبير مع محافظيه الشخصيين في ظهيرة يوم ماطر؛ ولم تكونا قد رأتاه بعد خطبته الغريبة تلك في ذلك الصباح الباكر. لم تأخذ الفتاتان غياب محمّد زجاجي القلب الفجائي على محمل الجَدّ، إذ كانتا تظنان أنّ هذا النوع من الرجال يظهر فجأة ويغيب فجأة، ومن يجلبه السيل يجرفه السيل أيضاً. نزل سليمان الكبير، الذي لم ينس موت ابنه قطّ، بعمامته الزرقاء وأنفه الشبيه بمنقار الصقر والأسنان الفضّية وخصلات صدغيه البيضاء والفرنجي[2] الشمالي الأصفر، واستأذن للدخول فقعد في القاعة الباردة والصغيرة ليوم الخطبة ذاتها، وعلى الكرسي ذاته. وبنظرة واحدة أدركت لاولاو البيضاء أنّ محمّداً زجاجي القلب قد مات. مرّتِ السنون وقعدت في شتاء بارد أمام سبورة صغيرة بجوار مدفأة صغيرة موقدة، تحدثت عن تلك اللحظة وهي تذرف الدموع. حين قرأت موت الابن في عيني ذلك الرجل، نهضت مرتبكة فقط ولم تفعل شيئاً. كان سليمان الكبير يشبه آلهة ما نزّلت حديثاً من الجبل، وجهه ممتلئٌ بالشعر وهذا ما جعل رؤية عينيه وفمه صعباً؛ إذ غطّى الشعر الأسود أذنيه وأنفه أيضاً.

---

(2) الزي الكردي.

بدا جليّاً أنه لم يستحم منذ عدة أيام، ولم يحلق لحيته، ولم يضحك أيضاً. جاء وهو يحمل اقتراحاً صغيراً وغريباً لم يسُمَع مثله سابقاً؛ أخبرهما بموت محمّد زجاجي القلب بهدوء. لم يتوقّع أنّ الفتاتين سينتابهما الارتجاف وتشرعان بالبكاء وتنوحان بجنون. ومع نسمة الصباح الأولى أدرك أنّ عيون الأختين تشبه عيون طائرين شجاعين. جاء سليمان الكبير ليخبر لاولاو البيضاء أنه مستعد أن يخصص لها راتباً شهرياً بشرط أن تزور قبر زجاجي القلب مرة في الأسبوع، وكانت وصيّته الأخيرة هي أن يرتاح ابنه في القبر. في ذلك اليوم قال للاولاو البيضاء: «أجل، لقد مات محمّد زجاجي القلب. كلا، لا تتصوّري أنّني اخترت هذا الاسم له، إذ إنّني أعرفه أقلّ من الآخرين؛ فأنا غريبٌ عليه... إنّنا في زمن غريب إذ بات الآباء غرباء لأبنائهم؛ وموته الموت الأكثر غرابة؛ فقلبه الأكثر رقة في هذه الأنحاء. يقول الجميع إنّ هذا ذنبك، ذنبُ لاولاو البيضاء القاسي؛ ولكنّني أعرف أنه ليس ذنبَك، فقلبُه لم يستطع مواجهة أيّ شيء، أيّ شيء. هكذا مات غير مأسوفٍ عليه، وسريعا وعبثاً. امتلك قلباً أكثر بريقاً من أيّ مرآة، وأكثرَ شفافية وبياضاً من أيّ زجاج؛ يشبه كأساً رقيقة وظريفة في يد ثمل يترنّح في الأزقة الملتوية. في المرة الأخيرة التي رأيته فيها وجهه يشبه وجه النادل وهو يحمل كأساً من المدام، ولكنّه مغلول اليدين والرجلين. حين رأيته عرفت أنه سيسقط؛ يا ويحي! يا لَه من زمانٍ غريب! إذ لم يعد الأطفال يكبرون مثل آبائهم... وباتت أزهار أخرى تنبت من بذور أزهار مختلفة، وتولد طيور من بيوض طيور أخرى. لا أخفي عنك أنّني كنت مجرماً، حيث كنت بارعاً في القتل، ولم أتصوّر قط أن يكبر طفل ما تحت رعايتي؛ فما من أحد يمكنه الخروج سليماً من امتحان

الوقت. على كل حال، لم أتمكّن من تلبية أمنيّته الأخيرة، إذ أراد أن أفشي له بسرٍّ لم تكن خيوطه بيدي. لم يمكنني أن أقول شيئاً فحياتُه ومماتُه كانا مرتبطين بهذا الأمر. والآن إذ هو هناك، لا يفهمك الناس قطّ ولن يغفروا ذنبك أبداً. لم أعتد التوسّل والتظلّم؛ لم أعتد ذلك. لقد شختُ في تلك الجبال، ثورة بعد ثورة وحرب بعد حرب؛ والآن لا شيء يسير بشكل صحيح، كالليلة العاصفة قبل موته تماماً. منذ فترة وأنا أرى عينيه الصافيتين أمامي، إذ يأتيني دامياً ومبلّلاً بالأمطار ويدخل مجلسنا. كانت عيناه تقولان إنّك أبٌ ظالمٌ وقاسٍ، وتقول إنّ قلبي من زجاج وقلبَك من حجر. ذات ليلة، كانت بقعةٌ دماء على صدره، وشعره مثل شعر درويش اجتاز جميع أعاصير العالم. بدا مثل درويش في وسط بحر لا متناهٍ، بحرٍ أكثرَ اتساعاً من جميع المياه التي قد رأيتها في حياتي... وكأنه شخصٌ يبحث عن لؤلؤة بعيدة عن متناول أيدي الناس؛ جوهرة لا يمكنني اصطيادُها، يا لاولاو البيضاء. دائماً ما كنت أؤمن أنّ هناك حياةً أخرى في تلك الجهة من الموت؛ مع كلّ سيّئاتي أؤمن بحياة أخرى ما بعد هذه الحياة. إيمانٌ قويٌّ يمكنه أن يجعلَ أيَّ قاتلٍ ومجرم يشعر بطمأنينة. في تلك الأيام وبعد ارتكابي أيّ مجزرةٍ كنتُ ألوذُ بالجبال مثل المجانين؛ فلا شيءَ أسوأ من الشعور بأنّ نهاية حياة شخص ستكون بين يديك، نهاية الحياة تعبير ثقيل ومسيء. آمنتُ بعالم آخرَ، كي لا أفكّر في أنّ الأشخاص الذين هم تحت أمرتي قد ماتوا ولن يبعثوا من جديد. آمنتُ أنّني سأجد ضحاياي في عالم آخر؛ وهم لا ينتهون، ولا أحد ينتهي، وما من شيء يصلُ إلى نهايته. وأنتِ أيضاً يا لاولاو البيضاء سترين محمّد زجاجي القلب في العالم الآخر؛ أنا متأكّد أنّه الآنَ ينتظر شيئاً ما هناك. وأشعر أنّ الأمواتَ ينتظرون أكثر

منّا، والآنَ هو ينتظرنا. فإنّهم أحياء بالمحبّة التي قد أخذوها معهم. يا لاولاو البيضاء، سأخصّص لك راتباً لتزوري قبره كلّ أسبوع وتبقي هناك ساعة من الزمن... ساعة فقط».

طيلة حديثه كانت الشقيقتان تستمعان، ولم تتفوها بأيّ شيء؛ وحين انتهى من كلامه، قالت شادريا البيضاء بحسرة: «لم أكن أعلم أنّ محمّداً زجاجي القلب قد مات؛ إنّنا نعزّيك. ليكنِ الربُّ راضياً عنه ويعطيك الصبر والسلوان. ولكن يا أبا محمّد، فقد جاءنا ذات ليلة وصرخ علينا عدة مرات، ولم يعد بعدها. جاء إلى بيتنا، ولكنّنا لم نفتح له الباب؛ لأنه ليس جائزاً في الأعراف أن تفتح ثلاث نساء الباب ليلاً لرجل غريب. والمرة الأولى التي فتحنا فيها الباب له كان ذلك اليوم الذي جرف السيل كلّ شيء؛ لولا السيلُ، لما كنّا قد فتحنا له الباب أصلاً، إلا أنّه عند وقوع السيل ينبغي للناس مساعدة بعضهم بعضاً. نحن فتاتان لا تنويان الزواج... لا نريد أن نتزوّج أبداً، حتّى لو انهارت السماء على الأرض، فإنّنا لن نتزوّج أبداً. مع هذا، أقول للاولاو البيضاء إن كان ذهابك عند قبره سيجعله يرتاح، فاذهبي... اذهبي... لا أمنعك من ذلك». فقالت لاولاو البيضاء بفزع: «بشرط أن تأتيَ معي أيضاً... فمن دونكَ لن أذهب؛ فلم يسبق لي رؤية المقبرة، تعالي أنت أيضاً».

لم تكن الأختان شيطانين مثلما لقبوهما بذلك؛ إذ كان يمكن رؤية جمال ورقّة خاصّين بهما عندما كانتا تتكلّمان. خرج سليمان الكبير مرتاح البال من هناك؛ استغرب بعضهم كيف يتعامل أب هكذا مع قاتلة ابنه، إلا أنّ سليمان الكبير لم يكن يعتقد أن تكون لاولاو البيضاء

قد قتلت ابنه، فمن قتل ابنه هو رقّة عالمه الزجاجي الذي كان عاجزاً أمام أصغر عاصفة.

في اليوم الذي كانت تعصف فيه العاصفة، ارتديتا أجمل ثيابهما البيضاء وذهبتا عند قبر محمّد زجاجي القلب. كانتِ الريحُ تأخذ جدائلهما إلى مسافات بعيدة؛ وحين وصلتا هناك بثيابهما تلك، كانت المقبرة صامته وهادئة. كانت المقبرة تلاً وبها آلاف شواهد القبور؛ والإعصار يعبث بشكل مزعج. انتشرت رائحة الموت في كلّ مكان، الموت الذي استمدّ هدوءه وطمأنينته منه. كانت الرياح تهزُّ الأموات؛ ولم يكن أحدٌ يُرى في المقبرة. بخطواتٍ هادئة، ذهبت الشقيقتان ذواتا الثياب البيضاء إلى قبر محمّد زجاجي القلب وخاطبتا الميت بصوت مشوب بالحزن لم يسمعه أحد: «سامحنا». كانتا في أعماق روحيهما الباردة جدّاً تجدان نفسيهما بريئتين، إلا أنّهما ظلتا تشعران بذنب عميق في ذلك المكان حيث كان يتماوج الحنان والشفقة بعضهما مع بعض. في ذلك اليوم غنّتا معاً عند القبر... ومع غنائهما كانت السماء المعتمة والقبور تهدأ شيئاً فشيئاً، وكأنّه لم يقم أحد بالغناء في تلك المقبرة منذ فترة طويلة. في النهاية شعرتا بهدوء عميق؛ ومع هدوء الريح ساد صمت الغروب وجذل الأشجار، فتغيّر شيءٌ ما في جوّ المقبرة. وبعد مرور لحظات انتصب فجأة شابٌ من وراء أحد شواهد القبور وقال: «يا لَصوتيكما الساحر والفتّان، يا سيدتاي... فطيلة عمري لم أسمع مثل هذا الصوت الجميل والساحر. يا لَه من صوت! ويا لَه من لحن! ويا له من غناء!». كان ظهوره مفاجئاً بحيث صعقت الشقيقتان قليلاً؛ مكثتا برهة وحدّقتا إلى عينيه وقالتا: «شكراً، شكراً

جزيلاً. ولكنّنا لا نظنُ أنّ صوتَنا جميل إلى هذا الحدّ». اقترب الشابُّ بخطى واثقة وقال: «أنا سرياس الصبّاحي، وكنت أستمع إليكما منذ بدأتما بالغناء؛ لا أقصد جمال صوتكما فقط، فأنا بالكاد استمعت إلى صوت النساء فيما مضى، ولكن من الجيّد أن تغنّي فتاتان مثلكما عند رأس ميّت ما. أتظنان أنَّ الغناءَ يسعد الأموات؟». فردّت شادريا قائلة: «لا أعلم إن كان الغناء يسعد الأموات أم لا، وهذا قبر محمّد زجاجي القلب، فقد مات قبل أسبوعين. لقد قتله الحبُّ، والآن قد جئنا هنا لنطلبَ منه المغفرة ونواسيه قليلاً». وهكذا في مساء مغبّر، تعرّف سرياس الصبّاحي والشقيقتان البيضاوان بعضهم على بعض، عند قبر حيث آلاف شواهد القبور تحيط بهم. لقد حدث هذا ذات مساء، كهذه الليلة، بين المطر والإعصار، كالليلة التي يبدو كأنّ صوتَ البحر يمنع تحدّثنا... والآن، لا أريدُ أن أحدّثكم عن تفاصيل ذلك اللقاء، إلا أنّه ينبغي القول إنّ ذلك اليوم مضى سريعاً. هبطتِ الفتاتان من منحدرِ ذلك التل بسرعة خوفاً من تكرار قصّة أخرى مثل قصّة محمّد زجاجي القلب، ولم تسمحا للشابّ بالتحدّث معهما أكثر من ذلك، وغابتا. في ذلك اليوم كانت الشقيقتان تهربان من شيء لم يكن بإمكانهما الخلاص منه؛ ولكنّ الشيءَ الذي تجلبُه المصادفة، إن كان جزءاً من قصّة غير مترابطة يصنعها القدر، إنه سيتكرّر في صورة مصادفة أخرى حتّى لو حاولنا منع حدوثه. في ذلك المساء كان سرياس الصبّاحي يقف بين القبور وهو يشاهد مبتسماً الشقيقتين اللتين كانتا تبدوان وكأنّهما تريدان الهروب من القدر والابتعاد بسرعة.

كان لقاء سرياس الصبّاحي مع الشقيقتين مصادفة نوعاً ما، كما أنّه

لم يكن كذلك أيضاً؛ فالأمر الذي جعل سرياس الصبّاحي يأتي إلى المقبرة ويمرُّ على قبر محمّد زجاجي القلب لم يكن مصادفة، فمحمّد زجاجي القلب أحدُ أصدقاء سرياس المقرّبين. بيد أن المصادفة البحتة هي ما جعلته يلتقي الشقيقتين الطويلتين والبيضاوين في ذلك الغروب المغبر.

لسرياس الصباحي الكثيرُ من الأصدقاء في تلك المقبرة؛ ففي فترة شبابه دفن العديد منهم هناك، وبعضُهم مجرّد أطفال قتلوا قبل الثورة، وقُتل بعضهم الآخر في حروب ما بعد الثورة. كان سرياس ومحمّد زجاجي القلب في بداية اكتشاف أسرار حياتهما الكبرى؛ ولكن أيّ أسرار؟ لا تسألني عن الأسرار... أرجوكم ألا تلحوا بالسؤال... ليس الليلة، فالحزن لا يسمح لي أن أشرح أيّ شيء؛ انظروا، وكأنّ السماء تبكي في قلبي أيضاً، آه... فالليلة لا تسمح العواصف أيضاً أن أتحدّث، كما أنّ البحر ليس هادئاً... إنّني أستمتع جدّاً بمشاهدة ظلام البحر اللا متناهي وسواده؛ فاعذروني... لا أريد أن أتابع الليلة... فلندع كلَّ ما يتعلّق بسرياس ومحمّد زجاجي القلب إلى ليلة أخرى... سامحوني، واسمحوا لي أن أشاهد سواد البحر اللا متناهي وأذرفَ الدموع... وأن أسلمَ نفسي للآلام هذا الماء وأبكي.

7

ذاتَ ليلةٍ وجدني شخصٌ غريبٌ في ذلك النزل النائي والمنسيّ... كانت ليلةً ظلماءَ. سمعت صوت فتح مفاجئ لنافذةٍ ما، وصوت تحطّم عدّة أشياء، وأصواتاً ممتزجة. وقع ضوء مصباح يدوي من الأسفل على الستارة، ورأيت ظلَّ رجلٍ ضخم وراءَها؛ مهما كان فهو يعرف المكان، ومن أين يدخل وإلى أين يصل. تصوّرتُ أنّ ذلك القصر الأخضر قد بني في مكان لا يصله أيُّ شخص؛ ولكنّ ظهور ذلك الرجل بثّ فيّ الرعبَ والشكَّ الفجائيين. رجلٌ ذو هيبةٍ... لم أرَ في حياتي شخصاً في مثل هيبته. وعندما شعر بوجودي سأل بصوتٍ خفيض: «مَن أنتَ؟» وقفت هادئاً أمامه وأجبته: «أنا لستُ أحداً، من أنت؟ فهذا المكان يعود لي... منذ ستة أشهر وأنا أعيش في هذا البيت، فمن أنت؟ أضيفٌ أنت أم أضعت الطريق؟ أصديقٌ أنتَ أم تبحثُ عن شيءٍ ما؟» اقترب منّي وهو يحملُ مصباحاً يدويّاً؛ في تلك الأيام نمتُ في الطابق الأعلى، وفي غرفة شبه مظلمة. حين خرجت ووقفت على رأس الدرج، وقف عند أسفل الدرج في الطابق السفلي وهو يحمل سلاحاً غريباً لم يسبق لي رؤية مثله سابقاً؛ وهو على ضخامة جسمه، يملكُ وجهاً طفولياً. يرتدي زيَّ الضبّاط، وثمّة ميداليات ونجوم على كتفيه. شعرتُ أنّه لا يعرف بما يردُّ عليّ... لم يرد أن يقول شيئاً؛ فسألَ ببرودٍ وبصوتٍ مشوب بالخوف: «من أنت؟ أحارسٌ أنتَ أم ضيف؟ فالضيفُ لا يبقى هنا ستة أشهر. فهذا القصر فارغ، وأنا من تولّى أمرَ بنائه؛ وهذا القصرُ مكان سرّي للأيام العصيبة. فماذا تفعل هنا؟» فاجأته رؤيتي؛ إذ لم يرَ شخصاً مثلي، ولم يتوقّع أن

يرى هنا مصادفةً هكذا شخص تصل لحيته إلى قدميه ويغطّي شعره خصره كالدراويش، وهو يحمل كتاباً في هذا المكان الغريب ويرتدي جلباباً عربيّاً، إذ إنّه زيّ سنوات إقامتي الطويلة في الصحراء... فقلت بهدوء: «أنا أسير... أسير». فتأمّلني قليلاً وتابعت بحسرة كبيرة: «منذ إحدى وعشرين سنة وأنا أسير... فأنا لست بإنسانٍ حقيقي... أنا شبحٌ؛ أنا لست موجوداً». نظر فيما حوله وسأل بحَذَر: «هل يمكننا الجلوس لنتحدّث؟» لم يكن يعرف كم أصبحت سعيداً برؤيتي إنساناً آخر؛ لم أعرف أنّني لم أرَ خلال إحدى وعشرين سنة شخصاً غير يعقوب الصنوبر وسجّاني الصحراء؛ لم يدرك عمَّا أتكلّم. حدجني في البداية بارتياب، ثم نظر إليّ كمجنون أو شخص هائم يلعب بالكلمات. تطلّع في الغرفة بدقّة، وقال: «لقد بقي كلُّ شيء على حاله كالسابق، كما كان قبل خمس سنوات تماماً حيث سلّمت المفاتيح ليعقوب الصنوبر وتركت المكان. في تلك الأيام نخشى كثيراً أن يتمّ احتلالُ هذا المكان من جديد. خفنا أن نفقد ذات يوم كلَّ شيء ونضطر للبَدء من جديد». تطلّع إليّ كمن تذكّر شيئاً فجأة وأضاف: «ماذا تفعل هنا؟ يا إلهي، فما من أحد يعرف هذا المكان غيري أنا ويعقوب الصنوبر. فنحن فقط من يعلم بوجود هذا البيت». أسدل الليل عباءته ولم أُرد أن أخبره بجميع الأسرار بشكل متسرّع. وكشخص يتجنّب الإجابة، سألته دون أن أجيب عن سؤاله: «وجهك طفولي، ولكن لديك جسم إبليس عجوز، وتبدو أكثر فتياً من أن تكون صديق الزعماء... لا تنزعج من كلامي، لكنّني أشكّ فيك». صمت برهة ثم أجابني قائلاً: «أنا لست طفلاً، إنّني في الخامسة والثلاثين من عمري... إنّ العين والفم من أعضاء الإنسان الأكثر كذباً». فسألته: «ماذا تفعل هنا؟ مَن أرسلك هنا؟ ولم

دخلت هذه الغابة، والجوُّ مضطرب في منتصف الليلة المظلمة هذه؟ ماذا تريد؟ وعمَّ تبحث؟» هزّ رأسَه بانكسار وأجاب قائلاً: «إنّا إكرام الجبلي، فقد جئت بحثاً عن صديقي». نظرَ إلى عيني وقال من دون أيّ خوف: «إنّي أبحثُ عن صديقٍ قد بحثت عنه في كلّ مكان ولم أجده؛ إنّي أبحث عن صديق أيام طفولتي وقد ضاع فجأة ذلت ليلة ولم أجده بعد... وقد أدركت الآن أنه هو من أضاعه... هو نفسه». فسألته مرتبكاً: «ومن هو؟» فقال: «يعقوب الصنوبر... القائد».

قسماً بهذه النجوم اللامعة التي ترشدنا الليلة في هذا البحر، وقسماً بهذه الباخرة التي يعود وجودها أو عدمه إلى حكمة ربّانها، تلك اللحظات أكثر الأوقات مرارةً في حياتي. ثمة شيءٌ يناديني في أعماقي حيث يلتقي الضمير والحقيقة؛ صرخة تبدو كصوت جريح يبكي في الريح. لم أعرف من ضاع ومن قد أضاعه، ولكن يبدو وكأنّ رياح الليل تجلب تنهّدات ضحية ما فيمتلئ العالم بظلّ الجرحى؛ يمتلئ الليل بالصراخ البعيد، يمتلئ بأنين أموات سمعت أصواتهم في تلك الصحراء سنوات مديدة. أنين أموات يزعجهم ليل تلك الصحراء ونجومها. وكأنه شعر بتلك الأنّات في أذنيه، ورأى تلك المشاهد المظلمة في عينيّ. قال مرتاباً: «أنت لا تصدّقني؛ لأنّك صديقُه وقد سلّمك مفتاح هذا المكان... أنت صديقُه ولكنّك لا تعرفه». في تلك اللحظة كنت أتصوّر العالَمَ كلّه، الحياةَ كلّها، كأحجية كبيرة؛ فقلت له: «وأنت عدوّه أيضاً... لأنك تبحث عن سيّئاته. اسمعني، إنّني لست بصديقه ولا صديقك أنت أيضاً. لقد عشت سنوات في الصحراء؛ لقد قضيت إحدى وعشرين سنة من عمري في سجن صحراوي بعيد وحار ومرعب... لذلك، فأنا خارج

عن كلّ تصنيف، أنا غير موجود، ولم أكن موجوداً. لديّ قصةٌ أخرى وهي ليست قصّتك ولا قصّته. وأنا لا أفهمُ عالمَك ولا أفهمُ عالمَه. أنا أسير... ولا أهتمّ بجدالكما». فقال إكرام الجبلي كشخص لم يفهم عمَّا يتكلّم: «أنا أبحث عن صديق، بحثتُ عنه في كلّ مكان. وقد مررت خفيةً إلى كلّ مكان قد خطر ببالي؛ وآخر مكان كان هذا القصر، ولكن ما من أحد هنا. تمرّ السنة واحدة تلو الأخرى ويرحل معها أصدقائي... لا يحقُّ لأيّ منّا أن يكون لديه صديق حيّ؛ لا تتصوّر لحظة أنني شخص سيّئ أو أريد أن أؤذيَ الآخرين، فإنّني حرّرت أرواح الناس في أثناء الثورة قدر استطاعتي». فسألته بهدوء: «حسناً، وهل يمكنك أن تحرّر روحي أيضاً؟» كانت ملامحه غريبة وكان يبدو كشخص قد عاد من الصيد، أو كشخص يبحث عن صيد خيالي في الجبال، وقد مرّ على راعٍ كي يتناولَ معه شيئاً ما. نظر إليَّ مرتبكاً عند سماعه سؤالي، وسألني بدوره: «ممَّ أحررك؟ ممّن؟» كنت قد ألفته منذ الدقائق الأولى، فقد كانت فيه براءة وقوة؛ فبندقيّته وزيّه العسكري وجسمه الضخم لم يجعلوه يبدو شخصاً مخيفاً. كان أشبهَ بطفلٍ في أثناء اللعب؛ بعضنا يختلف عن بعض، فوجهه كان أبيضَ وكبيراً، وقد حلق لحيته وشاربه على نحو لم يبق أيّ أثر للشعر في وجهه. حاجباه سوداوين خفيفين ورفيعين، وتبدو شفتاه بلونِ أحمرَ قانٍ وممتلئتين. كان ضخماً بحيث يمكنه أن يلملمني كحفنة عظام، ويحملني على كتفيه ويأخذني أينما يشاء. ظللت أنظر إليه في حيرة كلَّ لحظة، وحين نظرت إليه على نحو ما شعرتُ بالندم... أندم عندما أتذكّر ذلك لاحقاً. حتى ذلك الوقت لم آنس برؤية إنسانٍ ما، وقد أثارت نظراته الغريبة والفاضحة ذكرياتي المنهكة، إذ أستطيع في مثل هذه الليلة أن أنظر إلى الماء هنا وأروي لكم أحداث تلك الأيام.

خاطبت إكرام الجبلي في تلك الليلة: «أيمكنك أن تحرّر روحي؟» كان السؤال نابعاً من أعماق قلبي؛ قبل ذلك فكرتُ في أنه يمكن في أحد الأيام، أو في إحدى الليالي أنّ شخصاً ما سيظهر ويدخل تلك الغابة ويجد ذلك البيت ويخاطبني بهذا السؤال «من أنت؟» سألت نفسي هل يمكن أن أسلم قدري إلى شخص غريب؟ وهل يمكن أن أرى أحدهم ذات يوم يمرّ من أمام تلك البوّابة لأناديه وأخاطبه: «أهلا، يا هذا. أهلا يا أخي العابر... تعال يا أخي العابر وأنقذني». كان اليأس قد أصابني من احتمال مجيء يعقوب الصنوبر ليمسك بيدي ويعيدني إلى العالم، إذ بتُّ متأكداً أنه سيبقيني هنا إلى الأبد... كنت أسيرَ رؤاه الفلسفية على نحو ما. قلتُ لإكرام الجبلي في تلك الليلة أن ينقذني، صمَّمتُ تماماً علَى اتّباع قدر سرياس الصباحي في تلك البلاد الشاسعة، وأن أذهب كي أفهمَ ماذا قد حدث في غيابي في الإحدى والعشرين سنة تلك... كلا، لا تتصوّروا أنّني قد أقبلت على العالم مجدّداً من أجل شيء ما، ولا تتصوّروا أنّني طمعت في شيء ما. بل أردتُ الذهاب لأزيح حمل سنوات الصحراء الطويلة تلك كلّها عن عاتقي... وقد عدتُ متفرّجاً ما، وكشخص أراد التنزّه آخر مرة قبل موته؛ وكبستانيٍّ كهل أراد رؤية البستان لآخر مرّة، وعاد إليه بعد وقت طويل. قلتُ في تلك الليلة لإكرام الجبلي بهدوء: «حرّرني من الرمال... من الصحراء... من الصحراء». كنت متأكداً أنه لا يفهم كلامي؛ فسألني بنظرات طفولية: «ماذا تفعل مع يعقوب الصنوبر؟» فقلت دون أن أجيب عن سؤاله: «أنا مظفّر الصبّاحي وأريد أن تحرّرني من الصمت». وضع سلاحه على الأرض عند سماعه ردّي، وقال: «يا إلهي، مظفّر الصبّاحي! إنه أحد شهداء الثورة القدماء جدّاً. ماذا تقول

أنت؟ لقد مات مظفر الصباحي منذ وقت طويل جداً». فأجبته: «هذا صحيح... صحيح، لقد متُ منذ وقت طويل جداً... ولكن ألا يحقّ للإنسان أن يبعث من جديد ليعيش مرة أخرى؟» كان يجب أن أشرح له كلَّ شيء. كلا، لا تتصوّروا أنّ لدي فكرة خاطئة وغاية خاصّة. ولكنّني شعرت أنه لا يفهمني، ولا يفهم عمّا أتكلم. استمعتُ في تلك الليلة إليه حتّى الفجر واستمع هو أيضاً إلى كلامي. لم يفهمني بسهولة إذ كان مظفّر الصبّاحي اسماً قديماً، مثل اسم يسمعُه المرء مرة واحدة ولن يسمعه ثانية. من الواضح أنه قد سمع قصة قديمة عني، ولكنه ما عرف القصّة بالضبط. عودتي بعد إحدى وعشرين سنة وحبسي في ذلك القصر ليست بالأمر الغريب، بل الأمر الأكثر غرابة هو أنه لا علم لي بأيّ شيء. تكلّم عن حروب لم أسمع عنها قطّ، وقد تحدّث عن مدن لم تكن موجودة في يوم ما، وبدوري تكلّمت عن مدن وقرى لم يسمع اسمها؛ ففي تلك الفترة تمّ تدمير مئات المدن والقرى. حين كان يتكلم عن تدمير بعض الأماكن كنت أنهض وألطم رأسي بيدي الاثنتين. تحدّث عن تدمير ومجازر مفاجئة في حقّ جميع السكّان في تلك المناطق، وكنت "أخدش" نفسي كالمجانين. لا يدري لمَا أرتبك بسبب هدم تلك المدن، والتخريب والمجازر والإبادة الجماعية بحق أناس لم أعرفهم. كلا... كلا، يا أصدقاء... لا تتصوروا أن إكرام الجبلي شخص عديم الرحمة أو قاس جداً، بل هو شخص دافئ ومحبوب جداً؛ رجلٌ ذو قلب عطوف. أقسم بهذا الماء لم يكن هناك أي نقص في إنسانيته، إلا أنه قد ترعرع في فترة يفقد فيها المرء إحساسه بالاستغراب من حدوث المصائب. حدثني طيلة الليل عن التدمير والمجازر والموت والحروب، وأنا أتلوى من الألم كأن زورقاً قديماً

يقودني إلى الشاطئ. تحدّث عن عالم لا يشبه أيَّ شيء منه ذلك العالم الذي تركته ورائي. في جهلي رأيتُ العالَم جنّة، وقد نثرت الرمال على ألوانها سنة تلو الأخرى، من أجل نسيانها وكي لا تزعجني مفاتنُها. لكن ما يتحدّث عنه هو الجحيم عينه؛ ومن آناء الليل وأطراف النهار تحدّث عن التدمير والخراب، منتقلاً من خرابٍ إلى خراب آخرَ، وإلى الموت المفاجئ لعشرات آلاف الأشخاصِ وإلى مقتَل عشرات الآلاف من أناس آخرين. تحدّث حتّى بزوغ الشمس، وروى أحداث سقوط المدن واحدة تلو الأخرى، وانتشار الطاعون والوباء؛ والاندثار المفاجئ لآلاف العشائر، وتحدّث كذلك عن القبائل الغريبة وإبادة الطيور وزوال مئات الأنواع من الأزهار، وعن سقوط النجوم، وظهور المدن من أطلال المدن الأخرى. اقتربت تباشير الصباح، ولا أزال أرتجفُ ولا يزال يتكلّم بصوته البارد والعميق بشكل هادئ، ولم يشعر بالخوف أو الجرأة؛ فقد رأى جميع الكوارث، ولم يناسب وجهه الطفولي البريء عينيه اللتين شعرت أنهما قد امتلأتا بالدخان. ولكن لمّا كان الفجر على وشك البزوغ، جمع حاجاتِه كشبحٍ أصابَه الذّعر من النور، وخرج مسرعاً. فقلت له: «لا تتركني... خذني معك... لديَّ عملٌ كثيرٌ، عليّ أن أعرف الكثير من الأمور». إلا أنّه لم ينتظرني وقال لي أمام الباب بذعرٍ، ذعرِ طائر كبير قد قفز بعد سماعه صوت إطلاق الرصاص: «يجبُ ألا يَعرفَ أحدٌ أنّني هنا، يا مظفّر الصبّاحي... قد تكون عاقبته الموت. سوف أعود إليك، ولكن الوقت تأخّر الآن؛ عليّ أن أذهب». وبمجرّد قوله هذا، خرج من الباب مثل شبح. خلال سنواتي الطويلة بين الرمال رأيت قصصاً كثيرة مثل هذه، إذ استيقظتُ ليلاً ورأيت كائنات غريبة فوق رأسي وهي تتحدث معي.

رأيتُ شخصاً بلون الماء، وإنساناً على شكل هبوب الريح غير الطبيعية، وبلون الكريستال الأسود، وبشكل زبد أبيض؛ رأيتهم يأتون ويتحدثون معي عن الريح والقمر ويوم القيامة والتراب والمطر. عند ذهابه عددت تصرّفه هذا كتصرّف الأشباح؛ إذ تصوّرتُ أنّ جميع أحداث تلك الليلة ما هي إلا هذيانات ورعب وأوهام سوداء. ولكن كم كان مدهشاً أنه عاد في الليلة التالية عند حلول الظلام؛ مرتدياً الزيَّ نفسَه ويحمل البندقية ذاتها ويعتمر القبعة الخضراء إيّاها. بادرني بهذه الأسئلة أمام البوّابة: «لمَ تريد الحرية؟ ما شأنك بالحرية؟ وماذا فعلت الحرية لنا؟ وما الذي تتوقّعه من الحرية؟» كان يبدو وكأنّه قد فكّر فيّ طيلة ذلك اليوم؛ فأجبته قائلاً: «أريدُ أن أبحث عن سرياس الصبّاحي... أرجوك؛ فأنت تعلمُ بكلّ شيء... لقد جبتُ العالم كلّه، في جميع أنحاء هذه البلاد. فقل لي هل وصل اسم سرياس الصباحي إلى مسامعك؟ ألم تقل إنّ جميعنا يستحق أن يتخذ له رفيقاً حيّا؟ ألم تأتِ إلى هذه الغابة بحثاً عن صديقك؟ فسرياس الصبّاحي هو ابني». شحب لونُه حين سمع اسم سرياس الصبّاحي، وسألني بتأمّل: «أسرياس الصبّاحي ابنك؟ أهو ابنك حقاً؟» فأجبته: «لو عدتُ إلى العالم، وإن رغبتُ في الاندماج بحياتكم، فإنّ ذلك من أجل سرياس... سرياس الصبّاحي هو ابني. أنت تعرفه، أليس كذلك؟» فأجابني بحزن عميق: «كلا، لا أعرفه. أنا لا أعرف سرياس ولم أره قطّ... ولكنّني أعرف أنه قد مات. لقد قُتل سرياس الصبّاحي منذ فترة طويلة؛ أنا لا أعرف حكايته كلّها ولكنّني أعرف أشخاصاً يعرفونها... » كان هذا أول رأس خيط لي، فقلت كشخص عاجز: «أخرجني يا إكرام الجبلي... أريد أن أذهب عند قبره، عليّ أن أخرج من هنا...

فساعدني». كان شخصاً غريب الأطوار، فأجابني: «أين تريد أن تذهب؟ فأنت لا تعرف أحداً، وليس لديك مكان لتذهب إليه، وما من بيت لك كي تعود إليه، وما من صديق لك كي يعتنيَ بك. اسمُك غيرُ مسجّل في أيّ مكان في العالم؛ فقد عدَّك الجميع شخصاً ميتاً. وإذا وجدك يعقوب الصنوبر، فإنّه سيقضي عليك. كما أنّني لا أملك مكاناً آخذك إليه». فصرخت كدرويش غاضب: «ولكنّني أملكُ الأرض والليل والنهار والظلَّ والرمالَ والعالمَ أمامي بكلّ اتساعه. هناك آلافُ الحقول التي تشبعني، وآلافُ الأشجار التي تؤويني، وآلاف الأعاصير التي تجعلني أختفي. أنا صديق العالم، صديقُ السماء الشاسعة، صديقُ القمر ورفيقُ درب الأعاصير». فقال بهدوء: «أنت لا تفهم... سوف يجدُك... لقد زرع جواسيسه في كلّ مكان؛ فهذا لا ينفع». فصرختُ في وجه اللّيل: «صحيحٌ أنّه ليس لديّ صديقٌ، وما من أحدٍ لديّ ولا أعرف مكاناً لأذهب إليه ولكن هناك أشجاراً تؤويني، وماءً يجرفني معه، وكهفاً يحتضنني ولا يطردني. أنا متُّ داخل الكراسات فقط، ومتُّ فقط أمام القانون الذي يحكم العالم. ولكنّني لم أمت أمام كنوز الطبيعة، ولم أمت في عين الماء والطيور والأشجار والغيوم؛ لأنّني أملكُ حصّةً من هذا العالم، وحصةً من ذلك القمح الذي ينمو، وحصةً من الماء الذي تشترك فيه النمل والديدان والذئاب، وحصةً من ثمرة الرمان التي على وشك النضوج، وحصةً من جميع الفواكه البعيدة. أنا لستُ مجرّداً من أيّ شيء كما تتصوّر، فهناك دائماً ما يكسوني ويؤويني، ومن يقتسم خبزه معي». استمع إكرام الجبلي إليّ بهدوء ثم ردَّ قائلاً: «عليك أن تعرف الآن أنّ كلَّ شيء سيتغيّر في حال خروجك من هنا؛ وأنّك ستخوضُ غمارَ حرب كبيرة. عليك أن

تعدّ ملجأً قبل دخولك الحرب... أصغ، يا مظفّر الصبّاحي؛ أريد أن أساعدَك ولكنّك تحتاجُ إلى سقف وأربعة جدران. تحتاج إلى غرفة، فالطبيعةُ تَهَبُ كلَّ شيءٍ للبشر: تهبُك الريحَ والليل والبستان. تهبُك كلَّ شيء باستثناء الغرفة، ستحتاج إلى غرفة عند خروجك من هنا... فالإنسان المشرَّد أكثر قذارة من الكلب أيضاً، وجميع تلك الأشياء التي تهبُها الطبيعة للإنسان هي من أجل أن يتمكَّن من بناء بيت لنفسه».

فقلتُ له: «من يقول إنّني بحاجة إلى غرفة؟ فإنّني كنتُ سجيناً إحدى وعشرين سنة في غرفة واحدة. أريد أن أعيش تحت القمر والمطر للأبد... ولن أكلّم أحداً غير العالم». وقف قليلاً وكانت ثمّةَ قطرةُ عرقٍ من الإنهاك تُرى على جبهته. ومثل حصان ضخم في غروب ساخن أحنى كتفيه وحدّق أمام النافذة إلى الظلام وكأنّه يودّع أحداً. كان يشعر بالاختناق والحرّ، في حين أنّني شعرتُ بالبرد. وحين أدار نظراته أدركتُ أنّه غرقَ في تفكير عميق، إذ أغلق عينيه كلّما فكَّر وتصبَّب عرقاً. قال: «الليلة ليس وقت وصف الحرية... إنّه من المبكّر أن تفسّر لي حرّيتك، فدائماً ما يستعجل الإنسان في توضيح حرّياته».

لقد ارتكبتُ ذنوباً منذ تلك الليلة لم يردني يعقوب الصنوبر أن أقع فيها. لم تمحُ كل تلك السنوات براءة قلب إكرام وشفافيته؛ فدائماً ما يتمثّل أمامي وجهه الكبير والشبيه بوجه الغيلان وهدوئه الهشّ الغريب؛ أينما رأيت وجهه. أفكّر فيه كلَّ ليلةٍ قبل النوم، وسأتذكره دائماً قبل مماتي وأينما كنت كل ليلة قبل النوم، وكلّ صباح بعد الاستيقاظ. تذكرته من فوري عند أي حمامة أو فاختة أراها، وأيّ ماء زلال تقع عيناي عليه، أتصوره أنه هو؛ فهو يشبه شخصاً قد أبدع الخالق في صنع روحه! وفي النهاية قال بضحكة ناعمة، ضحكةٍ شبيهةٍ

بمرور شخص في الزقاق واختفائه في الظلام: «ليس لي شأنٌ بالحرية، ولكن لو أخرجتك فما من شجرة ستؤويك من الليل والإعصار ورياح العجز؛ وما من قبر يخفيك. عندئذٍ ماذا... إلى أين ستذهب؟» فصرخت دون أن أتردّد: «سأذهب إلى الصحراء، إلى الرمال... أو إلى خلوة أبدية. أصغ، يا إكرام الجبلي؛ أمامي سفر وعليّ أن أستعد له، ولديّ مَهَمّةٌ عليّ أن أنهيَها... فالأمرُ يتلخّصُ في أنّ هناك حكمةً في عدم موتي خلال إحدى وعشرين سنة. إنها الحكمة في حضوري هنا، هناك حكمةٌ في أنّني ألتقي بك هنا؛ وهذا ليس مصادفةً أو قدراً. إنّه شيء أكثر غرابة من القدر، شيءٌ دقيقٌ ومخطّطٌ له. إن لم تكن أنت فسيمرُّ أحدهم من هنا في إحدى السنوات؛ صيّاد تائه، سأناديه وأقول له يا صديقي، يا أخي، خذني معك». فردّ بهدوء: «لا، لا تتبع هذه الأوهام الآن؛ فنحن وحدنا من يمكنه إيجاد هذا المكان. فمن يأتِ هنا فسيضيع في الغابة. ولا شيء هناك اسمُه القدرُ، فهذا البيت ملجؤه الأخير؛ ملجؤه الغريب والسرّي جدّاً. كنتُ أمين أسراره فترة ما، فترة قصيرة جداً. والآن بات لا يثق في أيّ أحدٍ كان. في ذلك الوقت كان ينظر إلي كشخص غبي جداً، غبي يمكن عقابُه من أجل برسيم الخيل و"دُخْن" البلابل، وخس الأرانب. انتهت الثورة قبل عدة سنوات بالانتصار، وتمّ تعييني حارساً شخصياً له. لم أتصوّر أنّ هناك من ينوي قتله، إذ اتفق مع جميع دول العالم. والجميع هكذا، فكلّ قادة الفصائل يتّفقون مع الدول الأخرى. وذات ليلة جاء وعاقبني بشدة بسبب نفوق أحد أرانبه بحيث غرقت في البكاء؛ ولم يسبق لي أن بكيت بهذا القدر. حتى ذلك الوقت لم يتمّ تعذيبي بهذا القدر في أيّ مكان، حتّى في المناطق الحربية الخطرة، ولا في القصف الكيميائي ولا بالقتال

المباشر بالحراب بين الجنود. إنّني أكرهه، فقد صادر هو وأصدقاؤه كل شيء من أجل أنفسهم؛ كلّ شيء. هناك سرٌّ قد بقي بيننا، هناك شيءٌ لا تصله أيديهم، وهو في أعماقنا، في أعماق أعماقنا. لا تتصوّر أنّ الطبيعة يمكنها أن تخفيك، فهو أكثر قوة من الطبيعة... فالزعماء والأحزاب أكثر قوة من الطبيعة».

في تلك الفترة لم أكن أعرف عمّا يتكلّم، فتصوّرتُ أنّ ثمّة حزناً قاتماً قد جعله يتحدّث بحزنٍ ويأس هكذا؛ حزن لم يتناسب مع ذلك الوجه المضيء والنظرة الحادّة كالحجر. لقد أعطاه الحزن وجه شخص هبط في بستانٍ بعد تحليق مدّة طويلة، لا يتلوّث حزنه بالحقد؛ بل هو شعورٌ داخليٌّ مضيءٌ وظريفٌ مثل إحساس سمكة ما. بداية ولادتنا نحن الاثنين في تلك الليلة، قال لي: «لمْ تبق في هذه البلاد أيُّ حربٍ يدخلها المرء بضمير مرتاح». شعرت أنه يعود بمساعدتي إلى رؤىً قديمة، وهي حول عالم تجري فيه حرب جميلة. لم يكن شخصاً فهيماً جداً، إذ وُلد في بلدة مدمّرة، واشتغل فترة في المطبعة السرّية في الجبال، وهناك تعرّف على شبّان فقدوا حياتهم لاحقاً في ظروف مختلفة، أو ضاعوا أو أخفوا أنفسهم؛ إلا أنّ ثمة ملاكاً وهبه لغةً وذوقاً سحريين. ذات يوم قرّر أن يخوضَ حرباً صغيرة، عندما كان صغيراً هداه تفكيره أنّه لا يستطيع أن يشكّل جيشاً؛ ولهذا حاول شنَّ حروب صغيرة هنا وهناك. أتاحت له الفرصة مساعدة بعض الأرواح المعذبة؛ لصداقته بعض القادة. ومثل أيّ مسافر تائه اتَّبع أولئك الذين يمكن أيُّ شخص أن يكسب قلوبهم بأشياء صغيرة. روى لي قصص التدمير بذلك البرود والصمت إياهما، ودون أيّ حماس وشعور بالفخر روى

قصصَ أناس أنقذهم من الجوع والطوفان والسجن. عيناه عند حديثه زائغتان إلا أنهما مليئتان بظلمات سرٍّ عميق.

لم يسمح لي إكرام الجبلي، في تلك الليلة، بالخروج من ذلك البيت، فأكثر شيء رعباً له عجزه عن ترويض إنسانٌ ما. من ثَمَّ فهو يختلف عنّي تماماً، إذ إني ما أحببتُ شيئاً غير السير في السهول وتحت الأمطار والرعد والبرق.

كلا، لا تتصوّرا أنّني لم أخشَ شيئاً، بل خشيت كلَّ شيء. في تلك الليلة أخبرتُ إكرام الجبلي أنّني أحبّ أن أعيش عارياً في بستانٍ لا تتوقّف فيه الأمطار، شعرتُ بالذعر في أعماقي. ولكن في الوقت نفسه شعرت أنني أقاوم الخوف... فالشجاعة ليست ألّا نخاف، بل أن نكون صامدين أمام مخاوفنا.

حمل إكرام الجبلي بندقيّته قبل بزوغ الفجر ثم قال لي: «لن أعود حتّى أجد مكاناً لك». في تلك الليلة كان عليّ أن أنتظره... انتظار يذكّرني بأيام سجني الأولى. تلك السنوات التي كنت فيها أسيراً غير ناضج، إذ حلمتُ فيها بالحرية طيلة أسابيع وأشهر طويلة... يحتاج الأمر إلى وقتٍ طويل كي أتعلّم ألا أنتظر. ما من إنجاز أصعب من تعليم نفسك عدم الانتظار. يا إلهي... يا إلهي، يا للإنسان الذي يتوقّع كثيراً، ويا لَه من كائن عاجز أمام وساوس تلك البُشرى التي لا تأتي حيث عليك أن تنتظرها حتّى يوم القيامة... الليلة سأخبركم أنّ الإنسان الذي لا ينتظر لا يملك أيَّ شيء. عدم الانتظار يعني الخراب؛ عدم الانتظار يعني انتهاء كلّ شيء للأبد.

8

دعونا نعود إلى الشقيقتين البيضاوين... فعلى جمالهما الصارخ إلا أنه لا حظ لهما في حب أغلب الناس. وتتعدد أسباب هذا الكُره؛ إذ إنهما ليستا شخصين اعتياديين. فقد عايشتا أحداثاً عجيبة لم تشبه قصص أيّ امرئ آخر. فقد شكلت الأحداث التي وقعت بعد موت محمّد زجاجي القلب، صورة غريبة عنهما إلى حدٍّ ما؛ الأغنية التي أنشدتاهما عند قبر محمّد زجاجي القلب كررتاها لاحقاً بصوت عالٍ، إلا أنّهما لم تغنّيا فقط عند قبره، بل قامتا بالغناء في أماكن وأزمنة أخرى؛ الأمر الذي كان عليهما ألا تقوما به.

ترتبط القصص الغريبة التي كانوا يروّجونها عن الشقيقتين البيضاوين مع قصّتي بشكل كبير؛ وقد زادت هذه القصص انزواءهما. وبسبب الوَحدة العميقة والقابلة للتحطّم، خلقتا في أحلامهما أخاً خيالياً لأنفسهما. أتذكرون الزلازل؟ أتذكرون أسبوعيّ الخوف وعدم النوم المهلكين، عندما اهتزّت الأرض ذاتَ ليلةٍ عدّة مرّاتٍ مثل جثّة غاضبة تهتز أثناء الحمل؟ تذكروا تلك الليالي الملأى بالترديد والقسوة، حيث كان مئات الآلاف من الناس يفرشون أماكنهم في الشوارع وعلى الأرصفة والطرق؛ ويحدّقون إلى السماء والنجوم ونتف الغيوم الكئيبة. وتتحرّك السحب منهكة وبشكل غريب في السماء في اتجاهات مجهولة وكأنّ ريحاً جحيمية تسحبها معها. تلعب تلك الهزات الأرضية الغامضة مع الحياة، وحين تهدأ الأرض، يرتاح العالم... تخلق الليل وتهب الطمأنينة للقلوب وتجلب ارتياحاً

نهائياً وهدوءاً، حتّى يصدق الناس جدرانهم شيئاً فشيئاً وتقنع الناس كي لا يرتعبوا من الأرض والسماء والشقوق غير المرئية للأجرام السماوية، ليعودوا تحت أسقف بيوتهم. ولكن بمجرد أن يعود الناس إلى بيوتهم بطمأنينة وسكينة، تقوم بهزّ العالم مجدّداً كأفعى مخادعة تقوم بألاعيب. لم أكن هناك فلم أعرف بالضبط المدة بين كل هزّة وهزة. فأمّا الأشخاص الذين يبحثون عن صفة شيطانية في شادريا ولاولاو البيضاوين، فخروجهما من البيت قبل عدة دقائق من وقوع الهزّات غريب، وكأنهما يعرفان موعد وقوع الهزّات، وكأنهما تملكان ساعة سحرية؛ أو همست لهما الأرض محذّرة بوقوع الهزّات. بعد الهزّة الأربعين الشديدة انتشرت في كل مكان قصّةُ الفتاتين الساحرتين اللتين تعرفان سرَّ وقوع الزلازل. تشكَّلت في تلك الليلة قصةً، وانتقلت من زقاق إلى زقاق آخر، ومن سوق إلى أخرى أنّ للشقيقتين ارتباطاً وثيقاً مع الشياطين؛ وأنّ الشقيقتين تخدران الطيور والفراشات حتّى البشر بصوتيهما الرنانين جداً، ويمزقان نياط القلب، وتجولان في المقابر وترددان الأغاني. انزوت الشقيقتان بسبب هذه الأحاديث أكثر فأكثر... وذات يوم انتبهتا إلى أنهما لا تملكان أيَّ صديق في تلك البلاد؛ ومثل عصفورين قد حلّقا في جوٍّ ضبابي يحجب الرؤية وتفاجأتا بوجود أنفسهما في بستان العدوّ كثيف الأشجار، وجدتا أنّ الصباح والنجوم من أعدائهما. وهكذا باتتا وحيدتين ولم تعرفا سرَّ هذه الوَحدة.

لاولاو وشادريا البيضاوان طائران بلا صديق، والشيء الذي جعل قصتهما تبدو حديثة دائماً هو ظهورهما المستمرّ، إذ لم تعرفا

الاستقرار في البيت كالفتيات. تخرجان عند شعورهما بالوَحدة، تبدوان في تنزهاتهما المستمرة في الأزقّة المظلمة والشوارع الصامتة كأنّهما تبحثان عن شيء ما؛ فقد باتتا تُشاهدان في جميع اللحظات الغريبة والمفاجئة وعديمة التفسير. شوهدتا ليلاً عند القبور، وفي الصباح الباكر في الشوارع الباردة والخالية والشبه الميتة، كأنّهما روحان صامتتان قد عُقدتا بعضهما ببعض إلى الأبد.

ظهر سرياس الصبّاحي مجدّداً في خضمّ ألم الوَحدة ذاك. لا تفكّروا سوءاً... أودّ أن تكونوا متأكّدين أن سرياس الصباحي والشقيقتين لم يقعوا في غرام بعضهم الآخر أبداً، فالقصة هذه التي نرويها لكم خالية من الحبّ. كلا، لا تتصوّروا لمّا قد جئت من الصحراء وجعلتني الرمال أشيخ، فإنّني صرتُ مثل أولئك الذين يجلسون في الطابق العلوي لدور السينما، ويقومون بقصّ بعض المشاهد بأريحية وكما يشاؤون؛ ويخرجون مشاهد التقبيل ويقصون الصور السحرية وجماليات الأجسام الفاتنة. لا... يا أصدقائي، فهناك أشخاص لا تعرفون أين ستجدونهم غداً. تأكّدوا أنّ قصتي ليست قصّة حبّ. حين جاء سرياس الصباحي مجدّداً كانت الشقيقتان على ثقة أنه لا يجب أن تخشيا ذلك الشاب بوجهه المغبر والمسوّد. كلا، لا تقولوا إنَّ مدَّة إحدى وعشرين سنة بين الرمال قضاها سرياس الصبّاحي... جعلته جاهلاً، مسكيناً وأعمى. ففي عالمنا، عالم الرجال الصغار والمجروحين مثلي أنا وأنتم، فإن الإنسان إن استحقَّ وصال الحبّ أم لا يستحقه فإنه غالباً موضع اختبار. وسرياس الصبّاحي هو من نوع الرجال الذين لا يخطر الحبّ على ذهنهم أبداً.

في المساء الذي ذهبُ فيه سرياس الصباحي إلى قبر محمّد زجاجي القلب، كان أحد أُمسياته الاعتيادية، إذ خطّط لحياته بدقّة غريبة. لم يكن بيته في المدينة، بل استأجر غرفة في إحدى المخيمات عند شيخ زوجته العجوز مريضة في خارج المدينة؛ وقسّم غرفته بجدار من الألواح الخشبية. إحدى الغرفتين عادية جدّاً وخالية من أيّ شيء باستثناء بساط، ووسادة كبيرة ومصباح وخزّان يحتفظ فيه بحاجاته، وأمّا الأخرى فهي أكثر الغرف غرابة رأيتها في حياتي. من الطبيعي أني رأيت غرفته بعد سنوات من موته... إذ إنّ بعض الأشياء تغيّرت أماكنها؛ فقد سرق لصوص مساكين بعضاً من حاجاته، وقد باع الرجلُّ المسنُّ وزوجته الأشياء القيّمة. ولكن مع هذا، شعرت برائحة وحدته عند دخولي الغرفة؛ رائحة حياة شاب قُتل في صباه، شخص تركه العالم في عمر الورود. والشيء الوحيد الدّال على شخصيته وسلوكه هو اللوحات الغريبة المعلّقة على الجدران. إني لأشفق عليه فهو شابٌّ غريبٌ وعميقٌ جداً قد عُجن بأوهام رجولية. الجدران مغطّاة بصور رجال وهم يمتطون الخيول أو يركبون دراجات نارية، ومئات الصور لفنّاني الكاراتيه والممثّلين الهنود وأبطال كمال الأجسام. ولديه صندوقٌ خاصٌّ بأشرطة كاسيت لم يوجد فيه غير عدة أشرطة مكسورة.

كلا... تمهّلوا، لا تطلبوا منّي أن أستمرّ بالقصة بسرعة وبتهور؛ فإنّه الليل وإننا في هذا البحر الشاسع. يا إلهي... إنني أشعر أنّ التحديق إلى البحر كثيراً يجعل المرء مريضاً. أين أنا وعمَّ تحدّثتُ؟ أجل... من المفترض أن أتكلّم عن العالَمَيْن إذ إنّ سرياس الصبّاحي

يعيش فيهما، عن تلك الغرفة الملهمة للخيال حيث كانت ذات يوم ممتلئة بالأشياء العجيبة كأحجار الأوزان، وقفازات قديمة، وميزان مكسور، ومجلات قديمة، وصور حيوانات خيالية، ومسوَّدات تمرين تخطيط لاسمه مع خطوط مختلفة. آه... لو لم أرها لانتابني الشكّ، ولكن هناك قطعة من ورق الكرتون معلّقة على الجدار قد محت رطوبة الأشتية الباردة حروفها؛ وفي الضوء الشحيح ذاك يمكنك رؤية يدٍ صبورة قد خطّت مئات المرّات «سرياس الصبّاحي... سرياس الصبّاحي... سرياس الصبّاحي». وكأنه خشي نسيان اسمه، أو أراد أن يضع اسمه أمامه حتى يضفيَ عليه احتراماً واعتباراً؛ ووجد نفسه هناك قوياً وجميلاً وزاخراً بالمعاني. بدأ في تلك الغرفة ممارسة التحوّل إلى «الإنسان الكبير». وهناك قد حدّق إلى معنى نفسه وسرّ اسمه.

التقى سرياس الصباحي الشقيقتين البيضاوين في حافلة بائسة متّجهة إلى قسم المدينة الشمالي. وفي هذه المرة، وفي رائحة الدخان والعرق وثمار نساء مرتديات العباءة، سلّمت الشقيقتان عليه بصوت خفيض. قصّ شعرَه مشابهاً موضة تلك الأيام، إلا أنّه من الضعف والهدوء واسوداد بشرته بفعل الشمس بحيث لم يلفت إليه الأنظار، ويتكلّم، كعادته، بصوتٍ عالٍ ويضحك بصخب أيضاً. ارتدى قميصاً بلون السكر ذا قبة بيضاء وبنطالاً عريضاً أبيض بالياً. بدا مظهره كالفقراء، ولكن جميع الذين يعرفونه يعرفون أنه على فقره الشديد لم يتصرّف كالفقراء قطّ. حين ترجّلوا من الحافلة، قال للشقيقتين البيضاوين: «ليس جيداً أن يركب المرء الحافلة الأكثر بؤساً في العالم من أجل الذهاب إلى الأحياء الشمالية الجديدة». استمتع بالسير في الأجزاء

الشمالية من المدينة؛ فقالت الشقيقتان: «جميع الحافلات بائسة». فرد ضاحكاً: «جميع الحافلات هي الأكثر بؤساً في العالم». في ذلك الغروب بقي سرياس الصباحي والشقيقتان فترة قصيرة معاً، وخلال هذه الفترة كانت لسرياس الفرصة ليردّ على أسئلتهما باقتضاب؛ أسئلة من النوع التي تطرحها الفتيات في مثل هذه الأوقات. مثل: كم أختاً لديك؟ كم أخاً لديك؟ وفي أيّ سنة دراسية؟ ما عمل أبيك؟ وكان سرياس قد ردّ: «ليس لدي أخ أو أخت، ولا والدين ولم أذهب إلى المدرسة». ثم حين طرح سرياس أسئلته تحدثتا عن وفاة أبيهما وأنهما ليس لديهما أخ، وأضافتا بفخر أيضاً: «نحن ندرس في الكلية». ولما انتهتا من كلامهما، قال بشيء من الخجل: «إنّي أعرفكما، إنّكما الشقيقتان البيضاوان. إني أرغب في سماع صوتكما ثانية». فردت لاولاو وشادريا البيضاوان بكثير من البرود: «لا، ينبغي ألا ترغب في ذلك. ينبغي ألا ترغب في سماع صوتنا. عليك ألا ترغب في ذلك أبدا». وحين ذهب سرياس الصبّاحي شعرت الشقيقتان بالندم لبردوهما وتعاملهما السيّئ وشعورهما بالإحراج؛ ونادراً ما شعرتا بالندم. يا إلهي، إنكم لا تعرفونهما، فأنا الشخص الوحيد الذي عرف قلبهما الشفّاف، قلباً أبيض كالقطن، قلباً مثل قلب الملائكة المباركة. لقد كان ندمهما مرعباً جداً؛ إني متأكد أن أحدكم يريد أن يعرف لمَ شعرت الشقيقتان البيضاوان بالندم. يتعلّق ندمهما بلون ذلك المساء المشؤوم الذي ألقى بظلاله على سرياس الصبّاحي. ثمة شيء في ذلك الشؤم جعل الآخرين ينجذبون إليه بعد قليل من المجالسة. شيء أُطلق عليه «قوة الحياة»، السحر الذي انتهى بموته.

سمّى نفسه «الشابّ الأكثر فقراً في العالم». يمضي حياته في عسر شديد لا يمكن وصفه؛ والشيء الوحيد الذي أبقاه حياً هو ضحكاته التي ما عرفت الليل ولا النهار ولا الشمس والقمر، وجاهزة دائماً. في ذلك اليوم الذي تعاملت فيه الشقيقتان البيضاوان مع سرياس الصباحي ببرود وعدم الرغبة، شعرتا بالكآبة مساءً. أجل... لقد قلت لكم منذ البداية أن لهما قلبين شفافين وكبيرين ينبضان، يشبهان حجرَي ألماس ضخمين في صدريهما. في تلك الليلة كاد أن يحدث شيء يجعلنا نغرق في غبار موته إلى الأبد خلافاً لقصّة موت محمّد زجاجي القلب... كلا، لم تقعا في غرامه إلا أنّ ظلّ الشابّ الثقيل يثقل ضميريهما. خرجتا في وقت متأخّر من الليل، وتتبعتا صوت ضحكته وكأنهما تبحثان عن نداء خفيّ. كان صوت قهقهته يرنُّ في أذنيهما باستمرار، إلا أنّهما لم تصلا إلى غايتيهما... أينما تسيران يرنّ صوت ضحك سرياس الصباحي في أذنيهما، وأي زقاق تدخلاه، فتلك الضحكة موجودة أيضاً؛ إلا أنهما لم تجداه في أيّ مكان، عادتا في النهاية إلى بيتهما بذهن مشوّش وقلب مضطرب. لولا تلك الليلة لما حدثت هذه القصة؛ ولولا ذلك الاشتياق والاضطراب لما ملكتُ شيئاً لأرويه لكم الليلة، أو ربّما رويت لكم قصة أخرى دون أن أذكر الشقيقتين البيضاوين، أو الليلة الباردة وعيونهما الباردة وقلبيهما الحنونين. حين شعرت شادريا ولاولاو البيضاوان بالحنين امتلكهما الخوف والاضطراب؛ ولاحقاً حين تعرفتُ عليهما كان لا يزال فيهما ذانك الاضطراب وعدم الهدوء إياهما. تضطربان بأقل تهيج، فتتورد خدودهما وتقضمان أظفارهما، وهما تنظران بعضهما إلى بعض، وتفكان جديلتيهما المضفورتين. وعند ذلك يتسع بؤبؤا عينيهما،

ولكنهما في الوقت ذاته تبدوان باردتين وقاسيتين. في الأيام التالية بحثت لاولاو وشادريا عن سرياس الصباحي في كل مكان؛ وأثناء دراستهما في تلك الكلية تسمعان ضحكاته في الممرّات الفارغة، وحين تذهبان إلى دورة المياه الخاصة بالنساء، تسمعان قهقهته الأخيرة الحزينة بعد تدفّق مياه المرحاض وانتهاء همسات البنات وضحكاتهن. بحثتا باستمرار عنه عدة أيام دون أن تعرفا لمَ تبحثان عنه وأيّ كلام لديهما لم تقوّلاه له؛ إلا أنّهما تريدان الغناء له تلبيةً لطلبه، ومن أجل تهدئته مرة واحدة على الأقل.

شاهدتاه بعد عدة أسابيع ذات يوم في ساحة المدينة الكبرى، يجرُّ عربةً كبيرةً قد وضع فيها عدّة أكياسٍ من البطاطا؛ وأراد أن يصعد من منحدر الشارع ليوصل نفسَه إلى جِوار باب الجامع كي يفرش بضاعته بالقرب من باعة الأسماك. بذل جهداً كبيراً كي يديرَ العربة في منعطف حادّ ويوقفها ويثبتها في الطريق. وبينا تنظران إليه بارتباكٍ، سمعتا أحدهم يناديه: «يا مارشال، يا مارشال... لقد نسيت سجائرك». عرفتا أول مرّة أن سرياس أحد أعضاء جيش الباعة الجوّالين ويناديه زملاؤه بلقب «مارشال العربات». سمعتاه يصرخ على صبي بائع الماء بغضب: «لو عطشت مئة سنة ودلو الماء الوحيد كان دلوك هذا فإني لن أشرب من هذا الماء. فاذهب الآن ودعني وشأني». يا لَه من أمرٍ غريبٍ حين تقدّمتا وخاطبتاه بصوت مفعم بالألحان: «مساء الخير، يا مارشال». كانت بيده حجارةٌ أراد أن يزنها مع حجارة صديقه ذات الخمسة كيلو غرامات، كي يعرف هل ميزانه دقيق أم لا. في اليوم السابق رمى حجارته ذات الخمسة كيلو غرامات في إحدى مشاجرات

أصحاب العربات اليومية بما أوتي من قوة، من ثم لم يستطع إيجادها بعد انتهاء المشاجرة وفضّ النزاع. فقال له أصدقاؤه: «ليخرب بيتك؛ لقد رميتها بشدّة إذ ما زالت تحلق في السماء». غضب فجأة إذ بدا كأنّه قد أصيبَ بالعمىٍ ولم ير الشقيقتين البيضاوين، فلم يرد. بل قال: «خراء! خراء! إنّ أخفّ حجارة في العالم تزن أكثر من نصف كيلو... إذًا، فما عساي أن أزن؟» وفي خضمّ ذلك رفع رأسه فوقع نظره على الشقيقتين البيضاوين، فعادت إليه السعادة والارتياح كلمح البصر؛ وخاطبهما قائلاً: «سامحاني يا سيدتاي... لم أكن أرغب في أن تسمعا شتائمي وكلامي البذيء، ولكن إنّها السوق وإن لم يشتم فيها المرء فإنّ قلبه سينفجر، وإن لم يتفوّه بكلام بذيء في النهار فإنّهم سيعيدون جثمانه إلى البيت مساءً». فردّت الشقيقتان بعيون واسعة ومملوءة بالحنان: «يا سرياس الصبّاحي، لقد بحثنا عنك كثيراً». فقال مرتبكاً: «لتهنأ أنفسكما... ليسلم رأسكما... أقبل يديكما». وإلى سنوات عديدة حين تذكرت الشقيقتان هذه الواقعة، انتابهما الضحك؛ كما أنّ عيونهما امتلأتا دمعاً عند تذكرها. لقد خرجتُ متأخّراً ولم أرَ عالم أصحاب العربات، ولكني أستطيع تخيّل شابّ في زحام سوق كبيرة بين صخب أصحاب العربات وصراخ باعة البصل والفجل والطماطم حيث توصف كلّ واحدة من هذه الخضروات بجمال عالم الجنيات.

رأى بخجل في تلك اللحظة فتاتين تلقيان عليه التحية؛ كان الصبي الأكثر فقراً في العالم، ولا يعرفه أحدٌ من أين قد جاء، ولا يعرف هو نفسه ذلك أيضاً. كائنٌ غريبٌ، يعرف فقط أنّ اسمه سرياس الصباحي؛ اسمٌ غريبٌ في غابة الأسماء القاسية مثل الليلة هذه، عندما جلستُ

في معرض نسيم الليلِ والهواء المنعش يلفح وجهي. لقد جلستُ مئات الَمرات هناك ليلاً وفكّرت في تلك اللحظات... كيف يجب أن يكون إحساسُ سرياس الصبّاحي حين شاهد ملاكَين قد وقفا بجواره في السوق في قيظ الظهيرة، وهو يرتدي ملابس الفقراء الأكثر رثاً في العالم، ويقفُ بجوار أصغر عربة في الدنيا؟ إنّني متأكّد أنّه لم ينتظر شيئاً، فكلُّ شيء يشهد على أنّه لم ينتظر شيئاً ما. وقد تمكّن من قول هذه العبارة فقط: «أريد أن أكون "إنساناً عظيماً"». كانتا أكثر سذاجة وصغراً ليفهما معنى «الإنسان العظيم». إنّني أعرف أنّه في تلك اللحظة حين رأى الفتاتين شعر بالخجل لأنّه ليس من الرجال الناجحين؛ من أولئك الذين يحكمون العالم الموجود في كلامه فقط. شعر بالإحراج من نفسه ومن العالم؛ من العالم الذي قال عنه «العالم الأكثر قذارة بين العوالم الأخرى».

سرياس الصبّاحي البائع الأكثر ذكاءً وفطنةً ووسامةً في جيش أصحاب العربات؛ وفي الوقت نفسه لم يخشَ النزاع وخوض المشاجرات أيضاً. لقد مات بعد ثلاث سنوات من رحيل زوجة عمّه الأخيرة، إذ لديه عدة زوجات عمّ. ومع تدمير القرى واحدة تلو الأخرى والنزوح الجماعي، يستقبلنه بترحاب، وكان يسمِّي أيَّ امرأة وهبته الخبزَ وغسلت ملابسَه بزوجة العمّ. في العاشرة من عمره قضى فترة في إحدى دور رعاية الأيتام، وقبل ذلك تعلّم القراءة والكتابة عند شيخ يقيم في الجبل. ولاحقاً عندما استقرّ في ذلك المخيم الحار والفاقد للماء عند امرأة وزوجها، بدأ رحلته الطويلة مع كل تلك المهن الغريبة والسخيفة التي هي فوق طاقته. لم يتجنّب أيَّ عمل:

عاملٍ في مطعم، صبي مكانيك، عامل بناء في المخيمات المقامة حديثاً، بيع الماء بالقرب من الحدود، حمل إطارات المركّبات على شاحنات المهرّبين، غسل السيارات بالقرب من المطاعم في قارعة الطرق، تنظيف القاذورات في أول مستشفى خاصّ، وبيع الأكياس الفارغة في الأسواق... قام سرياس الصبّاحي بكلّ هذه الأعمال قبل شرائه العربة التي يسمّيها «صدر كجال[3]»، ولم يختر سرياس هذا الاسم بنفسه بل أطلقه بائع جوّال وقع في غرام فتاة معروفة باسم كجال. يبدو كأنّ كجال قد تزوّجت بأحد عناصر البيشمركه يعشق فتاة أخرى، وتلك الفتاة أيضاً عشيقة شابّ آخر يحبُّ فتاة أخرى... يبدو كأنّ تلك الفتاة أيضاً قد وقعت في غرام رجل متزوّج يعيش في مدينة أخرى ويعشق صبية صغيرة... وهكذا اجتمعت الخيبات والفشل في الحبّ كلّها في تلك العربة الصغيرة. كانت «صدر كجال» أصغر عربة في العالم؛ ولاحقاً حين أبحث عنها عرفتُ أنّهم قد حطّموها في حملتهم الكبرى لإزالة العربات وطرد أصحابها. لقد كتب أحدهم بخطّ أزرق في الجزء الأمامي لعربته «صدر كجال»، وفي أدنى منها وبالخطّ نفسه كتب «لو كان لحبّي لسان، فيا ربّ ليفنى عمري في الحال»؛ وفي الجهة الأخرى كتب «هذا الحبّ الذي يبدو كنارٍ لاهبة حرق طائر قلبي بالخطأ». في تلك السنة التي اشترى فيها سرياس الصبّاحي «صدر كجال» كان عدد العربات المتفرّقة كثيرٌ جداً، بحيث إنّه في مساء اليوم الأول من عمله وقعت الحرب الأولى بينهم وبين الشرطة ومأموري البلدية؛ وهو واحدٌ من آلاف الباعة الجوّالين الذين

(3) اسم يطلق على الفتيات ويعني الغزال.

يعرضون بضاعتهم في العربات منذ الصباح الباكر في وسط المدينة. اليوم الأول من عمله مظلمٌ، وفي اليوم ذاته قتل الباعة الجوّالون أحد مأموري الشرطة بالقرب من عربات بيع الزيت. رأى سرياس مجازر وعمليّات إبادة بحقّ الكثير من الأشخاص سابقاً؛ ولكنّ هذه المرة هي الأولى التي يلمس دماء ميتٍ ما. هجم ثلاثة من الباعة بقضبان معدنية على مأمور الشرطة، وضربوه بشدة بحيث تناثر مخّه على علب الحليب المجفّف ومسحوق الغسيل والصابون التركي. وسرعان ما انتشرت إشاعة كبيرة في السوق كلّها تفيد بأنّ الحكومة تنوي إحراق جميع العربات. في تلك الليلة جمع سرياس وباعة آخرون جميع العربات في ساحة كبيرة وقاموا بحراستها. في تلك الفترة نادراً ما يعود سرياس إلى المخيّم إذ ارتاح أغلب الليالي في غرفة صغيرة من الصفيح في الساحة. وقفتْ في ذلك اليوم الشقيقتان البيضاوان أمام العربة فترة طويلة وتحدثتا عن إحساسهما بالندم الذي شعرتا به بعد اللقاء الأخير. تحدّثت الاثنتان بحزنٍ إلا أنّ طنين صوت الفتاتين الظريفتين الجميلتين تماوج في كلامهما. استمع عدّة باعة إلى صوتيهما من بعيد؛ ولم يسمعوا لحناً بجمال صوتيهما في أيّ صوتٍ آخر. تتمنّى الفتاتان أن ينظر إليهما سرياس الصبّاحي بعين أخ. كما أخبرتاه أنه لو رغب فإنهما سوف تغنّيان له. سرياس في ذلك اليوم مشتت وغاضب بحيث إنه لم يتفوّه بشيء، وحين رحلت الأختان البيضاوان كره نفسه بشدة ورمى كفّتي ميزانه وقال بهدوء ويأس شديدين: «هذا اللسان اللعين، وهاتان اليدان والرجلان الخرقاء، لمَ ثبتت هكذا مخدّرة وصمّاء وبكماء». يتصوّر أنّ الخجل وارتباكه وصدمته المفاجئة تسبّب بكلّ ذلك الانطباع السيّئ عنه لدى

الشقيقتين البيضاوين. لكنّ الأمر خلاف ذلك؛ إذ ضحكت الفتاتان البيضاوان حتّى الصباح، وقد أثّر فيهما خجل ذلك الشابّ ودهشته وحياؤه بشكل غريب، إذ لم تريا شخصاً يضطرب إلى هذا الحدّ؛ ولكنّ سذاجة سرياس وحياءه المفاجئ قد زادا من اطمئنانهما بشكل غريب. وكما روتا لاحقاً، فإنهما تبحثان عن شقيق لهما. ضحكتا في تلك الليلة كثيراً وعند الفجر حين بانت خيوط النهار، قرّرت شادريا ولاولاو البيضاوان أن يتخذا سرياس أخاً وصديقاً أبدياً لهما، ثم احتضن بعضهما بعضاً وربتتا على شعري إحداهما الأخرى حيث كانت الريح الصباحية تهبّ فيهما؛ وابتلعتا الهواء الصبّاحي وآوتا إلى الفراش بابتسامة تبدو نصفها كضحكة البشر والنصف الآخر كضحكة الجنيات، غافلتين عن جميع الأيام الغريبة التي تنتظرهما.

9

عاد إكرام الجبلي بعد ثلاثة أسابيع؛ وفي هذا المدة تعلّمت الانتظار، والآن لم أعد نادماً على الحرية مع مراراتها كلّها التي تحمّلتها من أجل الوصول إليها. لذلك فتحتُ ذراعيّ للعالم وقلت له إنّني حيّ وأتحمّل الحياة ولست نادماً على ذلك. بإمكاني البقاءُ مثل شخص معتكفٍ غافلٍ عن الدنيا، كمن خفّف حمولة حياته كثيراً، ولكنّني بعد إحدى وعشرين سنةً أردت أن أجرّب كلَّ شيء مجدّداً. حين عاد إكرام الجبلي في تلك الليلة بدا وجهه أكثر فتيًّا، كما أنه بدا أكثر ألفة وهدوءاً من السابق، وفي الوقت نفسه بدا أكبر وأصغر سنّاً أيضاً... وبجسده الضخم ذاك بدا غولاً صغيراً حيث ملأ الغرفة كلّها بجسمه، وفي الوقت نفسِه لديه نظرةُ طفلٍ ينظرُ من زاوية ساحةٍ ما إلى الأطفال الآخرين.

أخرجني إكرام الجبلي من هناك بشرط أن أستطيع الاعتناء بنفسي؛ خشي شيئاً لم أعرفه في ذلك الوقت. كانت ليلة ظلماء، لا أثرَ للقمر؛ وكأنّه متعمدٌ في اختيار تلك الليلة. سار في الغرفة بقبّعته وبندقيّته، وقال: «علينا الانتظار حتّى وقت متأخّر»، ولم يقل شيئاً آخرَ عن هذا الأمر؛ بل تحدّث عن نفسه فقط: «لقد خدمت الثورة عدّة مرات، فقد فعلتُ كلَّ شيء إلا القتل... أشعر في بعض الأحيان بالندم وفي أحيان أخرى لا أشعر بذلك. يا مظفّر الصبّاحي، إنّ البراءة تهبُك إحساسَين منفصلين بعضهما عن بعض؛ إذ تشعر مرّة بأنّك لا شيءَ وعاجز وأنّ براءتك تشبه براءةَ أرنب بين قطيع من الذئاب. وفي أحيان أخرى كلا، بل تشعر بأنّك لا تزال طاهراً بعد كلّ تلك الحروب... وبعد ذلك تقول

إنّه جيد، وجميل وأنك قد أنجزت عملاً كبيراً وبلا أيّ نقص. يا مظفّر الصبّاحي، إن الثورة كذبة كبيرة... أنت سعيد، أنت مقاتل مع أنك لم تشارك في القتال، وهذه هي النعمة الإلهية ذاتها. تصوّرتُ أنّ النعيم سينبت فجأة بعد نجاح الثورة، وسيظهر على وجه الأرض؛ ولكن حين تغسل رأسك ووجهك، وبعدما تفتح عينيك في اليوم الثاني، ستدرك كلَّ شيء عندئذٍ. يوماً بعد يوم شعرتُ بولادة ذلك الشيطان الذي كان شيئاً صغيراً في البداية. في البداية تقول مع نفسك ما العيب في ذلك، فالشيطان أيضاً جزءٌ منّا جميعاً. شيءٌ صغيرٌ يكون جزءاً من خصال أيّ إنسان... ولكن حين يكبر شيئاً فشيئاً سترى أنّه يبتلعُ كلَّ شيء... كلَّ شيء». وقف ونظر من النافذة إلى الخارج وهو يتفوّه بهذا الكلام، ثم اتسعت عيناه بحيث بدا كأنّه يريد أن يحدق في بحرٍ لا متناهٍ. شعرت أنّ الثورة قد سلبت منه شيئاً كبيراً؛ فقلت: «يا إكرام الجَبلي... ألا تريد أن تقول شيئاً لي؟ لقد أخبرتك بقصتي كلّها، ولكنّك لا تريد أن تخبرني بأيّ شيء؛ فهناك شيءٌ ناقصٌ في حياتك تخفيه عنّي». فقال: «كلا، لم يكن هناك شيء ثمين في حياتي ليسلبوه مني. أنا لا أتحدّث عن نفسي، بل عن أشخاص آخرين قد تعرفتُ بهم مصادفة. يا مظفّر الصبّاحي، لقد كنتُ أحد أعضاء الحزب، إلا أنّ الإنسان في حالته الاعتيادية لا ينتبه إلى أيّ شيء، ولكنّني أدركت بعض الأشياء مصادفة. والآن حيث يكون المرء حراً يمكنه ألا يرى شيئاً... يمكنه أن يواصل طريقه وأن يتفرّج. منذ سنواتٍ وأنا أتابعُ أحلامي هكذا... أحرّر أسيراً ما، وأعد راتباً شهرياً لعجوز ما، وأعدّ زاداً للسفر لأحد الشبّان، وأخفي بعض الأشخاص من الأحزاب الأخرى؛ والآن أقوم بأيّ شيءٍ له معنى... شيء يساعدني لئلا أبقى وحيداً في هذه الليالي الطويلة الحالكة... شيء

يساعدني كي أشعر بأنّني حيٌّ... فبعد الثورة أصبحت وحيداً جدّاً». قال هذا، ووقف منتصباً أمامي. يا إلهي! عيناه ممتلئتان بالدموع، وبدا مثل حيوان أسطوري قد وقع جريحاً بين الأشجار، ولم يعد بإمكانه السير. الدموع التي رأيتها في عيون إكرام الجبلي اختلفت عن دموع يعقوب الصنوبر؛ فدموعُ إكرام من أجل العالم كلّه، في حين أن دموع يعقوب الصنوبر بدت مثل دموع شخص يبحث عن شيءٍ ما ولا يجده؛ دموع شخص يدمّر كلّ شيء حوله ولا يجد الشيء الذي يبحث عنه. تشبه دموع إكرام دموع بستاني يرى ذبول أزهاره؛ في حين أنّ دموع يعقوب هي دموع شخص قد داس على جميع الأزهار بحثاً عن تلك الزهرة الأسطورية في ذلك البستان. جلس إكرام أمامي بهدوء وقال: «بعد الثورة بتُّ أشعر بأنّني تافهٌ ولا قيمة لي... في البداية أردتُ أن أدرس، وأذهب لأبدأ حياتي على نحوٍ آخر. يا مظفّر الصبّاحي، ما من شيء أكثر صعوبة من البدء من جديدً... في الليالي نمتُ على سطح البيت، وجميع أشباح الماضي خلال تلك الفترة تهاجمُ رأسي. صور تلك الغابات والبيوت والمدن المدمَّرة موجودة هنا دائماً... هنا» قال هذا وأشار إلى رأسه بيديه الكبيرتين اللتين هما أكبر من أيدينا عدة مرات. فيه شيء من الجنون، إلا أنّه جنونٌ داخليٌّ، خفيفٌ وهادئٌ، ودائماً ما يتكلّم بلحن واحد وأسلوب مشابه. هو نفسه عندما يضحك أو يشرع في البكاء؛ كائنٌ غيرُ متغيّرٌ قد جثم في أعماقه شيءٌ ذو جوهر أبديّ. في حنجرته ثمّة صوتٌ جهوريّ يبدو مثل صوت نار أشعلتها الريح. وهو أيضاً يهربُ من ماضٍ ما... نعم، يا أصدقائي؛ يا رفاق سفري في طريقي المظلم في الليل والبحر. منذ ذلك اليوم الذي خرجت فيه من تلك الصحراء رأيت أشخاصاً كلّهم يهربون من شيء ما... انظروا

إلى أنفسكم، فأنتم لا شيء سوى عدّة أشباح قد ركبت باخرة هرباً من شيءٍ ما. شيءٍ لا اسم له ولا لون ولا شكل بحيث لا يمكنك أن تمسكه بيدك وتجعله أليفاً. مثل إكرام الجبلي يهرب من شيءٍ ما... ولكنه لم يكن يعرف أي طريق يسلكه؛ كان يريد الذهاب والبدء على نحو آخر، إلا أن رائحة البارود والموت لم تدعه يفعل ذلك. في الليل حيثَ كان يغرق في النوم لم يكن الرجل الهادئ في النهار نفسه؛ إذ كان يصرخ طوال الليل وكأن شخصاً ما قد وضع يديه على حنجرته ويحاول خنقه. كان عليه أن ينهض سريعاً ويرش الماء على وجهه ليقول: «ويحي، يا إلهي... يا ويحي؛ ما هذه الليلة؟»

في تلك الليلة غيرت ملابسي قبل الذهاب، وكانت هذه المرة الأولى التي أرتدي فيها بعد عدة سنوات لباساً آخر غير جلباب السجن. لم أرد أن يحلق لحيتي في تلك الليلة، فقلت له: «دعني وشأني، يا إكرام... دعني أعود إلى العالم بملامح السجن ذاتها. . . » في تلك اللحظة التي أخرجني فيها امتلأت عيناه بالدموع؛ كان الضياء والجمال وبريق السماء قد استقر في وجهه الذي شعرت أنه يبدو أكبر وأكثر بريقاً في الظلام. ولأول مرة ارتديت قميصاً أبيض وبنطالاً رمادياً غامقاً، ووضعت على كتفي شالاً بهت لونه، واعتمرت قبعة صغيرة... لا تنسوا أنني منذ إحدى وعشرين سنة لم أضع قدمي على أرض صلبة، ولم أرَ الجبال والسهول منذ ذلك الوقت، كانت ليلة مثل تلك الليلة التي ألقوا فيها القبض عليّ. وكانت اللحظة التي أمسك فيها إكرام بيدي وسحبني من بين الأشجار، كانت تشبه تلك اللحظات التي أخرجني فيها عناصر الكوماندوس ذوو الملابس الخضراء بيدين مغلولتين. حين كنا نمر من

بين الأشجار، كنت أشعر بالجو البارد ووميض النجوم ذاتهما، وكذلك بالخوف نفسه. كانت ليلة باردة مثل تلك الليالي عديمة القمر ولكنها تضج بصخب النجوم. عليكم ألا تسنوا أنني في تلك الشهور الستة كنت قد خرجت عدة مرات، وقد فحصت كلّ النوافذ والأبواب؛ ولكن دائماً ما كانت الأشجار والأجمات المتمرّدة تعيقني فأعلق بينها، وكنتُ مضطراً إلى العودة قبل أن أضيع طريق عودتي. في تلك الليلة بدا العالم أصغر من الليالي السابقة؛ إذ اعتدتُ في الصحراء على الفضاء الشاسع واللا نهائي. ونحن نسير شعرتُ أنّ الطريق ينتهي في مكان آخر... في تلك الليلة لم أتصوّر أنّ الأرض التي سرنا عليها في الظلام تتصل بعالم آخر وبلاد أخرى. لم أعلم أنّني في ليلة أخرى سأكون في باخرة في بحرٍ تزعمون أنّه غدر بأحدٍ ما، وأدركت أن ما تعلّمته من الصحراء حقيقةٌ كَبيرة جداً، وكيف أنّ الأَرض والحياة قد ارتبط بعضهما ببعض. أظن أن القشور الدنيوية للبشر، تلك الطبقات الكبيرة التي قامت بإحياء الصحراء والرمال في أعماقي، تسليني وتعمل على ألا أشعر بالخوف من تلك الأمواج، وألا أؤمن بالموت، وأنه يمكنني النظر إلى البحر مثل صديق، وأن أمدّ يدي في هذا البحر اللا متناهي وأصرخ: «كن مرشدَنا، أيُّها البحر». من منكم خرج في ليلة ظلماءَ ليصرخَ على متن هذه الباخرة قائلاً: «هاي... أنقذنا، أيُّها البحر...»؟ صرختُ آلاف الليالي من نافذة سجني: «أنقذيني، أيَّتها الصحراء... أنقذيني، أيّتها الرمال»، تأكّدتُ أنّ في تلك الصحراء ثمّة من يستمع إليّ؛ ثمة شيءٌ ليس مثلي ومثلكم. وهو ليس بإنسانٍ ذي عينين وأذنين ويدين؛ ولكنّ هناك شيئاً يأتي من كلّ صوب وتشعر به مع الهواء، ويأتيك مع الضياء كي يجعلَك ظلَّه فتشعر بالانتعاش. شيئاً غيرَ مرئيّ؛ تراه حينَ تغمضُ عينيك. تصورتُ

في تلك الليلة حيث خرجت فيها من ذلك البيت أنّني أقفُ على تراب لا يعودُ إلى هذا الكوكب؛ فدائماً ما ينسى المرء أنه يعيش على كوكبٍ ما، وينسى أنّ بيته ومزرعته وبستانه جزءٌ من هذا العالم. وأنا أيضاً حين خرجت في تلك الليلة كنتُ قد نسيتُ هذا الأمر. سألت إكرام الجبلي: «لمَ العالم صغير إلى هذا الحدّ، يا صديقي؟» توقّف وكأنّه لم يرني في الظلام، فأجابني: «لأنّنا ننظر إليه على نحو سيّئ... » في تلك الليلة لم يدعني إكرام أن أرحل مع أفكاري، لم يدعني أن أشعرَ بالثقة؛ إذ قال: «ستدمّرُك الثقة، يا مظفّر الصبّاحي؛ فالثقة ستنومك مغناطيسياً مثل العصفور الذي تعميه الثقة ولا يرى القطط... أنا لا أثقُ أبداً... أبداً».

حين وصل إلى تلك الجهة من الأشجار وقف على صخرة وأقام الصلاة؛ لم أعرف أنّه يصلّي، إلا أنّ صلاته غريبة وفي غير وقتها. إذ يصلّي دون مراعاة زمان الصلاة وطقوسها. ولاحقاً حين أردت أن أكلمه عن الرب لم يوافق؛ ولم يتكلّم عن عنه قطّ. يصلّي كأنّ أمراً مفاجئاً جعله يستيقظ من سبات غفلته؛ وحين دقّقت أكثر رأيته يصلّي في بعض الليالي دون أن يتّجه إلى القبلة، وعلى التراب والحصى الكبيرة دون سجّادةٍ ما تحته. عندما انقضت تلك الليلة سألني بلحن غامض: «يا مظفّر الصبّاحي، أأنت متأكّد أنّ سرياس، سرياس الصبّاحي، ابنك؟ أأنت متأكّد؟» فأجبته بهدوء: «أتتصوّر أنّ المرء يخلق طفلاً لنفسه في أوهامه؟ من يمكنه أن يخلق طفلاً ليكون ابناً له في أوهامه؟» وبعد برهة أجاب: «سآخذك إلى مكان يروي لك قصة موت سرياس كلّها. إنّني أعرف أنّك ستحزن بسبب تلك القصة كثيراً، ولكنّك تريد هذا العالم بسبب تلك القصة». في ذلك الوقت لم أفهم لمَ تحدث هكذا، وكأنّه

يعرف أنّني سأركب هذه الباخرة معكم ذات ليلة من "پاترا"، وستتوه في البحر وسيسمح قبطان باخرة "النسيان" ليلاً أن أرويَ لكم هذه القصّة بين السماء اللا متناهية والبحر الشاسع. في تلك الليلة وقفت منتصباً وقلتُ: «أنا لا أبحث عن الحقيقة ولا عن القصّة... أنا أريد أن أعيش بحرية»، لا أخفي عنكم أنّني في ذلك الوقت لم أعرف تماماً ماذا تعني الحرية؛ إذ تعلّمتُ طيلة سنوات سجني أن أفصلَ ما بين حرية روحي وحرية جسمي؛ ينبغي لي أن أفصل بينهما. تعلّمت طيلة تلك السنوات أن من يكون جسمه أسيراً يمكنه أن يحرّر روحه؛ ولكن في ليلة الحرية تلك استطعت أن أصدّق حقيقة جسمي؛ وشعرتُ أنّ هذه المرة الأولى التي تتحرّك فيها قدماي، وما من قوة يمكنها أن تمنعهما من الحركة، وما من عائق يمكنه أن يوقفهما. في تلك الليلة طفوتُ مثل غريق بعد سنواتٍ من البقاء تحت الماء والأمواج الكبيرة والعقيمة، فتح صدره وابتلع الهواء باتساع حلقه كلّه. تصوّروا مع أنفسكم أنّ أولئك الذين غرقوا في هذا البحر، أولئك الذين ينظرون إلى باخرتنا من أعماق الماء، وفجأة، تبقيهم قوة سماوية أحياء ليخرجوا رؤوسهم من البحر ويبتلعون الهواء باتساع رئاتهم كلّها، أي غبطة وسعادة قد انتابتهم؟ أيّ حظّ صار من نصيبهم؟ في تلك الليلة كنت هكذا، مثل غريق قد خرج بعد سنوات من الماء وبدأ يبتلع الهواء. كنت صادقاً في تلك الليلة والليالي الأخرى؛ إذ إني أعلم كم هو صعب أن أنقش روحاً حرّة على عملة الحياة الملأى بالأسر والإيذاء والعبودية. أعلم أنّ روحي وجسمي ينعمان بالحرية الآن، ولكنّهما لم يألف بعضُهما بعضاً بعدُ؛ إذ هما غريبان عن تلك الليلة والغابة والسماء الصغيرة حولي. ينبغي لي في تلك الليلة أن أحبس أيَّ صوت يخرج من أعماقي، وأدع جسمي يتحرّك

بنفسه ويرقص جذلاً؛ مثل طائر يثبُ سريعاً من القفص ومن شدّة الفرح يغرّد في اللحظة الأولى عدة مرات بصوت عالٍ، ثم يحلّق بكلّ قوّته ليشعرَ بجناحيه مجدّداً. وحياته، منذ تلك اللحظة، وألحانه وإعجاز صوته وألوانه كلّها تكمنُ في جناحَيه. أنا أيضاً كذلك؛ فمعجزة حياتي كلّها في قدميّ. أن أسمع قصّة سرياس الصبّاحي وألا أتأثّر بذلك، لأنّ معنى الحزن وأنماطه قد تغيّرت على نحوٍ غريب. لم يعد الحزن بسبب شعور ضئيل ناتجاً عن مصيري والآخرين، بل إنّه معنى عميقٌ وثقيلٌ وغيرُ متغيّر يلمع في العالم كلّه.

حتّى الصباح كنّا في الطريق؛ في تلك الليلة لم يحلّق أيُّ طائر، ولا عوى ذئبٌ ما، ولا سُمع صوت حشرة ما. فالصمت المخيف والغامض يُبعثُ في الصحراء ويخيّم عليها. لم نحطّم أنا وإكرام الجبلي هذا الصمت؛ سرتُ ناظراً إلى النجوم، وفي الخفاء قلتُ لنفسي: «أنا حرٌّ... أنا حرٌّ... حرٌّ... » وكان إكرام الجبلي يبدو وكأنّه يعرف قداسة تلك الليلة، ولديه إيمان بخطواته كما يثق الحصان بقوائمه. إيمانه كبير بحيث شعرتُ أنّه قد أخذ نصف العالم وقد وهب النصف الآخر إلى أشياء أخرى. استمتعتُ بالسير والهواء والظلام جدّاً، ثمّة خوفٌ في صميمي مثل ذعر بطّة طارت أول مرة في أثناء إطلاق وابل من الرَّصاص. جلسنا في بعض الأحيان صامتين لنرتاح قليلاً؛ وغالباً ما يجفّف عرقه بالمنديل. لم أحتج إلى الكلام، فأنا مثل سمكة قفزت من شباك الصياد إلى الماء، وهي لا تزال تعاني سكرات الموت. أعرف أن الليل والنجوم والعالم كلّها تنظر إليّ وهي تحدق إلى حرّية رجل استجمع كلَّ قواه ليصلَ إلى مكان بعيد.

السجن أثّر فيّ بحيث لم أستطع التحدّث عن مسراتي وأحزاني بصوتٍ عالٍ؛ صمتُ الليل العظيم ذاك يهبني هواءً يجعل مسراتي حافلة بالتأمّل والصمت. يا أصدقائي، لا يتلخّص الإنسان في التحليل والتأمّل حول أحزانه فقط؛ إذ يمكنه تغيير مسرّاته إلى تفكير وخيال. فالوَحدة والسجن يعلّمان الإنسان أن يغير "السماع"[4] بالتفكير والتأمّل.

غداة تلك الليلة الهادئة وصلنا إلى بيت فيْ أطراف قرية صامتة؛ فتحت البابَ فتاةٌ ترتدي ثوباً أبيضَ وتضع شالاً أسودَ على كتفيَها. رأيتها أجمل مخلوق حتّى تلك اللحظة من عمري. وبعد ليلة طويلة حطّم إكرام الجبلي الصمت وقال: «صباح الخير يا شادريا البيضاء؛ لقد تأخّرنا. هذا مظفّر الصبّاحي... هذا الرجل كان مسجوناً لإحدى وعشرين سنة؛ واليوم هو الصباح الأول لحريته». بلحيتي الكثّة تلك وجسمي النحيل بدوتُ وحشاً ضارياً أكثر من كوني إنساناً. لم تَرَ شادريا شخصاً تصل لحيتُه إلى ركبتَيه، ويغطّي شعر رأسه الأبيض حتّى خصره وقد امتلأت عيناه بظلال الصحراء البرونزية. وكأنّني أسجد أمام قدّيسة ما خِرْتُ على الأرض أمام عظمة أول امرأة وجمالها وعفتّها، وقلت: «لتكن حياتك زاخرة بالنور... أنا مظفّر الصبّاحي، انظري كيف أجرُّ ظلامَ العالم كلّه ورائي».

وأنا أتحدّث رفعتُ يدي إلى السماء والصباح والغبار الأخير للظلام، ونظرت أمام قدمي شادريا البيضاء الذي يزخرُ بالنور؛ وهذه بداية معرفتي بفتاتين أضاءتا حياتي حتّى مماتي، كما ملأتا حياة سرياس بالنور.

---

(4) مصطلح صوفي، ويتضمن السماع عادة الدعاء والإنشاد الديني وترديد الأذكار واسم الله، ، والالتفاف حول النفس عند المولوية.

10

يُلقّب سرياس الصبّاحي ببروفيسور العربات، إذ هو حكيم صغيرٌ يرشد مئات الباعة الصغار بين طرقات السوق المضطربة والملتوية. يشدُّ منديلاً أحمرَ على جبهته، وثمّة سيجارة تركية بين إصبعَي يده، وعصا صغيرة في اليد الأخرى.

هو مَن نقل الأطفال باعة الحليب إلى وراء سوق الحدّادين، ومَن نقل باعة الزيت من أمام الجامع إلى ساحة بيع الدجاج. وهو من نقل باعة المرايا إلى أماكن قريبة من مراكز التسوّق، وسحب باعة الأدوية من بين رائحة المياه الآسنة للسوق إلى الأرصفة النظيفة في وسطه، وجعلهم بجوار باعة الكتب واللوحات. يجد في كلّ مكان ممرّات لهروب العربات، وقد جعل عشرات الأماكن القديمة المهدمة والمستودعات الفارغة والأفنية المتروكة أماكن سرّية، وشكّل دوريات ليلية، وكان يحلم بيوم يُنظّم فيه قوانين خاصّة للسوق؛ إذ هي خريطة مدينة أخرى وعالم آخر في رأسه.

يقول المقرّبون منه إنه يمتلك قوة أسطورية من أجل إقناع الجميع. هناك مئات الأطفال، ولو لم تكن لديهم تلك العربات لاضطروا إلى حمل الأسلحة أو العودة إلى القرى القذرة والمظلمة أو الهروب إلى خارج البلاد بمعّية قافلةٍ ما. يعلم سرياس أفضل من أيّ شخص آخرَ كم هي حياتهم مرتبطةً بلعنة غريبة معقّدة بقدر اضطراب تلكَ المدينة وفوضاها. قوة كلامه أكبر من عمره؛ وذات ليلة وبعد مشاجرة طويلة، أقنع صحافياً شابّاً أنّ ما من أحد على هذه الأرض لديه الحقّ

بأن يعيدَ هؤلاء الأطفال إلى قراهم عنوة. كانت ليلة حالكة السواد، ظهر الصحافي بينما يجلس سرياس مع أصدقائه حول إبريق الشاي ومنقل مليء بالفحم المشتعل. الصحافي شابٌّ تافهٌ، من أولئك المتبجّحين الذين يعدُّون القرويين كلاباً. أبوه مدير مدرسة وأمّه تتولّى إدارة مؤسّسة التخطيط؛ وطيلة عمره يرتدي قمصاناً نظيفة. لقد قضى حياته كلّها في مقاصف الجامعة وخلف مكاتب الجرائد. وهو شابٌّ طويلٌ مع نظّارة بيضاء وشعر مصفّف بعناية، وطالما أوصى ابن عمّته له بزجاجة كولونيا من مستودعات "لوريـال فرايبورك". في تلك الليلة جاء لينجز تقريراً مفصّلاً عن «الحيوانات التي ينبغي أن تحرث حقول كردستان المنسية بدلاً عن تلويث المدينة». سرياس الصبّاحي البائع الجوّال الوحيد الذي يقرأ الصحف. جاء بينما سرياس قابع بجوار المنقل؛ والصحافي بقميصه الأبيض وبنطاله الجينز الضيق يتوهّم نفسَه صحافيّاً كبيرًا، اضطرته ظروف عمله أن يذهب إلى أماكن غريبة ويتحدّث مع أناس غرباء. وقد عَدَّ ذهابه عند أصحاب العربات في تلك الليلة من الأحداث الغريبة غير المألوفة في حياته. يعرف أصحاب العربات أنّ مثل هؤلاء الشباب ينظرون إليهم مثل الحيوانات؛ في تلك الليلة وبجوار حرارة النار تحدّث الصحافي الشابّ عن تنظيم الزراعة ومنتجات الألبان. كما تحدّث سرياس عن تنظيم حياة المحرومين ورفاهتهم ونسيان آلاف الأطفال الذين عملوا مضطرين منذ الرابعة من عمرهم بحثاً عن لقمة الخبز في الشوارع، بينما تحدّث الصحافي عن تحسين المدن ونظافة الأرصفة وترميم الطرقات لمرور السيارات؛ إلا أن سرياس تحدث عن شبابه الضائع وذبول الأطفال الذين اضطروا إلى غسل أنفسهم في المياه

الآسنة لعدم وجود الخدمات. تحدّث الصحافي عن عودة القرويين إلى قراهم، وتكلم سرياس عن عودة الإنسان إلى الحياة الإنسانية. تحدّث الصحافي عن المزارع المدمَّرة التي ينتظرها، في حين تحدّث سرياس عن آلاف الأطفال والشبان الذين لم يعد لديهم ما يملكونه كي يقضوا حياتهم في المدن والقرى. وبينما أفكّر في الموضوع، رأيتُهم أطفالاً تائهين في خرائط جغرافية... مثلنا نحن إذ كنا تائهين في هذا البحر منذ عشرة أيام. في تلك الليلة، وكما أخبرني الباعة الأطفال، هزم سرياس ذلك الصحافي في المناقشة؛ وعُدّت تلك واحدةً من ليالي حياته المهمّة. نُشرت صورته في اليوم التالي مع «نهد كجال» في صفحة التقارير في الجريدة، وبدا فيها فارساً قديماً وسيجارة "مور" في زاوية شفتيه، في الصورة، وهو يحمل عصا كبيرة وينظر مبتسماً للكاميرا. كانت تلك أكثر صورة رأيتها له وضوحاً. الغريب في الأمر أنهم لم يذكروا اسم سرياس الصباحي لا في التقرير ولا تحت الصورة. الآن أفكّر مع نفسي أنّه لو لم يتم نسيان اسمه لكان من الممكن أن تظهر الحقائق بشكل أسرع. أطلق عليه أصدقاؤه، في تلك الليلة، لقب بروفيسور العربات. لم يكن سرياس من الشبّان الذين يفضّلون الاشتباك مع مأموري الشرطة، وإحداث الفوضى؛ لأنه يعدّ مأموري الشرطة ومسؤولي الأمن من سكّان المدينة، من ثم ينبغي لهم أن يجلبوا قطعة خبز لأطفالهم مساءً. وإذا وضع أيّ من الباعة شيئاً في راحة أيديهم فإنه يكسب قلوبهم. جميع الشبان الذين التحقوا بجيش أصحاب العربات منذ أربع أو خمس سنوات، وجميع الذين قضوا فترة من عمرهم في الشوارع وبين أوحال السوق يعلمون أنّ سرياس مخطّط الاتفاقيات السرية بين الشرطة والأطفال الذين

وصمتهم صحف ذلك اليوم بـ«سكّان هيجي[5] الراقين».

يا أصدقائي، والآن إذ نتحدّث ليلاً على متن هذه الباخرة، ينبغي لنا ألا ننسى أن مأموري شرطة ذلك الوقت مختلفون عن مأموري الآن، وفي تلك الجهة أيضاً، الأشخاص مجرّد أطفال ومراهقين مثل سرياس وزملائه، شبّان أرادوا تنظيم حياتهم بشكل أفضل والحفاظ على نسائهم لئلا يصبحن في الشوارع من نصيب التجار الأثرياء، أو أرادوا الزواج بخطيباتهم سريعاً كي لا يأتي أحدهم من بعيد ويأخذهن، ولن يعودوا قادرين على رؤيتهن ثانية. لو لم تتعقّد الأحداث في تلك الليلة لتمكن سرياس الصبّاحي من صداقة جميع أولئك الذين قتلوه لاحقاً في مساء حزين. وربّما بإمكان جيش أصحاب العربات أن يدوم أكثر، ويحموا أنفسهم من أعدائهم العديدين، وألا يدخلوا أنفسهم في معمعة التشرد والكرّ والفرّ الغريبة المرتبطة بسرياس الصبّاحي ومأموري الشرطة الشباب. ينبغي لهم عند ظهور المأمورين أن يضربوا العربات بالعصي ليتفرّق الباعة الجوّالون، ليصرخوا ويهربوا إلى الشوارع والأزقة الملتوية. يا لَها من مسرحية ذكية! مسرحية تربط الكذب والحقيقة بعضهما ببعض. لعبة غريبة قد نفذت إلى القوانين لتستمر حياة فئتين من الناس الحزانى. جميعنا نعرف الآن أن تلك الأرصفة تعد آخر مكان للموت والحياة لهؤلاء الذين جعلوا حياتهم أصغر؛ أولئك الذين لا إمكانية أخرى للحياة غير بيع الأشياء التافهة على الأرصفة. يعرف سرياس الصباحي أفضل من الآخرين على أيّ

(5) تقع قرية هيجي في منطقة أورامانات الجبلية في محافظة كرمنشاه الإيرانية، وفيها مرقد ينسب إلى الولي "هجيج الأمرد" ابن الإمام السابع لدى الشيعة الإمامية موسى بن جعفر الصادق.

بقعة صغيرة من الأرض غُرزوا، ومن أيّ أزقّة مسقّفة وحارات ضيّقة وملتوية يرشدهم. لو أنهم نسوا قواعد اللعبة فيا للمصير النحس الذي يقف لهم بالمرصاد. إلّا أنّ السوق كالغابة وستبقى هكذا دائماً. يا للأيام التي نادى فيها زبائنه وجمعهم حول عربته بصوته الناعم الطفولي: «تعالوا اشتروا أجمل فجل على وجه الكرة الأرضية؛ كلوا فلفلاً أكثر نعومة وحلاوة من الزلابية». مطّ صوته وهتف: «تعالوا تفرجوا على أفضل أوراق السلق(6) على الأرض؛ تناولوا خياراً هنيئاً كماء الزمزم، يا لَه من خوخ كرزي مقطوف من بستان الرب العزيز، من الفردوس. وهذا الإجاص قد زرعه ملاك بيديه... والرمّان؛ يا ويلي، يا ويلي. ماذا أقول عن الرمّان الذي يشفي العميان؟... توقفوا هنا». انتبهوا إلى هذا الأمر، فحين يتحدث سرياس الصباحي عن الرمّان الذي يشفي العميان فإنّه لا يتحدث عن ثمرة خيالية، بل يروي حكاية تعدُّ أساسَ كلّ الأحداث. «الرمّان الذي يشفي العميان»؛ كلا... الليلة لن أتحدّث عن «محمّد زجاجي القلب»، و«سرياس الصبّاحي»، و«نديم الأمير»، وعلاقتهم بذلك الرمّان الذي يشفي العميان... إذ من المبكّر الآن أن نصلَ لأعماق القصّة؛ ومن المحتمل أن نبقى في هذا البحر فترة أطول. لو شاء الله فلن تبقى القصّة غير مروية. لا تحزنوا إن لم تسمعوا بقية القصّة إنّ رسونا فجراً عند شاطئ ما، ولو ألقى خفر السواحل القبض علينا وافترق بعضنا عن بعض. فالآن، أنتم في

---

(6) نوع من أنواع الخضروات الورقية المهجنة، تؤكل أوراقها كما تؤكل جذورها في أحيان أخرى. ويستخدم السلق في تحضير بعض الأكلات التي يتم طهيها، حيث يعد المكون الأساسي في بعض الوجبات من قبيل السماقية في غزة مثلاً، و "البراك" في ليبيا، كما ويستعمل لعمل أكلة الدولمة العراقية الشهيرة وكذلك في تونس حيث تستعمل في طبخ ما يعرف بالعصبان أو الدواره مع استعمال البقدونس وفي مصر كمكون أساسي في طبخ القلقاس والخبيزة.

نهاية القصّة، وتُعدّ الباخرة نهاية هذه القصّة. كلا، حتّى لو غرقت هذه الباخرة فإنّ أحد ركّابها سيوصل نفسه سابحاً إلى اليابسة؛ ويمكنه أن يتابع القصّة من حيث توقّفتُ. الآن يمكنني أن أصمت وأن يتابع أيّ منكم تتمّة القصة هذه بشرط أن تنتهيَ في نهاية هذه الرحلة وفي هذه الباخرة ذاتها. هذه الباخرة التائهة في البحر، التي لا قدرها واضح ولا وجهتها معلومة، هذه الباخرة التي لا أعلم في أي جزيرة ستنزلنا؛ وأينما رست، فهي هناك النقطة النهائية للقصّة كلّها.

على كلّ حال يا رفاق السفر، فإنّ حياة سرياس الصبّاحي في تلك السوق كانت عذاباً ولعبة في الوقت ذاته؛ إذ عليه تنظيم مئات الأطفال بعضهم مع بعض. وبعد فترة شكّلوا لجنة صغيرة... ووجد في هذه اللجنة عدة أصدقاء مشفقين ورحيمين يساعدونه. «جينو المخملي» و«آدم المرجان» من الأصدقاء المقربين له داخل اللجنة، حيث توليا معه حراسة العربات عدّة ليالٍ. جينو المخملي بائع أسماك في حين إن آدم المرجان يبيع زجاج المصابيح؛ وهما أكثر هدوءاً ومجهولية من سرياس، إلا أنهما أكثر ذكاءً وصبراً في المصالحة بين أصحاب العربات وتهدئتهم. ففي كثير من الأحيان يفقد سرياس الصبّاحي أعصابه وتنتابه رغبة غريبة في الهجوم والمشاجرة، ويشارك دون رغبة في أغلب المشاجرات. إحدى المشاجرات الأكثر دموية هي الحرب بين باعة معجون الطماطم وباعة السجائر، وقد وصل الأمر إلى استخدام السلاح حيث قَتل ثلاثة من باعة السجائر أحد أعدائهم بإطلاق النار عليه ثلاث مرات في أحد حمامات جامع السوق. امتدّ النزاع في ذلك المساء بين الجماعات المختلفة إلى الأسواق الأخرى

وباعة الحلويات أمام المستشفى أيضاً. لم يحتكم أي منهم لعقله في تلك المشاجرات الدامية؛ وقد شارك سرياس الصبّاحي أيضاً في ذلك النزاع بأحجار ميزانه وذراع الميزان وحبل ينتهي بخطاف. يرفع حجارة الميزان في كل مرة ويرميها إلى ساحة القتال دون أن يستهدف شخصاً ما. وذات يوم وفي إحدى تلك المشاجرات تركوا جرحاً على خده بحافّة "المالج" الخاصّ بأعمال الجبسين. استمرت الحرب حين وضع جينو المخملي سرياس على طابوقتين، وراح يضع خرقة على جرحه باستمرار. في اللحظة ذاتها هبطت الشقيقتان البيضاوان فجأة مثل ملاكين سماويين، أمامهما. وظهور شادريا ولاولاو البيضاوين مفاجئاً يذكّرنا بأجواء الهزّات الأرضية... وكأنّ هاتفاً مرموزاً قد أخبرهما بجرحه، إذ وصلتا إلى سرياس الصبّاحي بعد عدّة دقائق. يضع جينو المخمليّ دواءً أحمرَ اللون على الجرح باستمرار ويقول: «لقد رأيت هذا الجرح في منامي ليلة أمس؛ ولكنّه لم يكن على وجهك، بل على يدي اليمنى». سرياس الصبّاحي لم يقدر على الضحك، واكتفى بقول: «إنّه أسخفُ جرح في العالم؛ سيبقى أثرُه على وجهي حتّى أشيخَ. وكأنّه علامة للتذكير بهذا اليوم البشع... اليوم الذي تبرّز فيه القردُ على وجهي».

حين تفرّق الجميع مساءً، ترك النزاع مشهداً مخيفاً خلفه. امتلأت الأزقّة بالعربات المحطّمة والسلّات البلاستيكية وصناديق الفواكه المحطّمة، والطحين الممتزج بمعجون الطماطم، وبقع الدم والدجاج والحمام والبط، وتُركت الأرانب بين السبانخ والشمندر المتناثر تمرح وتسرح بالشوارع والأزقّة، ووقف عدّة أطفال باكين خلف أبواب

الدكاكين. حلّ مغيبُ الشمس وهواءٌ ساخنٌ يهبّ؛ أضفى ظهور الشقيقتين البيضاوين وجهاً آخر على الأوضاع المضطربة. نظرتا إلى تلك الأطلال كملاكين ينظران إلى ساحة الحرب. في ذلك الغروب نقلوا سرياس الصبّاحي إلى المستشفى، وهناك فحصت طبيبةٌ شابّةٌ الجرح من وراء نظّارتها الذهبية ذات العدسة الرقيقة، ثم خاطته. وحين أنهت عملها قالت بلغة كردية ركيكة: «لماذا يفعل أصحاب العربات هذا؟ لماذا يحارب الناس الفقير؟ لقد خطت جرحك بخمس غرز... سوف تشفى بعد ثلاثة أسابيع[7]». حين خرجت الشقيقتان البيضاوان من المستشفى في ذلك المساء وضعتا يديهما في يده أول مرة، وقالتا: «نحن شقيقتاك، ومنذ اليوم أنت أخونا إلى الأبد. عليك أن تعتاد هذا الأمر... والآن قل لنا، لو حدثت مشكلة لأخ، أين عليه أن يذهب؟ يذهب عند شقيقاته. إذًا، عليك أن تأتيَ إلينا». لم يحلم سرياس بمثل هذا اليوم الغريب، إذ اعتاد على يتمه تماماً. من الواضح أنّ سرياس قد سأل نفسه ذات يوم «لمَ ليس لديّ أمٌّ؟ أين أبي؟ وإن كان لدي شقيقات فما أسماؤهن؟ وإن كان لدي أشقاء فلمَ لا أراهم؟» إلا أنه لم يصل إلى جواب. وبحثاً عن الأجوبة وصل سرياس إلى طلسم لا مفرَّ منه؛ الطلسم ذاتُه الذي ابتليتُ أنا به حتّى الآن ويبدو كأنّه لا فكاكَ منه. كان أحد الشروط التي فرضتها الشقيقتان هو شرط الأخوّة؛ في تلك الليلة وقبل عودة سرياس إلى بيته أخبرتاه أن شرط هذه الصداقة هو أن يلتزم حدوده إلى الأبد. وأضافتا أنهما ليستا من تلك الفتيات اللواتي يقلن في البداية للشبّان أنتم أخوتنا وبعد ذلك يتمنّين شيئاً آخر

(7) كما جاء في الأصل، بلغة كردية ركيكة.

في صميمهنّ، أو يقول الشبّان لهنَّ أنتما شقيقاتنا ويفكّرون طيلة الليل في تقبيلهما ومثل هذه الأمور. وأنهما إنسانان وأنَّ الالتزام والميثاق يعنيان الكثير لهما؛ وأنّ كلامَ الشرف أسمى وأعلى شأناً من أيّ شرف آخر، وأنَّهما لا تقبلان بالخيانة. لم يزل تأثيرِ المخدر عن سرياس في تلك الليلة، وبينما يتنفّس، يزفر برائحة أدوية المستشفى، وظلال مشهد نزاع ذلك الغروب تتراقص في عينيه. بعد شهرين من موت محمّد زجاجي القلب، وبعد يوم منهك حافل بالحرب والاشتباك، وفي زقاقٍ مترب في جنوب المدينة قال سرياس الصباحي، الذي يتمنّى تأسيس عائلة بالتأكيد، للشقيقتين: «لا تشعرا بالقلق من سرياس الصبّاحي، فلم يبقَ من حياتي شيءٌ بعدُ؛ لأجعلَ أحدهم تعيساً». تلك هي الليلةُ الأولى لسرياس الصبّاحي مع الشقيقتين؛ فغنّت الشقيقتان البيضاوان له حتّى الصباح وفككتا جديلتيهما أمامه وضفّرتاهما من جديد، وتسقيانه باستمرار، وتضعان يديهما على جبهته، كما أنّهما غسلتا جواربه. دُهش سرياس من عالمهما، إذ دائماً ما يتصوّر أنّ عالم الفتاتين الجميل هو الحياة الأكثر سعادة.

يجري بينهم تفاهمٌ من التواضع المشوب بالعدالة؛ وتعدَّاه الشقيقتان أحد الشبّان عديمي الأهل، وأخاً لهما. أخبرت شادريا ولاولا البيضاوان سرياس في تلك الليلة بسرّ حياتهما المهم، وهو أنّهما لن تتزوّجا أبداً، ولن تقصا شعريهما أبداً، ولن تغنّيا دون إحداهما الأخرى ولن ترتديا غيرَ اللون الأبيض. فكتب الثلاثة في تلك الليلة ميثاقاً آخرَ وختموه بدمهم؛ ميثاقاً يجعل سرياس شقيقهما للأبد، وألّا تقبلا بأحد آخر كأخ لهما. ميثاق ظريف كتبته شادريا البيضاء بخطّها

وختمت أسفله ثلاث راحات يد. هذا الميثاق موجود الآن تحت شجرة الرمّان، وسيبقى هناك إلى الأبد أيضاً.

نظر إليهما سرياس بدهشة حين قالت لاولاو البيضاء لنضع الميثاق تحت شجرة الرمان، قبل ذلك، وفي ليلة ما، أخفتا ميثاقاً آخرَ تحت شجرة رمّان أخرى في تلك الجهة من العالم... شجرة رمّان تشبه تلك الأخرى التي نبتت في ذلك الفناء. شجرة رمّان تعدُّ مرآةَ الرمّانة هذه التي أسماها ذات صباح وقبل عدة سنوات بـ«آخر رمّانة في العالم». كلا، لم يحن الوقت بعدُ حتّى أحدثكم عن المواثيق الأخرى، ولكنّي أستطيع أن أحدّثَكم عن ارتباك شخص ختم ميثاقاً آخر بدمه قبل تلك الليلة. لم يعرف سرياس كيف ينظر إلى تكرار تلك الأحداث، وما سبب أن ترتبط حياته وأصدقاؤه بمصير ميثاق ما، وما سبب أن يتعرّف إلى شقيقتين ليجعلهما ميثاقاً دائماً مرتبط بعضهم ببعض، وما سبب أن يعقد في هذه الليلة المهمة ميثاقاً مع فتاتين لم يعرفهما بعد؟ وفي غابة الحياة المخيفة ما حاجة الإنسان لمثل هذه العهود المظلمة والراسخة؟

أقول راسخة؛ لأنّ مثل هذه المواثيق لا يقوم أيّ من الطرفين بنقضها؛ ومظلمة لأنه طالما تبقى بعض الأشياء غير مرئية فيها. أشياء ترتبط بطبقات من اعتقادات المرء الباطنية. لم يتحدث في تلك الليلة سرياس الصبّاحي عن ميثاقه الأول، إذ أدرك أنّ الإنسان يحتاج إلى عدّة تعهّدات ومواثيق مكتوبة من أجل الإيمان بالأخوّة. والآن إذ أفكّر في تلك الليالي أعتقد أنّ ثمّة جوّاً فلسفياً يحيط بالثلاثة. في تلك الليلة حتّى وقت متأخّر فكّروا في تصرّفاتهم الغريبة وفي «ما سبب أن

يتعهد شخص بميثاق ما؟» لم أكن أعرف جيداً عمّا تكلّموا في تلك الليلة، ولكنّي أعرف أنهم عاشوا في عصر الأكاذيب؛ عصر لم يثق أحدٌ بقَسَم الآخرين. ولاحقاً قالت الفتاتان البيضاوان إنّهما فعلتا ذلك بسبب العناد والشعور بالندم وشخصيتيهما اللا مباليتين. ولكنّني أظن أنّ ذلك الإحساس بالندم والضعف هو جزء من شخصية الجميع في ذلك الوقت؛ فعلى المرء أن يربطَ أخوّة البشر بشيء ما.

وأد سرياس والشقيقتان البيضاوان، في تلك الليلة، احتمال ظهور أيّ خيانة في ذواتهم عن طريق السيطرة على قوة غير مرئية في أعماقهم، بعد وضعهم الميثاق في صندوق ودفنه.

حين فتح سرياس عينيه صباحاً كان قد امتلك الشقيقتين وأخدوداً عميقاً متبقياً من ضربة المالج الخاصّ بأعمال الجبسين، على وجهه. وعند عودته إلى السوق انتظر جينو المخملي وآدم المرجان قصة أخرى؛ فأنتم تعلمون كيف هي تخيّلات المراهقين الفجّة في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرهم. الفترة التي يحتلم فيها الشبّان أنّ الفتيات لهم، وينامون معهنّ حتّى الصباح ليقضوا منهن غايتهم. أي رجل تعرفون لا يحلم بمثل هذه الأفكار أن تحتضنه امرأة ليلاً وتضاجعه وتمارس الحُبّ معه. كان الاثنان من الشبّان المهذّبين والخجولين والودودين، ترعرعا في عالم أصحاب العربات إلا أنهما ليسا مستثنيين من التخيلات الغريبة. يعتقد الاثنان أن ملاكين أبيضين جاءا وخطفا سرياس، ولكنّها المرة الأولى التي يتحدّث فيها سرياس عن الشرف على هذا النحو. رفع في ذلك اليوم السكين الخاصة بتنظيف الأسماك التي تعود إلى جينو المخملي ووضعها بكل تلك الدماء وبقايا الأحشاء

والحراشف الملتصقة عليها، أمام وجهي زميليه وخاطبهما محذّراً: «سأقتل أيَّ شخص يتفوّه بكلمة للاولاو وشادريا، وسأقلب حياتَه رأساً على عقب. وسأمزّقه كالكلاب... فإنهما شقيقتاي».

لم يصدّق الناس حتّى غروب يوم وفاته العَلاقة الأخوية بين الشقيقتين وسرياس؛ ولكن حين تقيأ سرياس دماً على ركبتي جينو بكى مئات من أصحاب العربات عند رأسه، قال: «خذوني إلى بيت شقيقتَي... عند شقيقتي البيضاوين؛ أريد أن أموت هناك»، عندها صدق المئات من زملائه أصحاب العربات الذين بكوَا عند رأسه، أي ميثاق شريف ونزيه عُقد بين سرياس والشقيقتين البيضاوين.

قبل أن أودّعكم الليلة وأخلد إلى النوم، أودّ أن أشرح لكم بعض الأمور التي لها دورٌ مؤثرٌ لاحقاً في هذه القصة. عليكم ألا تغفلوا أمراً في تلك الفترة، وهو ذهاب لاولاو وشادريا البيضاوان إلى قبر محمّد زجاجي القلب مرة واحدة كل أسبوع والغناء، وفي الوقت نفسه كان سليمان الكبير، ذلك الجبلي ذو اللحية الطويلة والحزين إذ بدا شعره الأسود منفوشاً كزغب حيوان مريض، يذهب كل أسبوع مرة عند قبر ابنه منهكاً تماماً. دعا سليمان الكبير الشقيقتين البيضاوين وأمهما في غروب أحد الأيام لتناول العشاء في بيته؛ أي في بيت أحد المسؤولين الكبار بعد الثورة والمصابين بالحزن والكآبة. عانى كثير من القادة بعد الثورة من الأمراض النفسية والحزن والكآبة؛ سليمان أحد هذه الأرواح المكتئبة والمريضة. ومع هذا فحياته مثل باقي السياسيين بعد الثورة تشبه حياة الملوك، وحفلت مجالسه بالرجال الذين أداروا البلاد. ولكن مع هذا، شعر أنه يوماً بعد يوم يرغب في البقاء وحيداً. بعد وفاة أمّ محمّد

زجاجي القلب لم يفكّر في الزواج قط؛ فقد اعتاد العزوبية.

شعر كم أنه قد ظلم نفسه في حياته في ذلك الغروب، حين رأى الفتاتين الجميلتين حول مائدة الطعام، حيث استرسل شعرهما من وراء الكرسيين وبدا مثل سجادتين سوداوين مفروشين على بساط إيراني، واعتراه هذا الشعور إذ قضى حياته كلّها بين الحرّاس ورائحة الأنفاس النَّتِنَة، وعرق أجساد السياسيين والحقائب الممتلئة بالخرائط السرية والمميتة والمراسلات بين الأحزاب.

ليس كأصدقائه الذين لهم عدّة عشيقات بعد الثورة، إذ تصرّف مثل الماضي؛ مثل رجل جبليّ ولكن في جوّ جديد. وافقت الأختان البيضاوان على دعوة سليمان الكبير؛ لأنهما رغبتا في التعرّف أكثر عن محمّد زجاجي القلب، ولكنهما عادتا مع رمّانة زجاجية أودعها شخص مجهول لأبيه سليمان، بعد وفاة محمّد زجاجي القلب. تلك الرمّانة هي الشيء الوحيد الذي لم يتهشم من عالم محمّد زجاجي القلب الزجاجي. وثمّة سرٌّ دفينٌ في أعماقها لم تسنح الفرصة لمحمّد زجاجي القلب ليكتشفه؛ لأنها لم تصبح جزءاً من عالمه الزجاجي بعد، إذ إنّها خارج نظام حياته، وخارج انهيار حياته؛ وهي الشيء السليم الوحيد الذي بقي في مكانه. حين جلبت الشقيقتان البيضاوان الرمّانة إلى البيت نسيتا كلام محمّد زجاجي القلب كلّه الذي جاء في غروب ذلك اليوم العاصف وقال: «هذه ليست رمّانتي، بل رمّانة الأسرار». حتى ذلك اليوم الذي جاء فيه سرياس الصبّاحي ورأى الرمّانة الزجاجية في خزانة كتب لاولاو وصرخ: «يا ربَّ السماء والأرض، ماذا أرى؟ فهذه رمّانتي الزجاجية». عندها تذكّرت الشقيقتان قول

محمّد زجاجي القلب القصير والمخيف. في تلك اللحظة سألتا سرياس الصبّاحي: «من أين تعرف محمّد زجاجي القلب؟ أيُّ سرٍّ بينكما...؟ وإن كانت هذه رمانتك، فماذا تفعل عنده؟».

وهكذا دخلت الشقيقتان البيضاوان قصّة سرياس الصبّاحي العميقة والمعقّدة دون أن تعرفا أنّ هناك سرياس وسرياس وسرياس آخرين في هذا العالم.

11

الليلة قد حان الوقت كي أخبركم كيف تعرّف سرياس الصبّاحي ومحمّد زجاجي القلب بعضهما على بعض. في الليلة التي هجم فيها جميع سكّان المدينة والقرى الواقعة شمالي الصحراء باتجاه الجبال ليجتمعوا في المناطق الحدودية للدول الأخرى، كان سرياس الصباحي في الخامسة عشرة من عمره؛ في تلك الليلة كان أكثر راحة بال من الآخرين. بعد الثورة وقبل هزيمة قوات الشعب الكبرى وعودة دبّابات الحرس الجمهوري ومدرّعاته، بقي سرياس على قيد الحياة بمعجزة غريبة، إذ قضى وقتاً في دور الأيتام الحكومية. وفي الأسابيع الأولى التي لم ترأس الحكومة فيها الأمور، ونُهبت فيها المخازن وحطّمت خزائن الأموال، تسوّل مع رفاقه الأيتام في أزقّة المدينة، وأمام باب المجلس البلدي والأبنية الحكومية وأمام الجامع. في الليلة التي فشلت فيها الثورة حمل سرياس همّاً، فهو الإنسان الأكثر وحدة في العالم. حتّى أصدقاؤه الذين تعرف إليهم في دور الأيتام، قد اختفوا في الأسابيع الثلاثة الأخيرة هذه ولم يعد يعرف أيَّ شيء عنهم. في تلك الليلة بدت وحدة سرياس مثل ليل وحدة شخص قد فقد أقاربه ولم يعد يفكّر في أيّ منهم؛ كما أنّه لا أحد يفكّر في سرياس الصبّاحي. في تلك الليلة المرعبة حيث يقلق فيها المرء على أقاربه وأصدقائه، يتّجه مئات الآلاف تحت الأمطار، صوب المرتفعات ولم يكن بينهم من يفكّر في سرياس الصبّاحي.

الآن، أتخيّل ذلك الطفل الغريب الذي لفحته الشمس يسير تحت

المطر، مع رمّانة زجاجية وحفنة خبز ووعاء تمر، ويشعر أول مرة بوَحدَته. ولكنّه سعيد في الوقت ذاته إذ ليس له أمٌّ كي يضيّعها مثل الأطفال الآخرين، ولا أبَ له ليبحث عنه حائراً؛ وبإمكانه أن يذهب براحة بال من هذا الطرف للعالم إلى تلك الجهة.

هطل المطر طيلة الليل، كان يتوقّف في بداية أيّ طريق ويسأل الآخرين عن المقصد ونهاية الطرق. هناك شيءٌ من جمال تلك القرى المدمّرة التي ترعرع فيها قد بقي في ذهنه. في طريق الهجرة سار مع آلاف العوائل، ورأى أنّهم قد وضعوا أجهزة التلفاز والثلاجات والمواد الغذائية والأواني والقدور على الشاحنات الكبيرة وأسقف السيارات الصغيرة. ورأى أطفالاً حفاةً يسيرون على حاشية الطرق، وفي بعض الأحيان ينفجر لغمٌ تحت أقدامهم، ورأى نساء مسنّات يبكين حاسرات تحت المطر، وهنّ غاضباتٌ من الرب. رأى فتيات وأمهات ضائعات يجد بعضهن بعضاً، ورأى شيوخاً يجلسون على الصخر حتى يحين أجلهم. جاء مراهق آخر في عمر سرياس في تلك الليلة، من طريق آخر. أضاع هو الآخر والديه، وفي يده عدةُ مفاتيح وميداليات ويلهو بها تحت المطر، وينشد أغنية وهو يسير؛ ولم يشعر بالخوف لفقده والديه. كان يشعر بالسعادة في تلك الليالي؛ فلا يملك مالاً ولا طعاماً، وفي المقابل يملك قلباً سعيداً ونقياً وزجاجياً. لم يكن ذلك الطفل غيرَ صديق قديم، وبطل قصّتنا الأول "محمّد زجاجي القلب" حيث كان الطفل الوحيد الذي يغنّي وهو يسير ويدور حول نفسه. تلك الليلة أجمل ليلة رأى فيها محمّد زجاجي القلب الناسَ خارج بيوتهم ومخابئهم، وشعر بالسعادة لأنه يرى عورات الدنيا بوضوح.

ثمّة صبيٌّ أعمى في عمر سرياس الصبّاحي ومحمّد زجاجي القلب قد انطلق في ذلك الوقت، ويبدو وكأنّه قد علق في الظلام وتحت المطر. لم يعرف أحد من أين قد جاء هذا الأعمى وكيف وصل إلى منتصف هذه الطريق، وهل هناك شيءٌ قد منعه أم لا؟ وقف الأعمى تحت المطر وهو يستغيث قائلاً: «من يساعدني، ويأخذ بيدي ويأتي معي؟ من ينطلق خلفي، ويريد أن يعطيني عينه لأعطيَه عين قلبي؟ من يهبني وميضاً لأعطيَه ضياءً؟» ذلك الأعمى هو «نديم الأمير» الذي خلافاً لاسمه، كان الأعمى الأكثر فقراً في العالم.

يمرُّ آلاف الأشخاص من جانبيه ولم يقف أحد ليستمع إلى كلامه ويساعده. انطلق من حاشية الطريق وخاطب الناس بغضب: «أنتم مجرّد كلاب... أنتم خراء على الأرض. أنتم حقراء وسفلة وجبناء». ترعرع نديم الأمير بين شحاذي البلدة وفقرائها ويعرف كلّ شتائم العالم البشعة. في تلك الليلة التمس أحياناً وشتم في أحيان أخرى؛ ولم يرتد شيئاً غير البنطال. يضع بطانية مبلّلة على رأسه ويصرخ قائلاً: «من يساعدني ستفتح له بوّابات الضياء؛ ومن تفتح له بوّابات الضياء سيرى عاقبته... ومن ير مصيره، يمكنه أن يُبعدَ نفسه عن البلاء والمصيبة». ذلك الكلام الذي لم يبدُ مناسباً لصوته ووجهه الطفوليين، تعلّمه من الشحّاذين. من بين هؤلاء الآلاف شخصان فقط لم يعرفا من أين جاءا وإلى أين يذهبان. وقف الاثنان واستمعا إلى كلام ذلك الأعمى العاجز الواقف تحت شلال المطر، ودون أن يعر بالاً لأيّ شيء، يقول بشكل مستمرّ: «ساعدوا أعمى كي يصل إلى مقصده سالماً؛ من يقطع طريقه ويمسك بيدي سيكافئه الله على عمله

الخيِّر هذا للأبد. ومن ينقذ العاجزين والمحتاجين فسينجيه الله يوم القيامة». وصل الشخصان الآخران، الصعلوكان الصغيران، سرياس الصبّاحي ومحمّد زجاجي القلب، إلى نديم الأمير في الوقت نفسِه؛ وكأنّ ساعة متفقة مع اليأس قد جمعت الثلاثة. وهكذا وفي ليلةٍ ماطرة وتحت سياط المطر وبين الشاحنات والسيارات المتهالكة، وبين صخب آلاف النساء والفتيات وضجيج الرجال الخائفين من حلول الصباح وهجوم الجيش من جديد، التقى سرياس الصبّاحي ومحمّد زجاجي القلب بعضهما ببعض.

في تلك الليلة حيث قتلت فيها الحقيقةُ الخيالَ، طلب منهما نديم الأمير صارخاً مساعدته كي يصل عند شجرة رمّان قريبة من قمّة الجبل؛ شجرة رمّان يجب أن ينام تحتها كي تشفى عيناه.

لو لم تكن روح هذين الصبيين حافلتين بالخيال، ولو لم يكونا طفلين قد اعتادا التطفل والاطلاع على الأمور الكبرى، لما كانا يبحثان في ليلة تغرز فيها الحقيقة أنيابها البشعة في جسم الإنسان، عن أسطورة شجرة أسماها سرياس الصباحي لاحقاً «آخر شجرة رمان في العالم».

في تلك الليلة حيث كان يفكر الجميع في إنقاذ أشيائهم الصغيرة، وتحت المطر بدأ المراهقون الثلاثة بالبحث عن الشجرة الأسطورية. كان ذلك الصبي الأعمى يملك خريطة قديمة وواضحة في ذهنه، ولكنّه لم يستطيع أن يصل عند تلك الشجرة دون مساعدة شخص يمتلك عينين سليمتين. في تلك الليلة قال لمحمّد زجاجي القلب وسرياس الصبّاحي: «من هنا حيث أقف سنصل بعد ألف خطوة إلى

مفترق طريقين، أحدهما معبّدٌ والآخرُ ترابيٌّ مليءٌ بالأوحال. يسير الجميع في الطريق المعبّد، لننطلقَ من الحاشية وبعد أربعمئة خطوة سننحدر باتجاه النهر؛ وهذا النهر هادئ في الشتاء ولا يثور. ومن هناك وبعد عشرين دقيقةً من السير سنصلُ إلى قرية مدمّرة بقيت فيها شجرةٌ فقط. وسنجتازُ مقبرةً صغيرةً دُفن فيها أبي المتوفى، وسنقرأ فاتحة هناك ونتابع طريقنا. هناك جبل وراء المقبرة علينا أن نتسلّقه كي نصل إلى قمّته؛ ثمّةَ شجرةٌ وحيدةٌ هناك. شجرةٌ يجب أن تكون قد كبرت كثيراً الآن. وإن بقيت الشجرة هناك وكبرت، فإني سأنام تحتها وعند استيقاظي ستشفى عيناي».

وهكذا انطلق سرياس الصباحي وزميلاه في تلك الليلة المرعبة والماطرة من أجل البحث عن آخر شجرة رمّان في العالم؛ وهي شجرةٌ صغيرةٌ قد نمت على قمّة جبل منبسطة مثل ملعب ما خلافاً لقمم الجبال الأخرى. وعلى هذه الأرض المنبسطة زُرعت شجرة رمّان لا يُرى شيءٌ من تحتها غير النجوم. غرسها نسيم الأمير، والد نديم الأمير، في تلك المنطقة الجبلية قبل أربع سنوات في ظهيرة يوم صيفي لطيف من أجل نديم.

بعد غرس تلك الشجيرة قال نسيم الأمير إنه قد جلبها من بستان مسحور. وذات يوم وبينما يبحث عن نباتات طبية لعلاج ابنه الأعمى، التقى مأمورين حكوميين يصطادان الناس، حيث يتسلمان مبلغاً لقاء كل رأس؛ فألقيا القبض على نسيم الأمير وقاما بقتله وقطعا رأسه، وقصّا شاربه، ووضعوه في كيس وباعا الرأس بثمن رأس أحد المتمرّدين. ولاحقاً وجد أخوته رأسه سليماً ولكن من دون الأذنين

وتشويه آخر، في الفناء المحترق خلف مبنى الأمن العام، بين مئات الرؤوس الأخرى. وبعد فترة طويلة من الثورة، أي بعد بحث نديم والصبيين الآخرين في تلك الليلة عن آخر شجرة رمّان في العالم، التحق الرأس بجسده وجُمعا بهدوء في قبر جديد.

حين وصل نديم الأمير إلى قبر أبيه في تلك الليلة علم أنّ جسمَه مدفونٌ هناك بلا رأس، ولكنّه بعد قراءة الفاتحة خاطب أباه: «يا نسيم، مع أنّني أعلم أنه لا رأس لديك، ولكنّك تستمع إليّ؛ لأنّني أعلم أنه في بعض الأحيان يستطيع الإنسان عديم الأذنين السمع أيضاً. كما أنه يمكنني أن أرى في أغلب الأوقات من دون عينين. والآن إذ عدتُ، فسأذهب عند تلك الشجيرة التي غرستها قبل عدة سنوات وقلتَ لي نم تحتها حين تكبر؛ فعند استيقاظك يمكنك أن تفتح عينيك وتتمكّن من الرؤية. إن كذبتَ، فلن أعد أصدقك... عسى ألا تكذب عليّ؛ فمنذ سنتين وأنا أرغب في المجيء ولكن لم أستطع فعل ذلك؛ لأنك قد غرست تلك الشجيرة في منطقة وعرة لا يمكن الوصول إليها بسهولة. ألم يكن بإمكانك أن تغرسها في مكان مثل حقل ما؟ ألم يكن بإمكانك أن تفكّر فيّ أنا الأعمى الذي لا تصلها يدي؟... في تلك الليلة استمع سرياس الصباحي ومحمّد زجاجي القلب إلى حديث نديم الأمير، وضحكا دون أن يسمع نديم ضحكتهما. قال: «أنا أعمى منذ الولادة، ويقول أخوالي وأعمامي والشحاذون الآخرون من يولد أعمى فإنه لا يعرف أيّ شيء عن الرؤية؛ ولكنّي أعرف أنّ هذا الأمر ليس صحيحاً. فأنا أعلم كلَّ شيء عن الرؤية؛ لأن العميان يرون الأحلام أيضاً؛ وفي النوم يرى فاقد العينين أشياءَ، بعينه الأخرى الموجودة في أعماق ذاته،

أي في مكان آخر في رأس الإنسان لا يمكن أن يراها شخص غيره». روى نديم قصّته في تلك الليلة وطوال الطريق، قصة طفل ولد أعمى دائم البكاء من أجل الضياء... صبيٌّ بكى في طفولته بحيث اضطر أبوه إلى أن يجوب العالم كلّه من أجل البحث عن دواء سحري، ويحرم نفسه من الراحة؛ وأن يحمله على ظهره من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى أخرى ويذهب به إلى الأطباء والصيادلة والسحرة ومزارات الأولياء. وأضاف نديم: «لقد جرّبت كلَّ أدوية العالم، ووضعتُ كلَّ المراهم التي صنعها البشر على عيني، وصرفت جميع النقود التي كسبتها من التسوّل من أجل الأدوية والعلاج. ولا أخفي عنكما أنني شعرتُ بالحسد تجاه من يمكنهم الرؤية». وضع نديم البطانية على رأسه وقال: «نحن العميان بشرتنا حساسة تجاه المطر والبرودة؛ وحين قالوا لي إن الدبابات وصلت إلى المدينة، لم تسنح لي الفرصة لأعود وأرتدي الملابس الدافئة... كنت قد سمعت أن القوّات العسكرية تقلع عيون الناس في القرى، وقد قتلوا العميان أيضاً... حلَّ الغروب حين سمعت عن مقتل العميان، ولهذا السبب لم أستطع أن أرتديَ شيئاً دافئاً، وارتديتُ تشوخه[8] فقط. بيد أنها تبللت بحيث رميتها وسط الطريق. وبينما كنت أسير وضع أحد الصبيان بطانية عليّ وقال: "يا أيّها الأعمى القذر، ستهلك الليلة من شدّة البرد مثل الكلاب. خذ، فأنا لا يمكنني حمل كلّ هذه البطانيات؛ أعدها لي عند وصولنا إلى إيران". لم ير سرياس الصبّاحي ومحمّد زجاجي القلب شخصاً ثرثاراً بقدره. إذ ينتقل بنفس واحد من قصة إلى أخرى، ويتوقّف فجأة ويدقّ

---

(8) قميص كردي يلبس على البنطال الكردي العريض (رانك)، ويطلق عليهما «تشوخا ورانك».

عصاه بحجارة وينفض نهايتها من وحل الطريق. يثرثر كثيراً بحيث لم ينتبها إلى الطريق؛ وفي كلّ عدّة خطوات يقول نديم شيئاً ويبيّن مهارته وموهبته في معرفة الطرقات. وفجأة قال: «لو سمح الظلام والمطر لوصلنا الآن شجرة البلوط الحلبي البنفسجية، البلوط الحلبي الخارق. يقال إنهم قد صنعوا منها دواء عالج بواسير الملك والملكة في الأيام الغابرة». أو يقول: «من هنا يبدأ مضيق السحُب، والسحب تهبط كلّ ثلاث سنوات مرة وتلتف حول الجبل كالشال... هكذا يقال. أنا لا أعرف كيف يلتفّ السحاب حول الجبل. والآن يجب أن نكون على أحد تلك الشالات».

يحفظ جميع قصص الطرقات غيباً، وبثرثرته يملأ المسافة التي سبّبتها رؤيته. في تلك الليلة تحدث محمّد زجاجي القلب وسرياس الصبّاحي مع نديم الأمير كثيراً بحيث لم يتحدّثا مع أنفسهما بهذا القدر. وعند الفجر وصلوا إلى قمة مرتفعة جداً تقع أعلى من الغيوم، تبدو مثل جزيرة في وسط البحر تغطيها أمواج السحب الفضية. تسطع أشعة الشمس الأولى عليها وعلى بحر الغيوم البيضاء اللا متناهي. المنظر الأكثر جمالاً الذي قد شاهده الصبيان في عمرهما؛ والعالم أبيض ومنعش وشفّاف جدّاً، والشمس دافئة ورائعة وآسرة بحيث بدا وكأنّهم قد حلّقوا إلى كوكب آخر. والعالم الحزين تحت الغيوم لا يشبه العالم الغريب واللا متناهي والفضّي الموجود فوق القمّة حيث خلق ساحة كبيرة من الضياء، ولانت أحجاره إلى الأبد بجوار السماء الغائمة والشمس. كأنما خلقها الربُّ لملائكته ليستريحوا فيها في رحلاتهم بين السماء والأرض، وقد امتلأت برائحة السماء بحيث لم

يعد يمكن شمُّ رائحة الأرض فيها؛ وكأنّما لم يصلها أيّ إنسان قط. وكأنّ الأرض هناك تصل إلى نهايتها ليبدأ الملكوت؛ و تنبعث رائحة سماوية من الأحجار لا تشبه رائحة أي مكان آخر. رائحة التكثير والامتزاج الفجائي لاتساع الأرض والقمر والسحب والشمس.

خمّن نديم الأمير مسافتهم مع القمّة عن طريق حاسّة الشمّ. وحين وصلوا هناك لم يستطع رؤية بحر الجمال اللا متناهي ولكنّه صرخ في أول خطوة أنّه المكان المنشود، وأن هذين الشبرين الوحيدين من الأرض يعدّان النعيم على الأرض. جاء إلى هذه القمّة قبل أربع سنوات، ولم ينسَ رائحتها قطّ. ثمة شجيرة رمّان تقف حائرة منتصبة وسط ذلك المكان الشاهق. في تلك اللحظة قال سرياس الصباحي: «يا لَلهول، انظرا... سواء أشئتما أم لا فهذه آخر شجرة رمّان على الأرض؛ وما من شجرة رمّان يمكنها أن تنبت في هكذا مكان مرتفع وناء». أجل، كانت آخر شجرة رمّان في العالم على قمّة تصل فيها الأرض إلى نهايتها لتبدأ بلاد السماء الشاسعة والأسطورية، حيث ينتهي العالم ويبدأ عالم آخر. يظهر في الإنسان إحساسٌ غريبٌ كبيرٌ جداً تجاه البداية والنهاية. شجرة رمّان قد نبتت على الخطّ الفاصل بين إقليمين، إقليم الواقع وإقليم الخيال؛ الأرض الواقعية والسماء الأسطورية.

هرب ثلاثة صبيان من حقيقة الهزيمة المريرة في ذلك اليوم واتجهوا نحو الأراضي الأسطورية؛ ثلاثة صبيان جرّهم الصعود إلى تلك القمّة، إلى مكان خارج من حقائق الحياة. في ذلك اليوم قال نديم الأمير: «لقد مزجت الشمس سحر الفصول كلّه في ذاتها على أمل أن تشفى»؛ ورقد تحت آخر شجرة رمّان في العالم. جلس سرياس

الصبّاحي ومحمّد زجاجي القلب على القمّة أمام بحر الغيوم الشاسع، وراحا يرويان قصّتي حياتيهما بعضهما لبعض. وهناك، وأول مرّة أخرج سرياس الصبّاحي رمّانته الزجاجية من جيبه، وقال لمحمّد زجاجي القلب إن هذه الرمّانة كانت معه منذ طفولته ولا يعرف لما كانت معه وماذا تعني. ولكنّ الأمر الذي تعلّمه في طفولته هو أنّه عليه ألا يغفل عن تلك الرمّانة؛ ويجب ألّا يفقدها ويتركها في مكان ما وينساها. إنّها رمّانة جميلة بحق ومضيئة وبراقة. في ذلك الصباح حين سطعت أشعة الشمس على ذلك الزجاج، شّكلت قوس قزحاً صغيراً في أطرافها، وتغدو يد محمّد زجاجي القلب حمراء في ضياء تلك الرمّانة، وكأنّه قد غسل يده في دم طائر ما. في تلك اللحظة برز حزن في صميم محمّد زجاجي القلب حين أدرك سرّ الرمّانة اليدوية. ينظر إلى بحر الغيوم الأسطورية ذاك بارتياب؛ وبين فترة وأخرى ينظر إلى حركة الغيوم الهادئة ويستمع إلى الأغاني الكامنة فيها تارة أخرى، وفي أحيان أخرى يحدّق إلى السحر الداخلي لتلك الرمّانة الزجاجية. وهو في هذه الحالة قال سرياس الصبّاحي: «إن لم أمت فإنّني سأكتشف سرّ هذه الرمانة».

في ذلك اليوم الماطر تفرّق مئات الآلاف من المشردين السائرين على أقدامهم في المضايق الجبلية الوعرة. يتحدث سرياس الصبّاحي ومحمّد زجاجي القلب فوق الغيوم عن مساوئ كشف أسرارهما ومحاسنها. أجل، يا أصدقائي؛ حين كنتم جميعاً تحت المطر جلس هذان الصبيان وحدهما تحت الشمس الساطعة. يوم ربطتهما يدٌ بالضياء والفجر؛ وفي الوقت الذي غرقت الشمس في حقائقها الدامية،

فتح الاثنان بوّابة الأساطير على أنفسهما، الأسطورة التي لا يمكنها كالأساطير الأخرى اقتلاع الإنسان عن الأرض نهائياً، ولكنّها تستطيع أن تُبنى على تخيّلات وأوهام لتكون نديم المرء ومؤنسه حتى مماته. دائماً سرياس ما يقول: «هذه آخر رمّانة في الدنيا... ما من شجرة رمّان أخرى يمكنها أن تنبت في مثل هذا المكان الصعب والشاهق». يجعل التفكير في انتهاء العالم على هذه القمة الصبيين ينظران إلى شجرة الرمان تلك بوصفها شجرة عجيبة وزاخرة بالأسرار، حيث نبتت في نهاية الأرض. شعر الصبيان بهدوء عميق تحت تلك الشجرة، شعور بالهدوء لا يتكرر مرة أخرى في أيّ بقعة من الأرض؛ هدوء يشبه هدوء الاقتراب من الربّ أو الأمان بعيداً عن رعب الأرض، أو هدوء طفلين أدركا في ذاتيهما أنهما على وشك الموت وأنهما لن يعودا إلى هذه الأرض بل إنهما ضيفان عابران مثل ملاكين صغيرين وعليهما أن يرحلا.

إني أعتقد أن جميع الأطفال الذين يرحلون مبكراً لهم ارتباط عميق ووثيق مع السماء؛ كل تلك السعادة الكبيرة التي شعر بها الصبيان على القمة وفي الضياء، سعادةٌ وحماسٌ عابرتان.

يجب ألا تنسوا أن تلك الأيام عمياء، ولم يعرف فيها المرء إلى أين يتجه. تشرّد مئات الآلاف من الناس من بيوتهم ولم يعرفوا شيئاً عن غدهم؛ ولم يستطع أيٌّ منهم أن يتنبأ بلحظات حياته اللاحقة، ولم يستطع أي منهم أن يعرف أين سيجد نفسه بعد عدة خطوات. لم يكن المراهقون الثلاثة قليلو اليد الذين تسلقوا قمة مرتفعة فوق الغيوم بعيداً عن الآخرين، غرباء عن ذلك العمى. والآن إذ أتأمّل أرى أنّ هؤلاء الصبيان الثلاثة يهربون من العتمة والظلمة على نحوٍ ما؛ ولم

يحارب نديم الأمير وحده عماه، بل يهرب محمّد زجاجي القلب وسرياس أيضاً من أحد أنواع العمى بالطريقة ذاتها.

غير الرؤية والمشاهدة، عمّ يبحث سرياس الصباحي عندما تسلّق مع أعمى، قمّة جبل متمرّدة؟ إنّي متأكّد أنّه في تلك الليلة حين وقف نديم الأمير في قارعة الطريق تحت سياط المطر والرعد والضجيج الخفيّ، وطلب من الصديقين أن يساعداه ليستعيد ضياء عينيه، يشعر الصعلوكان الصغيران في صميمهما أنّهما بحاجة إلى شجرة تهبهما الضياء.

حين استيقظ نديم الأمير بعد نوم طويل وجد عيناه عمياوين كالسابق، ولكن مع هذا كان ثمّة هدوءٌ وارتياح قد طبعا على وجهه. قال: «لا أرى شيئاً، وكالسابق أنا أعمى كباقي أيام حياتي... ولكن منذ استغراقي في النوم تكلّمت مع أبي، وقد بيّن لي كل شيء». عندما كان يتحدث كانت ثمة مواساة عميقة تتماوج في صوته. كان الصبيان الآخران ينتظران بكاءه وأن يضرب رأسه بالصخور، وأن يمسك بالأغصان بعنف أو يقذف السماء بالحصى؛ وأن يلعن ويسب، ويهز شجرة الرمان ويلطم صدره بقبضاته. إلا أن نديم الأمير قبّل جذع الرمان في هدوء تام وقال: «أنت شجرة مقدسة». في ذلك اليوم حين هبط نديم الأمير مع مرافقيه من أعلى سحب على الجبل، روى قصة نومه لسرياس ومحمّد زجاجي القلب في الطريق وداخل ضباب كثيف لم يكن يستطيع رؤيته. في منامه تحت شجرة الرمّان الصغيرة تلك، جاء والده وقال له: «يا ولدي الصغير نديم الأمير، يا ألطف صبي في العالم؛ إنّي أعرف أنك في هذه السنوات قد قضيت حياتك بصعوبة

بعد موتي. إنه لمؤسف جدّاً أن تضطرّ بعد موتي، إلى التسول من أجل العيش؛ وأن تنام على الأرصفة وفي باحة المساجد والخرائب. أنت أكثر طفل محبوب في العالم... ومن الآن فصاعداً عليك أن تكون أكثر جرأة. ستنهض الآن من نومك وسترى عيناك كالسابق... كلا، إنّي لم أكذب عليك يا نديم الأمير؛ فإنّك ذات يوم ستمتلك عينين شفّافتين وأكثر ضياءً من عيون أناس آخرين. ولكن من أجل استعادة بصره على المرء أن يجتهد كثيراً ويفهم الكثير من الأشياء. في النهاية ستمتلك عينين مضيئتين، ولكن ليس من المفروض أن تكون هاتين العينين كعيون البشر الآخرين. كلا، يا نديمي الصغير؛ فجميع البشر يولدون عمياناً، ومن بين جميع هؤلاء البشر على هذا الكوكب ما من أحد يمكنه الرؤية فور ولادته. ولا تتصور أن من يملك العينين يمكنه الرؤية، فما من شيء في العالم أكثر صعوبة من الرؤية. يحتمل أن يملك الإنسان عينين شفافتين ومضيئتين، ولكنه مع هذا لا يستطيع الرؤية. يا نديمي الصغير، لا يمكنني مساعدتك، ولكن شجرة الرمان هذه يمكنها ذلك. عليك تقوية هذا الاعتقاد في ذاتك أن شجرة الرمان هذه ليست كبقية أشجار الرمان الأخرى. من الآن فصاعداً لا تشعر بالخوف. كلا، يا بني؛ عليك ألا تخف من هذه العتمة الموجودة فيك. عليك ألا تفقد الأمل، فسيظهر وميض في ذاتك بحيث يمكنك أن تميز الفاكهة السيئة عن الجيدة بشمهما، وأن ترى مرادك وأسرارك الباطنية. وأن تميز أصل كل شيء وحقيقته عن طريق التنفس؛ وستظهر عندها خريطة الطريق أمامك في أبهى صورة. عندها لن تضيع، يا بُني الحبيب. وإن وجدت نفسك في مكان آخر سهواً فإن روعة ذلك ليست بقليلة... وستستطيع ذات يوم الرؤية؛ ولكن قبل ذلك يجب أن تعود وتدرك

معنى الرؤية، وتفهم حكمة البصيرة. يا نديم، هؤلاء الذين قتلوني كانوا يمتلكون عيوناً؛ مع هذا لم يمكنهم رؤيتي. بحثت في الأحراش عن عدة نباتات من أجل صنع دواء لعينيك. لا تتصور أن من يمتلك العينين يمكنه الرؤية. تعال تحت هذه الشجرة حين تشعر بالتعب، فإنّها شجرتي وشجرتك؛ لقد غرسناها معاً. هذه الشجرة ستهبك الهدوء؛ اذهب وسرْ في العالم وابحث مثلي عن مرهم من بستان إلى بستان آخر. عليك ألا تتعب من فكرة امتلاك عينين ذات يوم؛ فهذه الشجرة هي شجرة الرؤية. اذهب يا نديمي الصغير... تعال هنا كلما احتجت إلي، وناديني. لا تحزن، فإني قريب منك دائماً». عندما وصل نديم الأعمى هنا خنقته العَبرات: «إنه معي... هو قريب مني». في ذلك اليوم هبط نديم ذلك الجبل مع عزم آخر. حين كنتم أنتم مبصرو هذه البلاد قد أضعتم أنفسكم، كان ذلك الأعمى الصغير يؤمن بعماه أكثر من إيمانكم ببصركم. أعمى صغير مع شعر ناعم وزوجين من العيون البيض، ووجه رفيع وشفتين غليظتين؛ لم يكن أقل اصفراراً واضطراباً من أقرانه المراهقين. هبط مثل أي شخص بصير من الطريق الصخري الوعر وقال: «كلا، لم تكذب عليّ تلك الشجرة؛ يمكنني الآن أن أرى شيئين لم أرهما سابقاً: لقد رأيتكما وأبي بمساعدة هذه الشجرة. لقد رأيت أبي بمساعدة هذه الشجرة، وهذا يعني أنه لم يكذب عليّ». لا يمكنني وصف سعادة وشغف هؤلاء الصبيان الثلاثة؛ يجب أن يهبطوا من ذلك الجبل والأمل يعتريهم بشدة. كان سرياس ومحمّد زجاجي القلب سعيدين لكون نديم يشعر أنه قد رأى شيئاً بطمأنينة وهدوء، كما أنهما كانا يشعران بالاستغراب من الثقة التي شعرا بها تحت آخر شجرة رمان في الدنيا. لقد أقسما في سفح ذلك الجبل على العودة

تحت تلك الشجرة مرة أخرى، ولكنهما حتى ذلك الوقت لم يكونا يعرفان متى وكيف وفي أي موعد سرّي يجب أن يعودا.

انطلقوا في تلك الأيام، وبعد تلك الهجرة الجماعية الكبرى عاش الصبيان عدة أسابيع معاً، وهذا ما جعلهم أصدقاء إلى الأبد. لا أعرف بالضبط كم بقوا معاً، ولكنني أعرف أنهم لم يعبروا الحدود مثل مئات الآلاف الآخرين، بل سكنوا في خرائب إحدى البلدات. كان هناك بائع نحاس لا يعلم بضجيج الدنيا وصخبها، وهو من أولئك الذين لا يهتمون بمرور الزمان وفناء الأرض. طيلة عمره يبحث عن الزنك والنحاس؛ فهو من الأشخاص الذين يبحثون عن رزقهم فقط ويتابعون نجاحهم وفشلهم في الخرائب، حتى لو مات الملوك وسقطت الأنظمة أو انتصرت الحكومات. كان رجلاً صغير الحجم ذا شعر أصفر وأنف بحجم برقوق كبير، وعينين تبدو وكأنهما قد جالتا الجحيم لمدة أسبوع قبل عودتهما. اسمه كان عباس الزنك، وجعل الصبيان الثلاثة يعملون لديه، إذ فور رأيتهم قال لهم: «لو ساعدتموني لكسبتم ثروة كبيرة خلال شهر كامل». أخذ بيد الصبيان وسحبهم إلى أماكن أخرى؛ إلى حقول لم يخطُ أحدٌ فيها منذ سنوات. أراهم حقلاً وخاطبهم قائلاً: «دارت حرب هنا مدة ثماني سنوات؛ وقد امتلأت كل هذه المنطقة بآلاف القذائف التي لم يتسنّ الوقت للمهزومين لجمعها، كما كانت بعيدة عن متناول يد المنتصرين. أتفهمون أي ثروة عظيمة وكنز هنا؟ لو استطعتم جمع آلاف القذائف سنصبح نحن الأربعة أثرياء جداً». علم ذلك الرجل أن تلك الأراضي ممتلئة بمئات الآلاف من الألغام؛ وعلم أنّ ما من أحد يتجرّأ على الاقتراب

من تلك الأنحاء، وأنّ هؤلاء الأطفال الغافلين يمكنهم أن يبحثوا كلّ تلك الزوايا دون أي خوف. يذهب نديم الأمير كلّ يوم مع أحدهما، فبإمكانه المساعدة في حمل القذائف فقط. تفقدوا في هذه الأسابيع عشرات المناطق التي لم يدخلها أحد بعد الحرب. وهناك شاهد الصبيّان الجبالَ والوديانَ ممتلئة بجثامين الجنود المقتولين، ورأيا أمواتاً بقيت عظامهم بين ملابسهم وأحذيتهم العسكرية. الأجساد التي نظرت إلى السماء وقت الموت وقد تقطّر الموت في أفواههم ذرة ذرة وهم يرفعون أيديهم ليستنجدوا الرب، وحلّقت أرواحهم بعيداً.

اشتغل سرياس الصباحي ومحمّد زجاجي القلب فترة بين الأموات، وحمّلا كلّ يوم حماراً هزيلاً بمئات القذائف، وسارا به إلى الشوارع ليفرغ عباس الزنك الحمولات على متن جرّاره القديم وينقلها. في هذه المدة عاش الصبيان الثلاثة تحت خيمة صغيرة، وأصبحوا أصدقاء إلى الأبد. ولم يعرفوا شيئاً عن اللعبة المميتة، ولا أنهم قد دخلوا مجال الموت ولن يستطيعوا الخروج منه أبداً. هناك وبين الأطلال المتبقية من حرب بعيدة وطويلة أصبحوا أصدقاء، وهناك تحدث سرياس ليلاً عن فترة طفولته في القرى والمناطق الحدودية والخرائب والمباني الحديثة غير المكتملة، وبين السائقين ومساعديهم ومكّاري الحدود.

بدأ يشعر هناك بحقد كبير تجاه الحرب؛ فتحدّث محمّد زجاجي القلب قائلاً: «سوف أموت بسبب الحرب»، الكلام الذي بدا مضحكاً وعديم المعنى في ذلك الوقت، فقهقه زميلاه كثيراً. وهناك تكلّم عن نغمة سماوية تدوي في أذنيه باستمرار، وأراهما مفاتيحه وميدالياته

قائلاً إن كلّ مفتاح هو مفتاح بوّابة خيالية؛ وأخبرهم باسم المفاتيح كلّها. كما أنّه حدثهما عن بوّابة سيفتحها أحد مفاتيحه تحت المطر. هناك تحت الخيمة أدركا كم هي حياة سرياس الصبّاحي مضطربة وغامضة. في تلك الليالي تجلّت رغبة محمّد زجاجي القلب الملحّة لفهم الأسرار والغموض؛ إذ إنّهم حين كانوا يجلسون حول النار في تلك الليالي كان محمّد يقول: «أنا أرغب في معرفة كل شيء عن كل شيء... أن أعرف من أنت، وما تلك الرمانة الزجاجية؟»

لا أشك في أن تلك الرغبة العظيمة التي تشكلت في أعماق تلك الجبال النائية، بين صمت البرد ورائحة الموت والقذائف، بقيت مع هؤلاء الأصدقاء الصغار إلى الأبد. في ذلك الوقت حيث كان محمّد زجاجي القلب يبحث في المعسكرات المتروكة، وفي أخاديد التلال وسفح الجبال عن بقايا القذائف والصواريخ الأرض - أرض وقنابل الطائرات غير المنفجرة، قلَّب والداه العالم كلّه بحثاً عنه ولكنّهما لم يجداه. كلّ يوم كان عناصر البيشمركه ومحافظو سليمان الكبير الشخصيون يقلبون الحدود رأساً على عقب بمركبات تويوتا كبيرة، وسيارات جيپ صغيرة وينادون باسم صبي، كانوا يخشون أنه قد يكون قُتل في حفرةٍ ما أو على جانب الطريق. وذات يوم ربيعي مشمس ومعتدل جرَّ محمّد زجاجي القلب مع صديقه الأعمى قذيفة مدفع كبيرة في مزرعة ليوصلاها إلى الطريق العام، فمرّت سيّارة جيپ أمريكية رمادية اللون في الشارع. أخرج أحدهم رأسه من نافذتها وصرخ قائلاً: «إنّه محمّد زجاجي القلب... هناك إنّه هو نفسه... هو نفسه». وسرعان ما خرج شخصان من سيّارة الجيپ واحتضناه

دون أن يقولا شيئاً، ورمياه داخل المركبة. باءت محاولاته للتخلص منهما بالفشل. لم يسمع نديم الأمير غير عدّة صرخات ناقصة ومقطعة لمحمّد زجاجي القلب الذي يقول: «انزلاني... اتركاني...اتركاني... دعاني وشأني». كان هذا بداية أول فراق بين هؤلاء الصبيان الثلاثة. في اليوم التالي قال عباس الزنك للصبيين: «لقد غرقت أختي في المستنقع؛ سأذهب للجنوب، وحين أعود سنسوي الحساب». ولم يرَ أحدٌ عباس الزنك بعد ذلك. بعد عدّة سنوات وفي صيف ساخن، وفي مزرعة بعيدة في هذه الأنحاء، انفجرت به قذيفة مدفع قديمة، فتناثرت أشلاؤه وامتزجت بالتراب والحصى والأشواك الصيفية في المكان ذاته.

12

بعد موت سرياس الصبّاحي وتفرّق جيش أصحاب العربات، تعيش الشقيقتان البيضاوان في عزلة كبيرة. وبعد نهاية السنة الجامعية، ساعدهما إكرام الجبلي كي تشتغلا معلمتين في قرية نائية. فتركتا بيتهما الصغير في المدينة وانتقلتا إلى قرية صغيرة تقع شمال المدينة؛ مدرستهما مبنى كبيراً بنته إحدى المؤسسات الخيرية. في ذلك الصباح حين طرقنا أنا وإكرام الجبلي الباب، في الحقيقة هو باب تلك المدرسة؛ وقد بنوا مستشفى صغيرة خلف المدرسة، لكن ومع هذا بقي ذلك المكان خالياً دائماً. حين وصلنا صباحاً، فتحتا الباب لنا ورأينا بيتاً مرتباً مضيئاً... أعدتا حياة هادئة لنفسيهما ولم يمرّ أحد عليهما غير إكرام الجبلي، وفي بعض الأحيان سليمان الكبير. الحياة في رحاب تلك الطبيعة الشاسعة مقرونة بقليل من الهدوء وراحة بال. هناك تسيران في ذلك البستان الأخضر الممتلئ بالفواكه والخضار وتغنيان، وتذهبان معاً إلى النهر في الصباح الباكر وتفكّان جديلتيهما على الصخر والنباتات والطلّ الصباحي، وتسلمانها للريح. كان لديهما أغرب شعر، وكنت أشعر أن خصلات شعرهما تمتد إلى ما لا نهاية؛ وكأن الطوفان قد عصف عليهما من تلك الجهة الأخرى من العالم. كانت عادتهما غريبة جداً بحيث كان عليهما كل ليلة أن تجلسا على الصخور عند ضفة النهر وتشرعا في الغناء في الريح أو تحت المطر أو حتى عند هطول الثلج.

لم يكن سكان القرية ينظرون إليهما مثل معلمتين بل كانوا

يعدونهما ملاكين قد أنزلهما لهم الله من مكانٍ بعيد، وكانت لهما علاقة ودية مع القرويين.

كانتا شاهدتي الوحيدتين في العالم؛ سوف أحدثكم ليلة غد عن تلك الليلتين اللتين كانتا بداية عودتي وضياعي، حيث أعد إحداهما ليلة موتي والليلة الأخرى ليلة إحيائي من الموت. كانت ليلة موتي هي الليلة التي ذهبت فيها مع الشقيقتين البيضاوين عند قبر سرياس الصباحي، والليلة الثانية كانت ليلة حريتي. جاءت الشقيقتان عند مغيب الشمس، وقالتا لي: «كان سرياس الصباحي شقيقنا». روتا لي قصة كل تلك الأيام الغامضة، وقصة الميثاق الذي دفنتاه أسفل شجرة الرمان في أقصى مكان من المدينة. الشيء الأكثر غرابة الذي عرفته هو أن سرياس الصباحي قد دفن بالقرب من ذلك السهل، وسط ساحة كبيرة في مزرعة ترابها صلصال، حيث كان الصيادون يحتفظون بأدوات صيدهم في كوخ معدّ للاحتفاظ بطيور الحجل والأرانب والثعالب. كان الأمر غريباً بالنسبة لي أن تينك الشقيقتين تذهبان إلى ذلك القبر الوحيد مرة كل أسبوع. وكان غريباً بالنسبة لي حين عرفت أنهما أصبحتا معلمتين في تلك القرية لقربها من مثوى سرياس الأبدي. حين كانتا تشرحان قصتهما، كان ثمة ارتعاش خفيف ودوي عميق من الشك يتماوجان في صوتيهما. كلا، لو لم ترغبا بنفسيهما الحديث فما من أحد كان بإمكانه الوصول إلى سرَّيْهما. منذ وفاة سرياس وضعت الاثنتان شالاً أسود على كتفيهما ولم تَكونا تنتزعانه أبداً. عانقتاني في اليوم الأول للقائنا وقالتا: «إنه كان أخانا... وإن رغبت فيمكنك أن تعيش معنا». كنت كائناً غريباً بالنسبة لهما، كما أنني

لم أكن قد رأيت بشرياً قد ربط مثلهما السحر بالآخرين؛ كما أنهما لم تريا شخصاً مثلي قد اكتسب لون سنوات وحدته الطويلة. كانت تفوح مني رائحة الأبدية، رائحة شخص قد جاء من خارج الزمان؛ شخص يشترك معهما في شيء عميق. كما أنهما فتاتان تريدان العيش خارج القضايا الدنيوية وشر السياسة ومشكلاتها. الطريف أنّهما لم تعرفا اسم أغلب الأحزاب ولم تستمعا إلى المذياع ولم تقرآ الصحف؛ بل طوقتا أنفسهما بالأغاني. وقد عرفت لاحقاً أنهما من قام بتلحين تلك الأغاني وتأليف كلماتها. ليستا ساحرتين، ولكنهما تشعران بالمصيبة قبل حلولها وقبل أن تضرب ضربتها؛ وفي يوم موت سرياس حذرتاه عدة مرات دون أي جدوى. لم تربطهما أيّ علاقة بالشياطين، ولكنّني شعرت أنهما ترتبطان بقوة غير مرئية وطبيعة مضيئة؛ حرتان بشكل مطلق ولكن مع هذا حرمتا جسديهما على الرجال. والقَسَم الذي أقسماه في طفولتهما بعضهما لبعض لم يكن كطوق على جيديهما، بل أصبح جزءاً من حياتهما شيئاً فشيئاً؛ جزءاً من حقيقة لا يمكن فصله عنهما. لم تكن لديهما رغبة في تحقيق حرياتهما الصغيرة، إذ تمنتا ألا تشعرا بالخوف ليلاً لتخرجا للتنزه، وعدم الشعور بالخجل من غنائهما. لم تستطيعا الافتراق بعضهما عن بعض، وفي الفترة التي عشنا فيها معاً رأيت تصرفاتهما الغريبة من قرب. كانت الفتاتان، وفي ذاتيهما روحان ليليتان، تغسلان وجهيهما في ذلك النهر كلّ صباح. ودائماً ما شعرت أن ثوبيهما الأبيضين زاخران بقطرات الندى. وأنا أيضاً منذ البداية شعرت بالخوف من عينيهما، فما من أحد هناك لم يشعر بالخوف من تلك العيون. ثمة شيء في نظرتيهما يذكّر المرء بالموت والأبدية والبحر واتساع الكل. كلا، لم تكونا من الفتيات

اللواتي يمكن وصفهن... لم تكونا من الفتيات اللواتي يؤطرهن الرجال في قصصهم وتخيلاتهم. لم تكن عودتهما إلى القرية وبين الأطفال هروباً، بل دفاعاً عن النفس؛ وخطّة لدحر رعب غير مرئي. ولم تكونا من الفتيات التي يفهمن معنى الهروب، بل سرّين انفصلا عن طلاسم الكينونة الكبيرة. لم تكن حياتيهما في المدينة قد أخرستا الصرخة العميقة والعظيمة للطبيعة في وجوديهما. شعرت أنهما حيث تمسكان بعضهما بأيدي بعض طيلة الليل وتذهبان بعيداً، تستجيبان لصرخة بعيدة لم نستطع سماعها. ولم يكن من المفترض أن تكون تلك الصرخة قد بعثت من شيء أو مكان ما، وحين تبحثان حائرتين عن شيء ما، تشعران أن ثمة صوتاً يناديهما من بعيد؛ وهذا هو الشعور نفسه الذي انتابني حين كنت في الصحراء، والشعور نفسه الذي عانيت منه. قد يكون شعور زهرة برية أو جرح عميق على صدر طائر أو صيحة طائر ذهبية أو صرخة صخرة جعلها شيءٌ ما تبدأ بالنطق. يُبعث صوت الأرض بسبب خوفها وشعورها بالحيرة من أشباحها وأشجارها. كيف يعرف الإنسان من يناديه؟ على المرء الاستعداد دائماً، وأن يستعد لزمزمة الطبيعة وهمساتها؛ فالإنسان ليس سوى عبدٍ كبير لهذه الدنيا. هناك من يشعر بالسعادة لسماع معانيها ويدركها؛ تلك الشَقيقتان تسمعانها وتفهمانها، إذ هكذا عاشتا في المدينة. تجول الشقيقتان كلّ ليلة بثوبيهما وعصبتيهما البيض في ليالي المدينة المعتمة، المدينة التي قد جمعت شرفها كلّها بأقفالها الليلية، وترى شرفها في الأبواب الموصدة. الغريب أنّ الفتاتين تجوبان شوارع مدينة يحكمها سياسيون انتهازيون ناهبون قساة. وحين تتجوّل الفتاتان ليلاً في الشوارع يخيف بريق عيونهما مأموري الشرطة وخفراء الليل

والمناوبين الليليين لمولّدات الكهرباء.

يعد تجوالهما الليلي دلالة شؤم وتعاسة؛ فالصوت الذي يبعث في الصمت من أحذيتهما ذات الكعوب العالية، على الأرصفة الإسمنتية، يهبهما طاقة أكثر لمتابعة سيرهما، وفي بعض الأحيان تبدوان وكأنهما تنتظران شيئاً ما، فتتوقفان في زاوية لتستمتعا بجمال الليل. تستمع الشقيقتان بأزقة المدينة الصامتة كثيراً؛ وذات ليلة أخذتا بيدي وسحبتاني إلى الأزقة الملتوية الصامتة. مدينة صامتة بحيث لو لم تكن هناك عدة مصابيح مضيئة لصرعتك همهمة الإعصار المغمومة من شدة الخوف. وقفنا في زاوية ما وشعرت أن في صميم اضطراب ذلك الصمت ثمة صوتاً يدوي، ويزداد الصوت ويشبه أنين كائن جريح؛ ولكنّه لم يكن غير صوت الليل. وجدتا بعض الجمال في أزقّة المَدينة يشبه ذلك الجمال الذي وجدته في تلك الصحراء. المدينة بأشكالها الهندسية وبيوتها الهادئة بفعل الغروب قد فتحت لهما باباً آخر. لم تعرفا غير الصبيان الذين قد تعرف إليهم سرياس بين أصحاب العربات، وقد شهدتا الحقد والكراهية الموجودين في المدارس والسوق وعيون الجيران؛ وشعرتا ببعض أصحاب المحلات يبصقون خلفهما، لقد شعرتا بالخوف الذي يحذّرون الصبيان منهما. بعد موت المارشال سرياس، لم يكن أحد يحب تلك الفتاتين غير أولئك الصبيان الذين يتقاتلون عبثاً من أجل إمبراطورية العربات. في ذلك الصيف المظلم الذي قتل فيه سرياس، تذهبان ليلاً إلى ساحة أصحاب العربات. مع كل وقارهما وهدوئهما اللذَين تبديانهما إلا أن الكثير من الناس يعدونهما مجنونتين. وعند عودتي

تفرَّق جيش أصحاب العربات.

رأينا جينو المخملي على سطح بناية مرتفعة إذ دهن سياجاً عالياً جداً؛ ووجدنا آدم المرجان في مطعم راقٍ جداً يعتمر قبّعة بيضاء، وهو يضع صينية صغيرة ممتلئة بعدة صحون ممتلئة بالمكسّرات والمقبلات، على طاولة يجلس إليها عدّة طلبة جامعيين. تغيّر كلُّ شيء تماماً عندما اقتحمت عالمهما؛ أخذتني الشقيقتان البيضاوان إلى ساحة غنّتا فيها قبل سنتين من وفاة سرياس. لكنه عمل غريب وغير مدروس أن تغنّي فتاتان شابّتان في وقت متأخّر من الليل في ساحة ممتلئة بالشبّان؛ لا يزال الصبيان يتذكّرون غناءهما في تلك الساحة ويعرفون أنّهما أكثر نقاءً من الظلّ من حيث العفّة. عندما وصلتا تلك الساحة أول مرة بحثاً عن المارشال، ركض صبيٌّ وبيده قثاءٌ[9] كبيرٌ، وقال: «يا مارشال، لقد جاء ملاكان لرؤيتك وهما رائعان جداً... فتاتان كأنّهما قد هبطتا من السماء». عرف سرياس من فوره أن شادريا ولاولاو البيضاوين قد جاءتا؛ وتلك ليلة سعادة سرياس وضحكات فرحه الممتدّة. في لحظات حزنه خزّن طاقة الضحك والقهقهة في أعماقه. أشعل في تلك الليلة ناراً كبيرة بألواح صناديق الفاكهة وورق الكرتون؛ أعدّ شاياً وقال بضحكة مجلجلة سُمعت في الساحة كلّها: «يا شادريا ولاولاو، إن كنتما تحباني بصدق وتعدّاني شقيقكما، فغنّيا لنا قليلاً. يا شاشا الزهرة ويا لالاي، لم أطلب شيئاً منكما حتّى الآن؛ فرجاءً اقبلا، فهذه أمنيّتي الوحيدة». عرف كم هي صعبة حياة الصبيّان الذين ينامون في

(9) نوع نباتي يتبع الفصيلة القرعية ويسمى بالعربية العراقية خيار طعروزي. يستعمل في الطبخ ولعمل المخلل ويمكن أكله طازجاً مثل الخيار العادي.

تلك الساحة الصغيرة ويستيقظون مبكّراً ويركضون وراء الشاحنات المحمّلة بالخضار؛ وعرف أن حياتهم كلّها من الصباح حتّى المساء تتلخّص في الاشتباك مع السائقين وأصحاب الدكاكين، والزبائن ومأموري الشرطة وأصدقائهم أنفسهم. وفي بعض الأحيان وهو يهزّ رأسه كالأطفال وقد طغى الحزنُ على وجهه يقول لجينو المخملي مبتسماً: «إنّها أسخفُ حياة في العالم». كانت تلك الليلة فرصةً للفتيان السيّئين المحرومين الذين لم يسمع أغلبهم غناء فتاة طيلة عمرهم، ليستمعوا إلى شادريا ولاولاو حيث يقول سرياس إنّ حنجرتيهما من ذهب. في تلك الليلة غنّت لهم شادريا ولاولاو البيضاوان حتّى وقت متأخّر. كلا، لا تتصوّروا أنّ تلك الأغاني قد قلّلت من احترامهما لدى الصبيان والباعة الجوّالين الصغار... بالعكس، فمنذ تلك الليلة أحبّ الباعة الجوّالون الشقيقتين أكثر من قبلُ؛ بدأ نساء الأزقّة والفتيات الحسودات والمرائيات والرجال الطالحون ينشرون إشاعات سيّئة عنهما، ويروون قصصاً بشعة حولهما. في ليلة عودة شادريا ولاولاو البيضاوين، أوصلهما سرياس حتّى بيتهما مودّعاً؛ مما لا يخفى أنّه فعل ذلك خوفاً ممّا يدور في رؤوس أصدقائه اليافعين، ولكنّه مع هذا متأكدٌ أنّ للغناء سحراً قويًّا يجعل الشباب والمراهقين يحترمون هذين الملاكين وألا يتخطّوا حدودهم. كي تغنيا بوقار وبكل وجودهما لأشخاص يتعامل معهم الآخرون باحتقار واستخفاف.

بعد موت سرياس، تغيّر الكثير من الأشياء في حياتيهما، ولكنّهما لم تخونا ميثاقهما قطّ؛ لم تخلعا الملابس البيضاء. الشيء الوحيد الذي فعلتاه أنهما تعاهدتا على ألا تخلعا العصبتين السوادوين اللتين

تدلان على حزن أبديّ. ذهبت شادريا ولاولاو البيضاوان، بعد تلك الليلة، إلى تلك الساحة وقامتا بالغناء؛ متأكّدتين أنّ صوتيهما سيخلفان سعادة كبيرة. في تلك الليالي حيث تعرفتا فيها بجينو المخملي وآدم المرجان، قدّم سرياس الشابّين وهو يضحك على أنّهما «جوهران في مياه آسنة». في تلك اللحظة ذاتها تحدّث سرياس بشكل مستمرّ عن أنّه سيكون شخصاً مهماً. ومنذ تلك اللحظة باتت رغبته في أن يكون خطاطاً، جزءاً مهمّاً من حياته. لم يعرف أحد كيف سيقضي سرياس حياته لو بقي حياً؛ يقول آدم المرجان: «كان شاباً يبشر بالجمال، وأراد أن يبيع عربته بعد عدة سنوات ليصبح خطاطاً، أو يذهب إلى جزء آخر من المدينة ويفتح فيها محلاً لبيع الكتب... فهو يعدّ بيع الكتب أفضل المهن له... ولديه أمنية أخرى وهي أن يمتلك ذات يوم جهاز فيديو كي يشاهد أحدث الأفلام». لولا الشقيقتان البيضاوان لما وجدتُ جينو المخمليّ وآدم المرجان. عندما يتحدّث الشابّان عن سرياس دائماً ما تمتلئ عيونهما بالدموع. في ذلك اليوم وجدت جينو في زيّ صباغي الأقمشة؛ غسل وجهه في برميل صدئ واحتضنني قائلاً: «سبحان الله، الله أكبر... لم يعرف سرياس أنّ لديه أباً، ويتصوّر أنّ أباه قد مات قبل ولادته». احتضنني تحت الشمس وأضاف قائلاً: «لم يعد هناك من يناديني باسم جينو المخملي؛ اختار سرياس لي هذا الاسم. ولكن فقد أصبح اسمي جينو فيض الله الصوفي». يعلم آدم المرجان وجينو المخملي كلّ شيء عن آخر يوم في حياة سرياس، إذ لم يفارقاه منذ الصباح حتّى لحظة وفاته.

بعد موت سرياس شعرت شادريا ولاولاو البيضاوان بالاحترام

تجاه ذينك الشابّين الخجولين؛ وبعد فترة طويلة من موته بدتا كأنهما قد فقدتا شيئاً مهمّاً في حياتيهما، فباتتا تتصرّفان مثل المجانين. كل ليلة تذهبان إلى تلك الساحة وتغنيان لصبيان حزانى يتحلّقون حولهما، بعضهم يبكي، ويضع بعضهم الآخر رأسه على ركبتيه ويغني معهما. لقد تفرّق أولئك الصبية عندما تهدّمت ساحة أصحاب العربات. لقد رأت الأختان البيضاوان جينو المخملي وآدم المرجان عدة مرات أيضاً، ولكنّهما حين أصبحتا معلمتَين في تلك القرية النائية نستهما المدينة إلى حين؛ المدينة التي لم تستطع إدراك نظراتهما ورؤيتهما أيضاً.

ارتبط مقتل المارشال بكلّ تلك الحروب والمشاجرات المستمرة اليومية التي تحدث في ساحة أصحاب العربات. كان مقتله دون معنى وبلا أيّ تفسير مثل بقية عمليات القتل والأسر والتعذيب في بلادنا، التي كانت جميعها عبثية وبلا معنى. إنّني أؤكد لكم أنّه لو لم يكن سرياس الصباحي في بداية صباه وشبابه، لما أراد أن يموت هكذا ذليلاً وبلا معنى؛ ولكنّ موته مرتبطٌ بفورة حماس الشباب ونزواتهم والشجارات التي تُفتعل بلا سبب. في الحقيقة لم يكن من أهل النزاع والمشاجرات، بل يرتبط الأمر بحلمه حول الرجل الخارق. أدركت عندما دخلت غرفته لاحقاً، أنّ وجهة نظره حول التحوّل إلى الرجل الخارق ترتبط بقوة العضلات وضربة القبضات إلى حدّ ما؛ إذ عاش في عصرٍ يعني له الرجل الخارق امتلاك القوّة. كما أنه في اليوم الذي ماتَ فيه أراد القتيل ترك انطباع على أنه شابٌّ جريءٌ لا يخشى الخوفَ والهزيمة. كما أنّ الأيام السابقة لموته حفلت بالمشاجرات

والاشتباكات والجروح... مثل شخص قد أخذ على عاتقه ذلك العالم المنفلت، كان دائماً ما يشتبك بالباعة الجوّالين وأصحاب المحلات، وحتّى المارّة. كما أنه يشتبك مع الآخرين عدّة مرات حين يذهب من بداية هذا السوق لنهايتها. وعند عودته من نهاية السوق يشتبك أيضاً ولكن بوتيرة أقلّ. إلا أنه يضحك بعد كلّ هذه المشاجرات، ويعانق منافسيه بوقار قتالي الذي يعدّ جزءاً طبيعياً من الكرامة وقوانينها؛ إلا أنّ تلك المشاجرات الصغيرة لم تسيء قطّ إلى شهرته كمارشال أصحاب العربات وفيلسوف الليالي المظلمة، لأنّها جزءٌ من واقع ذلك الجحيم الصاخب للسوق.

قبل أسبوع من موته يذهب كلّ ليلة إلى بيت الشقيقتين البيضاوين؛ يجلس على النجيل ويروي لهما قصص السوق، ويحدثهما عن المشاجرات بين أصحاب المحلات التجارية وأصحاب العربات. كان يثير الصخب في بيتهما بحيث لم يسبق أن حدث مثل هذا في السابق. تناديه الشقيقتان بالأخ، وتجلسان بجانبه وتقهقهان مع ضحكاته وتتكلّمان بنبرته وتقاطعان كلامه لتسألاه شيئاً ما. وقبل يوم من وفاته طلبتا منه ألّا يذهب إلى السوق، وتوسّلتا إليه أن يقضيَ الليلة معهما ليرويَ لهما قصص طفولته. إلا أن سرياس ضحك في وجه الشقيقتين البريئتين وقال لهما: «ليس هناك يوم لا يمكنني الذهاب فيه إلى السوق!»

قبل موته أصبحت الحياة في السوق صعبة جداً؛ إذ استُبدل مأمورو الشرطة يومياً، وباتوا يصبحون أكثر حقداً وعنفاً يوماً بعد يوم. في ذلك اليوم ومثل عادته باع الطماطم سريعاً وجال في السوق بعربته صدر

كجال الفارغة، وفي الساعة العاشرة ذهب مع جينو المخمليّ عند آدم المرجان حيث جلبوا له عدّة زجاجات للمصابيح، وانشغل في إخراجها من العلب وعرضها أمام الزبائن. وكان جينو ينتظر مع باعة الأسماك الصغار الآخرين قدوم سلال الأسماك الطازجة منذ الصباح الباكر، إلا أن الصيادين لم يأتوا. في الساعة التاسعة بدأ يشعر بالملل ووقف مع سرياس الصباحي بين العربات، وحدّق في اضطراب سرياس ونظرته البريئة والخائفة؛ فضحك وهو يقول: «عسى أن يكون الصيادون قد ماتوا؟» فاستدار سرياس إلى جينو وأجابه: «ماذا سيحدث لو مات جميع الصيادين ذات ليلة؟ أو يتحول جميعهم إلى أسماك ويختفون في الماء؟» في ذلك اليوم، حفل ذهن سرياس بالأسئلة الغريبة، فذهب عند السقّائين فخاطبهم قائلاً: «لو استيقظتم صباحاً ذات يوم ولم يعد الناس عطشى، فأين سيذهب السقاؤون؟ وإذا استيقظ الناس ذات صباح ولم يشعروا بالجوع فماذا سيفعل باعة الدجاج؟ وإذا أقدمت الأرض في أحد الأيام على الإضراب ولم تعد تثمر أشجار التفاح... فأي شيء لدى باعة التفاح ليبيعوه؟» فقال له جينو المخملي: «ما تتكلّم عنه لا يوجد في هذه الحياة، ولن يحدث مثله... فالناس هنا دائماً ما يشعرون بالجوع والعطش ويحبّون التفاح». فسأله سرياس: «هل رأيت آخر شجرة رمّان في العالم؟» وهذه أول مرة يسمع فيها جينو المخملي هذا الاسم، فردّ قائلاً: «كلا، ما هي آخر شجرة رمان في العالم؟» فرد سرياس ضاحكاً: «إن متُ خذوني تحت آخر شجرة رمّان في العالم، فهناك يستطيع المرء أن يعيش ويكون سعيداً ولا يشعر بالجوع والعطش». فسأله جينو المخمليّ: «أين هي آخر شجرة رمّان في العالم؟ في الجنّة أو في مكان مثلها؟» ودون أن ينظر إليه،

أجابه سرياس بصوتٍ حزينٍ وحافلٍ بالشكّ: «كلّا، ليست في الجنّة. ولكنّها ليست بعيدة جداً عنَ هذا المَكان». فنظر جينو المخملي إليه بارتياب، وردّ قائلاً: «أيّ شيء ليس في الجنة فإنه بعيد جداً عنها، يا سرياس». فنظر سرياس إليه بحزن عميق وأجابه: «لقد صدقت، فكلّ شيء لا يكون في الجنّة يعني أنّه بعيد جداً جداً عنها».

في الساعة الحادية عشرة صباحاً عاد مرجان الذي انشغل بخداع الزبائن ليشتروا الفتيل الخاص بالمواقد التي صنعت في إيران باعتبارها بريطانية المنشأ؛ ومازحه. وفي الحادية عشرة والربع ظهر «ملك الفتّان» أول مرّة، مع ثلاثة من مأموري الشرطة الآخرين؛ وكان ملك الفتّان من هؤلاء المأمورين الحاقدين والقساة، من هؤلاء الرجال المرعبين الذين استطاع المارشال أن يخضعهم. خصص سرياس له في بداية كلّ شهر جزءاً من مكاسب الباعة الجوّالين، إذ هو الشخص الوحيد الذي يعرف لغته. كان اسم ملك الفتّان الحقيقي «عبد الملك شاهمراد هارون»، ومن أهلِ «گرميان[10]» وعنيد جداً؛ كانوا ينادونه باسم زوجته ملك الفتّان، ويعدُّ نفسَه ملك السوق. ولكن عرف الجميع أنه يسلّم زوجته لأحد المسؤولين الكبار في المكتب السياسي ومسؤول آخر مهم في الوزارة. لقد سلّمه المارشال قبل أربعة أيام نصف ما كسبه في ذلك الشَهر، وقال له إنّه سيسلّمه الباقي في وقت آخر. في الساعة الحاديةَ عشرةَ والعشرين دقيقة وقف ملك الفتّان أمام صدر كجال بغضب، وخاطب سرياس بالقرب من قوارير آدم المرجان الزجاجية: «منذ فترة وقد تعلّمت الكذب يا مارشال».

(10) گرميان إقليم جغرافي يشمل مدن كركوك وكفري وكلار وچمچمال العراقية.

تحت شمس الصيف اللاهبة، نظر إليه سرياس دون أن يغضب وردَّ قائلاً: «هذا ليس صحيحاً يا ملك الفتّان، ليس صحيحاً! سوف تستلم اليوم نقودك قبل الغروب». تحرّك ملك الفتّان، وعلى بعد منه انهال ضرباً على بعض الباعة الجوّالين، وبعثر عدة سلال على الأرض. في الساعة الواحدة والنصف عاد ملك الفتّان والمأمورون الذين رافقوه، وشربوا الماء عند السقّائين وأخذوا تفاحتَين من سلّة طفلٍ، وساروا بهدوء. عادوا مرة أخرى في الساعة الثانية والنصف، ورفسوا في تلك الجهة الأخرى من السوق، صندوق طماطم يعود إلى صبي في الحادية عشرة من عمره وبعثروا محتوياته على الطريق؛ فذهب الطفل باكياً عند جمع أصحاب العربات. بدا المارشال في ذلك اليوم بلا مزاج في الاشتباك، فقال له: «لا يمكننا فعلُ أيّ شيء، فاتركنا ودعنا نعود إلى بيوتنا سالمين». وفي الساعة الثالثة والنصف عاد ملك الفتّان وهو يحمل عصا طويلة من الخيزران، وانهال ضرباً على عدّة باعة ساعات في بداية السوق، وعددٍ من باعة الزيوت بالقرب من الجامع؛ وفي الساعة الرابعة أحاط عددٌ من أصحاب العربات المارشالَ، وقالوا له إن استمرَّ ذلك الرجل في إيذائنا، فإنّنا سنردُّ له الصاع صاعين. في الساعة الرابعة والنصف جاء ملك الفتّان وهو يحمل العصا بيده مع عدد كبير من مأموري الشرطة، وشرعوا في ضرب الآخرين، وأمام عيني سرياس الصباحي بدؤوا يهشّمون قوارير آدم المرجان الزجاجية. فأجهش آدم المرجان بالبكاء وجعل من نفسه حائلاً بينهم وبين القوارير، فوقع على هشيم الزجاج، واستمرّ ملك الفتّان ومرافقوه بضربه بالعصي. عند ذلك سُمع صوت سرياس الغاضب يدوّي من بين الباعة: «اتركه، يا قوّاد» وارتدَّ صوتُه فجأةً في آلاف

الجهات وفي جميع زوايا السوق، وزوايا العالم الصامتة والمنسية، وفي الأعماق الخفية والرطبة للعربات القديمة والمتعفنة والصدئة، واشتدّ: «اتركه، يا قوّاد... اتركه، يا قوّاد... اتركه، يا قوّاد». وبعد عدّة سنوات من تلك الأحداث تابع جينو المخمليّ كلامه عن تلك اللحظة: «سبحان الله، وكأنّ عالمَنا كلّه، وكل تلك الأشياء التي قد رأت عَرَقنا وتعبَنا وعطشَنا كلّ يوم، والحصى التي كنّا قد دسنا عليها، صرخت جميعها احتجاجاً على ذلك الظلم والجور اللذين كانا أكثر من طاقاتنا وتحمّل أجسادنا العاجزة والموشكة على الموت. ذلك الإسفلت الذي اعتاد على أنفاسنا العفنة وقاذوراتنا، وأعمدة الكهرباء المعوجّة والمنسية تلك... كلّها تتعاطف معنا». واصل جينو كلامه: «حتّى تلك اللحظة لم يُقدم المارشال على أيّ فعل، كان ينظر بحزن ويقضم أظفاره. والباعة الصغار، الذين يؤمنون بسرياس، يخاطبونه: "يا مارشال، يا مارشال، لم لا تفعل شيئاً؟" ولكنّه بدا وكأنّه لا يسمع أيّ صوت. جُنّ جنون ملك الفتّان بشدة عند سماعه تلك الشتيمة؛ كما أنّه جُنّ جنون المأمورين الأصغر سناً منه. وكلّما سمعوا شتيمة ما، ضربوا آدم المرجان أكثر، حتّى بات جسمه كلّه دامياً. تراجعنا أنا وسرياس إلى الوراء وننظر، يقضم سرياس أظافره مثل الأطفال بشكل مستمرّ، ويفكّر. ثم وضع يده داخل جيب سرواله؛ عرفتُ أنه يملك سكيناً جديدة ذات مقبض أصفرَ اشتريتها له حديثاً... يا غوث البغدادي[11]؛ قبل أن أنتبهَ أو أنَ أقول شيئاً هجم على أحد المأمورين الأصغر سنّاً وجرح كتفَه. وحين رأى الباعة هجوم سرياس عدُّوه

(11) هو الشيخ عبد القادر الجيلاني المعروف، شيخ الطريقة القادرية ومدفون في بغداد.

مقدّمة على قتال كبير. سبحان الله؛ وخلال فترة قصيرة أثيرت ضجّة كبيرة. سحبتُ آدم المرجان إلى الظلّ عندما سمعت صوت أول إطلاقة نار؛ فهرب أصحاب العربات والعمّال وأصحاب المحلات كل واحد منهم إلى زقاقٍ ما. في تلك اللحظة عندما استدرت رأيت سرياس وقد اشتبك مع ملك الفتّان، وصرخ هناك شخص من زقاق قريب وبين معمعة ملاحقة أصحاب العربات: "اقتله يا مارشال... اقتله!" صرخة تصل في السماء السابعة! باعتقادي لو لم تُسمَع تلك الصرخةُ، لما قُتلَ سرياس؛ تُحلّق الصرخة فوق رؤوسنا كلنا مثل حقيقة شفّافة. يا مولانا، لم تبقِ تلك الصيحة أي مفرّ لسرياس. فصرخت بأعلى صوتي: "اهرب، يا بروفيسور... اهرب، يا بروفيسور". ميّز صوتي ورأيت أنه لا يستطيع الهرب، واستمر الآخرون جميعاً بالصراخ: "اقتله، يا مارشال... اقتله، يا مارشال". أتذكّر أنّه رفع يده كي يغرز السكين في قلب ملك الفتّان؛ كنّا جميعاً ننظر، ولمحنا مقبض السكين الأصفر يلمع تحت أشعة الشمس. كان متردّداً، وبقي رافعاً السكين فترة طويلة؛ إلا أنّ الباعة الجوّالين يصرخون بشكل مستمر: "اقتله، يا مارشال... اقتله، يا مارشال". وللحظة واحدة نزلت يده؛ كنت متأكداً أنها لم تخفض لأجل القتل. كلا، أخفض يده ليرمي السكين، ويبصق مثل كلّ يوم ويطأطئ رأسه قائلاً "إنه أتفه يوم في العالم". في تلك اللحظة ذاتها سمعت صوت الإطلاق الثاني. حتى هذا اليوم لا أحد يعرف من قام بإطلاق تلك الرصاصة؛ إذ يقول مأمورو الشرطة إن أحد الباعة الجوّالين أطلق النار بين صخب العربات. يا شيخ سراج الدين

ويا سيد ملك دهر الناس[12]، لم أستطع أن أقول شيئاً، ولم أنظر إلى أحدٍ غير سرياس... يا مولانا، أشعر كأنني رأيت جميع تلك الرصاصات التي أُطلقت؛ أُطلقت أربع رصاصات. اثنتان منها في كتفه الأيسر، وواحدة في الجهة اليمنى؛ والأخيرة وسط رئتيه وفي صدره تماماً. يقول الباعة إن أحد مأموري الشرطة قد أطلق الرصاص، ولكن أيّ منهم؟ فلا أحد يعرف ذلك. عند سقوطه صرخ بصوتٍ عالٍ: "لقد قتلوني، يا إلهي". كنت أول من وصل عند رأسه، ووضعت رأسه على حجري؛ في حين أن المأمورين يطلقون باتجاه السماء بشكل مستمر، ويريدون النجاة من طوق الحصار الذي فرضه أصحاب العربات. لم يستطع آدم مرجان المدمى هو الآخر تصديق إصابة سرياس في لمح البصر. فصرختُ: "ليساعدني أحدكم لإيصاله إلى المستشفى"... نظر إليّ مبتسماً وقال: "كلا... لا، لا تأخذوني إلى المستشفى. رجاءً لا تأخذوني إلى المستشفى. أقبّل يديكم، لا تأخذوني إلى المستشفى". سبحان الله، كم أصبح وجهه ملكوتياً. في تلك اللحظة صرخ جميع الباعة الجوالين بخوف وارتباك، وبعضهم قد لملم نفسه وتحلق عند رأس سرياس؛ لم يصدقوا أنه قد أصيب على هذا النحو. كنت أنوح وأذرف الدموع، وأقول ليساعدني أحدكم؛ وناح معي آدم المرجان الذي لم يستطع الوقوف، كنّا جميعاً نحن المتحلّقين عند رأس سرياس نبكي معاً. أخيراً أمسك بيدي وقال: "خذوني إلى بيت الشقيقتين البيضاوين". فصرخت "سآخذك إلى الطبيب"... ثم سحب ثلاثة من الباعة الجوّالين صدر كجال من بين العربات المبعثرة

(12) من شيوخ الطريقة النقشبندية.

هنا وهناك، وقالوا: "اسمحوا لنا أن نوصله إلى المستشفى، فلا يمكن لسيارات الأجرة أن تدخل في هذا الزحام". منذ تلك اللحظة شعرتُ أنه قد مات، إلا أنه نظر إلينا مرة أخرى وقال: "أوصلوني إلى بيت الشقيقتين البيضاوين"؛ ولم يقل شيئاً بعدها. عندما وضعناه على صدر كجال ودفعناه، سار حولنا أكثرَ من مئتي بائع جوّال، وهم يصرخون قائلين: "لقد قُتل المارشال... لقد قُتل المارشال". يا ربَّ السماء والأرض، حين وُضع ممدداً في العربة، بدا فاتناً جداً؛ يا مولاي، ثمّة شيء فيه جعله لا يبدو كسرياس المعتاد. وكأن في تلك اللحظات قد حوّله الموت إلى كائن لا يمكن للأرض أو السماء أن تحتضناه».

نهض جينو بين فترة وأخرى وهو يروي القصّة، ويقول: «يا ربّ، لا تُعِد هذا ذنباً؛ يا ربّ ارحمني بعظمتك». يتصوّر أنّ تعريف قصّة شخص ميت معصية كبرى؛ وبعد موت سرياس ازداد إيمانه بالله. إذ وقف في بعض الأحيان قائلاً بعينين دامعتين: «لو أنّ المرحوم بقي حياً، لضحك على بكائي هذا».

تابع جينو قصته: «عندما أوصلناه إلى المستشفى تصوّرنا أنه قد مات؛ تسلَّموه سريعاً ونقلوه إلى ممر مظلم. تجمّع مئات الباعة الجوّالين أمام المستشفى وهم يبكون؛ ولم أرَ حتّى تلك اللحظة أشخاصاً يحبّونه إلى هذا الحدّ. شعرنا جميعاً أنّ سرياس أكبر ممّا هو، وقد نسينا جميعاً أنّه مجرد بائع جوّال مسكين وتَعِس. لم أعرف لمَا نظرنا جميعاً إليه على نحو آخر. وكأنّه، استغفر الله، قد تلاعب بعالمنا أو شيء من هذا القبيل... لا أعرف.

«خرجت بعد ساعتين فتاة قصيرة من قسم الجراحة وسألت: "من منكم قريبه؟ ليأتيَ لاستلامه". فقلت: "أنا قريبه، أنا الأقرب إليه؛ فسلّموه لي". سبحان الله، حين يأمر الله بقبض روح أحدهم فإنّه يفعل ذلك. استلمناه شخصاً ميتاً، ولكنّه لم يكن ميتاً؛ يبدو كأنّ الأطباء قد أخطؤوا، أو لم يريدوا علاجه. وأمام بوابة المستشفى فتح عينيه مجدّداً، وقال: "لقد قلت لكم خذوني إلى بيت الشقيقتين البيضاوين". جُلنا به في ذلك الغروب، في المدينة كلّها حتّى أوصلناه إلى بيت الشقيقتين البيضاوين.

«أثرنا نحن آلاف الباعة الجوالين ضجّة كبيرة في المدينة بعرباتنا. يا مولاي، يتساءل الناس: "من مات؟" فنجيب: "لقد قتل مأمورو الشرطة سرياس الصبّاحي... مارشال أصحاب العربات، وبروفيسور ليالينا المظلمة". في تلك المدينة لم يعرف أحد غيرنا سرياس، ولم يكن لديه أصدقاء غيرنا... ولم يكن لديه نديم غيرنا. عندما وصلنا إلى بيت الشقيقتين البيضاوين رأيتهما قد أخرجتا رأسيهما من النافذة، وقد تدلّى شعرهما من الطبقات العليا حتّى الأسفل. يا مغيث، يا مجيب الدعوات... يا بارق، يا باري. كانت عيناه ممتلئتين بالجنون تماماً... مليئتين بحسرة عمياء، وممتلئتين بشيء طالما حيينا فإننا لن ننساه... كانتا أكثر حزناً بآلاف المرات من أي عيون أخرى. عندما احتضنتاه بشعرهما الأشعثين والغريبين، قال لهما سرياس بهدوء: "لم أمت بعد... خذوني إلى الغرفة قبل حلول الظلام". كنّا أنا وآدم المرجان واقفين، وقلنا للباعة: "لا يزال سرياس الصباحي حيّاً، إنها بشرى مفرحة جداً، فالمارشال لا يزال حياً... لم يمت المارشال...

هيا لنتفرق من حوله، فهو بحاجة إلى الراحة، وربما يشفيه الله". فخرج أغلب الباعة تحت إلحاحنا الشديد، وتفرق بعضهم في الأزقّة الضيقة القريبة، وجلسوا في الشوارع. أرادوا التأكّد من موت المارشال أو بقائه حيّاً... ثم رفعناه أنا وآدم والشقيقتان البيضاوان ونقلناه إلى الغرفة. لا يزال النزيف مستمراً؛ وكأنّه سيستمرّ بالكلام معنا حتّى مماته، إذ قال: "سنذهب خمستنا معاً عند حلول الظلام". في البداية تصوّرته يهذي، ولكنّه فتح عينيه بعد لحظة بتثاقل، ووضع يده على صدره قائلاً: "لا أعرف ما هو، ولكنّ ثمة ألماً غريباً يعصر قلبي". مكث قليلاً، ثم أضاف مبتسماً: "يا جينو، سوف أنبت الليلة بجوار آخر شجرة رمان في الدنيا... أريد أن أموت هناك. سامحوني إن لم أخبر أي منكم عنها، ولكن خذوني هناك... ادفنوني هناك... هناك... تحت آخر شجرة رمّان في الدنيا... ومن هناك يمكنني رؤية الجميع". في تلك الليلة استراح سرياس في سرير دافئ"، وكان يفتح عينيه في بعض الأحيان ويقول: "أخبروني عند حلول الظلام، كي نذهب نحن الخمسة معاً تحت آخر شجرة رمّان في العالم"».

يا أعزّائي، أعرف أنها مجرّد قصة قديمة، وأعرف أنّها موجودة مع الإنسان منذ بَدء الخليقة، وهي أن يتمنّى كلّ شخص أن يموت تحت شجرة أو في سفح جبل ما، أو عند ضفّة نهر أو في زاوية حديقة، ويراها أفضل من أيّ مكان آخر. أمّا بعضهم، فكانت المسافة بين موتهم وشعورهم بالموت قصيرة جداً، بحيث لا تسنح لهم فرصة التفكير بمكان موتهم؛ كما أن بعضهم لا يصدقون موتهم حتى اللحظات الأخيرة. كان الأمر طريفاً لي أن يفكر المرء في مكان موته،

وأن يكون لديه حقّ في اختيار المكان. أن يكون لديه الحقُّ في ذلك وألا يسمح بدفنه في مقبرة عامة مثل آلاف الأموات الآخرين. أنا أعتقد أنه قبل موته قد فكّر لليالٍ طويلة حول هذا الأمر؛ وعاش في فترة دائماً ما فكّر فيها المرء بموته. في ذلك اليوم الذي أُطلقت فيها الرصاص لم يكن بحاجة إلى التفكير في الموت، إذ إنّ مكان انتهاء حياته الغريبة والقصيرة هو أفضل مكان. كنت متأكداً أنه قد رأى كل شيء مثل الأفلام القصيرة، مثل تلك الأفلام التي تفرّجنا عليها في صالات عرض الأفلام الفيديو أو في الصالات الرطبة والقديمة لدور السينما. عندما نرافقه مع الباعة الجوالين، نجلس مثل شبّان مهذبين وسط الصالة، وفي أيدينا كيس بزر، وفي النهاية نذرف الدموع.

بملابس الدهانين ويدين مبقعتين بالدهان الأبيض، كان جينو وهو يتكلم عن موت سرياس، لديه الشعور نفسه الذي كان سرياس يرغب فيه، بموتٍ جميل؛ موت جدير بشخصية كبيرة. قال جينو: «عندما بدأ الجوُّ يظلم، حاولَ سرياس أن ينهض؛ فألححنا عليه كثيراً بالاستراحة، ولكن دون جدوى. قال بصوت ضعيف وغير مفهوم وكأنّه لا يستطيع فتح عينيه من شدة الألم: "سأذهب وحيداً إن لم تأتوا معي". كانت هذه أمنيته الأخيرة؛ وأمنيته الأخيرة هذه تؤجل موته لحظة تلو الأخرى كي يصل هناك. وجدت سيارة جيب صغيرة في تلك الأنحاء. آه، يا نبينا، يا تاجنا في هذا العالم وفي الآخرة؛ لم يكن هناك سائق يوافق على المجيء معنا. وحين عرفوا أننا نخرج الجريح من بيت شادريا ولاولاو البيضاوين، يبتعدون وكأنّهم قد رأوا ذئباً ما؛ بعضهم يبصق ويرحل، وبعضهم الآخر يطلق شتيمة بذيئة ويغرب. وفي النهاية جاء

معنا سائق عجوز يعتمر "جامانة"[13] بدا في حرب كبيرة في ذاته بين الطمع بالمبلغ الكبير الذي اقترحناه، والخوف من طريق مقصدنا. يرتعش منذ البداية ولم تقدر يداه على الإمساك بالمقود.

«ومنذ البداية ارتابت الشقيقتان من الرجل، ولكن لم يكن أمامنا خيار آخر، فقلت للشقيقتين البيضاوين إنه في ليلة معتمة دامسة كهذه ما من أحد يذهب إلى الجبال. بصعوبة بالغة وضعنا سرياس بين الشقيقتين في مؤخرة السيارة، وألقينا بطانية عليه؛ وجلست أنا وآدم المرجان بجوار السائق. آه، يا رب الأرض والسموات... بكى آدم المرجان بشكل مستمرّ، وأطلق الشتائم. بعد تلك الليلة اتخذنا طريقين مختلفتين بعضنا عن بعض، إذ إنه منذ تلك الليلة أصبح شيوعياً، في حين أنّ الأنوار الإلهية سطعت على قلبي.

«حتّى تلك اللحظة تلوّى آدم من شدّة الألم، إذ جعله الألم مشوّشاً مضطرباً؛ إلا أنّه أراد أن يبقى مع سرياس حتّى آخر أنفاسه. وجعل بكاء آدم السائق يخاف أكثر فأكثر. حين ركبنا السيارة أغلق سرياس عينيه وقد ازرقّت شفتاه بشكل مخيف، وثمّة سواد كدر على يديه ورقبته وجفنيه. وهو من قال للسائق أن يوصلنا من طريق "سيوزي" إلى سفح "شيخ علي هرمي شين". عرفتُ كم هي مخيفة تلك الأنحاء، فهي منطقة تمتلئ ليلاً بقطّاع الطرق والمسلّحين؛ وقراها حافلة بالنزاعات العشائرية.

---

(13) عمامة خاصة برجال الكرد، وتتكون من طاقية صوفية تنسج عادة من قبل حرفيين محليين، وخصوصا من النساء اللواتي يتفنن في نسجها بألوان مختلفة، وتلف حول هذه الطاقية قطعة من القماش بحدود متر مربع، وعادة ما تكون من اللونين الأبيض والأسود بخطوط متداخلة منسوجة بشكل هندسي بديع. . وتتنوع العمائم الكردية من حيث الألوان والشد والربط من منطقة إلى أخرى ومن عشيرة إلى أخرى، فلكل منها طريقة معينة في الشد تميز سكان كل منطقة عن الأخرى.

«كان السائق من المكاريين القدماء لتلك المنطقة يقود بارتياب؛ وبعد ساعة من قطع الطريق وكأنه قد رأى الجانّ في وسط الطريق، توقّف وقال: "لم يعد بإمكاني القدوم معكم". وتابع كلامه وهو يرتجف من شدّة الخوف: "لو أردتم فإنّني سأعيدكم إلى المدينة وإن لم تريدوا البقاء هنا، فبعد ساعة سيظهر جرّار المهرّبين الذين سيتسلّقون الجبال من أجل البضاعة؛ فيمكنكم الذهاب معهم".

«يا حافظ، ويا جبّار... فأطلقت الشقيقتان البيضاوان جميع الشتائم الموجودة بحقّه؛ بكى آدم المرجان، واحتضنت سرياس ورجوت السائق ألا يتركنا وتينك المرأتين في العراء، ولكن دون جدوى، إذ كان ثمّة شيء مثل ظلّ طاعونٍ يحلّق فوق رأسه. استحوذ الخوف عليه أكثر من جشعه، فمنذ البداية بدا كلّ شيء مخيفاً له، الثياب البيضاء لتينك الشقيقتين اللتين تبدوان كملاكين حزينين، والمصباحان اليدويان الكبيران في يديهما، مع تلك الدماء الموجودة على ملابس سرياس، ومن بكاء آدم المتواصل ومني أنا الذي عضضتُ على يدي باستمرار من فرط حزني. أنزلنا على جانب الطريق؛ كلا... أستغفر الله... أستغفر الله... لم نرد العودة... كنت أقبّل سرياس بين الفينة والأخرى، وأقول: "لو بإمكاني لحملتك على كتفي وأوصلتك عند آخر شجرة رمّان في العالم". في تلك اللحظة سعل سرياس بشدة بحيث خرجت الدماء من جروحه. وحين يهدأ، يفتح عينيه ويسأل: "قولوا لي هل ترون نجمة ما أم لا؟" فكنا نردّ: "هناك نجمة، يا سرياس. هناك نجمة". كانت تلك الليلة ليلة ظلام البشر وتهوّرهم وقسوتهم. في تلك الليلة شعرتُ أنّ الرب قد تركنا، شعرتُ أنّنا

البشر قد انحرفنا بحيث لم يعد الرب يهتمّ بنا. تحدّث في تلك الليلة المرجان عن عدم وجود العدالة أول مرّة؛ تحرّك ذاهباً وعائداً بجسم جريح وهو يقول: "من ينتفع من أكل الحقّ هذا؟... من؟" وفي وقتٍ متأخّرٍ من الليل ظهر جرّار من بعيد، وكان سائقه شابّاً قد وشم يده وذراعَه وهذا ما يدلّ على عدم تديّنه. توقّف أمامنا وضحك بصوت عالٍ في عمق الليل قائلاً: "لديكم ميت... لدغته الأفعى، انفجرت زائدته"... كان يتصوّر أننا نريد العودة إلى المدينة، فأفهمناه بصعوبة أنّ ثمة جريحاً معنا ويريد الموت في هذه الجبال. فقال لسرياس: "إن أردتَ الموت، فمت؛ فلمَ تزعج الناس في منتصف الليل؟" وأضاف بصوت مرتفع أنه لن يذهب من طريق "سيوزي" ولكنّه سيوصلنا إلى مكانٍ ما، ومن هناك يمكننا الاستمرار في السهل، وبعد ساعة سنصل إلى غدير ومن هناك نصعد حتى "شيخ علي هري شين".
ركبنا الجرّار، وبدأ يغني أمامنا؛ ودائماً ما قطع غناءه ويقول: "إنها ليلة رائعة من أجل الموت، فالمطر لا يهطل؛ إذ إنّني أخشى الموت تحت المطر. في هذا العالم ما من أحد أكثر عدائية للمطر بقدر سائق الجرّار. حمداً للربّ أنّها لا تمطر". في تلك الليلة لم يعرف أي منا أين تقع آخر شجرة رمّان في العالم. فقال سرياس: "أخبروني إن وصلنا إلى سفح الجبل". سمع صوتنا بصعوبة بالغة... ونزف الدم منه على الجرّار بشكل غريب، وازداد وضعه سوءاً أكثر فأكثر. ومرة أخرى بدأت الشقيقتان البيضاوان بالبكاء؛ شعرنا أنه يريد أن يقول شيئاً، إلا أنّ ضجيج الجرّار وغناء السائق لم يسمحا لنا بسماع أنين سرياس. وفي النهاية نزلنا بالقرب من حقل شاسع، وأخرجت شادريا ولاولاو البيضاء مصباحيهما اليدويين. خاطبنا السائق: "أنا آخذ أجرة

مضاعفة من الموتى، منذ أربع سنوات وأنا أعمل في هذا الطريق؛ هذا قانوني وآخذ أجرة مضاعفة لحمل الأموات لأنّ سائقي الجرّارات ليسوا بحاملي النعوش... وأنا لا أشتغل بصفتي عزرائيل حيث ينقل الأموات إلى السماء مجاناً". يا تجلّي ضياء الصحابة والزاهدين، فقد غيّرتني تلك الليلة... ونبّهتني إلى أنّنا نحن البشر نعيش في غابة مظلمة. فرشنا البطانية على الأرض ووضعنا سرياس عليها، وحملناها كالنقالة وانطلقنا في ذلك السهل الشاسع. كانت عتمة لا نهائية، ولم يعرف أي منّا أين تقع آخر شجرة رمّان في العالم، وأيّ جبل يمكنه أن يكون موقع آخر شجرة رمّان في الدنيا، وأيّ سهل يمكنه أن يكون منبتاً ومكان هذا النوع من الأشجار، وأي شجرة يمكن افتراضها كآخر شجرة من جنسها. ازداد وضع سرياس سوءاً أكثر فأكثر، وكنّا نضعه على الأرض بين الفينة والأخرى ونسأله إلى أين نتّجه؛ فيفتح عينيه بصعوبة ويصدر أنيناً دامياً من أعماق حنجرته، ولم يستطع أن يقول شيئاً. في تلك الليلة مهما سرنا فلم نصل إلى مكانٍ ما، فكل شيء كان يشبه حلقة مفرغة. تبكي الفتاتان طيلة الطريق وقد تمزّقت ثيابهما بالأشواك وأجمات الفلاة؛ لا أعرف متى سلّم روحه، وكأنه عرف أنه لن يصل إلى آخر شجرة رمّان في العالم، ويعرف أنّه لن يصل إلى تلك الشجرة التي تُعدّ جميع أمنيّاته. إن عدم وصوله إلى تلك الشجرة يدلّ على عدم وصولنا جميعاً إلى كلّ الأشياء، وعدم تحقق أصغر أمانينا وأكبرها أيضاً. كنّا أربعة عميان ندور حول أنفسنا، ولم يسعفنا الضياء والإلهام السماوي قطّ... والآن إذ أفكّر في تلك الليلة، أدركت أن سبب ذلك هو ابتعادنا عن جميع ينابيع النور الكبيرة التي ضيّعتنا في ذلك الظلام الدامس. كنّا أربعة عميان... أربعة عميان... أربعة

عميان. سلّم روحه على تلك البطانية، وكنّا ضائعين هناك بلا هدف وبشكل عبثي. ثم جلسنا بجواره في تلك الفلاة الجرداء والمنسية وبكينا؛ واحتضناه وسط ذلك السهل وقبّلناه، والتمسنا الرب والسماء. إلا أنه لم يهتم بنا سوى عدة غربان وبعوض ليلي مزعج.

بعد ليلة طويلة من الارتباك والاضطراب والحيرة، وضعنا جسده على الأرض وسط الفلاة، وبكينا أربعتنا عند رأسه حتى آخر رمق لدينا؛ وقبّلته الشقيقتان مثل أختين حقيقيتين. لم نستطع إعادته، ولم نرد أن نورّطه في مشقّة الطريق مجدّداً. كنّا نعرف أنّنا لن نجد آخر شجرة رمّان في الدنيا، لكننا فكّرنا أنه من الأفضل دفنه في مسار شجرة الرمان الأخيرة في العالم. في تلك الليلة قررنا نحن الأربعة أن ندفنه في تلك الفلاة؛ فلم يكن لديه أحد غيرنا. عبرتُ من طريق حافل بالأشباح، واجتزت بحراً هائجاً من البعوض والجداجد حتى وجدت قرية، ومن هناك أخذت معولاً ورفشاً وعدتُ في الظلام؛ وازدادت كل لحظة عتمة وظلاماً. كانت ليلة لا تريد أن تنتهي، وكل لحظة منها أطول عشر مرات من أي ليلة أخرى. كل لحظة كانت تزداد عتمة وسواداً، ولم أعرف من أرشدني إذ كانت فلاة خالية من كلّ شيء، ولم تكن هناك شجرة واحدة حتى نعدها علامة. ولكن في تلك الليلة ظهر الله في قلبي وأرشدني؛ هو من أخذ بيدي وأوصلني إلى تلك القرية، وأعادني. وشعرت به عندما وصلتُ هناك، وحين عدت شعرت أنّ ثمة شيئاً معي؛ وقد كان الرب، الإله العظيم، هو نفسُه. وحين أرشدني... تأكّدت أنّه يحبّ سرياس، الفتى الحادّ المزاج الذي كان يملكُ قلباً شفّافاً ومتواضعًا في الوقت ذاته. كنتُ أنا فقط من يعرف

كم كان يعشقُ النساءَ حبّاً سماويّاً؛ فليرحمْه اللهُ لعفّته وليحشره مع جميع المؤمنين... ومع جميع الصحابة... سبحان الله. سبحان الله. حين عدت كانت الشقيقتان البيضاوان تغنيان غناءً يُبكي الأحجار. ركضتُ من بعيد واحتضنتهما قائلاً: «لا تبكيا، يا أختاي. سيغفر الله ذنوبه؛ أعرف أنّ الله معي طيلة الطريق... إذ إنّه يحبّ سرياس. إنّي متأكّد أنّه يحبّ سرياس؛ ويحبّ بروفيسور ليالينا المعتمة». كنت أقول هذا وأذرف الدموع. أخذ آدم المرجان الرفش مني وضرب الأرض بكلّ آلامه وجروحه تلك؛ وأنا أيضاً أخذت الرفش منه باكياً وضربت الأرض. ومجدداً أخذ الرفش منّي باكياً وانهال به على الأرض... كانت أطول ليلة في حياتي. لم يكن ذلك القبر جديراً به، قبر مجهول، قبر بلا شاهدة، قبر شهد على موته الحزين والغريب. قمنا بدفنه، وعدنا. لم يرد الليل أن ينقشع؛ اتفقنا على جلب شاهدة قبر لمثواه صباحاً، وأن نأتي صباحاً في عدة حافلات مع الباعة الجوّالين ونغرق قبره بالأزهار... نسير ونبكي؛ ودّعنا بعضنا بعضاً عند وصولنا المدينة، ورقدنا في أسرّتنا. ولكن تأكّدوا أنّ تلك الليلة لم تنته قطّ، ولن تنتهيَ أبداً.

13

في الليلة الثانية من حريتي تطوّعت الشقيقتان للذهاب عند قبر سرياس.

في تلك الليلة لم أعرف أن سرياس وسرياس وسرياس آخرين يعيشون في هذا العالم.

لا أريد أن أصف لكم تلك الليلة، لأنها غيرُ قابلة للوصف؛ إذ كانت ليلة زاخرة بالضياء، مضيئة بحيث عدنا من تلك الفلاة إلى أسرّتنا دون أن نحتاج إلى المصابيح. لا أريد أن تسألوني كيف كان شعوري؛ كلا، لم يكن حزني حزنَ أب يذهب عند قبر ابنه بعد إحدى وعشرين سنة قضاها في السجن، فقط. بل كان حزنَ شخص يصلُ إلى بستان محترق بعد تحمّله الكثير من العذاب؛ كان حبسي قد امتزج بموته العبثي في اتساع تلك الفلاة العارية البائرة عديمة الأشجار. يسطع القمر على حياتي عديمة المعنى وموته العبثي؛ كما أنّ نجم فشلنا المظلم يومض. لم أشعر أن موته وعبوديتي الطويلة قد غيّرا شيئاً في هذا العالم. في تلك الليلة قارنت مصير الإنسان بأمور أخرى، وفكّرتُ في موته في تلك الأرض، وربطتُه بيباب وعراء تلك الأرض الزاخرة بالخبر والبركة.

بدا وكأنّنا نقفُ في دائرةٍ كلُّ شيءٍ فيها قد سلّم روحَه للموت؛ وكأنّ الحياةَ في تلك الأرض لم تثمر، ولم تنبت تلك البذرةَ التي نُثرَت على الأرض. وكما لو أن الحياةَ مجرّدُ طائرٍ قد هَبَطَ على الأرض ليستريحَ،

ولم يَطِر ثانيةً بعد ذلك. الشيء الذي لفت نظري هو الصمتُ، حيث هناك لا أثرَ للإنسان؛ قبرٌ في مكانٍ ناءٍ جدّاً لم يصله أيُّ إنسان، مكانٌ يشهدُ فيه الإنسانُ نسيانَ أخيه. مكانٌ مثل منفاي المشمس في تلك الصحراء، وقبرٌ باردٌ وبعيدٌ كسجن في الصحراء. كلا، لا تتصوّروا أنّني أعيش وأفكّر دائماً متأثراً بتلكَ السنوات المظلمة. لا تتصوّروا أنّني قد ابتليت بالخوف والهذيان، ولهذا صرتُ أشبّه ذلك القبر بسجني في الصحراء. قبرٌ صغيرٌ بقدر قبر طائرٍ ما، ويبدو حوله العراء الصامت والشاسع، كسعة الأفق في جوّ السماء إذ لم تسنح الفرصة لشاهدة القبر لتلقِيَ ظلّها على الأرض. شعرتُ أن ذلك الأفق العظيم واللا متناهي قد خلّف فضاءً شاسعاً جداً لذلك الميّت كي يفكّر في العالم؛ الانزواء الذي يربط الإنسان بالأبدية.

لم يزر أحد ذلك القبر في تلك السنوات الأخيرة غير شادريا ولاولاو البيضاوين؛ وقد بقيت تلك الليلة في ذهني للأبد كليلةِ الموت. سجدتُ عند رؤية قبره ولثمتُ مزارَه وصرخت: «يا سرياس الصبّاحي، أنا أبوك؛ أتسمعني؟ إنّه أنا مظفّر الصبّاحي؛ حين سجنتُ قبل إحدى وعشرين سنة لم يكن عمرك قد تجاوز عدة أيام... لم ترَني، ولم تفكّر فيّ قطّ أيضاً. ولكنّ الليلة عليك أن تستمع إليّ».

تجلس الشقيقتان البيضاوان بهدوء على تراب وأشواك ذلك السهل، وفي الجانب الآخر من القبر. كنت معهما منذ يومين، إلا أنّني في أغلب الأوقات منشغل بدراسة انطوائي ومحاسبتها. لم أستطع العودة إلى العالم بسهولة. حين رأتاني أنوح وأبكي شعرتا بالذعر، فهدأت روعهما وقلت: «كلا... كلا يا فتاتاي العزيزتين، أنا

لا أنوح... فحزني ليس من ذلك النوع الذي يتوحّد مع النواح. كلا، يا صديقتاي... لدي رسالة يجب أن أقولها لهذا الميت، هناك شيءٌ يجب أن يعرفَه الميت؛ وأنا أعرف أن يصغي إليّ... أعرف أنه ينتظر شيئاً في هذه الفلاة الشاسعة، وأعرف أنه في هذه الفلاة أهمية لجميع كلمات الإنسان وصوته. قد لا يتذكّرني، ولكن مع كلّ هذا الصراخ سيدرك أنّ ثمة شخصاً قد جاء بعد هذه السنوات ليرحب به. عليه أن يفهم أنّ الإنسان ليس وحيداً في هذا العالم، وعليه ألا يخافَ من برودة هذه الفلاة وصمتها؛ وعليه أن يعرفَ أنّني ركضتُ لاستقباله... وقد ركضت إحدى وعشرين سنة في السجن رغبةً فيه. عليه أن يعرف أيّ ظلم هذا حيث نلتقي أخيراً في هذا اليباب؛ وأنا متأكدٌ أنّه في هذا الصمت سيجعل الكلامُ الكثير قلبه يرتجف».

ألصقت أذني على قبره وقلتُ: «يا إلهي العظيم، إنه يسمع كلامي... أعرف أنّه يسمع... تعاليا والمسا قبره؛ فإنه يتحرك».

وضعت يدي على قبره. كان يتقلّب فيه. شعرتُ أنّ روحه تُريد التحرّر من طوق وغُلٍّ مخيفين. شعرتُ أن ثمة صرخة مكبوتة وشمعة منطفئة في ذلك القبر، تريدان الخروج منه.

صرختُ والشررُ يتطاير منه بفعل تقلّبه في القبر. أمسكت بي الشقيقتان وقالتا: «يا مظفّر الصبّاحي، أنت تزعجه... فأنت توقظه بصرخاتك هذه، وحين يستيقظُ ستعذّبُه جروحه؛ فاصمت... اصمت، يا مظفّر الصبّاحي». فهدأت قليلاً وقلتُ: «انظرا، لقد وصل أب بيدين فارغتين إلى ابن قد رحل بموتٍ عبثي في فلاة ممتلئة بالأشواك...

انظرا، فعلى مدّ البصر قد خيّم علينا قباء من العبث؛ قبّة كبيرة من العبث، قبّة عظيمة من لا شيء، ومظلّة كبيرة من خواء عديم المعنى».
في تلك اللحظة فكّرت على هذا النحو أنني وسرياس ليس لدينا أيٌّ ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل، والشيء الذي أخافني هو الخلاء وعُريه. في تلك الليلة، وفي ذلك الضياء الباهت والخافت، وصل بعضنا إلى بعض، ولكن لم يكن لدينا ما نقوله؛ إذ كان كلانا قد عاش حياته ومات على نحو مختلف، ولم يعد لدينا ما نقوله. كان الصمت والخلاء والفانوس يتكلّمون بدلاً عنّا، وقد أحاط به عبثي الكبير؛ ويفشي التراب والغبار الآتيان من كلّ صوب كلّ شيء. في تلك الليلة فهمت أي فاجعة سيخلفها ضياع الإنسان وعدم تعّقله، وأدركتُ كم هي غريبة وشاسعة مكانة الإنسان في الأرض. عندما يولد الإنسان فإنه سيؤثّر دائماً في حياة الآخرين، فالحياة ليست سوى سلسلةٍ أبديةٍ وغير قابلةٍ للانقطاع؛ ونحن قد تهنا في هذا البحر الشاسع ولاً نصلُ إلى أيّ مكان. ولكنّ الآن وقد أثّرت حياتينا، وموتينا، ووجودينا، وعدم وجودينا في جميع كائنات الأرض بشكل غير مرئي وغير قابل للوصف. وقد أثرت في الأزهار والطيور و... وعندما يولد الإنسان فإنه جزء من هذه السلسلة الطويلة وإحدى حلقاتها اللا نهائية. ولو انفصلت حلقة من السلسلة فسوف تتصل بها عدة حلقات أخرى، ولو سقطت حلقة فسوف تتغيّر وجوه جميع الحلقات الأخرى ومكانتها في السلسلة. إن ضياع الإنسان وموته يُظهران وجوه كافة حيوات الأرض على نحو آخر، ويمكن لغياب الإنسان أن يدّمر مجموعة من الحيوات، ويمكنه أن يخلّ بجغرافية العَلاقات. لو كنت موجوداً، ولو لم أدفن كميتٍ في تلك الصحراء، لكان من الممكن أن تُسجّل

حياتي على نحو آخر، فالإنسانُ نجمةٌ يجب ألا تسمح بسقوطها؛ لأنها لن تسقط بمفردها. والآن من يعرف في أيّ بقعة أخرى من الأرض سيعكس صوت ضياعنا هذا؟ ومن يعرف متى وأين سينمو أحدهم من رمادنا ويرى أنه قد احترق بنار سقوطنا؟

أدركت في تلك الليلة أنّ غيابي في هذا العالم قد صنع هذا القبر؛ أجل، سأخبركم، وأريدكم أن تنظروا إليّ. فموت أيّ إنسان يُعدّ الإخلال في معادلة الحياة على هذا الكوكب؛ وقد قطعت سلسلة الحياة المتصلة ورائي. حاولت في تلك الليلة الشقيقتان البيضاوان حتّى وقت متأخّر أن تهدآني، وأن يفهماني أنني ضحية مثل باقي الضحايا الأخرى وأنا شخص مثل جميع الأشخاص الآخرين الذين سيبتلون في النهاية بمصيبة كبيرة ويموتون. بيد أني كنت حائراً في ذلك السهل وألطم رأسي وصدري وأهيل التراب على نفسي، وخلعت حذائي. في تلك العتمة كنت أبتعد خجلاً من الشقيقتين البيضاوين، وأعوي كحيوان جريح، وأركض على الأشواك والحصى حافياً، وأحدّق إلى مسافات القسوة الشاسعة التي كنت أشعر أنها تفتح في كل خطوة أفقاً أوسع في وجهي. فعلت ذلك ليس من أجل التحرّر بل من أجل أن أتوه، وأضيع، كي أفتحَ بوّابة متاهتي في تلك الجهة من العالم. كنتُ أركضُ والعالم يكبر في أثناء ركضي ويصبح أكثر رحابةً، ولكنّه في الوقت نفسه بدا أكثر خلوة وفراغاً. شعرتُ أنّ ما سجُنت فيه خلال الإحدى والعشرين سنة لم يكن صحراءً. رفعتُ رأسي وصرختُ في وجه ذلك الخلاء الشاسع: «يا إلهي، هذه هي الصحراء... هذه هي الصحراء... هذه هي الصحراء». لم تعد

الشقيقتان البيضاوان ترياني؛ أركض على ذلك التراب الساخن، وعلى تلك الأرض المشقّقة والمُنهكة، وأضرب نفسي، وأبتعد عن ذلك القبر وأهيل التراب على رأسي حفنة تلو الأخرى. أول مرة أدركتُ كم أن الحرية شاسعة كالصحراء، وأنّ عودة الإنسان من الأسر يشبه معنى حين لا يعود إلى تراب الصحراء، وألا يعود إلى قالب حياة الآخرين. أعترف الليلة في حضوركم بهذه الحقيقة أنّني لم أستطع تصديق موت سرياس؛ في تلك الليلة درتُ حول ذلك القبر كالمجانين ومثل طائر آكل الجيف، ومثل صقر جريح، وأصرخ. أدركت أنني لا أستطيع تصديق موت سرياس، إذْ لم يكن بإمكاني إثبات موته. فموته لم يكن قابلاً للتحمّل. كنت أهيل التراب على رأسي وأصرخ في ذلك السهل: «هذا ليس قبره، فهو لم يمت».

سأقول لكم الليلة وأبيّن أنّني كنتُ قد شاركتُ في جميع الألعاب... أدركتُ منذ تلك الليلة أنه من أجل العيش عليّ ألا أصدق موته؛ موت ميتٍ كان غريباً عني، ورقد في بحر من الرمال والغبار. لكنّني كنتُ أعرفَ أنّني لا أملك شيئاً من دونه كي أبقى حياً من أجله... يا أصدقائي، يا من لا تعرفون أين ستوصلنا هذه السفينة؛ وفي النهاية حضنتُ القبر وقلتُ: «لن أصدّقَ أيَّ حقيقة؛ أنت لم تمت! سأبحث عنك وأجدك». كان قضائي إحدى وعشرين سنة في السجن قد علّمني ألا أثقَ في أيّ حقيقة مهما كانت... والآن أيضاً أشعرُ أنّنا جميعاً نبدأ حريتنا بالوهم. آه، يا إلهي، فالحرية لا تنفصل عن الوهم أبداً. كلا، لا تلوموني... فذنبي كان مثل ذنب بقية البشر... مثل ذنبكم جميعاً، ويا مَن لن تفصلوا حرّيتكم عن الوهم ذات يوم، وكذلك الآخرين الذين

لم يقوموا بذلك. منذ تلك الليلة قُلبت حياتي رأساً على عقب، وأنا أسمّيها ليلة الحياة والولادة من جديد. أدركت في تلك الليلة أن هناك سرياس وسرياس آخرين في هذا العالم.

تعود جذور قصة الليلة إلى عدة سنوات مضت؛ عندما استمع محمّد زجاجي القلب ذات غروب رائع إلى برنامج ما يطلبه المستمعون التابع لإحدى إذاعات الأحزاب، قالت المذيعة وهي فتاة تحاول أن ترقق صوتها: «يهدي سرياس الصبّاحي هذه الأغنية إلى الأسطى مجيد وزوجته بهي وابنتهما شيلان، وكذلك إلى غفور وريحانة بمناسبة زواجهما وإلى جميع عناصر البيشمركه التابعين للواء الحادي والعشرين، ومام عبدالله في سوق تاناكورا». كان محمّد زجاجي القلب متأكداً أنه قد سمع هذا الاسم، ومتأكداً أنّ سرياس الصبّاحي طلب أغنية للأخوة كامكار[14]... ولكن منذ تعرفه إلى سرياس علم أنه لا أحد لديه؛ وعلم أنه ليس لديه الكثير من الأصدقاء كي يهديَهم أغنية ما، وهذا كان بداية الطلاسم. علم محمّد زجاجي القلب أنّ اسم سرياس الصبّاحي غريب وفريد جدّاً بحيث لا يمكن أن يتكرّر بسهولة. ولمّا كان محمّد زجاجي القلب صبياً مغامراً ومغرماً بفكّ الأسرار، فتلك الإشارة العابرة والمفاجئة والسريعة سببٌ ليتّجه إلى بحر الطلاسم ويغرق نفسه ويغرقنا فيه. في ذلك الغروب انعطف محمّد زجاجي القلب بمحياه السمح والطلق، وهو يحمل ميداليته بيده، باتجاه شارع أصحاب العربات، وسأل سرياس:

---

(14) فريق موسيقي كردي تأسس في مدينة سنندج الإيرانية في عام 1965، وقد أحيا الكثير من الحفلات الموسيقية والغنائية في مدن مختلفة مثل نيويورك، ولندن وبرلين وباريس واسطنبول وديار بكر التركيتين وكذلك في إقليم كردستان العراقي.

«هل طلبت أغنية من إذاعة ما؟» ولمّا كان سرياس الصبّاحي لا يمتلكُ مذياعاً أجابَ دهشاً أنّه لم يعد يستمع إلى مثل هذه البرامج منذ فترة طويلة. في ذلك اليوم حيث روى فيه محمّد زجاجي القلب ذلك الخبر العجيب لسرياس الصبّاحي، أجابه الآخر ضاحكاً: «هذا غير ممكن، فما من صباحي آخر في هذه البلاد... فأنا الوحيد الذي اسمه سرياس الصباحي».

محمّد زجاجي القلب متأكدٌ أنّ ثمّة سرّاً كبيراً وراء هذا الاسم؛ لا تنسوا أنّ محمّد زجاجي القلب كان مغرماً بالأسرار، ويبحثُ عن سرّ كلّ شيءٍ. كان تعلّقُه بالأسرار يجرَّ خياله إلى أماكن خطيرة، إذ كان يبحث عن الوجه الآخر لكلِ شيء، وكذلك عن الطلاسم المخفية التي لم تُفكّ بعد. كان شاباً لا يرغب في أي أمر سوى فك الطلاسم والظلام؛ وفي ذلك اليوم قال لسرياس الصباحي: «ولكن هناك سرياس آخر؛ وإنكما تشتركان في السرّ». تأكّدتُ حين قال زجاجي القلب ذلك لم يكن يقصد غير إثارة سرياس، وفي غروب ذلك اليوم ذهب محمّد زجاجي القلب وسرياس الصبّاحي إلى مبنى تلك الإذاعة، ورجيا الفتاة التي قرأت الرسائل أن ترشدهما وتريهما الرسالة التي كتبها سرياس الصبّاحي... وبعد قليل من الدلع وجدت الفتاة قصاصة ورق ملوّنة بين كومة الرسائل قد بعثها شخص باسم سرياس الصباحي، إلا أنّه لم يكتب فيها غير تلك المعلومات التي ذُكرت في البرنامج.

وجد محمّد زجاجي القلب، في غروب ذلك اليوم وبمساعدة والده، مقرَّ اللواء الحادي والعشرين المعسكِر في ضواحي المدينة.

وفي وقتٍ متأخرٍ من ذلك اليوم، وفي صخب الرياح الباردة وقع شيء غريب في بيت صَغير تابع لمعسكر قديم، في غرفة ملأى بالجبالات والمالج وأكياس الجص الممزّقة والمهترئة حيث كانت جميعها أدوات عمّال يقومون بتبييض ذلك المكان، وفي ذلك الغبار والجص المنتشر في كلّ مكان. شيءٌ غريبٌ لا يمكنُ تصديقُه للحظة؛ في تلك اللحظة التقى سرياس الصباحي بسرياس الصبّاحي. اتفاقٌ سينعكس لاحقاً بشكل كبير في ليلة بعيدة من حياتي، أنا الذي كنت مستعداً أن أبحث عنه في إعصار بارد وفي ضباب كثيف.

والآن اعرفوا أنّ القصة سوف تتغيّر من الآنَ فصاعداً، وسيتغيّر ذلك العالم المتوحّد السابق، وسنضيع بين البشر والمرايا. ومن أجل أن نَفْصل السرياسين بعضهما عن بعض سنطلق على سرياس قصّتنا؛ الأول اسم سرياس الأول والثاني نسمّيه بسرياس الثاني، أو «سرياس الكبير وسرياس الصغير». كانت تلك الليلة غريبة ومخيفة في حياة ذينك الصبيّين اللذين لا يشبه بعضهما بعضا، ولكن كلّ منهما كان سرياس الصبّاحي، وكلاهما وحيد وقد ترعرعا عند الكثير من الأشخاص ليصلا سنّ الرشد، وكلاهما يملك رمّانة زجاجية منذ طفولته. ولأن محمّد زجاجي القلب كاشفٌ كلَّ الأسرار؛ فأيقظَ سرياس الثاني الذي كان ممدداً على سريره وسأله: «لمَ أرسلت تلك الرسالة لذلك البرنامج؟ لمَ فتحت بوّابة تلك الظلمات والطلاسم...؟ من أنت، ومن أين جئت؟ وكيف وصلت إلى هذا العمر؟ ماذا فعلت وماذا ستفعل؟ ماذا لديك وما سلبوه منك؟» في البداية لم يفهم سرياس الثاني، وهو شابٌّ أبيضُ البشرة ولديه عينان عسليتان ونظرة وحشية

ومترددة تشكّ في وجود جميع الكائنات. وترى بسبب الخوف حيرة ودهشة وسوء فهم على وجهه. فقال وهو يرشّ الماء على وجهه من برميل المقرّ القديم، مرتين: «إنّه لا يشبه الغروب، بل يبدو مثل صباح مريض وسخيف... كلا، إنّه لا يشبه الغروب أبداً. كلا، إنه لا يشبه الغروب. غالباً لا أنتبه إلى مثل هذه الأمور، أوقات الظهر التي تشبه العصر، والليالي التي تبدو مثل الظهيرة، والغروب الذي يشبه الصباح، والصباح الذي يبدو مثل منتصف الليل. لا أفهم، فاليوم هو أحد تلك الأيام». فقال سرياس الأول مبتسماً ومضطرباً: «إنه غروب مريض، أليس كذلك؟ والغروب الأكثر تفاهة في العالم؛ لقد جئنا وجلبنا لك أغرب حزن في العالم». وبدا سرياس الثاني لا مبالياً وجريئاً قليلاً وقاسياً وفطناً؛ فردّ قائلاً: «لم أفهم عمّا تتحدثان»... فأجابه محمّد زجاجي القلب: «نتحدث عن موضوع أن هناك شخصاً آخر، إنسان آخر موجود؛ مثلك أنت حيث إن اسمك هو سرياس الصباحي. لو لم يكن هناك شيء خلف الاسم فلن يتكرر بسهولة. أليس كذلك؟... لا أعرف، لو عرفت نفسك فسوف ينتهي كل شيء هنا وسنودّعك ونذهب. ولكن إن لم تعرف نفسك فسوف تبدأ بداية أخرى. ولكن أنى لي أن أعرف... قد يكون كل هذا مجرد خيال، بل إن الموضوع المطروح مجرد كذبة وقد تشكّل في ذهني بشكل عبثي». ثم روى له محمّد زجاجي القلب القصة كلها بهدوء.

سأل سرياس الثاني بقليل من التأمل: «إن كنت سرياس الصباحي، عندئذ من أكون أنا؟» بدا كلُّ شيء غير طبيعي؛ إذ كلّ شيء مثلُ تشابهٍ بعيد وغريب يربط ذينك الشخصين بعضهما ببعض، شيء باتضاحه

تصل الرمّانة الزجاجية إلى نهايتها. حين رأى سرياس الثاني تلك الرمّانة الزجاجية التي وضعها محمّد زجاجي القلب على المنضدة وسأله: «هل رأيت مثل هذه الرمّانة، وهل تعني لك شيئاً؟» ارتبك وراح ينظر إليهما بدهشة واضطراب وأجاب: «اليوم ليس كأيّ يوم آخر... فاليوم يوم عبثي وعديم المعنى، ولا يشبه أي وقت آخر». وأخذ الرمّانة الزجاجية مضيفاً: «إنّها الرمّانة ذاتها التي كانت معي منذ طفولتي... الرمّانة ذاتها التي لا أعرف هل هي رمّانة الحظّ أم سوء الحظ، رمّانة السعادة أم الشقاء. ماذا تقولان؟ أين أنتما؟ وماذا سيحدث لو عرفت من أنتما؟ من أنت؟... عليّ أن أسأل نفسي من أنا؟ وما أكون؟ إنه عصر الهراء، كمؤخّرة الكلاب تماماً... تفاهة، كلُّها تفاهة. إن كنت أنت أنا، فعندئذٍ من أكونُ أنا؟ سرياس صبّاحي آخر... شخص آخر قد ترعرع يتيماً مثلي ويمتلك رمّانة زجاجية تبدو كأنّها قنينة عمره! ثمّة رمّانة زجاجية أخرى في يد شخص آخر لا أعرف هل أعده صديقاً أم عدواً؟... لا أعرف هل أحتضنك أم أنّه عليّ القول "ارحل"؟ تباً لك مهما كنت، اذهب أينما تشاء».

لو كانت عيناه البرّاقتان في وجه عريض مسطح لبدا أكثرَ فتياً، ولكنّ امتزاج ملامحه الطفولية وجاذبية هيبته الرجولية قد خدش براءة وجهه كلّها. كان صوته مدوياً ووجهه أكثر خشونة من جميع الفتيان الآخرين. في تلك الليلة لم يعرف السرياسان ما الذي يحدث، إذ لم تسنح لهما فرصة التفكير بعمق ذلك الألم. لم يستطع سرياس الثاني الانتظار أكثر، إذ عليه أن ينطلق الليلة بسيّارة الدورية لحراسة موقع مهم، فقال لضيفيه: «يا لَمجيئكما في وقتٍ غيرِ مناسب، وكأنّكما

طعنتماني بخنجر ما. اتركاني. وكأنّكما قد فتحتما قلبي في عملية جراحية وتركتماني. انظرا ماذا يمكن أن أقوله لكما الآن... لمَ جئتما عندي؟ لو هناك سرٌّ ما، فمفتاحُه ليس معي. أخبراني لو وجدتما شيئاً آخر؛ فأنا لا أفهمُ شيئاً... أنا أيضاً لا أرغبُ في أن أقضيَ حياتي في العبث والعتمة. كما تريان فإنّه وقتُ عملي، فثمّةَ وظيفةٌ في انتظاري... من يفهم وضعي؟ لو قلتُ إنّ الليلة فُتح بابٌ في وجهي ولا أعرف هل هو باب الجنّة أو الجحيم... في النهاية مهما يحدث عليّ أن آخذ بندقيتي وأنطلق. ومهما كنت فإنّي لن أنفصل عن هذه البندقية... فهي تفكّر بدلاً عنّي. لا يهمُّ إن كان اسمي سرياس الصباحي أو القذارة الصباحية... لدي بندقية وعليّ أن أقوم بالحراسة. اعذراني يا ضيفاي، اعذراني... مع أنّ الليلة ينبغي أن تكون مختلفة عن الليالي الأخرى، إلا أنّ الضباط والجنود والحرّاس الليليين لا يفهمون مثل هذه الأشياء. مهما كان اسمي ففي النهاية عليّ أن أنطلق وأقوم بالحراسة على تلك القمم البارزة».

وقف أمامها متعجّلاً وهو يشدُّ حزام الرصاصات على صدره بإحكام، وتابع قائلاً: «لقد حيّرتماني، إذ لم أتصوّر أنّني سأكون في مثل هذه الورطة بسبب طلب أغنية ما... أنا سرياس الصبّاحي، وينبغي ألا يتكرّر الإنسان. إن كنت أنت سرياس الصباحي أيضاً، فعندئذٍ من أكون أنا؟ وإن كنت أنا هو فمن تكون أنت؟ وأيّ ابن كلب قد عبث بمثل هذه الأمور؟ وهل يمكن حدوثُ شيء مثل هذا أصلاً؟ عليّ الذهاب... أن أذهب ولا أعرف من أنا وأين أذهب... عليّ أن أكون حارساً للدنيا ولا أعرف من أنا لأحرس مثل هذه التفاهات.

لقد ازدادت التفاهات، وقد ازداد الكذب والهراء في سوق الحياة. اسمعا يا شقيقاي، إنّنا في عصر رائحته ليست أفضل من رائحة مؤخّرة الحمير». أخرج سرياس الثاني بندقيّته وأضاف: «سآتي معكما حتّى بوّابة هذه المخروبة... علينا أن نلتقي مجدّداً، فهناك شيء لا أعرف ما هو، ولكن علينا أن نتكلّم عنه لاحقاً، وأن نلتقيَ مجدّداً. عندئذ سنفهم عمَّا نتكلّم». أجابه محمّد زجاجي القلب: «لم يعلمنا أحد أن نسأل من نحن! وستنهار حياتنا في اليوم الذي سنواجه فيه مثل هذا السؤال... ولكن بعد ذلك علينا جميعنا أن ندرك معنى حياتنا».

في الطريق حتّى يصلوا بوّابة المقرّ، عبروا ساحة كبيرة تتصاعد منها رائحة حزن خريفي، رائحة حصى مضطربة ونباتات ذابلة ووحيدة. موقع لا هو مكان الطبيعة تماماً ولا يصلح للبشر بشكل عام. مكان لا يرتبط لا بعالم الإنسان ولا بالعالم الشاسع للكائنات والطيور الوحشية. في تلك الليلة حين ركب سرياس الثاني السيارة أمامها، قال من النافذة وهو يودّعهما: «وداعاً يا رفيقاي، وداعاً... فهذه الليلة الأولى التي ذعرت من نفسي هكذا... وداعاً. ويا ويلي، ويا ويحي... لقد امتلأت السماء بالنجوم التافهة أيضاً؛ يا عزيزاي، وحدها الأشياء التافهة تتشابه».

عند عودتهما قام محمّد زجاجي القلب وسرياس الصبّاحي بتجوالهما الأطول في شوارع الليل الممتدة. وبعد سنوات من رحيل محمّد زجاجي القلب حيث يروي سرياس أحداث تلك الليلة، لم يكن يستطيع أن يخفي مصائبه العميقة. فالاثنان في بداية شبابهما. قال محمّد زجاجي القلب بأفكاره الممتزجة دائماً بالمشاعر والحماس

لسرياس: «يا سرياس، هذا كذب أنّ البشر ليس بعضهم مثل بعض... فهذه مجرّد كذبة. فنحن حين كبرنا تشابهت حياتينا، وكأنّ حياتينا تكثير وتكرار صور مرآتنا... وكأنّ في مكان بعيد جداً يمتلك أحدهم نموذجاً من حياتينا كلها، الحياة التي قد حدثت سابقاً وقبل أن تحدث الآن، وكأنّنا أخذنا حزننا من شخص أكبر، شخص لا يمكن لأي أحد منا وحده أن ينهي حياته. فكلانا يحمل أجزاء صغيرة من آلامه... وليس من المفترض أن تكون تلك الأشياء الشبيهة بالتفاهة».

بدا سرياس كأنّ ثمّة اضطراباً غريباً في وجهه، يزيح شعره الناعم والمشوّش عن وجهه المنهك والملفّح بالشمس باستمرار. وبين فترة وأخرى كان يتوقّف ليعقد رباطي حذائه الكتاني الأبيض البالي، فسأل: «يا محمّد زجاجي القلب، لمَ تملك الأزهارُ الحقَّ كي لا تكون متماثلة، ولماذا تملك الطيورُ الحقَّ كي لا تغنّي لحناً متشابهاً؟ ولكن لماذا عليّ أن أتساءل من هو سرياس الصباحي؟ وحياة من منّا انعكاس لحياة الآخر؟» طأطأ محمّد زجاجي القلب رأسه بهدوء وأجاب: «لدى الإنسان الحقّ في أن يكون فريداً ونادراً، وألا يكون أي شيء مثله. ولكنّني أتكلّم عن ألم يجعل حياتنا كلّها روتينية؛ أتكلّم عن شيء يجمعنا كلّنا بكلّ فروقاتنا». فردّ سرياس الصبّاحي: «إنّني أخشى أن أكون ظلّ شخص آخر... أخشى أن يكون سرياس الصبّاحي برمّانته الزجاجية تلك ظلّ شخص آخر يعيش في مكان آخر». توقّف محمّد زجاجي القلب وأجاب: «إنّني أتكلّم عن آلاف الأرواح لا أعرف من أين جاءت وإلى أين تذهب... أتحدّث عن الأسرار، عن قفل كبير، وعن جدار سميك لا يمنعنا من الوصول إلى ذلك المعنى. ومنذ

أن حملت هذا الاسم فكّرتُ بجميع تلك الأسرار التي تحيط بي. الأسرار التي تبدو صغيرة ولكنّها في الوقت نفسه وضعت قفلاً كبيراً على حياتنا. أتحدّث عن مصيبة أكبر من المصائب الأخرى، والمصيبة هي أنّنا لا نعرف شيئاً عن أنفسنا... كلا، فأنا وأنت لا نعرف أيَّ شيء عن أنفسنا. من يقول إنّ محمّد زجاجي القلب لن يتكرّر مرة أخرى؟ ومن يقول إنّني لن أرى عند استيقاظي ذات صباح شخصاً يقف أمامي يشبهني تماماً؟ ومن يقول إنّنا لسنا شخصين يكرّران الآخرين؟»

14

كان لقاء سرياسين في ذلك الغروب قصيراً وسريعاً بحيث لم يفهم بعضهما بعضاً؛ ولكن الآن حيث أروي لكم هذه القصّة فأنا متأكّدٌ أنّ ذلك اللقاء القصير والفجائي في ذلك الغروب قد جعلهما مضطربين بشكلٍ غريب. لاحقاً أرسل لِي سرياس الثاني من سجنٍ بعيد ومظلم يقعُ بين سلسلة جبال، أشرطة كاسيت تحدّث فيها عنْ ذلك الغروب بهدوء؛ وتحدّث فيها عن الإيذاء والعذاب اللذين تعرضٍ لهما بعد ذلك اليوم. كلا، لا تتصوّروا أنّ سرياس الثاني كان سعيداً خلافاً لسرياس الأول، فسعادته الوحيدة هي أنّه لا يزال حيّاً، ومع أنَّ بقاءه حيّاً سبب كل شقائه... ولكنّه أكبر من سعاداته الأخرى. فالحياة سعادة حين تبدأها تمتلئ بالآلام، وهي جنّة تتشكّل من عدّة جهنمات صغيرة وكبيرة، وعدّة قطع من الجمال ربطتها سلسلة بشعة بضعها ببعض. فكّرت سنواتٍ طويلة في السجن بتلك المشكلات وأوقفت أفكاري وتخيلاتي من أجل التأمّل بتلك المشكلات؛ لم أظن قطّ أن الأشياء الصغيرة حين يرتبط بعضها ببعض، وتصنع من الأشياء المتشابهة شيئاً كبيراً، فإنّ ذلك الشيء الكبير سيمتلك صفات الأشياء الصغيرة ذاتها. فصفة النار وصفات مشعلٍ من الضياء لا تتشابه، وهذا يشمل الحياة أيضاً؛ فهي أمواج عظيمة تشكّلت من جمال آلاف أمواجٍ الألم الصغيرة. انظروا يا أصدقائي، ويا رفاق سفري، انظروا إلى هذا البحر تحتنا، هل تمتزج أسرار الأمواج بأسرار البحر؟ بالتأكيد يمكن أن نمسك بموج وأن ننظر إليه، ولكن من يمكنه الإمساك بالبحر والنظر إليه؟ يمكننا أنَّ نعرف من أين بدأت الموجة وأين ستتلاشى، ولكن

من يمكنه أن يعرف من أين يبدأ البحر وأين ستنتهي المياه؟ يمكننا أن نرى وعي الأمواج ولا وعيها في جزرها ومدها؛ ولكن من يمكنه أن يتحدث عن وعي ولا وعي كل هذه المحيطات؟ نحن نعرف متى تبدأ الموجة ومتى تنتهي، ولكن من يمكنه أن يعرف لحظة ولادة البحر ويوم مماته؟ فالحياة هي هكذا، ودائماً ما يكون الأحياء أكثر سعادة من الأموات... حتى لو كانت ذكرياتهم مريرة، وحتى لو احترقت آلامهم كفزّاعة العصافير في النار، ورقصت أمام الريح. ففي النهاية إنّ الأحياء هم في ذلك البحر الكبير، البحر الذي لا ينكمش ولا يظهر ولا يُفسّر. والأموات هم من تمّ طردهم من البحر؛ وطالما نحن أحياء فإنّنا سعداء. كلا، لا تقولوا إنّنا قد تعبنا من هذا البحر، وإلى متى علينا أن ندور في هذا البحر. لا تطرحوا هذا السؤال عليّ لأنني رسول الآلام، وقد نظرت لأحدى وعشرين سنة من النافذة إلى الصحراء، وصرخت بها، ومن تلك النافذة رأيت شيئاً لو لم أره لما بقيت حيّاً. لقد رأيت من تلك النافذة سعادة الصحراء وعناق أشعة الشمس ورمال الصحراء.

لو لم أكن في الإحدى والعشرين سنة مؤمناً بأنّني سأرى جمالاً عظيماً ولا نهائياً في الرمال لاختنقتُ هناك. فعلى الإنسان ألّا يفقدَ إيمانَه بالسعادة حتّى آخر أنفاسه، وحتّى بعد موته أيضاً؛ وألّا ينسى اعتقادَه بفهم الجمال. كلا، أنا لستُ شخصاً ذا وجهين، فإنّني مثلكم جميعاً قد صرختُ من كلّ قلبي مستنجداً من العبث هذا كلّه، كما أنّني قد تحمّلت يأساً كبيراً ومخيفاً، وقد فشلت عدة مرات وتحطّمت وأصبحت محدودب الظهر؛ ولكنّني أتحدّث عن شعاع الضياع ذاك الذي يشتعل بعد كلّ ذلك اليأس. لقد لعنت نفسي وحياتي مئات الأيام صباحاً تلو صباح وليلة تلو الأخرى مثل شخص مجنون. ولكن

لاحقاً حين أستيقظ صباحاً وأشعر بالجمال، تتصل كل تلك الأشياء بضعها ببعض. إن تفكيك آلامنا ومصائبنا السوداء وعدم انسجامنا المهلك بالانضباط والاتساق والجمال اللا نهائي لكلّ أشياء هذا العالم، لهي الطاقة الوحيدة التي يمكنها أن تربطنا بالحياة. دعونا ألا نربط مصيرنا الحقير بموسيقى العالم العظيمة. وإن كانت حياتنا نغمة شاذة فهذا لا يعني أنه لا توجد طاقة جميلة وعظيمة في أعماق هذا العالم، وبين جميع قوانين الوجود. ففي سجني لم أستمع إلى نغمة حياتي الشاذّة، بل فكّرت في الأصوات العميقة التي تُبعث من أكناف المجرّة. إنّني أعرف في أيّ يأس عميق تمرّون، وأعرف بأيّ حسرة ركبتم هذه السفينة كي تصلوا إلَى الغرب، وإلى النعيم. إلا أنّه ذات ليلة ستسحبك الرياح إلى أعماق المحيط، فيجعلك القبطانُ الذي لا يعرف أي شيء عن البحر، أن تضيع في بحر لا متناه.

الآن، إذ أفكّر بماضي تلك الأحداث، أشعر أنّ محمّد زجاجي القلب بحث أكثر من أيّ شخص آخر عن رأس الخيط الخفي والرفيع ذاك ليربط جميع الأشياء بعضها ببعض. رأى محمّد زجاجي القلب البحر كلّه؛ وفي فترةٍ ما فكرتُ كثيراً بأسرار البشر. الشيء الذي يسمّيه الحُبّ الخفيّ هو في الحقيقة أمنية كبيرة من أجل الوصول إلى الطاقة التي تربط كلّ العلاقات بعضها ببعض. وإنّ بحثه عن الأسرار الصغيرة، كان من أجل الوصول إلى الحقائق الكبرى التي يمكن أن نسمّيَها «مفهوم هذه الحياة»؛ ومعنى الزمان والقرن الذي نعيش فيهما. يعرف محمّد زجاجي القلب الكثير من الأسرار سلفاً. فبعد الثورة عرف أكثر من الجميع؛ كما أنه عرف أكثر من أيّ شابّ آخر أسرار

وقار الحياة وشرفها وحرمتها الخفيفة، حيث يُجمّل الجميع أنفسهم بهذه الصفات. كما أنه تعرّف خلال بحثه إلى جميع الحقائق التي تحكم على العالم بالخفاء، وتعرّف على المهرّبين الكبار. ورأى العفّة الكاذبة للنساء والفتيات، وقد اطّلع على أكاذيب السياسيين، وكشف مؤامرات القتل التي يدبرونها ضدَّ بعضهم بعضا؛ ولكنّه مع اكتشافاته كلّها لهذه الأسرار لم يصبح شخصاً قاسياً. عرف منذ البداية أنّه رقيق القلب بحيث لا يمكنه الذهاب إلى ساحات الحرب، وعلم أنّه كائن زجاجي لا يمكن أن تتحوّل أحلامه من أجل الحقيقة إلى أحلام من أجل الحرب. وذات ليلة إذ اجتمع مع أصدقائه قال له سرياس: «ما نفعُ البحث عن هذه الأسرار وفهمها إن لم يستطع المرء أن يكشف عنها ليستخدمها؟... ولمَ لا تدوّن جميع الأسرار في كتاب ضخم كي تفضحهم ذات يوم وتفاجئ العالم؟» فأجابه محمّد زجاجي القلب: «ولكنّني لست متأكّداً من أيّ شيء، فكيف أدوّن كتاباً وبأيّ شيءٍ أفاجئ به العالم؟... فأنا لستُ متأكّداً من سرّي وسرّك أيضاً؛ كما أنّ بعض الأسرار لا يمكن تسجيلُها؛ فبعض هذه الأسرار تقتل المرء، وأنا أخشى هذا النوع من الأسرار». عرف محمّد زجاجي القلب أكثر من أيّ شخص آخر أنّه هائم بأسطورة ما، وأنه يبحث عن حل مشكلة أكبر من طاقته وطاقة أي كائن آخر في العالم؛ وأن يكون العالم أرضاً خالية من الغموض والرموز والأسرار والطلاسم والظلمات والأسئلة. ولكن أن تكون كل أشيائه مرئية، فهذا مجرد أسطورة سوداء وعبثية. بيد أن ذلك الشابّ زجاجي القلب لم يستطع ألّا يبحث عنه. في بعض الأحيان كان سرياس الحزين والغاضب يقول لزجاجي القلب: «حسناً، لدى الإنسان الحقّ في أن يحتفظ بأسراره وأن يمتلك شيئاً

لنفسه لا يعرف الآخرون عنه؛ شيئاً لا يلمسه أحد». فيردّ عليه محمّد زجاجي القلب الذي فكّر على نحوٍ آخر دائماً: «هناك نوعان من السرّ؛ السرّ الذي يُغرق العالم في العتمة ويجعلنا عمياناً، والسرّ الآخر الذي يتقدّم بنا أكثر عمقاً. يا سرياس الصبّاحي، إنّ الأسرار الصغيرة ليس لها قيمة وحدَها؛ فما هو ثمينٌ هو المعنى كلّه، ويمكنك أن تكتشفه عن طريق جميع الأسرار». وأظن أنّ الحياة سلسلة طويلة، عَقد ممتلئ بالعُقد حيث ينبغي فكّها واحدة تلو الأخرى، كي نصل في نهاية تلك السلسلة اللا نهائية إلى حقيقة أخرى. الشيء الأغرب بالنسبة له هو مقدرة سرياس على العيش في ظلمات وجوده، ورؤية الناس بسذاجة بحيث لا يسألهم عن أسرارهم؛ ويسير وهو يتكلّم معهم ولا يحدّق في أيّ شيء. في بعض الأحيان يحارب بقسوة، وفي وقتٍ آخر يقهقه سعيداً. لقد شعرتُ أنّ محمّد زجاجي القلب هو الوحيد الذي أراد أن يتبع الأشياء حتّى نهايتها ليدرك هذه النهايات؛ وهو متحمّسٌ بحيث لم يطق أيّ صبر وتلكؤ. وأمّا هو، فقد كشف ورأي وفهم أن الأسرار احتلال للنهايات، إلا أنّ مصيبته الكبيرة تكمن في أنّه أراد أن يمزج رغباته الباطنية كلّها بذكائه كلّه، وأن يكشف الأسرار دون أن يؤذيَ الآخرين. وأن يدرك وأن يبقى مغرماً. ولكنّ أحلامه التي كان قد بني عليها عالمه انهارت، حين عرف أنّ الحبَّ من الممكن أن يكون باباً غير مفتوح حتّى النهاية، ومليء بالأسرار والغموض وبعيداً عن متناول اليد.

فكّرتُ في مصير الصبيان الآخرين وفي مصيره هو أيضاً؛ والآن في هذه السفينة التي يمكن أن تكون سفينة وجودنا أو عدمنا، يمكنني أن

أعترف أنني مدين له، فهو يمكنه أن يكون أحد أبنائي أيضاً. كانت أغلب الأمور التي لم أكن أفهمها لاحقاً، ترتبط بحياته وبموته إلى حدٍّ ما.

ذات ليلة حيث صعدتُ إلى السفينة في "باترا" رأيت من بعيد بوادرَ إعصار ما، وشممتُ من غبار البحر الزجاجي رائحة طوفان. في تلك الليلَة كنت متأكداً أنّني عالقٌ في سرٍّ موت ذلك الشابّ منذ فترة طويلة. شعرتُ أنّ القصة التي لم يتمكّن من إنهائها عليّ أن أنهيَها بنفسي. شعرتُ أنّني محمّد زجاجي القلب وقد نهضت من كفني الصحراوي، وأمتلك قلباً من رمال الصحراء بدلاً عن قلب زجاجي حيث إنه غير قابل للكسر، ولكنّه يتساقط حبةً حبةً. والآن أستغرب من هشاشة ذينك الصبيّين كيف ماتا بسهولة وسرعة ودون أن يكونا مؤذيين.

في الصحراء تخيلتُ الإنسان مثل كائن صُلب وصامد ومقاوم أمام كلّ شيء قاسٍ؛ ولكنّ عجزه واستعداده العميق والمتسرّع للموت يحطّمان تصوّراتي. والآن بتّ متأكداً أنّ الاستعداد للموت وتقبله هما جزءٌ من روح تلك الفترة؛ وكان غريباً أن ينهض شخصٌ مثلي من قبره لإنهاء الأسرار التي لم يتمكّن عدد من الشباب من فكّ طلاسمِها. قبل أن أترك كردستان ذهبت عند قبر محمّد زجاجي القلب؛ لا تتصوّروا أنّها كانت المرة الأولى التي أذهب فيها عند قبره، كلا، في تلك الفترة كنت مثل درويش ملتح ومتصوّف بقلب حافل بالآمال أتجوّل بين قبره ومكان حياة الشقيقتين. في ذلك اليوم حيث ذهبت عند قبره لوداعه وشكره، قبّلتُ القبر لأنّني مدينٌ له من جميع الجوانب. إن حبِّه هو ما جعلني أتعرف بالشقيقتين البيضاوين، ولولاه

لما فُتح طلسم السرياسين، ولولاه لما اكتشف أي بحّار آخر جوهر تلك المعاني الخفي وراء تلك الرمّانة الزجاجية. ولولاه لما كان لآخر شجرة رمان في الدنيا معناها واعتبارها ذاك. فأنا مدين له، والآن حائر في غبار موته كالآخرين.

اسمحوا أن نعود إلى قصّتِنا؛ لقد سَبَق وقلتُ لكم إنّه في الليلة الثانية بعد حرّيتي من قصر يعقوب الصنوبر تغيّرَت حياتي بأسرها، إذ تُعد الليلة الثانية ليلةَ إحيائي. ليلةَ ولادتي الحقيقية وكذلك ليلة حيرتي وضياعي. أتذكرون جميع الوعود والنذور التي أبرمتها الشقيقتان البيضاوان وسرياس الصباحي ذات ليلة وختموها بالدم ودفنوها تحت شجرة رمَّانة حزينة في فناء بيت كئيب؟ شجرة رمّانٍ تُعدّ انعكاسَ مرآةٍ قد نبتت في مكانٍ آخر من العالم. شجرتا رمانٍ تربطان أبطال هذه القصة دون أن يعلموا بوجودهما. لو تذكرتم، فبناءً على هذه النذور لم تتخذ الشقيقتان البيضاوان أخاً غيرَ سرياس الصباحي، فلم تقبلا بأيّ أخ آخرَ. في الأيام الأولى لم يتكلَّم سرياس الصبّاحي عن صداقته وتشَابه اسمه مع أشخاص آخرين؛ فمضت أخوّته مع الشقيقتين بخير. وقبل عدة أسابيع من موته، وبعد قضاء يوم طويلٍ من مشاجراتِ السوق الاعتيادية، عاد سرياس عند الشقيقتينَ البيضَاوين ذات ليلة منهكاً جدّاً؛ وجلسٍ أمامهما كشخص مذنب، وقال لهما إنّه يريد أن يُفشيَ بسرٍّ لم يتكلَّم عنه قطُّ. كانت الشقيقتان البيضاوان تتذكران وجه سرياس الحزين حيث أفشى لهما سرٍّ تلك القصة بصوته الهادئ والحزين، وفي الوقت نفسه الحافل بالغموض وبحنجرة متألمة. لم يكن باستطاعته أن يصمت أكثر؛ وعند ذلك

طالبته الشقيقتان البيضاوان بقصة حقيقية. كان عليه أن يشرح لهما قصة تلك الرمانة الزجاجية التي جلبها من بيت سليمان الكبير، الرمانة التي قال سرياس الصبّاحي فور رؤيتها "رمّانتي". في ذلك الغروب قال أول مرة: «يا أختاي العزيزتين، أعرف أنّكما قد اتخذتماني شقيقكما الوحيد وأنا أشكركما حتى مماتي. وعندما أموت سأظل مديناً لكما، مديناً لروحكما ومحبّتكما النقيّتين، ولكن هناك سرّاً، عليكما أن تعرفا أنه جزءٌ مهمٌّ من حياتي. لا أريد أن تظهر هذه الحقيقة الغريبة فجأة وأكون خجلاً أمامكما؛ لأنني لم أخبركما عنه. اعلما أنّ هناك شخصاً آخرَ غيري اسمُه سرياس الصبّاحي، شخصاً يشترك معي في كلّ شيءٍ باستثناءِ وجهه. فقد عاش مثلي ويمتلكُ رمّانةً زجاجيةً، ومنذُ فترةٍ طويلةٍ قد أصبحَ صديقي أيضاً». وواصل سرياس الأول مضيفاً: «هناك سرٌّ يربطُ حياتي به، وهو شيءٌ لا يعرفُ أيٌّ منا ما هو». في تلك الليلة، روى سرياس قصّة محمّد زجاجي القلب ونديم الأمير وسرياس الثاني وقصّته هو كلها؛ وشرح التفاصيل وكأنه يطلب شهادتهما، وكأنما ليست هناك فرصة أخرى كي يروي تلك الأمور لشخص آخر. وهكذا أصبحت الشقيقتان البيضاوان شاهدتين كبيرتين على قصة ستعودان إليها لاحقاً بأنفسهما على نحوٍ آخر. في تلك الليلة إذ روى فيها سرياس الصباحي قصته كلها منذ البداية، قالتا: «لدينا أخٌ واحد، وهو أنت... وما من أحدٍ سيحلُّ مكانك. ولا نريد أن نرى شخصاً آخرَ باسم سرياس الصبّاحي، وليس هناك من يسرق اسمك وذكرياتك لنفسه». فضحك سرياس قائلاً: «أنا لستُ سوى إنسان مسكين بين أصحاب العربات، وليس هناك من يريد سرقة حياتي، فهو مسكين يخشى أن أسرق حياته. وكلانا يخشى من حياتنا

العبثية وعديمة السبب». فرددت الشقيقتان: «أنت مارشال أصحاب العربات، وفيلسوف ليالي الأولاد المظلمة؛ الأطفال الذين لا أحد لديهم غيرك كي يدير حياتهم، ويشرح لهم كلَّ شيء، ويروي لهم أنباء العالم ويقرأ الصحف لهم... جيش أصحاب العربات ذاك كلّه لا أحد سواك». لم توافق الشقيقتان البيضاوان أن تتعرّفا إلى شخص آخر لديه اسم سرياس الصبّاحي، ولم تريدا رؤية شخص بتلك الأوصاف؛ فهناك سرياس واحد لهما. كما أنهما خشيتَا أن يزعزع ظهور سرياس آخر تلك النذور والمواثيق، ويُدخل الشكَّ في قلبيهما ويضعفهما. خشيتا أن تبهت صورة سرياس بالتكرار، وتصبح طاقته السحرية عديمة الأثر. وبعد موت سرياس لم تسمحا بمجيء شخص آخر يحمل اسم سرياس الصباحي ويقدّم لهما التعازي، ولم تسمحا لأنفسهما باستقبال شخص آخر باسم سرياس الصبّاحي. فالنسبة لهما تنتهي تلك القصّة كلّها بموت سرياس الأول.

لقد أخلّت عودتي بهدوء تينك الشقيقتين.

في تلك الليلة حيث روى فيها إكرام الجبلي قصّتي لهما، وأخبرهما أنّني والد سرياس الصباحي الحقيقي، وقد عدت بعد إحدى وعشرين سنةً من الصحراء، وأريد الذهاب عند قبر ابني، اختلَّ هدوؤهما واطمئنانهما وانقلب روتين حياتهما؛ فاضطرتا منذ تلك اللحظة إلى التماشي مع قصةٍ كانتا تتجنبانها حتى بعد موت سرياس. لم تعرفا هل يمكنهما إفشاء سرّ سرياس الثاني أم لا؟ وهل يمكن إيصالي عند قبره وتركي هناك كي أعيش حياتي بيأسي كلّه؟ أم يجب أن تقولا لي إن هناك سرياس آخر يعيش في مكان آخر ولم يمت؟ وهل يمكن أن

تواجهاني بذلك السؤال أم لا؟ اعتقدتا أنّ هناك سرياس واحد لا ثاني له في العالم، ولا ينبغي الكلام عن وجود سرياس آخر؛ لأنّ التذكير بوجود سرياس آخر يُعدُّ خيانة لشابٍّ رحل مبكِّراً ويعدّ شقيقهما، وأن لا أحد يستطيع أن يحلَّ مكانه. إلّا أنّ لاولاو البيضاء تحدّثت عن تعاسة أب عاد بعد إحدى وعشرين سنة ويرغب بشدة في احتضان شخص وتقبيله ليقول له: «يا بني». فردَّت شادريا أنّ عليه تحمّلَ موت ابنه كأيّ أبٍّ آخرَ ويلازمُ قبره. إلا أن لاولاو ردَّت: «إنّه قد يكونُ أباً لشخص آخرَ حيّ، أباً لسرياس الذي لم يمت وما زال حيّاً... من يعرف أيهما ابن مظفّر الصبّاحي الأب الحقيقي؟ وأيّ حقٍّ لدينا كي نحرمَ أباً من رؤية ابنه؟ وبأيّ حقٍّ نخفي الحقيقة؟» فأجابت شادريا وكأنّها جالسة على نار: «ولكن إن كان مظفّر الصبّاحي الأب الحقيقي لأخينا الوحيد، فعندئذٍ سيكون فعلنا هذا حرمان سرياس الميّت من ماضيه».

ذات ليلة سارتا معاً بمحاذاة ذلك النهر وفكّرتا حتّى وقت متأخّر؛ وفي وقت الاستراحة غنَّتا بحرقة وسلَّمتا شعرهما إلى برودة الليل، ثم قررتا أن ترويا كلّ شيء لي. في تلك الليلة حيث أخذتاني فيها إلى قبر سرياس أرادتا أن أرى موته وأن أفهمه؛ أرادت الشقيقتان أن يشاركهما العالم كلُّه الحزنَ في فقدان سرياس، إذ أصابهما الذعر من موته العبثي والمفاجئ. رأتا كيف مات سرياس وكيف لم يحرّك أحدهم ساكناً، وهو الذي اغتمَّ بشدّة في مأتم جميع أصدقائه؛ وكيف لم يتقدّم أحدهم ليسأل عن كيفية موته، ويصبح منسيّاً يوماً بعد يوم.

بعد هزيمة جيش أصحاب العربات وتفرّق الأطفال في أزمة

العالم، حيث إنّهما لم تريا شخصاً آخر يفكّر في سرياس الصبّاحي، أخذتاني عند قبره كي أكون شريك حزنهما ومنادمهما. ولكن حين رأتا رثائي اليائس، وأدركتا أنّني لا أستطيع فهم تلك الحقيقة وأحتاج إلى خلق ابن آخر وسرياس صبّاحي آخر حتّى لو في خيالي كي أعيش من أجله، دخلت لاولاو البيضاء وحدَها غرفتي في الليلة الثانية وقالت: «يا مظفّر الصبّاحي، يا أيّها الشيخُ المسكينُ، هناك أشياءُ كثيرةٌ لم تعرف عنها أيّ شيء بعد». ومنذ تلك الليلة نادتاني باسم «الشيخ المسكين» أو «أب الآلام» أو «شيخ الحزن». كانت لاولاو البيضاء قد جاءت بالمنديل الأسود على عنقها لتروي لي القصة كلها خلال عدة ليالٍ؛ القصة التي لا يمكن أن تنتهي في ليلة واحدة فقط، القصة التي استمرّت طيلة فترة حياتي عند الشقيقتين البيضاوين. في بعض الليالي رويتا القصّة في غرفتي، وفي ليالٍ أخرى في غرف تلك المدرسة وأمام السبورة؛ قصة طويلة حُفرت سطورها وكلماتها واحدة تلو الأخرى في ذهني. تذكّرتُ كلماتِها كلَّها، فسنواتُ السجن الطويلة قد جعلت صفحة ذكرياتي بيضاء، فحين اختلطت بالعالم كانت ذكريات طفولتي كصفحة لم يكتب عليها أيّ شيء. حثّتني الشقيقتان أن أبحثَ عن تلك الأسرار؛ في تلك الليلة قالت لي لاولاو البيضاء: «كان سرياس من أولئك الأشخاص الذين يستحقّون كلّ المراثي، ويستحقّ قطرات الدموع التي تذرفها من أجله، ولكنّ هناك حقيقةً عليك أن تتطلّعَ عليها أولاً. لا أنا ولا شادريا ولا أيّ شخص آخر من هذا العالم يمكنه أن يؤكّدَ لك أنّ القبر الذي بكيت عليه بحرقة هكذا، هو قبر ابنك. يا مظفّر الصبّاحي، باستثناء ذلك الشابّ الراقد هناك حتّى يوم القيامة، هناك شابٌّ آخر حيّ اسمه سرياس الصبّاحي، ويحمل اسم ابنك نفسه...

ولكن دعني أقول لك شيئاً من الآن كي لا تلوم أحد لاحقاً؛ ما من أحد يستطيع أن يكون مرشدك ومنقذك؛ لأنّ لا أحد يعلم أيّاً من السرياسين هو ابنك؟»

لم تكن تلك الكلمات عبارات سهلة، بل تبدو كأنها أخرجتني من قعر اضطراب الجحيم ونقلتني إلى النعيم، وكأنّها قذفتني في آخر لحظات الاختناق إلى اليابسة؛ وكأنّها أخرجت صنّارة الموت من شفتي كالأسماك، ورمتني في الماء مجدَّداً. وهكذا فهمت أنّه باستثناء ذلك الميّت في وسط الفلاة هناك سرياس آخر أيضاً قد يكون ابني، وقد يكون ذلك الابن الخيالي الذي كنت أنتظره خلال إحدى وعشرين سنة.

ولكن كلا، لا تتصوّرا أنّ السعادة قد أعمتني؛ لا تتصوّرا أنّ سعادة انبعاث الأمل قد جفّفت الحزن لموت سرياس في قلبي. بعد انقضاء تلك الليلة وحين وقفت أمام النافذة وفكّرت بكلّ شيء، أدركت أنّه مهما كبرت آمالي فإنّ أحزاني ويأسي ستكبر أيضاً حتّى مماتي. أطرقتُ في تلك اللحظة برأسي متأمّلاً وأقسمتُ قسماً أبديّاً ألّا أسأل أيُّهما ابني؛ كان عليَّ أن أتقبّل الاثنين، إذ لم يكن لديّ خيار آخر... ولاحقاً لم أشعر بالندم من ذلك القرار أيضاً. إنّ حقيقة وجود أكثر من سرياس جعلتني أنظر إلى الحياة بجرأة أكبر، وأن أفكّر في موت وبعث جميع أولئك الأولاد الذين بدأت أشعر نحوهم بالأبوة منذ تلك اللحظة؛ ومنذ تلك اللحظة أدركتُ أنّني أستطيعُ أن أكون أباً لجميع أولئك المفقودين في الطرقات، والمقتولين عبثاً، أو من يكون مصيرهم غامضاً ولا مستقبل لهم. أنا رجلٌ قد جاء من الماضي، كي

يتكلّمَ مع الذين لا مستقبل لهم.

قولوا لي ماذا كنتم ستفعلون لو كنتم في مكاني؟ لو كنتم في مكاني هل ستختارون أحدهما وتنسون الآخر؟ أتحضنون أحدهما وتتجنّبون الآخر؟ كلا يا أصدقائي، لو كنتم أنتم في مكاني ستحضنون الاثنين. والآن بتّ أعرف أنّني قد فقدتُ الكثير من الأشياء، ولكنّني أعرف أيضاً أنّني قد ربحت الكثير من الأشياء أيضاً. حين يرحب الإنسان بالعالم بشكل عظيم فإنّ المسّرات والأوجاع ستحضنه بشكل عظيم أيضاً، ولكنّ طيلة حياتي شعرتُ بغرابة. لم أشعر بالخجل من الشيء الذي سأرويه لكم الليلة؛ في تلك الليلة حين احتضنتني لاولاو البيضاء وقالت: «أيُّها الشيخُ المسكينُ، في النهاية ستضيع بين ولديك ولن تجد الحقيقة»، فأجبتها: «كلا... لقد بعثني الله من أجل شيء آخر، من أجل أبوّة شخص يختلف عن الآخرين». في تلك اللحظة لم أعرف أيّ أب أكونه، إذ كنت أشعر بسبب هذه الصفة بالآمال والروح السامية. في تلك الليلة ذهبت إلى قبر سرياس؛ والشيء الذي كان يزعجني لم يكن موته بل الصمت العميق السائد بيني وبين قبره، سكوت أكثر عمقاً من سكوت بين كائنين. سكوت بيني وبين جميع الكائنات، سكوت أكبر من استيعاب ميّتٍ ما، سكوت بيني وبين عالم قد انقلب كل شيء فيه من أجل البحث عن سرياس الحيّ.

من جديد تعلمتُ لغةً كي أتحدَّث مع العالم والكائنات من حولي، في تلك الليلة احتضنتُ لاولاو البيضاء كالمجانين وصرختُ: «لم يمت سرياس، لم يختنق سرياس، لم يُقتل سرياس بموت عبثيّ، ولم يقتله مأمور أبله في مدينة قاتلة... إذًا، فهو هنا ويمكنه الكلام، ويمكنه

أن يتحدّث عن نفسه. يمكنه أن يرويَ قصّته، وأن يختلط مع هذه الحياة وأن يهتف بنجمة، وينادي الطيور ويرمي الحجر في المستنقع، وأن يهيل التراب على رأسه أو ينام على الأوراق... أي أن هناك شخصاً يمكنني التحدُّث معه حول أيّ شيءٍ من البداية حتى النهاية. لقد جئت كي أتكلَّم مع شخصٍ من البداية حتّى النهاية، شخص متأكّد أنّه يسمعُ كلامي... أي أنّ سرياس الذي عاش في هذه الأرض واستمع إليّ يدرك معنى الاستماع إلى شخص آخرَ». فردَّت لاولاو البيضاء في دهشةٍ: «كلا... كلا. لقد مات سرياس... لقد قتل مأمور أبله سرياس وسطَ السوق؛ وهذا ليس بكذب. وفي الوقت نفسه هناك شابٌّ آخر باسم سرياس الصباحي، وهو أيضاً لا أباً له وقد عاش مثل سرياس أيضاً ولكنّه ما زال حيّاً». فصرخت: «يمكنه أن يستمع إليَّ بدلاً عن العالم كلّه، فهو حيٌّ ويمكنه الاستماعُ إليّ بدلاً عن جميع الأموات، والتحدّث بدلاً عن الكلّ. إنه حيٌّ، يمكنه الصراخُ بدلاً عن الآخرين. ينبغي أن تكون هذه القوة موجودة في الأحياء كي يصرخوا بدلاً عن الأموات. الأمر ليس هكذا، يجب أن تكون هناك قوة في الإنسان كي يُسيِّر العالم على أساسِ العدل». فقالت لاولاو البيضاء بغضب: «لا أحد يمكنه الصراخ بدلاً عن سرياس، وأينما يكن، يجب ألّا يخلط صوته مع أصوات الآخرين». فقلتُ بحماس: «يا بنيَّتي، يا لاولاوي، كما يوجد جزء من حياتنا في الحيوات الأخرَى، فإنّ أجزاء من حياة الآخرين تسري في حياتنا أيضاً؛ كما أنّ غبار موتنا قد استقرّ على جميع الأموات الآخرين إلى حدٍّ ما». وكمن يشعر أنّ كلّ تلك الأيام الحزينة قد أنهكته بقدر جميع سنوات الحبس، قلتُ: «يا لاولاو البيضاء، يا لاولاوي اللطيفة؛ لقد قضيت إحدى وعشرين سنة من

عمري في السجن، وهناك أدركتُ أنّ الإنسان لا ينفصلُ عن أيّ شيءٍ في هذا العالم. ومهما أبعدتَ الإنسانَ أو طردتَه أو قتلتَه، فإنّه سيبقى جزءاً كبيراً من العالم ولا ينفكُّ عنه... اتركيني، لقد فكّرت لإحدى وعشرين سنةً هكذا، والآن لا يمكنني أن أغيّر تفكيري. الآن هو يعيشُ عن طريقنا، وعلينا أن ندركَ أنّه يستمرّ في حياته عن طريقي وطريقك. مثلي أنا حيث عشت سنوات سجني عن طريقكما، لقد بقيت حيًّا عن طريق الرمل والصحراء والسماء والليل. كلا... لا تتصوّري أنّني شيخٌ مؤمنٌ بالخرافات وقد جئت بهذه اللحية البيضاء والشعَر الأشعث الشبيه بالمتصوّفة كي أسخرَ من قوانين العالم... دعيني أروي لكِ شيئاً غيرَ معقول عن الحياة؛ فأنا أتكلَّم من موقع لا تعلمان أي شيء عنه... هو حيٌّ عن طريقنا كلّنا، وأنا هنا كي أقضي جزءاً من الحياة التي لم يعشها. يا لاولاو البيضاء لا تحرميني من هذا الشعور إنني حيٌّ بدلاً عنه، ولا تجعليني أنظر إليه على نحوٍ يفعله كائن جميل مع طفل قد فصله القدر القاسي عنه».

في تلك الليلة حيث قلت هذا الكلام لم أعرف شيئاً بعد عن حياة سرياس الثاني؛ ولم أعرف عمَّا أتكلَّم. كنت فقط أتحدَّث عن أحلام تجوب خيالي مثل عدة أفكار نقية. قالت لي لاولاو البيضاء إنهما لا تعرفان شيئاً عن سرياس الثاني، ولم ترياه قطّ؛ ولا تعرفان ماذا يفعل الآن وأين يعيش.

كنت قد انتظرت سنوات طويلة، وبدا القليل من الانتظار صعباً عليّ.

15

مرَّت فترةٌ طويلةٌ إلى أن تحرّرتُ، ولم يسمع فيها أحدٌ شيئاً عن سرياس الصبَّاحي. آدم المرجان الذي رآه مرة مع عدّة عناصر مرهقين من البيشمركه، وقد وقف أمام بيت أحد القوَّاد الكبار وهو يحمل سلاحه الرشَّاش ضاحكاً. لا أعرف بالضبط كم بعد موت سرياس الأول قد رآه؛ ولكن يبدو من القرائن أنه يعود إلى فترة بداية المرحلة الثالثة من الحرب الأهلية[15]. في تلك الفترة من الطبيعي أن يتحوّل الحال أمام بيوت قوّاد الأحزاب العسكريين إلى ساحة حرب... وأن تصطفّ القوّات في الشوارع بدلاً عن المقرّات العسكرية أو المعسكرات المخصّصة للبيشمركه، أو أن يحتشدوا أمام بيوت السياسيين، وحول الفنادق والحانات. أو في أغلب الأوقات يجتمعون في أطراف بيوت الدعارة أو في أقرب مكان ليرتاح فيه قائدهم. لم يعرف آدم المرجان بالضبط ماذا فعل سرياس الثاني وإلى أين ذهب. تكلّم مثل الشيوعيين إذ قال: «لقد مسكت يده وقلت له ألّا يذهب إلى هذه الحرب فهذه ليست حربَك، فهي حربُ البرجوازيين، ومن أجل سرقة لقمة خبزنا. وعلى طبقة العمّال أن تتخذ إستراتيجية أخرى في ظل هذه الظروف». فقال له سرياس الثاني: «أنا أحبُّ أن أدخل في جميع الحروب والآن ما من حرب أخرى غير هذه الحرب. وإن كانت هناك حربٌ أخرى فأعلمني فسوف أذهب هناك أيضاً». فودّعه آدم المرجان وقد تحطّم فؤاده من هذه الإجابة، وقال له: «يا رفيق، أتمنى ألا تقتل». فأجابه

(15) وقعت الحروب الأهلية في ثلاث مراحل في أعوام 1993، ، 1994، ، 1997 بين الأحزاب الكردية في العراق وخاصة بين الاتحاد الوطني الكردستاني وحزب الديمقراطي الكردستاني وانتهت بمقتل العديد من الناس.

بضحكة مجلجلة: «أتمنّى أن أُقتَل... أتمنى أن أُقتل». كانت هذه إجابة سرياس الأخيرة التي سمعها أحد أولئك الرفاق.

ذات يوم وبعد إفشاء وجود سرياسين، أقعدتني الشقيقتان البيضاوان في حافلة خاصة وأخذتاني إلى المدينة. وحين وجدنا جينو المخملي وآدم المرجان لم تكن لديهما معرفة دقيقة بمكان سرياس. في إحدى الليالي جاءني إكرام الجبلي وهو منزعجٌ من كلّ شيء، وكان منزعجٌ أنني قد خرجت بهذه اللحية الطويلة والشعر الأشعث، ولكنّه كما في السابق سخيٌّ وممتلئٌ بالوقار. لم يعرف إكرام الجبلي شيئاً عن سرياس الثاني، فكانت القصة كلها غريبة له. سار في غرفتي بجسمه الضخم ووقاره وقال: «سأفعل أيَّ شيء حتّى أجده لك... سأبحث عنه في كلّ مكان، وسأحصل على فهرس أسماء المقارّ كي نصلَ إلى نتيجة». لقد شعر بغبطة كبيرة أنه يستطيع مساعدتي كي أؤمن أكثر بالحياة.

عاد في غروب آخر، وقال وهو يضع يده على كتفي: «إن سرياس الثاني ليس في هذه المدينة، فمنذ أكثر من ثمانية أشهر وقع أسيراً بيد العدو». كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها مفردة "العدو" على هذا النحو؛ والعدو هو اسمٌ كانت القواتُ العسكريةُ تطلقه بعضها على بعض. عندها أدركت كم اتسعت الحرب الأهلية وأصبحت مدمّرة. قال إكرام الجبلي: «سامحني يا مظفّر الصبّاحي، فهناك عدة أسرار لا يمكنني التحدّث عنها؛ لكنّني كما أعرف فإنّ ذلك الشابَّ لا يمكنه العودة إلى هذه الأنحاء؛ لأنّه قد تسبّب ببعض المشكلات هنا أيضاً».

لم يكن ذلك مهمّاً بالنسبة لي... فالأمر المهمّ هو أنّ لي ابناً قد وقع أسيراً في مكانٍ مجهولٍ من هذه البلاد وعلينا أن نجده.

لولا حزن فقدان سرياس الأول وبداية قصة سرياس الثاني، كان يمكن القول إنّ بيت الشقيقتين البيضاوين هو البيت الأكثر هدوءاً وجمالاً الذي قد رأيته طيلة حياتي؛ وفي الحقيقة لم أكن قد جرَّبت بيتاً بمثل هذا الهدوء قبل فترة أسري. لم أكن أعرف الكثير عن الحياة والعائلات الهادئة، وكان صمت بيت الشقيقتين البيضاوين وهدوءه وسلامه وصفاؤه نعيماً كنت أحلم به منذ فترة طويلة. كانت غرفتي بعيدة عن غرفتيهما، ولكنهما لم تعاملاني كشخص غريب قطّ.

لم أشعر قطّ بأنني عالة عليهما لتنزعجا من وجودي، وبعد شهر تحدّثت مع إكرام الجبلي حتّى أبنيَ كوخاً متواضعاً لنفسي، وأؤجر قطعة أرض من أحد الفلاحين هناك وأبدأ بعمل الزراعة؛ وكانت قد نشأت علاقة وطيدة بيني وبين الأرض عندما كنت في ذلك السجن. ومع أنكم في هذه السفينة المشؤومة تعدونني أول هائم بالبحر، ومع أن نظرة واحدة منّي للبحر تفضح حبّي له ولكن هذا لا يعني ألا أكون أكبر مغرم بالأرض، فأنا أعشق الأرض. في الليالي والأيام الغريبة التي كنت في قرية الشقيقتين البيضاوين، وأذهب عند الفلاحين باسم آخر، بدأت بصنع قصة أخرى لحياتي. كانت الشقيقتان البيضاوان والفلاحون وإكرام الجبلي قد قدّموا لي معروفاً كبيراً كي أبني ذلك الكوخ. ذات يوم أعطاني إكرام الجبلي مغلفاً أسود فيه مبلغ من المال وقال: «لدي هذا المبلغ، يا صديقي العزيز، فمنذ سنوات وأنا أدّخر أموالي، وكلها هنا، فإنني لا أملك شيئاً غير هذا المكان المتواضع

ومغلف النقود هذا. فخذ بقدر ما تلزمك وقم بتأجير أي قطعة أرض تريدها». قال هذا واستقرّت ابتسامة عريضة على وجهه وكأنه قد شعر بالخجل من ضخامته، أو أنه يشعر بالخجل لأنّ ابتسامته وضحكاته لا يمكنها أن تكون أكثر طرافة ولطافة. فانحنيت بكل شيخوختي وعجزي ولثمت يده وقلت له: «يا إكرامي، يا أكبر عصفورة في العالم... سوف أبدأ من البداية؛ وسأبدأ من قطعة أرض صغيرة وعدة رؤوس من الحيوانات الصغيرة، وسوف أُسلِّي نفسي بحياة أخرى. كما أنني قانعٌ برزق قليل جداً، رزقٍ قليل بحيث يمكن البَدء به». حين قلتُ هذا كنّا نقف في وسط حقل موفور البركة، على أرض تعود لفلاح قد ترك كلّ شيء من أجل الذهاب إلى الخارج. كانت أرضاً خصبة وقد عرضها أقاربه للإيجار كي لا تسلب. ننظر أنا وإكرام باستحياء بعضنا إلى بعض بالقرب من جدول الماء وخريره. كنّا نشمُّ أريج القرية، رائحة امتزاج النقاء والقذارة، إذ كانت رائحة النباتات والحشائش وبراز البقر تصل أنوفنا بصورة متساوية. شكّ إكرام الجبلي بكل شيء ولم يصدق أن يعقوب الصنوبر لن يجدني؛ ولكن مع كل خوفنا لدينا أمنية واحدة في تلك الأيام وهي أن نجد سرياس الثاني.

بعد موت محمّد زجاجي القلب كان سليمان الكبير، وهو من الأصدقاء المقرّبين لإكرام الجبلي، قد أوصى أن يتكفّل بتلبية جميع مطالب الشقيقتين البيضاوين؛ وفي الحقيقة وبعد تركهما المدينة لم يعد للشقيقتين البيضاوين الكثير من المشاغل. لقد انتقلتا إلى القرية برضاهما، في حين أن بعضهم يتصوّر أن الشقيقتين البيضاوين قد هربتا من تلك القصة الغريبة التي تتبعهما كالطاعون في المدينة، إلا أن

الفتاتين تتابعان حياتهما دون أن تشعرا بالخوف من أيّ شيء وتؤديان طقوسهما اليومية الغريبة؛ وتديران تلك المدرسة الصغيرة معاً. شعرتُ أنه لم يكن هناك شيء يمكنه أن يخلَّ بهدوئهما وسلامهما سوى موت ذينك الشابّين. في تلك الليالي الغريبة شعرتُ بالسعادة لسماع صوتيهما، إذ كانتا مغنيتين بحقّ ولم تريدا أن تشتهرا لأسباب عدّة. ولليالٍ طويلة استمعتُ إليهما في الخفاء، حيث أخرج بهدوء من كوخي وأتمدّد وراء عدة أشجار بين شقّ صخرتين وأستمع إلى صوتيهما، ولم أدعهما قطُّ أن تعرفا أني استمعتُ لصوتيهما. الشيء الأكثر غرابة أنهما فكّتا شعرهما في بعض الليالي، وجلستا معاً وسرحتا شعر بعضهما بعضاً، وغنّتا وأطلقتا شعرهما في ماء النهر الكبير حتى يطفوا عليه بسهولة. وفي بعض الأحيان تأتيان عندي بشعر مبلّل وتجلسان بجواري، وفي أحيان أخرى وكأنهما تعطيان دروساً لطفل ما ترويان القصص لي في غرفة الدراسة، وهكذا عرفت أغلب قصص الإحدى والعشرين سنة من خلالهما. لم تكونا تفقهان شيئاً في الحرب والسياسة وأمور أخرى من هذا القبيل، ولكني لم أرَ شخصاً يتحدّث عن الليل والقمر وقصص الحب وموت الشبّان وصمت ليالي المدينة الطويلة مثلهما. ولاحقاً حين ذهبت إلى المدينة صرت أنظر دائماً إلى الأحداث بعينيهما. لقد خصصتا منذ فترة طويلة حياتيهما لعمل غريب؛ عمل مستبعد منهما وفي الوقت نفسه جديراً بهما، إذ تخيطان ثيابَ الزفاف بماكينة خياطة سنجر قديمة. بدا أمرًا غريبًا لي ألّا تخيط الشقيقتان سوى ثياب الزفاف البيضاء؛ وقد فصلتا غرفة من المدرسة ووضعتا فيها قماش ثياب الزفاف الخاص. وبعد خياطة أي ثوب تضعانه بعناية وظرافة في علبة خاصة، وفي نهاية كل شهر حيث

تذهبان إلى المدينة لاستلام الراتب تمرّان على قبر محمّد زجاجي القلب أيضاً، وتسلّمان الثياب لعدة أصحاب محلات خاصّين. أستغرب من أن الفتاتين اللتين قرّرتا ألّا تتزوّجا أبداً أوقفتا أنفسهما لخياطة ثياب الزفاف لفتيات أخريات. إلّا أنّ شادريا البيضاء تقول: «أي شخص يصنع سعادته وتعاسته على هواه». ما جعلهما مغرمتين بتلك الثياب هو لونها الأبيض، إذ ترتديان الثياب كلها بعد الخياطة مرة واحدة قبل وضعها في العلب؛ وكثيراً ما رأيتهما في ظلام الصباح الباكر تعودان بثياب الزفاف تلك من السهل.

كان إكرام الجبلي يأتيني مرة كل أسبوع، ولم أتعرّف إلى عالمه بشكل كامل، ولم أعرف بعد كيف يقضي حياته وأين. كان يقول: «أنا لستُ درويشاً»... أجل، لم يكن درويشاً، إذ يحبُّ تجميل البيوت بشكل غريب جدّاً. وحين بنينا ذلك الكوخ المتواضع، قام بوضع كل شيء بنفسه في مكانه، إذ لم أستطع فعل شيء في ذلك الوقت، لأن نظرتي إلى الحياة لا تزال مثل نظرتي في السجن الصحراوي القديم. وفي الليالي حيث أخرج كنت أرى أفق الصحراء بدلاً عن ظلّ الجبال الطويل.

عرفتْ الشقيقتان البيضاوان أنني سأبقى دائماً كائناً حزيناً ونادباً، وعرفتا أنّني أتوه ليلاً بين الجبال ولا أفكّر إلا في سرياس الصبّاحي؛ وحين أجلس في زاوية منطوية من تلك الغرفة لا شيء في ذهني غيره. جرى الذهاب إلى قبر سرياس الأول في احترام وصمت وإغراء غريب، إذ أشعلت الشقيقتان البيضاوان دائماً الشموع والبخور والأجمات الكثيفة عند قبره، بحيث تفوح الفلاة برائحة البخور حتى وقت طويل.

وكل يوم جمعة نرتدي ملابس جديدة ونذهب عند قبره؛ نسير مشاة في سهل شاسع؛ وفي طريق المقبرة تريد الشقيقتان، عن طريق رواية أحداث تلك الأيام ومصائبها، أن تسحباني إلى زمن فقد الموت فيه حرمته الخاصة. كنت متأكداً أنّ لديهما مشاعرَ عميقةً تجاه أيّ شيء، وفي بعض الأوقات شعرتُ أنهما تنظران نحوي كأحد أطفال تلك القرية. لم تكن محبّتهما تجاهي كمحبّة الفتيات تجاه آبائهنّ، بل تشبه حنانَ أمّ تجاه طفلها، إذ تعاملهما الكثير مع الأطفال قد وهبهما تصرُّفاً أموميًا، وتتصرفان بأبوية معي وبحنان كبير. الأمر الغريب لي أنّ محبّة الأطفال تجاههما عميقةٌ جدّاً، إذ أوقفتا حياتهما لهؤلاء الأطفال برضا تام. حين عدت كانتا مع عشرات المعلمين عذبي الكلام والمهتمين بالأطفال، تحاربان من أجل أطفال تلك القرى المنسيّين. أتحسّر أنّهما قد أوقفتا نفسيهما من أجل الأماني البعيدة، حيث فرغت حياتي مقارنة مع حياتهما. أخشى أن أشيخ في فترة لا توجد فيها أي حروب ونزاعات لأواجهها. إذ أن ليالي الانتظار الفارغة والمرعبة في تلك القرى جعلت معنى حياتي وهويّتي يواجهان خطراً كبيراً؛ وطالما أنّ الإنسان سجين فحياته تبدو ذات معنى عميق له، فما من شيء يعطي معنى للحياة كالعبودية والأسر. لأنّ في مثل هذه الظروف يدخل الإنسان في حرب كبيرة من أجل حريته. بيد أن لا شيء يهدّد معنى الحياة كالحرية، ففي الحرية يفقد الإنسان هيامه ورغبته من أجل المعنى؛ وكأنه يجب أن يكون الإنسان الحر خالياً من المعنى. إن عظمة الإنسان ليست في أن يبحثَ عن المعنى في العبودية، بل أن يتقَفّى أثرَها في الحرّيّة. في ذلك الوقت حيث خطرت على ذهني كلُّ تلك الأمنيّات والأسئلة والمعاني، شعرت أنّني أعيش تدريجيّاً في

نوع من الحياة الفارغة من المعنى. وفي تلك الغرفة شعرتُ بالنسيان والشيخوخة على نحوٍ مرعب.

بدا أنّ إكرام الجبلي بالكاد يستطيع أن يحصل على معلومات عن سرياس الصبّاحي؛ ولولاه لما عرفتُ أين أذهب. في بعض الليالي صرختُ كالمجانين وصحتُ قائلاً: «يا ربّ، قل لي إلى أين أتّجه؟ فمتاهتي وفقداني للبصيرة لا يدلان على عدم انضباط هذا العالم... لقد أعماني هذا العالم... لقد تهت في الأرض والزمان هذين... ومن سجن الصحراء دخلتُ سجن ظلماتٍ أخرى».

كلّ ليلة أصرخُ على نفسي والعالم والسماء... كنت حائراً في ذلك التثليث، ولم أعرف أيّا منهم أصدق. إذ كنت عاجزاً بحيث لا يمكنني أن أكسر الطلاسم، كما أنّ العالم قاسٍ بحيث لم يساعدني؛ في حين أنّ الرب كان أكثر صمتاً ممّا توقّعته. أراد إكرام الجبلي أن يقدّم لي صورة صحيحة عن العالم الذي أعيش فيه؛ وفي أغلب الليالي حيث سرنا في تلك الحقول شرح لي عن عالم لم أرد أن أفهمه. كان إكرام بكتفيه العريضتين، اللتين يحنيهما بصعوبة في بعض الأحيان كي أسمع كلامه بوضوح يقول: «يا مظفّر الصبّاحي، تخيّل في ذهنك مدينة حافلة بآلاف الأزقّة الضيّقة وآلاف الأبواب الموصدة، وألف قلعة يطوف حولها الناس كالمجانين ولا يجدون بواباتها؛ مدينة تختلف خريطتها عن الصورة التي اعتدنا أنا وأنت عليها. مدينة يكون جزءٌ منها في الأرض وجزءٌ آخر في السماء، أزقّة في الأرض وأزقّة في الغيوم؛ مدينة تكون كل أشيائها أحجية. تغيّر أزقّتها أماكنها باستمرار، وتغيّر بوّاباتها أماكنها، والنوافذ غير مستقرّة في أماكنها... تصوّر في مدينة مثل هذه

حيث فيها ملايين الغرف، وكل غرفة منها حافلة بملايين الأشياء، نقوم بالبحث عن شيء صغير بين ملايين الأشياء تلك... إنّ الصراخَ لا يحلّ أيّ مشكلة. كلا، أنا لا أقول إنّ هذه المدينة هادئة ولكن هذا هو مكان آخر؛ مكان لم يدركه البشر بشكل كامل بعد. فنحن نعيش في زمنٍ آخر حيث لم يرَ الناس الحقيقة بعد، وكأنّهم يبحثون في مدينة جديدة بخريطة قديمة... إذ يجب على عدة أشخاص أن يزودوك بالأسماء والعناوين دائماً، ولكنّك لن تفهم الآن شيئاً، لأنّ من يزودوك بالعناوين يفكّرون في ذهنهم بخريطة أخرى. يا مظفّر الصبّاحي، إنّ المكانَ الذي سجن فيه سرياس الثاني بوصفه أسيرًا هو مكان مجهول، فإنّه أرض حافلة بالسجون الخفية... وحافلة بالقوى السرية والأحقاد الخفية... فالحقد يدير هذه البلاد، وما من شيء يخفي نفسه كالحقد. في هذه المدينة يحقد الإنسان على الإنسان، ولا أحد يحبّ الآخرِ هنا». فقلت: «يا إكرام الجبلي، منذ ليلة حرّيتي، منذ ذلك الوقت الذي أُطلق فيه سراحي لم أر غير الشرفاء». فحدجني بنظرة خائفة جدّاً؛ تلمع عيناه متسعتان ويبدو الخوف فيهما جليّاً؛ انتابه الخوف من كلامي فبدأ يرعد ويمسح عرقه. ولكنّه عند تحدثه في أكثر الفصول برودة كان عليه أن يخرج منديله ويمسح عرقه. فقال بلحنٍ وكأنّه يريد أن يخبرني برعبه الشديد: «لا يا مظفّر الصبّاحي... لا. علَى كلّ حال أينما كثرت الأسرار في مكان، فإنّ الحقد يزداد فيه أيضاً». لم أرد تصديق كلام إكرام الجبلي، والآن أيضاً لا أريد تصديقه. قصدي من التصديق، ليس العمل السخيف للإنسان؛ فأنا أعرف كيف يؤذي الإنسانُ أخاه، وأعرف أيّ شقاء وعذاب يفرضهما الإنسانُ على أقرانه... وأعرف إذ تجلسون أمامي وأروي لكم هذه القصّة ليلة تلو الأخرى وبهدوء، أنكم قد هربتم من الإنسان. لقد صعدنا جميعاً

على متن هذه السفينة وضعنا، وكأنّه علينا أن ندور في هذا البحر الشاسع حتّى مماتنا؛ وكأنّنا قد هربنا من شخص يبدو مثلنا. هو هكذا، وربما في بعض الأحيان يكون أكثر عجزاً مني ومنك وأكثر جرحاً. ولكن مع كل هذه الجروح التي يسببها الإنسان لأخيه، أين نذهب إن لم نثق بالإنسان؟ وبأيّ كائن يجب أن نثق حتى لو استنجدنا بالطبيعة؟ من دون شكٍّ عن طريق الإنسان فقط. وإن اتجهنا إلى الربّ وطلبنا المساعدة منه فكيف سيساعدنا؟ عن طريق الإنسان مجدداً... فغير يد الإنسان أيّ يد يملكها الرب كي يعمّر هذه الحياة؟ لا شيء، فلا يد أخرى لديه. ومن لدى الطبيعة غيرنا كي تقول ابنوا لي مدينة، واعزفوا لي الموسيقى، واقرؤوا بواطن أسراري واشرحوا لي كيمياء الماء والأزهار والنجوم؟ من هناك ليفعل كل هذا؟ لا أحد غير الإنسان.

عاش إكرام الجبلي خلال الثورة وبعدها؛ وقد رأى الكثير من العنف والقسوة في حقّه بحيث لم يعد يؤمن بأيّ شيء. وفي الليلة التالية حيث شرحت له عن اعتقادي بالإنسان، وحين قلت له إنّه ما من قوة أخرى لنتّجه إليها سوى الإنسان، أجابني بصوته الرتيب والهادئ والعميق ذاك: «إني لا أشكّ في عظمة الإنسان فهو موجود كبير ويجب توقّع أن يقدّم عملاً أكبر منه. يا مظفّر الصبّاحي، دعني أفهمك بشكل أكثر وضوحاً... بشكل أفضل». كنا نبتلع حرارة المزارع ونشمّ أريج التراب السحري، وتأخذنا موسيقى الماء الليلية وتدخلنا في حالة وجد. رفع إكرام صوته قليلاً وقال: «بعد فشل الثورة وبدء الحرب فكّرت في هذا الموضوع كثيراً، وقرأت الكثير من الكتب عنه. في كثير من الأحيان أنسى نفسي ووضعي وأذهب مثل فيل ضخم إلى الفلاة، وأضرب الأرض بأقدامي

بقوتي كلها وأنظر إلى السماء وأسأل: "لماذا يفعل الإنسان هكذا، وما الذي حلّ على هؤلاء الناس... ماذا؟" وحين بدأت المرحلة الأولى من الحرب... تحطّمت... وأدركت أنّ ثمة حيواناً جائعاً في دماء هذا الشعب. ففي هذه الحرب لم يقف شعبان، مذهبان، سياستان بعضهما أمام بعض، بل إنّ إنسانَين عريانين فقط كانا يقفان بعضهما أمام بعض... وكان إنسانان بعضهما يفترس بعض مثل حيوانين دون أن يكون هناك أيّ دافع له علاقة بالحكمة الإنسانية. يا مظفّر الصبّاحي، إنّ الإنسانية تطفأ وتضاء كالمصباحِ، كمصباح في ذواتنا؛ ومن الممكن أن يطفأ للأبد ولا يضاء مجدداً. ولكن ما يجب أن يضاء دائماً هو المصباح الذي يُنير إنسانيتنا، وهذا أمر صعب جدّاً ولم أر مثله قطّ». وبين ضوء القمر وسكون الليل حيث نظرتُ إليه، وجدت الإنسانية مجتمعة كلّها فيه حيث تحدّث عن موتها؛ ورأيت فيه ظلَّ شخصٍ تحدّث عن عدمه...

كان سرياس الثاني سجيناً في مكانٍ بعيد، مكان يبدو كحصن قديم، ويشبه السجون القديمة. قلعة كبيرة بنتها الحكومة قبل عدة سنوات مثل حصن رصين لجنودها، قلعة تبثُّ الرعب في القلوب من بعيد؛ صرح ضائع في الجبال والغابات، وقد أحاطتها حلقة من أسوار عظيمة. ما من أحدٍ باستطاعته أن يرى الخارج إلّا عند صعوده أعلى أبراجها المدوّرة؛ إذ إنّ الأسوار مرتفعة. وثمّة شيءٌ غيرُ مرئيٍّ يُضفي عليها هيئة كائن خرافي، كائن من الحجارة والفولاذ أو أيّ مادة معدنية أخرى. حين اقتربنا أنا وإكرام من ذلك المقرّ غروباً ونظرنا إليه من بعيد أردتُ أن أعرف في أيّ موقع منه يقع سجن سرياس. كان إكرام يعرف قصة تلك القلعة، وهي صرحٌ صُمّم بأدوات حديثة وخريطة خيالية

لإمبراطوريات قديمة. وهو بناء بأحجار حديثة وتصميم قديم؛ وكانت فكرة مهندس أراد أن يربط أبهة الحكومة الجديدة بصلابة الخلفاء القدماء. قلعة عظيمة سقطت فارغة بيد الشعب في أثناء الثورات، وأغلب ضباطها وجنودها إما انتحروا خوفاً من رهبة الموت، أو من الجوع والعطش طويلي الأمد أو أسروا بيد الناس.

بعد ذلك حوّلت العائلات المشردة ذلك المكان إلى مقر سكنها لحياتهم التعسة فترة طويلة؛ ومع بدء الحروب الأهلية مدّت القوّات المتحاربة الأسلاك الشائكة حولها وحصّنتها بمزيد من القوّات العسكرية وبدأت تستخدمها على أنها سجن. وبعد بَدء الحرب تستطيع الطيور وحدها الاقتراب من الحصن. في ذلك اليوم رأيت الحصن من بعيد فتملّكني وَهمٌ عميق، فيختلف هذا السجن كليّاً عن تصوّراتي عن السجون وتجاربي فيها. وتلحّ عليّ الأوهام المرعبة أن أقارن سجني بهذا الآخر. ليس على أسوأ السجون أن يكون سجّانوها وحوشاً، بل إنّه السجن الذي لا يمكنك رؤية الأرض والسماء فيه. إن السجن ليس مكاناً للتعذيب، بل إنّه فرصة طويلة للتأمّل والتوهّم؛ وللتأمّل في العَلاقة بين الإنسان والجدار، وبين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والعالم. وإن كنت لا ترى شيئاً من هذا العالم الشاسع بشكل مستمر، ولا ترى جزءاً من هذا العالم الشاسع والكبير، ولا يطربُك أيُّ شيء، ولا تلمس شيئاً منه فكيف ستفكر وتتخيّل؟ فالجحيم مكان لا يضيف أي شيء على تخيُّلاتك، أي أن لا شيء يجعلك أن تفكر في الأمور العظيمة، ولا يجعلك تخرج من حلقتك الصغيرة عن طريق مشاهدة اتساع العالم وتبدأ بالنظر حولك لتفكّر في علاقاتك مع العالم على

طريقتك. فالسجن الحقيقي لا يفصل الإنسان عن الآخرين فقط، بل إنه يفصله عن جميع مظاهر حياته ووجوده وأسرار معانيه العميقة. والإنسان السجين يهيّج رغباته وأمنياته في الحياة عن طريق ثقوب صغيرة؛ ولكن حين تغلق جميع ثقوب الجدار ويظلّم حولك فعندها لستَ في سجن بل وقعت في الجحيم.

عاش سرياس في ذلك الحصن المظلم... سرنا مسافة طويلة فوجدناه. ذات ليلة خرجنا أنا وإكرام الجبلي من تلك القرية بسيّارته الجيپ وبدأنا رحلتنا القصيرة من أجل البحث عن سرياس الثاني. كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها ذلك الرجل؛ الذي بدا مثل قرد صغير تلاطمت أمواج حياته بشكل كبير. هو مأمور أمن بات مديناً لإكرام الجبلي مرتين، المرّة الأولى إذ أنقذ حياته في أثناء معارك الثورة الدامية، والمرة الأخرى إذ هربت زوجته مع شابّ، ولما شعرت بالندم صالحَ إكرام بينهما وأعاد المرأة إلى بيتها. جاء معنا ودلّنا على القلعة من بعيد؛ تحدث طيلة الطريق وقال: «يا كاك[16] إكرام، يا عيني، لقد أصبحت مديناً لك مرتين: مرة في أثناء الثورة حين أنقذتني من الموت، وفي المرة الأخرى عندما أصبحت وسيطاً بيني وبين الوساوس الشيطانية. لذلك أنا مدين لك للأبد... يمكنني أن أقول "لا" للآلهة ولكن لا يمكنني أن أقولها لك... لأنّك عندي أعزّ من الملائكة... لقد ساعدتني كثيراً، وهذا ليس بالعمل الهيّن أن ينقذ أحدٌ شخصاً مرتين... ولكن ما تطلبه مني صعب جداً ولا يمكنني فعله، ولا يمكن أن يفعله أي شخص آخر أيضاً. أنت لم تعمل

(16) أخي.

في جهاز الأمن؛ فالزعيم هو من يريد كل شيء، وحزبه حاضر في كل مكان. وأنا مجرّد موظّف صغير... وصديقي أيضاً له إمكانية محدودة، وهي إمكانيات صغيرة لا يمكن أن يتعداها. فذلك السجن حافل بالغموض والأسرار بحيث وحده الحزب يجب أن يعرفها. صحيح أنّني أعرف ذلك الرجل، فهو صديقي ومستعدّ أن يذبح ابنه من أجلي، ولكن لديه مشكلاته الخاصة أيضاً؛ ذلك السجن بحر من الغموض، ولا يمكن لأيّ شخص مثلي أو مثلك أن يدخله بلا تصريح، فالدخول إليه ممنوع، ولا تتصوّرا أنه يمكنكما الدخول إليه. يمكنه إيصال أشرطتكما إلى سرياس فقط وإيصال أشرطته لكما أيضاً. فابنك محبوس في السجن الانفرادي، وحده في زنزانة صغيرة. ومهما أردت سجّل من أجله، وليسجّل هو أيضاً أي شيء يريد. ماذا تريد أكثر من ذلك...؟ اطمئن فإنني قد وعدته بأجود أنواع العسل؛ وإن لم يصل إليه العسل، وهو من الدرجة الأولى، فإنه سيموت... صحيح إنه صديقي، بل إننا صديقان مقرّبان جداً، ولو قلت له مت فإنه سيموت؛ ولكن إن لم يكن هناك العسل الذي يجب أن أجلبه بنقودي وبثمن باهظ، فإنّه لن يسمح بإدخال الشريط المسجّل إلى هناك. اطرد فكرة إمكانية اللقاء بابنك من رأسك مِن الآن... فهذا غير ممكن».

كان اسمه طيفور باشا، ويعتمر قبعة مثل قبعة أتاتورك، وكانت أصابعه ممتلئة بالخواتم الذهبية. في بداية الثورة كان مدير سجن خاص بأحد الأحزاب، ثم انضمّ لجهاز المخابرات، ولكن بسبب هروب زوجته المستمر وعودتها تم طرده من جهاز الأمن لسمعته السيئة. وعند تحدثه دائماً ما أعاد قصة شكواه ضدَّ زوجته. لم أكن أرغب في سماع القصّة، فمنذ خروجي من السجن شعرتُ أنّ قوة تواصلي وسمعي

تضعفان شيئاً فشيئاً. كرّر بشكل مستمرّ أنّنا لا نستطيع رؤية سرياس وهذا ما أزعجني كثيراً. وبعد إلحاح إكرام الشديد وافق على أن يعرفنا بالحارس الذي يعد الرابط بيننا وبين سرياس. وهو الآخر أيضاً شابٌّ وله قصةٌ غريبةٌ واسمُه إدريس العسل، إذ قضى أغلب عمره بين قفائر العسل، ومنذ شبابه امتلك مهارة خرافية في البحث عن قفائر العسل البرية. لقد انطلق في الجبال بشغف خاصّ بحثاً عن أنغام خفق أجنحة النحل، ويحلّق ويمتزج معها. انطلق خلفها من مرتع إلى آخر، وتسلق الجبال واحد تلو الآخر وله قدرة خارقة جداً للعثور على العسل؛ كما لديه ذوق غير اعتيادي في العثور على أجود أنواع العسل. إلا أنّه ذات يوم فقد قدرته كلّها، ولم يعد قادراً على العثور على قفير ما، ولم يعد قادراً على الطيران مع النحل ويلمسها. الشيء الوحيد الّذي بقي فيه هو حبه السحري وغير الاعتيادي للعسل. والآن يعدّون مهارته السابقة في العثور على القفائر إثباتاً لمهارته في العثور على المذنبين والمتهمين، ولهذا قاموا بتوظيفه في جهاز الأمن، وفي النهاية أصبح حارساً في ذلك الحصن المرعب.

ذات ليلة مظلمة رأيناه في محطة الحافلات، إذ كان قد اختار المكان بنفسه قائلا: «لا أحد يشك في هذا المكان». كان شاباً يريد التخلي عن وظيفة السجّان ويخرج من بلاده. لم أرَ وجهه بوضوح في الظلام؛ وكان يُسمع في صوته شيء يشبه صوت خفق أجنحة النحل. وعند تحدّثه كان يبدو وكأن سرباً من النحل يحلّق في السماء. قال: «سأذهب إلى خارج البلاد، فلا يمكنني أن أفعل أي شيء، ولو ألقوا القبض عليّ سيسوء كل شيء. ولكنني كما قلت سأنفّذ وعدي.

سأوصل جهاز التسجيل إلى خزانته ليستمع إلى كلامك، ويسجّل أي شيء يريده على الشريط ذاته. لا تتصوّروا أن إدريس العسل شخص سيء... لأني لم أفعل مثل هذا الأمر لأي شخص سابقاً، ولكن مع هذا اعلموا أنني سآخذ أجرة عملي».

أردتُ رؤية سرياس، واحتضانه. فقال إدريس العسل: «اسمح لي أن أقبّل يدك يا سيدي. أتفهم كلامي أم لا؟ فهذا أمر غير ممكن. أعرف سرياس الصبّاحي، فأنا من يوصل له الطعام بنفسي... ولكن ما تطلبه منّي يفوق إمكاناتي؛ فحتى تصل إلى زنزانته سيقومون بتفتيشك أربع مرات، ولو عرفوا أن شخصاً قد فعل مثل هذا الأمر فإنهم سيرمونه بالرصاص في المكان ذاته. لقد قرّرت أن أخرجِ من البلاد خلال ستة أشهر، أتريدهم أن يعدموني؟ لقد وضعت حلاً أمامك وحسب، وأخبرتك بأجرة هذا العمل، وهذا الأمر يعود إليك. ولو لم أكن أنوي الذهاب خارج البلاد فإنّ الأولياء أيضاً لما كانوا يستطيعون جعلي أنقل إبرة إلى هناك...فاتخذ القرار بنفسك... لقد قلت كلامي النهائي. ولكن قبل كل شيء أريد بعضاً من العسل... فإنني لن أفعل أي شيء من دونه. أفهمت أم لا؟»

إدريس العسل أملنا الوحيد، إلا أنّ إكرام الجبلي بدا مرتبكاً وحزيناً بعض الشيء، إذ شعر أنه لا يمكنه مساعدتي بما يكفي؛ فرفع السعر باستمرار، وفي المقابل يصدر إدريس العسل صوتاً يشبه طنين النحل الغاضب أكثر فأكثر. فسرياس يعد أسيراً خاصاً وقد وضعوا ثمناً عالياً عليه، فهو من الأسرى الذين كانوا يحتفظون بهم من أجل وقت حساس. تحدّث إدريس العسل بين بقايا زيت الحافلات

والدخان المتصاعد من العوادم، وصراخ السائقين الذين ينتظرون آخر مسافري الليل، يضفي وجهاً مؤسفاً على تلك الساحة؛ وخدشت عدة مصابيح جمال الليل بلونها الأصفر الباهت والكئيب. قال إدريس: «ابنك من ضمن الأسرى الذين سيبقون لمدة طويلة... سنة واحدة، عشر سنوات، خمس عشرة سنة، لا أدري. وقد يحدث الليلة أمرٌ ويطلقون سراحهم؛ وقد يحدث أمر آخر ويطلقون عليه الرصاص مع أسرى آخرين. يا سيدي... فهذه بلادي وبلادك، ومثل هذه الأحداث تحدث سريعاً جداً. فجأة يصدرون أمراً ما فيطلق سراح بعضهم، وفي أحيان أخرى يصدرون أمراً فجائياً أن يحفروا عدة قبور جميلة خارج الحصن ثم يرمونهم بالرصاص، لذلك لا أضمن شيئاً لك... وحين يصمت صوته غداً فهذا ليس ذنبي فأنا مجرد حارس، ولا أريد شيئاً غير الخير لهم. ولو وهبتني أموال الدنيا كلها، وبدلاً عن عشرة آلاف أعطيتني مليون، فإنه لن يحدث ما تريده. ولو كان الأمر باستطاعتي، فعلى عيني، سأفعله لكم مجّاناً، فالأمر لا يتعلق بالمال».

حين عدت في تلك الليلة كان إكرام الجبلي قد لزم الصمت؛ ولمّا شعر بالهزيمة التزم الصمت لفترة طويلة. عرفت أنه يفكّر في أمر بشكل عميق؛ وحين يفكّر تبقى ثابتة نظراته وحركات وجهه على نقطة محدّدة، ويغطي جسمه العرق ويدخل في صمت عميق. طيلة الطريق أواسيه بكل ذلك اليأس الذي اعتراني، إلا أنه بقي ينظر إليّ صامتاً.

صمته يشبه صمت مصارع قد هُزم، قال وهم يقود سيارته الجيب: «اصمت، يا مظفّر الصبّاحي، أريدك أن تصمت». في الليلة الثانية سجّلت أول شريط لي، وكان عليّ أن أكون حذراً حول أي

جملة وعبارة أتفوّه بهما، إذ لا أعرف أيّ شيء عن سرياس الثاني. الآن أذكر أغلب الجمل التي سجّلتها في الشريط الأول... كانت عبارات مثل: «أنا مظفّر الصبّاحي، رجل قد جاء من الصحراء، ومن الممكن أن أكون والدك وقد لا أكون كذلك أيضاً. لا يهمُّ كيف تراني ولكنّي أعدُّك مثل ابني. أُسِرتُ وأنا في الثانية والعشرين من عمري، فاضطررت إلى تركك. والآن وبعد إحدى وعشرين سنة خرجت من بحر الرمال وأبحث عنك... وقد بحثنا عنك في العالم كلّه... في جميع أنحاء العالم، ولكنّك تبدو كوهم ولا أحد يعرف هل أنت موجود أم لا... أتريد رؤيتي أم لا؟ أجل، يا سرياسي... يا سرياس الصبّاحي، فقد نجوت من الموت بعد كلّ تلك السنوات ووجدتك في هذا الحصن المظلم الذي لا يمكن لأحد أن يدخله».

وهكذا رويت قصّتي ذات يوم على شريط جديد، جلبه لي إكرام لهذا الغرض، ليصل إلى سرياس الثاني. ومنذ ذلك اليوم تغيّرت حياتي؛ ومنذ ذلك اليوم تكلّمنا أنا وسرياس عن الحياة والعالم عن طريق هذه الأشرطة. الأب والابن اللذان لم يريا بعضهما بعضاً قطّ، تحدثا بعضهما إلى بعض عن طريق الأشرطة للأبد. سأصمت ليلة الغد وسنستمع إلى أجزاء من حديث سرياس، فأنا قد جلبت جميع هذه الأشرطة ونقلتها من مدينة إلى أخرى، ومن بحر إلى آخر... هذا يعني أنّ صوتي ليس سوى متمم لصوت هذه الأشرطة؛ فحين تتحدّث هذه الأشرطة عليّ أن أصمت... ألتزم الصمت. والآن قد تأخّر الوقت، فلننظر إلى البحر مجدّداً... لننهض جميعاً وننظر إلى البحر، ونترنّم بأغاني أولئك الذين لم ترحمهم الأرض ولا البحر.

16

الشريطُ الأوّلُ

اسمي سرياس الصباحي، ولا أعرف لمن سيصل هذا الشريط ومن سيستمع إليه. إنّه أنا؛ أجل، فأنا سرياس الصبّاحي في حين أنّك تناديني باسم سرياس الثاني. أتخشى أنه قد لا يعجبني؟... كلا، لا تخش... فأنا لا يهمّني أن أكون سرياس الثاني أو من تكون أنت أصلاً؛ فأنت لا تعرف المارشال مثلي، أو بروفيسور ليالينا المظلمة. فهو سرياس الأول، وأنا لا أرى نفسي أستحقّ أن أكون سرياس الأول... والآن إذ أتذكّر تلك الأوقات أرغب في البكاء. في أغلب الأوقات ناديته باسم سرياس الكبير وهنا، حيث أسجن في هذه القلعة، أقضي أغلب وقتي في تذكّر تلك الذكريات، أنا وسرياس الصبّاحي ومحمّد زجاجي القلب ونديم الأمير، والأخير يعرف كلَّ شيء. اسمعني، إن كنت من طائفتي وقريبي، فعليك أن تجد نديم الأمير حتى يرويَ لك كلَّ شيء... كلّ شيء، من أين تريدني أن أبدأ. فأنا مثل أغلب أطفال العالم الآخرين لا أذكر فترة طفولتي؛ ولو تذكّرتُ كلّ شيء منذ البداية لاستطعت الآن أن أعرف أجوبة الكثير من الأسئلة... وأشعر أنّني أنسى الكثير من الأمور في هذه العتمة. يقول الكثير من الأشخاص الذين كانوا هنا قبلي إنهم لم يعودوا قادرين على رؤية الضياء، وإن دخل النور عيوننا فإنّنا سنصاب بالعمى. لا أدري إن كان الأمر هكذا أم لا؛ ولكنّني أعرف كم يضرُّ البقاء في الظلام الإنسانَ. منذ عدة أشهر أصبحت ضعيفاً، وإن لم يحلّ السلام بعد عدة أشهر فإنّهم سيقتلوننا؛

أنا لا أخشى الموتَ ولكنّني أخشى نسيان كلّ شيء قبل موتي. ولكن كلا، يا مظفّر الصبّاحي... أرجوك لا تنزعج مني، كيف استطعت أن أناديَك هكذا؟ ففي صوتك ثمّة شيء يذكّرني سرياس الصبّاحي ومحمّد زجاجي القلب؛ فإنّك تذكّرني بهما. أنا سعيد أنّك ذهبت عند قبر سرياس الكبير؛ فموتهما جعلني تائهاً وحائراً. إنّ موتهما خيانة لي. اسمعني، فنديم الأمير يعرف كلّ شيء...

وا حسرتاه أنّنا لن نلتقي أبداً.

إني أرغب في التحدّث عنهما، وأشعر بالخجل من نفسي فقد تغيّر كلّ شيء بعدما تركاني. هناك أيام لن أنساها أبداً، لقد بكيت في اليوم الذي مات فيه محمّد زجاجي القلب وقلت إنّ كلَّ شيء عبث ولا معنى له، فالحياة كلُّها تفاهة. وضع المارشال يده على كتفي وقام بمواساتي، وكان حزيناً جداً ولكنّه لم يذرف الدموع. حين وصلنا الخبر صباحاً، وكنّا نتناول الفطور في غرفتي فدخل "شريف الفراشة" وقال: «لقد انتهى، لقد مات محمّد زجاجي القلب، وتحوّل بيته الزجاجي إلى غبار». حينها كنت أمسك بإبريق شاي كبير فسقط من يدي حين سمعت كلامه، إلا أنّ سرياس ألقى نظرة على "شريف الفراشة" وهو يبتسم فخاطبه قائلاً: «أنت كاذب... لا أصدّق كلامَك فأنت كاذب... فأنتَ أكذب من في هذا العالم». فأخرج شريفُ القرآنَ الذهبي من عنقه ووضع يده عليه وقال: «أنا لا أكذب... لقد مات محمّد زجاجي القلب ليلة أمس». وطالما لم يرَ بروفيسور ليالينا المظلمة جثمان زجاجي القلب بعينيه لن يصدق الأمر؛ شرعت بالبكاء مثل المجانين، وقبل ذلك لم يسبق وأن جعلني موت أحد ما

متأثراً بشدة على هذا النحو، أنا الذي كنت أقوم بكل الأمور الحقيرة منذ طفولتي، فقد مارست اللصوصية سنوات، والكثير من الأفعال المَشينة في الحروب خلال سنوات طويلة، بكيت من أجله أكثر من الجميع. كانوا ينادونني مزاحاً بـ"سرياس القذر" و"بروفيسور القلوب المظلمة"، ولكنّني في ذلك اليوم تأكّدت أنّ ثمّة خيطاً من البراءة والرحمة والضياء في ذاتي؛ لقد كنتُ الوحيد بينهم من تلوّثت يده بالدماء، فالآخرون كانوا بريئين جميعهم. أنا الوحيد الذي ارتكب القتل بينهم، فأنا القاتل الوحيد بينهم. كلا يا مظفّر الصبّاحي؛ إن كنتَ قريبي فلا تحكم هكذا، فلا تحكم عليّ كما تفكّر تجاههم.

قد يبدو غريباً لك أن تسمع هذه الأمور منّي، فثمّة شيء في صوتك يذكّرني بهما، ونحن الأربعة قد أقسمنا ألا يكذب بعضنا على بعض؛ وأنا بكلّ حقارتي وفيٌّ لهذا القسم حتّى بعد موت زجاجي القلب وابتعادي عن المارشال. ولكن لاحقاً وبعد موتهما لم يعد لدي أيّ ميثاق وعهد مع الآخرين. لقد دفن ميثاقنا تحت شجرة وفي مكان بعيد جداً، شجرة تعد أجمل ذكرانا في الحياة، شجرة تعد رمزاً لصداقتنا ووحدتنا وصدقنا فيما بيننا؛ شجرة كنّا نسمّيها آخر شجرة رمّان في الدنيا، في حين أن نديم الأمير كان يسمّيها "رمَّان اللقاء" وقد أطلق عليها المارشال "شجرة ملعوني الأرض". كما أنّ محمّد زجاجي القلب أسماها "شجرة الوحي، شجرة التقرّب إلى السماء"؛ وكان يتصوّر أنّ ثمّة أماكنَ في العالم يحصل فيها المرء على مرمى بصر أفضل. وأسفلُ آخر شجرة رمّان أحد تلك الأماكن، شجرة أملنا. تصوّرنا أنه سيحلّ يومٌ لم نعد بحاجة إلى العمل ويمكننا أن نبني بيتاً

بجوار تلك الشجرة، وعلى حدود السماء والأرض، وأن نعيش هناك براحة بال ونشعر بالمودة والصداقة. اعذرني، هذا ليس كلامي بل إنّ محمّد زجاجي القلب هو من قال: «حدود السماء والأرض، حدود الرب والإنسان، حدود الحياة والخيال».

يا مظفّر الصبّاحي، لا أعرف كيف أتكلّم عن أنفسنا دون التطرّق إلى آخر شجرة رمَّان في العالم، إذ لم يكن مكاناً اعتيادياً. حين خطونا على تلك الأرض كنّا ننفصل من حياتنا اليومية، أو نتوه في الخيال أو نتحدّث عن المستقبل، أو كنّا ننوي أن ندرك أسرارنا. وهناك تحت آخر شجرة رمّان تعاهدنا على عدم الكذب، ثم حدّثتهم عن جميع أعمالي الشنيعة وطلبت من شجرة الرمَّان تلك أن تسامحني. يا مظفّر الصبّاحي، لقد أصبحت قاتلاً في عمرٍ مبكر، وفي ذلك الوقت أردت أن أتطهر من ذلك الذنب، وأصبح مثلهم تماماً؛ فأنا الوجه القذر لسرياس، الوجه الآخر لسرياس الذي لا يمكنه أن يحافظ على طهارته ونقائه في الحروب. واليوم الذي دخل فيه شريف الفراشة وقال إن محمّد زجاجي القلب قد مات بسبب الحب، صدّقت كلامه دون أن ينتابني الشك، إذ كنت متأكداً أنّ شخصاً مثل زجاجي القلب سيموت بسبب الحبّ. وحين سقط إبريق الشاي من يدي بحثت عن مفتاح غرفتي مثل المجانين، وصرخت على المارشال قائلاً: «كلّ شيء مجردُ تفاهة... كيف تصوّرت الإنسان، وكيف تصوّرتنا؟... وكيف تصوّرت محمّد زجاجي القلب؟ سنموت جميعاً بشكل عبثي عديم المعنى هكذا، وأنت أيضاً ستموت في مذلّة... أتفهم؟ ستموت في مذلّة شديدة». وبينما أبحث عن المفاتيح بعثرت ملابسي، وقلت:

«كيف تريده أن يموت؟ في الحرب بين الحق والباطل؟... أم في سبيل الوطن؟ في سبيل الوطن الذي ركبه الوطنيون كعاهرةٍ ما؟ ها؟ كيف تريده أن يموت؟ عليه أن يموت بسبب الحبّ فقط، فشخص مثل محمّد زجاجي القلب يجب أن يموت في ريعان شبابه وبسبب الحبّ... وإلا، فليس لحياته معنى».

كلما غضبت، لاذ بروفيسور ليالينا المظلمة بالصمت، وكنت أنا سرياس القذر أقول له تحت آخر شجرة رمان في العالم: «ابتعدوا عنّي حين أغضب». عندما وصلنا إلى جثمانه ارتدى الثياب ذاتها التي اشتريتها له من سوق الملابس المستعملة؛ ارتدي ملابس بالية بسببنا إذ لم يكن يريد أن نتصوّر أنه من صنف آخر. سمّينا أنفسنا «أطفال تاناكورا»، و«جيل مستنقع سوق المزادات»، ورغب أن يكون مثلنا.

مع أننا لا نمتلك إمكاناته ومواهبه ولكنّه تصوّر عالمه مثل عالمنا. لم أذهب إلى مراسم العزاء بعد موته، إذ أصابني الجنون عندما رأيته غارقاً في دمائه وبين هشيم الزجاج. أخفق جناحيَ مثل حمامة؛ مثل طفل يرى الدماء أول مرة، فرميت ثقتي بين أوحال ذلك الزقاق، فهزّني سرياس بجنون وسألني: «ما هذا الذي تفعله بنفسك؟ ولم؟» في الأوقات العصيبة لم أنتبه لنفسي، إلا أنّ سرياس لم يكن مثلي، فصفعني أول مرة عندما رآني أمام الباب حيث لوثت نفسي بوحل الزقاق. كانت هذه أول مرة أبقى فيها صامتاً أمام تطاول أحدهم. تحلّق ألف شخص حول الجسد ونظروا إلينا، ويتوقّع جميعهم أن نشتبك بعضنا مع بعض إلا أنني ذرفتُ الدموع. في ذلك الوقت ملك سرياس قوة أكثر، وتصرّف مثل شخص صامد أمام المصائب. عرفتُ

أنّني لا أستطيع النظر إليه في أثناء دفنه؛ فانطلقت خلف جثمانه مثل المصابين بالماليخوليا. ولا أخفي عنكم أن محمّد زجاجي القلب قد حظي بتشييع مهيب، ولكنه لم يكن كما يريده، إذ في الصف الأمامي رجال لم يطق زجاجي القلب رؤيتهم؛ كانوا أصدقاء أبيه، السياسيين القذرين الذين -حسب اعتقاده- «قد ركبوا ظهورنا» في تلك السنوات، في حين أنه علينا نحن أصدقاءه الحقيقيين أن نرى مراسم دفنه ليلاً ومن تلفاز المقهى. حين صفعني سرياس أخفضت رأسي مثل أخ أصغر سنّاً وابتعدت عنه، ولاحقاً اندمجنا في حشد المعزّين، إذ وقفت على الرصيف كي يمرّ المعزّون. ما أغضبني هو مصوّرو المحطّات التلفزيونية الذين تحلقوا حول الجثمان. عرفت أنّ مذيعاً كاذباً سيقول الليلة بصوتٍ حزين: «لقد فارق اليوم محمّد سليمان حسين المعروف بمحمّد زجاجي القلب حياته إثر حادث أليم. ومن الجدير ذكره أنّه ابن مقاتل شعبنا المعروف سليمان حسني الكرخي الذي له ولعائلته دور مهم في جميع نضالات شعبنا. وبهذه المناسبة نقدّم تعازينا لعائلة هذا الشاب المأسوف عليه، ونتمنى أن يسكنه الله فسيح جناته ويغفر ذنوبه»، ومثل هذه التفاهات... أكاذيب من البراز... وحين شاهدت المراسم ليلاً في التلفاز لم أستطع أن أسيطر على إحساسي بالتقزز والغثيان.

حين صفعني سرياس وتركني، أدركت أنه سيشعر بالندم وهذا ما حدث لاحقاً؛ مثل اشتباكاته في السوق عندما غضب وشعر بالندم بعدها ومن ثم تصالح بضحكه ممطوطة. عندما ضحك لم يكن باستطاعة أحد عدم التصالح معه. غروباً عندما كنت جالساً

في "بوراق" وأنتظر زملائي دخل وغيّر جوّ المقهى بضحكاته؛ كان غريباً لي أن يضحك في يوم العزاء ذلك. جلس بهدوء بجواري وقال دون أن ينظر إليّ: «حسناً فعلت أن نظفت نفسك من أوحال وقاذورات الصباح». وأضاف بصوت أكثر هدوءاً: «حسناً فعلت بعدم مجيئك لمراسم العزاء، إذ بدت مراسم العزاء مثل زفاف الدواعر والعاهرات». احتضنني وأضاف: «نحن سنقيم مراسم العزاء لمحمّد زجاجي القلب». وكي أبدي له شكي وعدم تصديقي قلت: «اسمعني يا سرياس الصباحي، يا من تعرف نفسك أفضل مني ويناديك الجميع باسم بروفيسور الليالي الخرائية، ووزير أصحاب العربات، وملك بائعي السلق؛ إني أعلم أنك تراني حقيراً... وأعرف أنني شخص حقير... ولكن اسمعني، يا فيلسوف ليالينا المظلمة، لقد مات محمّد زجاجي القلب، ولكنك تضحك سعيداً... وتتصرّف وكأنّ شيئاً لم يحدث». فردّ سرياس ضاحكاً وكأنه يشفق على أخيه: «تعلم جيداً أنّ ضحكي لا علاقة له بأحزاني؛ لأنّني أعلم أنّ الأموات سيفكّرون لاحقاً وسيعرفون من تألّم لأجلهم حقاً. ذات يوم سأذهب عندهم، ولكنك لن تأتي... عندئذٍ سيتّضح من منّا كان يحب محمّد زجاجي القلب أكثر». في ذلك الوقت عرفت عمّا يتكلّم؛ كان قد وضع عدة صحف على نضد المقهى ويحرك الشاي في قدحه بالملعقة. أخذت الصحف وقلت: «إنك تتفوّه بهراء، أنت شخص قاس... أنا لستُ ملاكاً أمامك... ولكنّ موت زجاجي القلب يعدُّ نهايةَ العالم لي... أي أنّه لم يعد لديّ أيُّ أملٍ، ولم نعد ندرك بعضنا بعضاً... وأعلم أن كلّ ما أقوله لك يعدّ تافهاً لك وستضحك على كلامي؛ إذ إنّك تعدّ نفسك فيلسوف الباعة المتجوّلين وباعة البطاطس. إني أعلم ذلك،

لأنك تقرأ هذه الصحف السخيفة، فباعة الكوسا الحمقى هؤلاء ينادونك باسم المارشال. أنت تعرف أفضل مني، ولكنّنا أنا وأنت لم نعد نعرف أي... أي... أي شيء عن أنفسنا، حتّى مماتنا... والآن من سيأخذ بأيدينا، باعة الباذنجان أم باعة الكبريت؟ قل، يا مارشال أيامنا الخرائية... قل... من سيساعدنا الآن؟»

في البداية استمع لكلامي بصمت كعادته ثم قرّر ما سيقوله. حرّك شايه دون أن يرتشف شيئاً منه؛ كان يرغب أكثر في أن يضعوا الشاي أمامه كي ينظر إليه. والآن إذ أفكّر في ابتسامته وراحة باله ومزاجه السيء، أرغب في البكاء بصوتٍ عالٍ والضرب على رأسي. قال لي في كل مرة: «يا سرياس الصباحي، هناك حدود عليك ألا تتجاوزها». وفي أغلب الأوقات كنت أردّ: «إني أتبوّل على هذه الحدود، فما من حدود لا يمكنني اجتيازها». في ذلك اليوم حيث قلت له هذا نظر إليّ باستغراب وقال ضاحكاً: «أعرف... منذ فترة ونحن لا يترك بعضنا بعضاً». دوماً ما كنت أصرّ على أن موت محمّد زجاجي القلب قد قلب كلّ شيء فيّ، ومنذ ذلك اليوم أصبت بارتعاش لا يتركني؛ وما استطعتُ أن أمسك قدح شاي أو كأس ماء أو لقمة خبز جيداً بيدي. عندما قال سرياس الأول هذا، شعرت باليأس أكثر، إذ شعرتُ أنّ كلّ ذلك العبث ما هو إلا شيء تافه... وهو أنّنا نملك حياة واسماً وماضياً واحداً، ولا نعرف لماذا هكذا هو الحال... وهذا شيء تافه. اجتزت كل تلك الحدود التي قال ألا أتجاوزها وقلت له: «حين لا نعرف من نحن، ولمَا يشبه بعضنا بعضاً ولمَا أصبحنا صديقين، ولم تعاهدنا تحت آخر شجرة رمّان، فعندها كل ذلك الكلام مجرد هراء،

وهذا ما يسمح لنا بأن نتبول على كل شيء، على اسمينا المشتركين، وعلى رمّانتينا الزجاجيتين، حتّى على آخر شجرة رمان في العالم». حين قلت هذا ترك ملعقته بصمت وأخذ الصحف وذهب. وضعت رأسي على الطاولة في ذلك المقهى المجنون الذي يطلقون عليه اسم "بوراق" وشرعت بالبكاء... بكيت بين العمال اليوميين والمتسكعين والتلاميذ المكتئبين الذين يضحكون حولي، وخرجت بعينين مبلّلتين بالدموع، ولم أعد إلى "بوراق" حتى بعد موت سرياس الأول.

في الليلة ذاتها رأيته في بيت جينو المخملي، فقال لي بصوت حزين: «الليلة لم نفقد محمّد زجاجي القلب فقط، فقد أضعت رمّانتي الزجاجية أيضاً؛ سامحني يا سرياس، إذ حين رأيت جثمان محمّد زجاجي القلب بحثتُ عن رمّانتي الزجاجية. لا أخفي عنك، فقبل يوم من الفيضان كانت رمّانتي عنده وكنت أريد أن أجدها كي لا يأخذها أحدٌ ما. ولكن حين كنت تتقلّب في وحل الزقاق كنتُ قد أصبت بالذهول، وحين صفعتك كنتُ أشعر بالحيرة بسبب رحيله المبكّر. وبقدر حُزني عليه فكّرتُ فيك، وفي الوقت نفسه فكّرتُ في رمّانتي. ولكن كلّ شيء قد أصبح من الماضي، وفقدت كلّ شيء. في ذلك الوقت عرفت لماذا وهب سرياس رمّانته لمحمّد زجاجي القلب؛ عرفتُ أنه لولا محاولته اكتشاف الأسرار الكبرى لما فقد سرياس رمّانته. على كلّ حال، حين خرج محمّد زجاجي القلب من منزله في مساء ذلك اليوم وواجه الفيضان، أراد أن يذهب إلى بيت "السيد مجده شمس" ابن "السيد جلال شمس"، بائع الأنتيكات الذي يعرف قصّة الرمانات. كما أن نديم الأمير يعرف الموضوع كله. ومنذ موت

سرياس الكبير لم أعد أعلم بهذه الأمور ولم أعد أرغب في التفرّغ لهذه الأمور... ولم يعد مهماً لي معرفة ذلك السرّ أو عدم معرفته. إن وجدتَ نديم الأمير فإنه يعرف الكثير من الأسرار... الكثير منها». في تلك الليلة احتضنا، أنا وسرياس الأول، الذي أسمّيه في ذلك الوقت سرياس الكبير، كعادتنا بعضنا بعضاً وتصالحنا. ولكنني حتى مماته لم أذهب إلى "بوراق"، المقهى الذي تجرعنا فيه شاي صداقتنا الأول.

لم أعد إلى بوراق مرة أخرى... لم أعد إلى بوراق... لم أعد.

بشكل عام ذهبتُ إلى ذلك المقهى أقلّ من الجميع... وكان عدم ذهابي هناك هو أنّني لم أرد الاحتكاك بالناس وأن يتعرفوا عليّ؛ أي ألا أسمع الأحاديث التي تدور حول السوق التي يرويها سرياس بصوته الصاخب، كي لا أعرف أي شيء عن الأحداث الغريبة. كان المقهى جزءاً مهمّاً من حياة سرياس، سرياس الكبير بروفيسور ليالينا المظلمة. هناك يفضفض الباعة المتجوّلون مع سرياس، وهناك كانوا يبيعون عرباتهم بعضهم إلى بعض ويتاجرون. في ذلك المكان كانوا يتغازلون ويكتبون الرسائل نقلاً بعضهم عن بعض، ويأتي الباعة الجوالون المبتدئون عند المارشال ولجنة أصحاب العربات، كي يجدوا لهم مكاناً بين ذلك الجيش العظيم؛ وهناك يجاري سرياس الكبير مأموري الشرطة وموظفي البلدية، ويعطي نقوداً أكثر للكنّاسين كي ينظّفوا الأماكن القذرة بشكل أفضل. ويغضب من الأولاد الذين لم يتعلّموا العيشَ بين جيش أصحاب العربات؛ ولكن ما أثار دهشتي هو احترامه الشديد للنساء. تمهل... تمهل... تمهل؛ دعني يا مظفّر الصبّاحي أقف هنا وأفكّر. باعتقادي نحن الثلاثة مثيرين للشفقة لأنّ

أياً منّا لم يكن له زوجة، ولم نختلِ بامرأة ما. سامحني إذ دست على حجُب وحياء والد طفلٍ ما. يسمِّيه سرياس الكبير الشرف وأنا كنت أسمّيه التعاسة، ويطلق زجاجي القلب عليه عدم المزاج. يا ويحي، ويا ويلي، من يتصوّر أنّ امرأة ما ستحطّم قلب محمّد زجاجي القلب؟ والآن قد تبقّى لي أمل واحد في هذا السجن... أملٌ واحدٌ فقط لا غير. اسمعني يا مظفّر الصبّاحي، يا من لم أرك ولا أريد أن أراك؛ إنّ أملاً واحداً كثير جدّاً لبلادنا. أتمنّى عندما أتحرّر أن أضيع في مكانٍ من هذا العالم وأزيّف عدة هُويّات وأغيّر اسمي أيضاً، وأن يكون لي طفل ما. طفل لم يسمع أي شيء عن سرياس الصباحي.

ولكنه كذب ونحن الثلاثة كنّا رجالاً مخصيّين.

يا مظفّر الصبّاحي، اسمعني... في بعض الأحيان أفضّل إغلاق المسجِّل لأفكر... إنني أتكلم معك من عتمة حالكة ولا أعرف كم الساعة الآن. أنت مثلي قد جرّبت السجن، وتعلم أن المرء مع أنه لا يحتاج إلى ساعة في السجن، ولكنه دائماً ما يرغب في معرفة الوقت، وأن يعرف ماذا يفعل الناس وأي بقعة من العالم هادئة وأيّ مكان هو صاخب. ومن أيّ مكان أبدأ كنتُ أصل إلى ذكرياتهم. فمنذ ذلك الصباح الذي مات فيه زجاجي القلب، في ذلك الوقت الذي دخل فيه شريف الفراشة بزبدية الزبادي وحصّته من الخبز غرفته قائلاً: «لقد مات محمّد زجاجي القلب ليلة أمس»، شعرت أن حياتي قد تهدّمت أيضاً، وأن ذلك الشخص القذر قد خرج من ذاتي. كأنّما في تلك اللحظة التي أردت فيها قتل سرياس القذر، يبعثُ حيّاً من جديد. موت زجاجي القلب موت جميع الحقائق في حياتنا. وسرياس هذا الذي

يعد سجيناً اليوم قد ضاع منذ فترة طويلة في غبار موته؛ وأنت الذي جئت من الصحراء تائهٌ في غبار موته أيضاً... وهو من تكلّم على هذا النحو، إذ دوماً ما تكلّم عن موته، ودوماً تحدّث عن غبار سيخلّفه بعد موته وسنضيع نحن فيه. تأكّد لو لم يفقد محمّد زجاجي القلب حياته على ذلك النحو لكانت حياتنا ستكون مختلفة، وكنت ستعود الآن لتجدني وتجد سرياسَين آخرَين وتحتضنهم جميعاً، ولكنه قتلنا جميعاً بموته هذا. أتذكر أنه تحدث معي ذات ليلة عن موته، كان متأكداً أنه سيموت، وكان يعلم أن شيئاً ما سيقتله في النهاية، ولكنه لم يكن يعرف ما هو بالضبط. ودائماً ما كان يقول إن الحب سوف يقتله، ولكنه كان يقول لي إنه من المحتمل أن الأسرار أو كشف الحقيقة التي يجب ألا يعرفها الجميع، ستقتلانه.

يا إلهي... يا إلهي، إنني أتحدث باستمرار عن موته في هذه العتمة التي لا نهاية لها ولا بداية؛ لأن موته كان بداية كل شيء، وبداية موتي أيضاً.

الشريط الثاني

مساء الخير يا مظفّر الصبّاحي... مساء الخير. الوقت هنا ليل دائماً. لقد استمعت إلى شريطك الثاني، أي الكلام ذاته الذي قلته عن العالم ومن هذا القبيل؛ يبدو كأنّ حياتنا ما هي إلا تهشم حياتك، وأن صوتَنا هو تقطّع صوتك. وأنك ستروي القصّة بدلاً عنّا ومن هذا الهراء. سامحني إذ تفوّهت بهذه الترهات، فالأمر مضحكٌ لي؛ ففي

بعض الأحيان يستطيع المرء أن يتفوّه بكلام غير مفهوم! وهو أنك قد جئت من الأسر وتريد أن ترى أسري؛ ولكن أن تريد فعل شيء لنا فهذا كذب محض... فمن أنت؟ أنت شخصٌ ميت... فبعد إحدى وعشرين سنة قد خرجت من الغبار. فماذا تريد أن تفعل...؟ ما أنت؟ أنت رمل... رمل... أفهم ذلك من صوتك. أنت رمل... يا مظفر الصباحي، إنّي أتكلّم مع نفسي في العتمة... مع نفسي وليس معك.

ليلة أمس شعرت بالقلق وقررت ألا أروي أيّ شيء؛ وبعد ذلك شعرت بالندم. أنت تصرّ حتّى أروي لك شيئاً، كلّ شي... كلّ شيء. لا يمكن قول كلّ شيء؛ وكما قلت، في السجن قد حرّرت نفسك قطعة قطعة من قبضة الماضي وأنا أريد أن أحرر كل وجودي من ماضيّي.

بعد الشريط الأول استقر حزن شديد على قلبي، إذ إن ألمُ تعريف الأحداث أشد من ألم السجن. إلا أنّ حزناً ما -وهو كآبة البقاء حياً وتوهم الأموات- يجعلني أتحدث. إن حزن فقدان ذينك الشابين لمؤلمٌ جداً، ولي كلّ يوم يعدّ اليوم الأول للموت، واللحظة الأولى لسماع موتهما... والألم ذاته ما يجعلني أتحدّث. من أنت يا مظفّر الصبّاحي؟ أنت لست أبي فهذان الاثنان كانا والديّ الحقيقيين. ذات ليلة قلتُ هذا الكلام لسرياس الأول؛ قلت له: «أنت أبي». حتّى الآن أتذكّر ضحكته المجلجلة؛ وكان زميلنا في السكن شريف الفراشة منشغلاً في غسل الأواني، كما أنّ سرياس كان ينظّف الرز في صينية كبيرة ليعد طعام العصر. كنت طرِباً على وسادة مورّدة وأستمع إلى عزف الأخوة كامكار؛ إذ دوماً مَا كنت أستمع إلى عزف الأخوة

كامكار ولا أفعل شيئاً. قلت: «أنا ذلك الوجه السيء لسرياس». إذ كنت أترك المائدة كما هي بعد تناول الطعام، وأقلب قدح الشاي على طاولة التلفاز بعد تناول الشاي، وأضع جواربي داخل إبريق الماء كي تتبلّل. كانت تلك الغرفة لي ولشريف الفراشة، وكان التلفاز لي والاستريو كذلك. وحين يهطل المطر لا يعود سرياس الكبير إلى غرفته في المعسكر؛ وحين لا يذهب عند آدم المرجان، الذي أصبح شيوعياً بعد موت سرياس، كان يأتي عندنا. في ذلك اليوم قلت له أنت أبي، فتملّكته الضحكة عند تفكيره بالأمر، إذ كنت أكبر منه سنّاً. ولكنّني لم أمتلك وقاره، كما أنّ ملامحي ألطف من ملامحه، وبدوتُ أكثر رجولة منه؛ ولكن لم يكن هناك من يناديني باسم بروفيسور لياليناالمظلمة، ولم يعلمني أحد ذلك. تمهّل؛ عليّ أن أكون صادقاً، لم يعلّمه أحد ذلك أيضاً. ولكنّه امتلك هذه القدرة كي يعلّم نفسه؛ هناك الكثير من يستطيعون أن يعلّموا أنفسهم ولكنني لم أكن قادراً على فعل ذلك. أحبَّ سرياس أن تتكلّم معه كرجل حقيقي وأن تطلب منه أن ينصحك وتجعله ناطقاً وشريك أحزانك؛ في حين أنني كنت أهزأ من هذه الأمور، وأمزح حول قضاء الحياة بين أصحاب العربات. كنت أقول له إنّك قد غرقت في بحر تفاهاتك؛ وكان يردّ: «إنّك لا تعرف لما أنت حي». بعد تعرفي إلى هذين الاثنين تغيّرت حياتي، ليتدمّر كلُّ شيء بالكامل بعد موتهما. كثيراً ما كنت أستمع إلى نصائحهما، ولكن في بعض الأحيان كنت أتمدّد أيضاً وأقول لهما إنه لا قيمة لكلامهما بقدر شروى نقير. ونادراً ما كنت أذهب إلى "بوراق"، إذ إنني كنت هكذا، وبعد تعرفي إليهما أردت الخروج من البيشمركه. وحين بدأت الحرب الأهلية، مرت فترة على تعارفنا؛ فعقدنا ميثاق الأخوة بيننا.

ذات مساء دخلت "بوراق" ببندقيتي وعتادي العسكري الكامل، فسألني الجميع عن أخبار الحرب بحميمية، فذكرت لهم كذباً أسماء مئات الجبال والتلال والجسور التي تمكّن حزبنا من احتلالها. كنت أشعر أنّ الناس سيفرحون جداً بأكاذيبي. لذلك في كلّ مرة عدتُ فيها من الحرب، أكذب بشكل مستمر. وحدهما محمّد زجاجي القلب وسرياس الكبير من كانا ينظران إليّ بحزن؛ كنت أقف بين الطاولات وأقول: «إنّ الحزب يواجه الخطر لذا علينا أن نصفي هؤلاء العملاء والجواسيس القدماء، ونشرع في بناء برلمان جديد. أتفهمون كلامي؟ إن الحزب يواجه الخطر». فقال المارشال وهو يلعب بحبّة السكاكر الموجودة أمامه بحزن: «اجلس يا غبي، ما من أحدٍ يواجه الخطر غيرك. أنت الوحيد الذي يواجه الخطر، أنت وحدك».

مساءً أخذاني إلى مكان لطيف، حانة صغيرة، وكادوا ألا يوافقوا على دخولي، وهناك قال لي محمّد زجاجي القلب: «لا تذهب إلى هذه الحرب يا سرياس الصبّاحي، لا تذهب إلى هذه الحرب... ستُقتل... وحين تُقتل لن يبقى أي شيء منك غير جسدك». تحدّث معي طيلة الليل؛ وحينها فهمت لماذا يطلقون لقب بروفيسور الليالي المظلمة على سرياس الكبير. لا؛ إذ تحدّث ليلاً بشكل أروع إلى حدٍ ما. أقسم إنه يجادل مثل الفلاسفة تماماً، لمَ لمْ يتحدث بشكل رائع هكذا في النهار؟ لا أعرف! قد يكون ذلك بسبب إنهاكه طيلة اليوم وانشغاله وتألمه اللذين كانا يعذبانه في تلك السوق. دوماً ما كان يراوده حلمٌ أنه يضع نظاماً جديداً هناك بحيث يحصل هو وأصحاب العربات على مكاناً أفضل. يا مظفّر الصبّاحي، يدور كلامه حول الحياة والموت،

ومثل هذا الكلام؛ مثل كلامك تماماً. كان يقول: «إنّ كلامك أكثر قيمة من شرف آلاف الأحزاب التي تحارب بعضها بعضاً من أجل تقسيم الغنائم». يكرهان الحرب بشدّة، ولما نتكلّم عن الحرب، نتحدّث عن وجوه أولئك المقتولين التي شاهداها ذات يوم في الجبال. لم أكن مثلهما إذ شاركت في الحرب منذ طفولتي، وتجري الحرب في دمائي؛ وكنت معتاداً على الرصاص والنار والبارود. كانا ماهرين في الإقناع، الإمكانية التي لم يكن ممكناً التعامل معها باستخفاف. كنت أستمع إليها مهموماً، وأهزّ رأسي. بعد تلك الليلة ابتعدت عن الحرب شيئاً فشيئاً حتى وجدت أنني قد انقطعت عن حياتي السابقة بالكامل. يا مظفّر الصبّاحي، لا يمكنني أن أحدِّثك عن تلك الأيام؛ ومع أنّني دوماً ما أناقشهما وأتجادل معهما، إلا أنني لم يكن لدي صديق غيرهما. علمتُ أنهما يريدان حمايتي من شيء ما؛ إذ كانا أبويّ، ويتحسران على حياتي كثيراً. وعندما تركت البيشمركه عرفتُ إلى أين أذهب؛ إذ كانا يرعانني طيلة تلك الفترة بشرط ألا أعود إلى تلك الحرب مرة أخرى.

لدي غرفة في بيتٍ ما؛ البيت صغير وقد أجّره عدّة طلاب جاؤوا من خارج المدينة للدراسة. وكان شريف الفراشة شريكي في الغرفة. في تلك الفترة كان محمّد زجاجي القلب يعطيني ثمن إيجار غرفتي، إلا أنه نادراً ما كان يأخذنا إلى قصره الزجاجي إذ لم نرد أن نتحسّر على حرماننا من حياة مثل حياته، أو نقارن حياتنا بحياته ونشعر بالأسف. كنّا نحن الاثنين نعيش أفضل من سرياس الأول، وحتى في أوقاتي الصعبة كنت أرتدي ملابس أنيقة وأتجول في السوق. إلا

أن حياة السوق تزعج سرياس، حيث عليه أن يستيقظ من النوم في الصباح الباكر جداً، وينام ليلاً في الأماكن السيئة وغير المناسبة. في بعض الأحيان يذهب إلى غرفتي الصغيرة في المعسكر، حيث كانت ممتلئة بصور سيارات السباق ومباريات القتال الفردي وكتابات غريبة وعجيبة لم أكن أستطيع قراءتها. يتمدد ليلاً هناك على سرير متداع ويفكّر؛ ودوماً ما فكّر. ذات ليلة سألته: «أتقبل أن تكون شقيقيَ يا سرياس؟» نظر إليّ بنظرة حزينة وقال: «نحن شقيقان... جميع التعساء في هذا العالم أشقائي». فقلت: «لم يكن قصدي ذلك النوع من الأخوة والمساواة والتفاهات الأخرى، فإني أعرف أنه لو كان بإمكان الناس التُّعْس في هذا العالم لتبوَّلوا بعضهم على بعض. بل قصدي هو الأخوة الحقيقية، أي أن نكون من صلب أب واحد وأن نكون من بطن أم واحدة». فردَّ قائلاً: «هناك نوع من الأخوة يخلق الحياة والحب، والباقي كله كذب». فسألته: «أتتصوّر أنّنا سنفهم هذا السرّ ذات يوم، أي أن نعرف لم أطلقوا اسم سرياس علينا؟ ولم والدانا غير موجودين؟ ولم نحن وحيدان؟ ولم كلّ منّا يملكُ رمّانة زجاجية؟ أي أنّنا سنفهم كيف اجتمعت كل هذه الأشياء التافهة بعضها مع بعض؟» فأجاب: «كلا، يا سرياس؛ فأنا لا أؤمن بهذا. أنا أتكلّم مع نفسي فقط، ومتأكّد من أنّني سأموت ولن أدرك هذا السؤال، وكأن حياتي مثل سهم أطلق من القوس، سهم ينطلق سريعاً بلا أيّ هدف وسيصطدم بشيء ما ليتحطّم».

لا تستغرب يا مظفّر الصبّاحي، إذ نظر هو وزجاجي القلب حولهما ورويا القصص؛ «سوف نصدم بشيء ما ونتحطّم». لقد تصوّر

سرياس الكبير نفسَه كَسَهم أطلقته يد متسرّعة من قوسٍ ما، وما من أحد يستطيع أن يغيّر مسارَه. كما تصوّر محمّد زجاجيُّ القلب نفسَه رمّانة زجاجية ستقع على أرض حجرية وتتهشّم. فقد أدركت بعد فترة متأخّرة لم أغرم محمّد زجاجي القلب برمّانته الزجاجية على هذا النحو، ولمَ دائماً ما نظر إليها بنظرة يملؤها الحبّ؛ إذ عدّ نفسه رمّانة زجاجية، رمّانة زجاجية حيّة. وكان متأكّداً أنّها ستصدم يوماً ما بشيء ما وتتهشّم. وكان الاثنان من زمرة الأشخاص المتأكدين من أنهم لا يستطيعون تغيير قدرهم، لذلك كانا يحاولان إصلاح مسير الآخرين؛ وكأنهما مسببو آلامنا ومحنتنا... كانا هكذا... وكانا أبويّ... وفي النهاية اصطدما بشيء ما وتهشّما.

يا مظفر، لا تحدّثني عن تينك الشقيقتين البيضاويين، إذ في كل مرة ترسل إليّ شريطاً مسجَّلاً أتمنّى ألا تكون قد ذكرتهما فيه. كانتا حتّى الممات تنظران إليّ وكأنّني الشيطان، في حين أنهما من تسبّبتا بموت محمّد زجاجي القلب. كما أنّهما مسؤولتان عن قطع العلاقة بيني وبين مارشال الليالي المظلمة. لذلك فإنني أكرههما. ذات يوم جمعنا سليمان الكبير كلّنا ليروي لنا حكاية، وبالنسبة لنا حيث كنّا صديقي محمّد زجاجي القلب، كان هو وسرياس الأول يصرّان على أنه ليس هناك أي ذنب للشقيقتين. فكنت أضرب على رأسي وأتساءل: «كيف ذلك؟ إن لم يكن ذنبهما فلم محمّد زجاجي القلب في القبر الآن؟... إن لم يكن ذنبهما فلم لا ينهض ذلك الشاب ويأتي معنا تحت آخر شجرة رمّان كالأيام الخوالي؟ وأيّ ذنب أكبر من أن يكون شخص يحبّ الآخر من صميم وجوده والآخر لا يرغب فيه؟ ها؟ أيّ ذنب

أكبر من أن تلوّث يدك بدمائك ويظلّ من تحبّه ينظر إليك ببرود ولا مبالاة ويحاول الابتعاد قائلاً إنّني لا أحبّك؟ أنا أقول إنّ هذا التصرّف أكثر رعباً من قتل الإنسان بإطلاق الرصاص عليه، وأكثر قسوة من قتل الإنسان وذبحه بالسكين».

بعد كلّ ذلك الصخب الذي أثير بعد مراسم عزائه كنتُ أنا وثلاثة أشخاص آخرين نعرف سبب موته. كلا، لا تتصوّر أنّ قصّة زجاجي القلب مجرد حكاية ساذجة؛ إذ في تلك الأيام يتكلّم جميع الناس عن موت محمّد زجاجي القلب في السوق. ويتحدثون عن رصاصات غير مرئية أطلقت عليه بعد حدوث الفيضان. يقول الجميع إنّ زجاجي القلب كان يتبع سراً كبيراً وقُتل بسبب ذلك. ولكن أياً منا كان بإمكانه تمييز الحقيقة عن الكذب في هذه القصة؟ حين وقفت أمام بيت سليمان الكبير قلت مع نفسي، مثل جميع الأشخاص الآخرين الذين كانوا يؤمنون ببراءته «إنّ الحبَّ قد قتل محمّد زجاجي القلب. الحبّ ولا شيء سواه». ولكنّني أعتقد الآن أن موت زجاجي القلب سرّ لا يمكن لأيّ شخصٍ أن يفكّ طلسمه. كنتُ متأكّداً أنّه حتّى لحظته الأخيرة كان مؤمناً بأنّ الحبّ قد قتله؛ إلا أنّ هكذا اعتقاد يدلّ على النجاح في إزاحة العتمة عن أسرار كانت طبقة خفيفة من زجاجها قد خيّمت على الأرض، وكان يحاول عبثاً أن ينفض الغبار عن سطحها. ذات غروب ذهبنا إلى بيت سليمان الكبير وكنّا نريد أن نرى والد زجاجي القلب، إلا أنّ الحرّاس لم يسمحوا لنا، فبادرنا برمي الحصى على زجاج ونوافذ البيت. أراد الحرّاس أن يطلقوا النار باتجاهنا فهربنا إلى الأزقّة؛ ثم مساء ذلك اليوم تجمعنا مرة أخرى،

وفي هذه المرة كنّا أكثر عدداً. كنّا عدة أشخاص، ولم يعرف أيٌّ منا الأشخاص الآخرين، كنّا جميعاً شبّاناً مشرّدين قد تعرّفنا إلى زجاجي القلب في أماكن مختلفة. ناديت سليمان الكبير بصوت عالٍ قائلاً: «آهاي يا جليل الشأن، تفضل بالخروج من غرفتك، وتعال اشرح لنا لم مات محمّد زجاجي القلب...؟ فجميعنا من الأصدقاء المقرّبين لذلك الشابّ المأسوف علي، وحتّى الآن لم نعرف سبب موته. لذلك على أحدهم أن يخرج ليقنعنا بدلاً عن التفوّه بالهراء والكلام الفارغ». كنت أعرف أنه لا يريد أن يكون هناك أيّ كلام عن موت ابنه، ومن جهة أخرى أيضاً يخشى أن نتسبّب بأذى للشقيقتين البيضاوين؛ لأنه كان من المسلّم لنا جميعاً أنهما قد قتلتا زجاجي القلب. في ذلك اليوم أيضاً لم يخرج، وقام الحرّاس بتفرقتنا. في اليوم التالي كان عددنا أكبر ولم يكن بالإمكان عدّنا... وقد جاء الباعة الجوّالون، وباعة أكياس النايلون، والسقاؤون، وباعة المكسّرات من جميع أنحاء المدينة؛ ثم جاء المارشال بنفسه، فتراجعت إلى الوراء إذ كان أكثر فطنة من الجميع ويعرف ماذا يجب أن يفعل. في البداية دخل بدلاً عنّا جميعاً وتحدّث مع والد محمّد زجاجي القلب، حيث كانوا يحترمونه بسبب شهرته. منذ طفولتي كنت أعرف أن الاحترام الذي يبذل تجاههم ما هو إلّا كذب ونفاق. لم أكن أحترمه قطّ ولكنّني أتظاهر باحترامه لأجل سرياس الكبير، ولكنه حين خرج كي يتكلّم معنا كان عددنا كثيراً بحيث لم يستطع أن يهدئنا. جلبوا منضدة له كي يقف عليها. ومن أجل أن يحذرنا من الغضب وقف سرياس الأول على المنضدة جنبه. لو لم يكن معه لوقع ما لا يحمد عقباه، إلا أنه بالنسبة لنا نحن أولاد الأزقّة والشوارع والأسواق كانت عظمة سرياس الكبير، بروفيسور

ليالينا المظلمة أكبر من عظمة جميع سياسيي بلادنا ومقاتلينا وكتّابنا وفنّانينا وأكثر أهمية لنا؛ لأنّنا رأينا سرياس يقف بجواره ويقول لنا: «اصمتوا... ما بكم؟... لستم وحوشاً، دعوا هذا الرجل يتكلّم». فسكتنا جميعاً.

في ذلك اليوم قال سليمان الكبير إنه فعل كلّ شيء للحيلولة دون موت زجاجي القلب؛ وتحدّث عن نفسه وشخص آخر ذهبا قبل طلوع الشمس ليطلب يد فتاة تسبّب الغرام بها بموت محمّد زجاجي القلب، وأن الأحداث وقعت بشكل سريع وغريب بحيث لا يستطيع أي أحد أن يفسرها. وكان يتعلّل كثيراً في خطابه حيث قال: «كان له قلب أخذته الرياح وحطّمته». كنت أنا أول شخص صرخ قائلاً: «دعنا نقتل تينك العاهرتين، دعونا نقضي على تينك الكلبتين». فردّ سليمان الكبير بهدوء كامل: «ليس لهما أي ذنب، المذنب الوحيد هو القدر حيث جعل قلب زجاجي القلب رقيقاً على هذا النحو». كنتُ مصرّاً على إيذاء الشقيقتين البيضاوين. وفي صخب الأولاد والشبّان والنقاش الطويل، صرخ الجميع: «دعونا نهجم على الشقيقتين البيضاوين، دعونا نهجم عليهما». دعانا سرياس الكبير إلى الهدوء وقال: «أنا صديق محمّد زجاجي القلب، كنت صديقه المقرّب، وتعرفوني جيداً كم أحترم العدالة والأعمال الصالحة. فأنا شابّ قد ترعرعت في السوق مثلكم؛ علينا أن نتأكّد قبل أن نتّهم الآخرين، وإن كانتا مذنبتين فإنّني قبل الجميع لن أسامحهما. وإن كانتا غيرَ مذنبتين لا أسمح بإيذائهما. لذلك عليكم أن تصدّقوا كلامي». يا إلهي، في ذلك اليوم حين رآهما تراجع عن كلامه، وكأنهما قد سحرتاه بسحرٍ

انتشر في دمائه حتى ليلة وفاته. حين عاد من عندهما قال لي: «إن غناءهما يدلّ على براعتهما». ومنذ ذلك المساء اشتدّ جنوني، ومنذ ذلك المساء انفتح جرحٌ بيني وبين سرياس لم يلتئم حتى الآن.

في ذلك اليوم قام سليمان الكبير وسرياس الجليل، حيث إنّ أحدهما فهد الجبال والآخر فهد الشوارع والأسواق، بتفرقتنا بهدوء.

يا مظفّر الصبّاحي، من يتصوّر أن تخرج من الصحراء وتذهب إلى بيت الشقيقتين البيضاوين؟ إنني دائماً ما كنت أكرههما وسأظلّ أكرههما حتّى مماتي. في ذلك الغروب حيث ذهب فيه سرياس الكبير عند قبر زجاجي القلب وعاد مرتبكاً، فهمت أن تينك الشقيقتين ساحرتان كبيرتان، وروحان شريرتان ستستطيعان أن تسحرا الرجال جميعهم. تحدّث سرياس، الذي دوماً ما كان يتكلّم باحترام سخيف عن النساء، عن وقار وسرّ نظرة الشقيقتين البيضاوين، مثل الأشخاص الذين أصابهم السحر. حين عاد من المقبرة وجاء إلى غرفتي أنا وشريف الفراشة بدأ يتحدّث بصوتٍ عالٍ ويضحك، وروى كلّ شيء لشريف الفراشة. كان قصده من هذا العمل هو أن أستمع إليه أيضاً. إلا أنّني ثرتُ فجأة وقلت له: «أنت لست سرياس الكبير، لستَ سرياس الجليل، لستَ بروفيسور ليالينا العفنة والخرائية، ولست براز بقر الشوارع أيضاً. هل نسيت أن الفتاتين قد قتلتا أقرب أصدقائك؟ هل نسيت أنهما قتلتا زجاجي القلب؟ لا أريد أن أستمع إلى كلامك... ولا أرغب في أن تتفوّه بمثل هذا الكلام في بيتي».

كانت ليلة مريرة ومظلمة؛ مظلمة ومريرة. أكثر مرارة وعتمة من

ليالي السجن القاسية وعديمة النهاية. هدَّأني سرياس الأول بضحكة وقال: «إن تينك الشقيقتين ملاكان، من ملائكة الربّ المقرَّبين».

قطعت علاقتي مع سرياس الأول حين عرفت أنهما قامتا بعقد ميثاق الأخوة معه، يشبه ميثاق العشاق. ذات ليلة وفي إحدى الأزقة الخالية كدت أن أوشك على إطلاق النار عليه، إذ كنت قد قررت قتله. فقلت له: «إنك قد خنتَ ذلك الميثاق، وتبوَّلت على الميثاق هذا، سأقتلك. إذ إنك جعلتهما شقيقتيك بدلاً عن أخذ الثأر منهما».

كان لدي مسدس حديث؛ فسحبته قائلاً: «سأقتلك، فإن وجودك زائد أصلاً... أنت لا شيء. إني لأخجل أن يكون اسمي سرياس، فقد جعلتك تانك الأختان مستهتراً وذليلاً، وقد أصبحتَ أضحوكة الخاص والعام، أصبحتَ أضحوكة... أجل. إمّا تبقى أنت أو أنا... أما أنت من يطلق النار أو أنا».

جلس على سلالم بيتٍ ما، وأسند ظهره بهدوء وخاطبني: «اقتلني... اقتلني يا سرياس الصباحي؛ اقتلني هنا على هذا النحو، حيث أتمدّد هنا وافتح ذراعيّ فتطلق أنت الرصاصة في وسط جبيني. أو تمهّل، ودعنا نذهب تحت آخر شجرة رمّان في الدنيا إذ لن يعرف أحدٌ هناك بفعلتك».

في تلك الليلة كان يضحك ويقول مستهزئاً: «اقتلني، فأحدنا وجوده زائد، زائد... أجل. لمَ لا تقتلني، لمَ لا تقتلني؟» نعم... في ذلك الوقت كنتُ أتصوّر أنه ليس هناك سرياس آخر في العالم غيرنا نحن الاثنين. تمهل... تمهل... لا أريد أن أكشف شيئاً، فنديم الأمير

يعلم بكل شيء، فهو الوحيد الذي يمكنه مساعدتك. عليك أن تجد نديم الأمير؛ عليك أن تجد ذلك الأعمى الذي يعرف الأسرار».

في تلك الليلة قلت له: «إمّا تقتلني أو أنا أقتلك، اقتلني أو أنا أقتلك... اقتلني أو أنا أقتلك».

كان أحدنا زائداً، وكان علينا ألا نلتقي أبداً. كنت أخاف منه بشدة، كما أنه كان يخشاني. كنت قد ترعرعت بين اللصوص والمرتزقة وقطّاع الطرق ورجال الأحزاب، وهو أيضاً كان يعيش منذ طفولته في المناطق الحدودية بين المهرّبين وفي الأسواق. وأفضل أوقات حياته كانت تلك الفترة التي قضاها في الميتم. كما أنّ أفضل أيامي هي تلك الفترة التي كنت فيها صديقاً لمحمّد زجاجي القلب. لم نكن نكره بعضنا بعضا. كلّا، لا تتصوّر أن بعضنا يكره بعضنا الآخر، إذ كنّا متحابين كثيراً، وفي بعض الأحيان كنّا نضع رأسينا على كتف الآخر ساعات ونذرف الدموع، وفي النهاية يأتينا شريف الفراشة يقوم بتهدئتنا. إلا أنه رحل ذات يوم ولم يعد بعد ذلك. ثم بعث لي برسالة من دمشق وتحدث فها عن غرفته في منطقة "السيدة زينب" حيث سكن فيها مع عدة أشخاص من الشيعة. ثم انقطعت أخباره عني، ادّعى بعضهم أنه يقيم في أوكرانيا ويهرّب الفتيات الروسيات، في حين أن بعضهم الآخر ادّعى أنه في أفغانستان ويقضي حياته في معسكر "العرب الأفغان". كان شريف الفراشة الشاهد الوحيد لقصة حبّي لسرياس الكبير، ولكن أين شريف الفراشة الآن؟

بعضنا يحب بعضنا الأخر، إلا أن صداقتنا كانت غير طبيعية؛ كنا

نتألم بشدة. وكلما كنّا نرى الآخرين تساءلنا: «من نحن؟» وكان هذا السؤال قد نغّص علينا حياتينا.

لن أنسى ذلك المساء ما حييت، كنت متمدداً في مكاني فأيقظني شخصان غريبان. كنت قد ألصقت ملصقاً كبيراً للأخوة كامكار على السرير؛ كما أن هناك صورة شهداء الحرية على الجدار. في تلك الفترة كنت أحبُّ أن أجمع أسماء الشهداء وصورهم؛ وأخلق لهم سيرة خيالية كما كانت تفعل إذاعات الأحزاب. كنت أقعد مع عناصر البيشمركه ونقلّد المذيعين ونتكلّم مثلهم. كلا، لن أنسى ذلك المساء الذي ظهر فيه سرياس الكبير ومحمّد زجاجي القلب من بين صور أولئك الأموات. في المرة الأولى حيث فتحت فيها عيني ونظرت إلى الصور، كان وجهاهما قد اختفيا بين صور الشهداء. رششت الماء على وجهي عدة مرات حتى استطعت أن أرى وأن أميّز تلك الصورتين. وحين نهضت كانت لدي فرصة بقدر عشرين دقيقة قبل أن أخرج مع الأعضاء السرية الليلية إلى موقعي. شعرت أنّ العشرين دقيقة تلك أغرب دقائق حياتي. كلا، فمنذ البداية تعاملت مع الأحداث بجدية تامة ولكنني شعرت أنّ ثمّة تفاهاتٍ موجودةً في كل شيء أيضاً. في تلك الليلة وعند الحراسة كدت أوشك على إنهاء حياتي، إذ حين كنت أفكّر لم أجد شيئاً في حياتي سوى اهتمامي الزائد وعديم المعنى للأخوة كامكار؛ وشعرت بالخجل من التحدث عن حياتي لذينك الاثنين. في تلك الليلة قررت أن أقدم على الانتحار. وفي أغلب الأوقات حين كنت أخرج للحراسة في الجليد والعواصف الثلجية كنت أفكّر بالانتحار. إلا أنّ مارشال الليالي المظلمة يقول

لي: «أنت أكثر رجال العالم جبناً». لم أكن أجرؤ على الانتحار، كنت أدخل ماسورة البندقية في فمي وأخرجها. أضعها في وسط جبيني وأبعدها، أضعها تحت ذقني وأزيحها. في تلك الليلة أيضاً أخرجت مسدسي وقلت لمارشال: «إما أن تقتلني أو سأقتلك»، كنت أكذب، إذ دوماً ما كنت أخشى الموت. إلا أنني في تلك الليلة كنت أشعر بالعار من حياتي بحيث أصبحت ماهراً في سرد الأكاذيب بشكل غريب؛ حتى تلك الأسماء التي كنت أكتبها للمطالبة بالأغاني كانت مزيّفة ولم يكونوا سوى أشخاصاً وهميين، وكانوا موجودين في ذهني فقط. في بعض الأحيان كنت أطلب الإجازة من مسؤولي المعسكر مدعياً: «سأذهب إلى بيت خالتي حليمة». إلا أنه لم يكن لدي شخص باسم الخالة حليمة. كنت أعيش في الأكاذيب. والآن سأقول كم كان ذلك رائعاً... كم كان ذلك رائعاً. كانت أياماً استطعتُ أن أعيش فيها بالأكاذيب؛ يا لَها من أيام جيّدة، ويا لَه من نعيم. لو كان بإمكاني، لو كان ممكناً لقضيت بقية حياتي بالأكاذيب الساذجة والرائعة فترة شبابي. إلا أن ظهور المارشال ومحمّد زجاجي القلب جعلني أشيخ.

تقدّمت نحوهما بوقار وثقة كبيرين، وبدأت أروي لهما الأكاذيب عني وعن حياتي؛ وتحدثت عن عائلة ذات شأن ربتني، وعن فتاة حسناء جداً وقعت في غرامي وكانت تريد الزواج مني. تحدثت عن بعض المدخرات كنت قد حولتها إلى دولارات وأودعتها عند أحد أصدقائي، وادعيت أنني كنت أريد أن أفتح محلاً لبيع الملابس النسائية. حتى إنّني قلت إنه من المحتمل أن أسافر خارج البلاد، وإن الحزب سيوفدني إلى الخارج. وفي أثناء كذبي نظر إليّ محمّد زجاجي

القلب، وقال بلهجة حميمية: «أنت تكذب يا سرياس الصباحي». حين قال هذا توقّفت في مكاني ونظرت إليهما وشرعت بالبكاء وأجبت: «أجل، لقد كذبت؛ لقد كذبت...لقد كذبت... حسناً، ما العيب في أن يكذب المرء؟»

في تلك اللحظة كان على أن أكشف لهما عن حياتي، كل شيء، إلا أنهما من أجل تهدئتي في ذلك اليوم، قالا: «لا يا سرياس الصغير، احتفظ بقصة حياتك لترويها تحت آخر شجرة رمان في العالم، فشرح القصّة تحت تلك الشجرة له طعم آخر». وهكذا حدث أنني في إحدى جولاتنا رويت لهما كل شيء عن حياتي، تحت تلك الشجرة. يا مظفّر الصبّاحي، حتى الآن لست متأكداً هل سحر محمّد زجاجي القلب من أراد أن يكشف كل شخص أسراره، أم كان ذلك سحر آخر شجرة رمان حيث فكّ لساني، وجعلني أروي لهما سيرة حياتي كلها بكلّ قذارتها وبشاعتها، بالتفصيل.

الشريط الثالث

من هناك أتذكّر أنني كنت في قريةٍ ما... قرية بائسة، صغيرة، صغيرة. إنني أكره القرى، حتى إنّ أفضل القرى تبدو لي مثل الجحيم تماماً. كان سرياس الكبير مثلي، إذ كان يكره القرى كثيراً؛ وحين كانت الصحف تتحدّث عن عودة الناس إلى قراهم المدمّرة كان الغضب يتملّكه. صحيح أننا، أنا وهو، قد ولدنا في قرية إلا أنّنا كنّا قد وعينا على العالم في المدينة وترعرعنا فيها، وكبرنا أمام مداخل دور السينما

ومحلات بيع فيديوهات أفلام ومحلات بيع البضائع المستعملة وأمام عربات البطيخ والرمّان.

من هناك تذكّرت أنني كنت في قرية؛ وكما أتذكّر كنت في السادسة أو السابعة من عمري حيث إنهم أخلوا القرية كلها ذات يوم. وأتذكّر قصف الطائرات للقرية ونفوق الأغنام ومقتل فتاتين في "ينبوع النساء". من الواضح أنّني كنت أتذكّر ألف تفاهة أخرى قد نسيتها الآن، ولا أريد أن أتذكّرها... إنني أكره سرد قصة حياتي. كنت أتحدّث عن أنّني كنت في قرية صغيرة حيث أخلوها كلها ذات يوم، فهاجمنا الجيش وعناصر الجاش[17] وكل تلك القذارات الأخرى، فترك الجميع المكان وقُتل الملا عباس و"خرامان" هانم، اللذان يبدو كأنهما كانا والديّ في ذلك اليوم. وكما اتضح أنهما قد ربياني وكنت أناديهما أبي وأمي ومن هذا القبيل، ولا أتذكّر ذلك جيداً الآن، لقد اتضح أن خرامان هانم كانت قد قالت للجميع قبل موتها: «يا إلهي، إن هذا الطفل ليس ابني، فهو ابن شهيد وقد ربيناه كرمى لكردستان، من أجل كردستان المحترقة». كما اتضح أن الملا عباس كان يعاملني بسوء ويضربني بالعصا وأي شيء في متناول يده. كان جليّاً أنني كنت شقيّاً جدّاً، ولكنني لا أذكر أمراً مهماً، لا شقاواتي ولا أشياء أخرى. وكما أذكر كنت في قرية صغيرة، صغيرة بقدر زرق حمامة. وكما أذكر أخلى الجميع تلك القرية وبقيت وحدي أنا هناك، ومثلما يقولون لو

(17) أو "جتا " أو الأفواج الخفيفة أو أفواج الدفاع الوطني أو الفرسان "Jash" هي قوات شبه نظامية عراقية متكونة في غالبيتها من المقاتلين الأكراد والكلدان والاشوريين وغيرهم من الأقليات العرقية في شمال العراق وسهل نينوى المساندين للحكومة المركزية العراقية في بغداد، وقد أطلق عليهم الكرد لقب الجحوش للسخرية منهم.

أني ذهبت مع الآخرين للقيت حتفي أيضاً. لأنه حين تركتني خرامان هانم والملا عباس أصابتهما قذيفة مدفع فتحولا إلى فحم، أي حين وصلا أعلى التلّ أصبحا في مرمى نيران العدو فاستهدفهما بقذيفة المدفع. انطلق وبووم... اصطدمت القذيفة بآثار أقدامهما فتحركا وبووم. تحركا وبووم. تحركا وبووم... الكثير من القذائف، وبووم بووم... ولم يتحركا بعد ذلك.

وكما هو معروف قُتل والداي الحقيقيان على هذا النحو؛ ومثلما أتذكّر اجتاح المرتزقة القرية ولم يجدوا أحداً غير ذلك الصبي الذي يسيل مخاطه من أنفه، وهو يحمل رمّانة زجاجية في يده واسمه سرياس الصباحي. وكما أتذكّر رشّ المرتزقة النفط على أنحاء القرية، وكنت أنظر إلى النار بسعادة وأساعدهم في ذلك. لا أذكر جيداً الآن ولكنني أتصور أن تلك اللحظات كانت أسعد أوقات طفولتي. لا تتصور أنني كنت من زمرة أولئك الأطفال الذين كانوا يكرهون وطنهم، أو كما يقول المارشال كنت: «أكثر أطفال العالم توحشاً»... كلا، كنت سعيداً باحتراق تلك القرية؛ لأنني كنت أرى كل شيء مثل لعبة ما.

أنقذني أحد عناصر جاش باسم "كيخسرو آغاصوفيان آغا صدر أرحمي"؛ لا أعرف كيف يمكنهم تلفّظ اسم طويل عريض كهذا. لقد تعلّمت منه أربعة أشياء مهمّة وهي أن أكون من المرتزقة، والسرقة، وأن أكون من البيشمركه، وأن أكون متعلّماً. كانت لديه عدة زوجات وفتيات جميلات إلا أنه لم يكن لديه صبي ولم ينظر إليّ بعين ابنه قطّ؛ بالتأكيد كان بإمكانه أن يتبنّاني ويدبر لي هوية وأن يسجل شيئاً باسمي والكثير من الأمور التافهة أيضاً، إلا أنه لم يفعل ذلك، الشيء

الوحيد الذي تبقى لي منه كان اسمي. في أغلب الأوقات حيث كنا نبقى وحيدين معاً كان يفكر ويقول: «سرياس الصباحي... سرياس الصبّاحي... سرياس الصباحي. أي معنى يجب أن يكون لهذا الاسم؟» أتصوّر أنه بسبب إحساسه بالشفقة لم يرغب في سلب اسمي مني؛ ولو كان قد تبنّاني لاضطر إلى تغيير اسمي إلى "سرياس كيخسرو آغا صدر أرحمي"، إذ كان يعد ذلك ظلماً كبيراً أيضاً. حين كنا معاً كان يقول: «سرياس الصبّاحي... يا لَه من اسم رائع!» ربما كنت الجاش الأصغر سناً في هذه البلاد. تعود صوري الأولى إلى فترة، حيث كنت مع عدة مرتزقة آخرين على قمّة جبل في يوم عاصف. في ذلك الوقت كان عمري تسع سنوات وكنت أحمل بندقية "برنو" بيدي وكنت أمسك مع ثلاثة "أخوة" أكبر مني صورة الطاغية بجوار المتراس وقد رفعنا أصابعنا بعلامة النصر. وكانت الذكرى الأطرف في حياتي، هي اليوم الذي أخذونا فيها مع أُسر مرتزقة آخرين إلى الطاغية، وطيلة الطريق كان السيد كيخسرو يذكِّر الفتيات والنساء والأشخاص الآخرين، الذين لم يكن معنى لوجودهم، بعظمة اليوم وأهميته. وبعد أن قاموا بتفتيشنا عشر مرات من مفرق رأسنا وحتى أخمص قدمينا، أخذونا إلى صالة تعرف باسم صالة اللقاء في مقر القيادة. حين جاء بنفسه نهض الجميع، وكان عليهم أن يصفقوا نصف ساعة ويهتفوا باسمه. لم أصفق قطّ فكان السيد كيخسرو، الذي أزعجه تصرّفي غير الرائج بشدة، قال لي بين الزغردات والهتافات المتملقة، عدة مرات: «يا سرياس الصباحي صفّق، صفّق يا بن العاهرة». إلا أنني لم أصفّق قطّ، وكان علينا جميعاً أن نلثم يد الطاغية واحداً تلو الآخر. وحين وصل الدور إليّ قدموني للزعيم بوصفي أصغر عناصر

الجاش الغيورين للوطن. بدا وكأنه كان سعيداً بلقائه بأصغر عناصر جاش البلاد الغيورين. كان عليّ أن ألثم يده ولكني بقيت واقفاً ولم أفعل شيئاً؛ فأخذوني عنوة أمامه وأخذني بين ساقيه. في ذلك الوقت كان رأسي يصل إلى منتصف قامة الزعيم؛ رفعت رأسي من الرائحة العفنة بين ساقيه، وقلت بلغة كردية لم يفهما أي من محافظيه: «ألا تغسل مؤخرتك يا زعيم». لم يفهم أحد كلامي غير السيد كيخسرو الذي أغمى عليه في الحال. حين وقع نظري على السيد كيخسرو بدأت بالبكاء والصراخ. لا أعرف لم! إلا أنه كان هناك شيء جعلني أرغب بالبكاء. فحدثت جلبة، حدّث ولا حرج. لقد فسّرت الصحف الحكومية إغماء السيد كيخسرو على أنه أغماء من فرط السعادة بعد رؤيته ابنه بين ساقيّ زعيمه. ولاحقاً اشتهرت صورتي هذه كثيراً، إلا أن ملامحي تغيرت سنة تلو الأخرى. بعد عار تلك الصورة عاهدت نفسي كل سنة أن أغير ملامح وجهي، حتى نسي جميع الناس صورتي بين ساقيّ الزعيم في النهاية.

كانت صورة غريبة؛ على طاولة قريبة من حلقتين من الأزهار. كان الزعيم قد فغر فاه ضحكاً في حين إنني كنت قد فتحت فمي باكياً. لم يسامحني السيد كيخسرو أبداً، وكما أنه حرمني من المجيء إلى بيته والاستراحة هناك، كان يرسلني إلى مهمات خاصة. في تلك السنوات الثلاث اختبرت ذكائي وموهبتي وذائقتي بوصفي أصغر عناصر الجاش؛ وكان من الواضح أن السيد كيخسرو كان يلعن نفسه لاهتمامه بي، فبات يرسلني قبل الجميع إلى المعارك الضارية كي ألقى حتفي. إلا أنه كان يبدو أن الشياطين تقوم بحمايتي، فلم أمت.

كنت أذهب إلى جميع الأماكن الخطرة دون أن أشعر بالخوف؛ وفي المعارك كنت أهاجم قبل الجميع. كان المرتزقة الآخرون ينادونني باسم "مسكوكة زورنا"[18]، فقد لقي أفراد قواتنا حتفهم في معركتين متتاليتين، إلا أنني نهضت ببندقية برنو ذات ماسورة طويلة وأبلغت السيد كيخسرو نبأ مقتل أخيه وعمه واثنين من أولاد عمه. كانت ثمة قوة سماوية تؤخر موتي. في إحدى المرّات أيضاً انفجرت قذيفة البيشمركه وسط معسكرنا ولقي جميع عناصر الجاش حتفهم، باستثنائي أنا حيث زحفت خارجاً من بين الدخان كالأسد. كنت من أكثر عناصر جاش المختارين شجاعة، وحين انسحب البيشمركه قلّ عدد فرقتنا؛ وكبرت عائلة كيخسرو بحيث لم يعد بإمكانه السيطرة عليها. لم يكن هناك من يعرف عدد نسائه وبناته بالتحديد. كان بحاجة إلى الكثير من النقود ولم يكن راتبه كعضو في الجاش يكفيه. في تلك الفترة شرعنا أنا والبقية بالسرقة؛ وفي ذلك الوقت كلما كانوا يأمروننا كنا ننفذ بطيب خاطر. ولأول مرة أقدمت على القتل هناك؛ بالتأكيد لم أكن أعرف إن كنت قد قتلت أحداً ببندقيتي البرنو في المعارك السابقة أم لا؛ إلا أن الشخص الأول الذي قتلته أمامي، كان في تلك الفترة التي نكمن فيها أنا والعشرات من أتباع كيخسرو الآخرين بالقرب من الينابيع، وغُدر الماء، ونغير على قوافل المهربين، ونهب المسافرين ونوقف السيارات ونترك المسافرين عراةً. الشخص الأول الذي قتلته كان تاجر ذهب؛ ذات ليلة حالكة كان متّجهاً إلى الحدود بثلاثة كيلوات من برادة الذّهب، التي كان قد خبأها في سيارته المرسيدس

(18) مصطلح كردي يطلق على من يقوم بأعمال تفوق حجمه، أو يتفوه بكلام لا يناسب حجمه.

البيضاء. كان قد خبّأ الذهب تحت مقاعد السيارة. في تلك الفترة كان الأستاذ "خليل هرمز" يشاركنا اللصوصية، وكان أكثر شخص محبوباً قد رأيته حتى تلك اللحظة. كان يحب المال جداً، وفي الوقت نفسه كان شخصاً جليلاً وقوراً؛ وكان متأكداً أن ذلك الشخص يحمل برادة الذهب. لم ينتبه أحد إلى المخبأ تحت المقاعد. وحين مدّ الأستاذ خليل هرمز يده تحت المقاعد، أراد الرجل أن يهاجمه من الخلف، وكان يريد أن يخطف مسدس خليل هرمز من يده. من شدة خوفي وارتباكي أطلقت النار عليه بحيث كدت أصيب الأستاذ خليل هرمز أيضاً؛ وحين انتبهت إلى نفسي كان التاجر قد وضع رأسه على كتف الأستاذ خليل وقد اتسعت عيناه من الخوف وتقيّأ دماً. ومن أجل ألا أشعر بالخوف والندم قال الأستاذ خليل: «لقد فعلت حسناً بقتله، إذ كان ابن الزنا ذاك قد عاش بما يكفي». شعرتُ بغبطة شديدة من مدحه، إلا أنني في الليالي اللاحقة لم أنعم بالنوم من شدة السعادة والخوف معاً. في ذلك اليوم حيث أنقذت فيه الأستاذ هرمز قال لي: «سأعوضك عن ذلك، سأعلمك شيئاً تستفيد منه طيلة عمرك». فعلّمني القراءة، ومنذ تلك الليلة بدأ يعلمني القراءة والكتابة ليلاً ونهاراً. وحين بدأت الثورة كنت قد تعلمت القراءة بالكامل، إلا أنني كنت قد اعتدت على حياة غريبة أيضاً وتخلصت منها بصعوبة؛ حياة لص يكمن في الطرق وينتظر الضحية. لقد تغير كل شيء بعد الثورة، وسرعان ما انضم آغا كيخسرو للبيشمركه وحرق جميع صوره مع الزعيم فوراً، وبدلاً عنها التقط صوراً جديدة مع قادة جدد وألصقها على جدرانه. لم يكن القادة الجدد يتجنّبون الدعوات والولائم والنزهات والتلذّذ؛ وكانوا حفنة من أشخاص محبّي الكلام والمرح ويتلذّذون بالغناء والمرح

ومعاشرة النساء والسهرات. ولم يكن يبدو عليهم أنهم قد قضوا فترة طويلة في الحروب؛ بل يبدو كأنهم قد عادوا من زفافٍ ما ويُعدُّون أنفسهم للذهاب إلى زفاف آخر. ولاحقاً حين أصبحتُ عضواً ذكياً ضمن البيشمركه شاركت في جميع الحروب الأهلية. كنت أستغرب من سعادة قادتي والمسؤولين، وكان ثمّة شيء في حياتهم لم يكن موجوداً في حياتنا؛ وهو الحميمية المستمرة، إذ يروون لنا نكاتاً عند ذهابنا إلى الحروب، وحين نعود يمزحون معنا ويروون النكات أيضاً. وفي مراسم العزاء يتهامسون ويروون النكات في الفواصل القصيرة بين الآيات، وفي المتاريس أيضاً كانوا يتبادلون فيما بينهم النكات باللاسلكي. وفي خضم الحرب حين كانوا يرسلون وفود السلام فيما بينهم كانوا يبادرون بالنكات لتذويب الجليد في الاجتماعات. صار هناك شيء يجعلني أتصور أن كل شيء ما هو إلا تفاهة، ولاحقا أدركت أنه من أجل أن يكون المرء قادراً على الاستمرار في الحرب عليه أن يضحك كثيراً. ذات أصيل ذهبت عند كيخسرو آغا صدر أرحمي، ولثمت يده قائلاً: «لقد جئت ونيتي أن أشكرك إذ ربيتني عدة سنوات وكنت حملاً كبيراً على عاتقك، والآن إذ كبرت وبت على وشك أن أدير حياتي... » لا أدري لم فعلت ذلك، ولكنني شعرت أن النكات التي سمعتها في ذلك البيت قد أثرت فيّ. كانت قد مرّت فترة طويلة عرفت أنني سأصبح شخصاً حزيناً، وكان من الواضح أنني أحبّ الجوانب المظلمة والمجهولة للحياة... وكان ثمة شيء في دمي يميل إلى البكاء، ولم أعد أتحمّل كل تلك النكات والمزاح في بيت السيد كيخسرو بن السيد صوفيان. ولما خرجت من هناك كنت أشعر بسعادة بالغة؛ كنت أشعر بحرية كبيرة. حين خرجت من

بيت ذلك الآغا لم أعد إليه قطّ. كنت قد ادخرت بعض المال في فترة اللصوصية، وصرفتها كلها في فترة قصيرة في السوق ودور السينما والمطاعم ومحلات بيع فيديوهات الأفلام. في ذلك الأصيل حيث سجلت اسمي في مركز قوات البيشمركه، كنت أملك مالاً قليلاً يكفي لشراء شطيرة صغيرة؛ تناولت آخر سندويشة في مكان ما، وعدت كي أنضم للبيشمركه والحراسة الطويلة في الجليد والعواصف الجليدية والظلام والمطر. كان خليل هرمز صديقي الوحيد في تلك الفترة، وكان أول شخص يكسب ربحاً وفيراً بتوظيف أمواله، وفتح محلاً مثالياً في وسط السوق ليصبح من الأغنياء. كان يقول ضاحكاً: «في المساء حين تغلق البورصة، تعال كي نستمر في دراستنا». في تلك الفترة حينما تبدأ فترة استراحتي كنت أتابع دروسي. حين ظهر سرياس الأول ومحمّد زجاجي القلب كنت أخوض حالات نفسية صعبة جداً؛ ولم أكن أملك شيئاً حقاً كي أعيش من أجله، ففكرت في الانتحار كثيراً ومثل هذه التفاهات. وبمجرد ظهورهما دخل شيء جديد في حياتي أيضاً، وفتح لي اجتماعي الجاد الأول معهما باباً على عالم آخر. التقينا في مقهى صغير بالقرب من إحدى دور السينما وقبل ذلك كنت قد تحدثت هاتفياً مع محمّد زجاجي القلب. ومساءً حين ذهبت إلى المقهى الصغير لم أكن أفكّر في معرفة نفسي فقط، بل كنت أفكر في معرفة هذين الشخصين الغريبين اللذين كانت لديهما قصص وتفاهات أخرى حول ماضيّ. وقبل أن أقول شيئاً قال محمّد زجاجي القلب: «من المهم ألا تضيع الرمانتان الزجاجيتان، فما من شيء مهم بقدر هاتين الزجاجتين». لم يكونا يعرفان شيئاً عنّي، ولم أكن أتمنّى أن أجري خلف الأسرار والتفاهات ومثل هذه الأمور، إذ كنت

لا أستمتع بمعرفة الناس، ولم أكن أؤمن بالإنسان لأنني كنت أشكّ كثيراً في الجميع... وحتى الآن ما زلت كذلك، وحتى مماتي سأظلّ أشكّ في الجميع؛ وأنا لا أصدق الكلام الذي تلفِّقه في هذه الأشرطة حيث تقول فيها إنّ الإنسان جميل، وإنّ الإنسان جيد ومثل هذا الكلام الغريب، إذ إنّني أؤمن فقط في الأشخاص الذين ماتوا.

في المساء الأول الذي اقتسمنا فيه اسمينا، أطلقوا عليه "سرياس الكبير" وعليّ "سرياس الصغير". كنت أكبر حجماً منه، إلا أن رأسي كان يبدو منكمشاً ووجهي يبدو عبوساً، وكأنني أتلذّذ بالحروب والتفاهات الشبيهة لها. حين بكيت في ذلك اليوم، لم يكن أحد يتصوّر أن عملاقاً مثلي بوجهه القاسي يبكي هكذا من صميم قلبه. في ذلك المساء بكيت مرتين؛ مرة حين شعرت أن حياتي تعيسة بحيث لا يمكنني أن أروي حقائقها، والمرة الثانية كانت حين تحدّث سرياس الكبير عن فترة طفولته في المناطق الحدودية بين براز حمير المهربين والأيام العبثية، حيث كان مضطراً إلى غسل قاذورات وخراء الأطفال الذين هم أصغر سناً في دور رعاية الأيتام. فقد تحدث عن الليالي التي كان جائعاً فيها ويستجدي الخبز من البيوت. في تلك الليلة بكيت مرتين وقد واساني سرياس في هاتين المرتين.

لو لم أبك مرتين في تلك الليلة لربما ما كانا أطلقا عليّ سرياس الصغير أو "الرأس الصغير". كانا يعرفان أنني لم أصل إلى سن البلوغ بعد؛ كان يمكن القول إننا متقاربو السنّ إلا أنني لم أكن قد بلغت بعد. كانا يريدان أن يربياني حتى أصبح بالغاً، ولكنهما لم ينجحا في ذلك.

لن أنسى ما حييت ذلك اليوم الذي وقع فيه نظري على آخر شجرة رمان في الدنيا.

لقد عرفت أنهما قد قضيا وقتاً مع تلك الشجرة وقد ناما تحتها عدة ليال، وأن ثمة شيئاً يجرهما دائماً نحو تلك الشجرة. لا يمكنني أن أحدثك عن آخر شجرة رمان في العالم، فقد كانت شجرة غريبة، ولم تكن شجرة صداقتنا وهدوئنا فقط؛ بل كانت شجرة رؤية أحلامنا أيضاً. من هناك أوحت الرحلات الطويلة إلى نديم الأمير؛ وهناك أدرك محمّد زجاجي القلب عدة أسرار، وتأمل هناك سرياس الكبير في عدة أشياء. إذ كان يتمدّد تحت آخر شجرة رمان في العالم ويقول: «أفكّر في نفسي وفي بعض الأشياء»، ولم يكن أحد يعرف ما قصده من الأشياء. عند عودتنا من قمة جبل شجرة الرمان كان سرياس يضحك ويتكلّم بشكل مستمر؛ وكان أغلب كلامه يبدو مثل النقوش المحفورة على الأحجار. يا مظفّر الصبّاحي، الآن إذ أفكّر أدرك أنه قبل عودتك كان يراك تحت آخر شجرة رمان في الدنيا. ذات غروب نظرنا أنا وهو إلى السماء باستغراب، فقال: «في أحد الأيام سيأتي رجل من الصحراء، من صحراء بعيدة جداً جداً؛ رجل وحيد، ولا يعرف ماذا يفعل وإلى أين يذهب. سيحضننا قائلاً أنا أبوكم... أبوكم جميعاً». فقال نديم الأمير، الأعمى الذي لم يكن قد رأى تفاهات العالم: «إن الكلام تحت آخر شجرة رمان في الدنيا ليس كلامي وكلامك، وليس كلام الإنسان، بل إنه كلام الرب». كان يعتقد أن الرب سيظهر بهيئة أبيه وسيلهمه قائلاً افعل هذا ولا تفعل ذاك. كان ثلاثتهم يتوقعون نزول وحي ورسالة مهمة عليهم ويغيرا حياتهم. كان الوحي بقدر سعة حياتهم اليومية

فقط. وتحت تلك الشجرة قرر سرياس أن يشتري "صدر كجال" آه... تمهل يا مظفر الصباحي، أتعلم ما هو صدر كجال إنها عربة صغيرة يدور بها في السوق. هناك قرر أن يشكّل «لجنة أصحاب العربات»، وهناك قرر أن يحارب من أجل جميع الباعة الجوالين الصغار وأطفال السوق المحرومين. وقرّر ألا يدخل السياسة، وفي الحروب الأهلية عليه أن يكون عدواً لطرفيّ النزاع. ووضع قائمة قوانين للباعة الجوالين بألا يزيدوا الأسعار كثيراً في الأيام العصيبة؛ وكانت هذه القائمة تفيد أنه لو رفع التجّار الكبار الأسعار، فعلى الباعة المتجولين أن يبدؤوا بالإضراب وألا يشتروا البضاعة. وكان قد نبّه باعة الحليب المجفف بتخصيص علبة، من بين كل خمسين علبة، للأطفال المشرّدين. وقد أنشأ صندوقاً لمساعدة الباعة الجوّالين المتضررين. كما أنه كان يفكر في إنشاء مدرسة ليلية ليسجل فيها أولئك الذين لا يستطيعون الدراسة في المدارس النهارية بسبب الفقر. آه... أنّى لي أن أعرف؟ أنّى لي أن أعرف أي أفكار خطرت على باله هناك؟ كان يقول لي: «يا ذا الرأس الصغير، لن تفهم هذه الأمور بسهولة». ودوماً ما كنا نذهب معاً عند آخر شجرة رمان في العالم؛ ولم يكن لدى أحد غيرنا الحق في الذهاب تحت تلك الشجرة سوى الموت. لم يستطع نديم الأمير الذهاب هناك وحده لكونه أعمى وبسبب وعورة الجبل؛ كما أنهم قد تعاهدوا على ألا يذهب أيٌّ منهم بمفرده هناك. وحتى هنا كانت هذه الأمور ترتبط بآخر شجرة رمّان بالعالم. قال نديم الأمير: «إنها شجرة سماوية». سمحت لنفسي كي أقول: «إنها شجرة الأحلام على الأرض»، وحين قلت هذا صفق الجميع لي؛ لأنني قلت كلاماً رائعاً مصادفة، أي أنه لم يكن كلاماً تافهاً. تحت تلك الشجرة رأى نديم الأمير أباه في المنام؛

وعند استيقاظه روى قصة طويلة حول رحلات أبيه في ذلك العالم. ومع أنه كان أعمى إلا أنه كان دائماً ما يسافر إلى بلاد وأماكن غريبة، ويعود بعد فترة بعدة قصصٍ وحكاياتٍ رائعة؛ وكان يتحدث عن مدنٍ لم نكن نعرف هل هي حَقيقية أم كذب. كما أنه كان يتحدث عن رحلات أسطورية في مدن غريبة. كانت أسماء المدن التي قد زارها من الغرابة بحيث تثير دهشة الآخرين: "لاهور"، "زنجبار"، "يزد"، "كرمان"، "هراة"، وعشرات المدن الغريبة التي لم أعد أتذكرها. وفي جميع أنحاء العالم كان يبحث عن البصيرة، حيث إنه في إحدى رحلاته الطويلة في المناطق الجبلية والنائية جداً في كردستان، وفي قرية صغيرة بين الجبال، وعند نبع صغير وجد «السيد جلال شمس» الذي كان مطلعاً على الجزء الأعظم من أسرار سرياسين المهمة. آه... إني أعرف أنك الآن لا تعرف قصة سرياسين بشكل كامل؛ لا أريد إزعاجك ولا أريدك أن تهيم في الجبال والصحراء، إلا أن جمع السرياسين لا ينتهي بي وبسرياس الكبير.

كان نديم الأمير مطلعاً على كل شيء... كل شيء... وبإمكانه أن يأخذك عند السيد جلال شمس؛ فهو يمكنه أن يساعدك.

كلا، مع أنني نسيت الكثير من تفاهات حياتي، إلا أنني لن أنسى أبدا آخر شجرة رمّان في العالم. في ذلك الغروب حيث أخذوني فيه تحت تلك الشجرة كان غروب أحد أيام الربيع؛ دعانا محمّد زجاجي القلب وسرياس إلى أجود لحوم السوق وأفضل فاكهتها، وكانا يتباهيان بأنهما يعرفان أفضل الجزارين وباعة الخضار. كان كلاهما يفتخران كثيراً بمثل هذه التفاهات. حين وصلت إلى قمة الجبل

السحرية تلك نسيت كل شيء. هناك كان للسماء والأرض منظر آخر، وكان مكاناً يبدو حلماً أكثر مما يبدو حقيقياً. أتعرف ما يعني هذا؟ يعني أنه ليس هناك أي أثر للحرب والمرض والشيخوخة في ذلك المكان؛ والشعور الوحيد الذي يمكن الإحساس به هناك هو الهدوء والجمال والضياء. كنا نرى بعيوننا كل تلك الفروقات بين عالم شجرة الرّمان تلك، والأماكن الأخرى ونشعر بها بحواسنا. إلا أن نَديم الأمير وهو أعمى عاجز كان يشعر بشكل آخر ولهذا قال: «إنها شجرة سماوية، سماوية». في الغروب الذي رأيت فيه آخر شجرة رمان في الدنيا، لم أكن قادراً على الكلام فترة طويلة. في الفترة التي كنت فيها أحد مرتزقة جاش كنت أقوم باللصوصية في الجبال وهضابها والسهول؛ وكنت قد ألفت الطبيعة بشكل كبير، إلا أنّ جمال ذلك المكان كان شيئاً آخر، إذ كان يتكلّم معك على نحو يتغلغل في أعماق روحك ويناديك إلى مكان آخر. في المساء الأول عانقني زجاجي القلب وقال: «يا صاحبي الصغير، أتعرف لم هذا المكان يدعو الناس للفكر والتأمّل؟»، فأجبته: «كلا لا أعر... صدقني لا أعرف. أعرف فقط أنني دهِش، فإنّ عقلي لا يعمل مثل عقلك». فكّر زجاجي القلب قليلاً ثم رفع رأسه وقال: «لأن هنا يدرك المرء أنه يستطيع النظر إلى الحياة على نحو آخر، وأنه يستطيع أن يعيش في عالم آخر مضيء ونقي وزلال. فهذه الشجرة هي على نحو يمكنها أن تلهمنا. وأن هناك لا شيء غير الوحي». ثم نهض كأنّه ينادي شخصاً من بعيد قال: «الوحي، الوحي، الوحي». ثم عاد بهدوء وجلس في مكانه وقال: «أنا قد غرست هذه الشجرة. في البداية قلت لأصدقائي هؤلاء إنّنا نريد شجرة تكون لنا، أن تكون شجرة الأخوة الخاصة بنا».

في ذلك الغروب كان سرياس الكبير منشغلاً بتقطيع الخيار والطماطم وسكب الزبادي وتقطيع اللحوم ووضعها في الأسياخ تحت الشجرة، ودائماً ما كان يأتي وسط حديثنا ويأخذ قطعة لحم ويقول: «انظروا؛ يا لَها من شريحة لحم رائعة»، وكان نديم الذي نسمّيه "الأعمى الملعون" يسمع كلامنا كلّه ويقول بصوتٍ عالٍ: «هذه شجرتي، شجرة أبي. شجرة نسيم الأمير الذي كان جدّه بطلاً في زورخانة[19] في قصر السلالة البهلوية، لقد أنعم علينا الملك الإيراني بهذا الاسم... ويقال منذ زمن بتنا نعرف بهذا اللقب، باتت محاصيلنا الزراعية مصانة من الجفاف والآفات، وامتلأت ضروع خرافنا ثلاثة أضعاف أكثر من خراف الآخرين». وكنت أقاطع حديثه ولا أسمح بإنهائه، فإن لم تقطع كلامه كان سيواصل كلامه حتى وقت نومه؛ كنت أقول: «أيّها الأعمى اللعين، ليس لدي مزاج لاستمع إلى تفاهاتك». كنت أشعر بالارتياح من صوت ذلك الصبي فقط؛ وكان نديم الأمير أعمى عديم الحياء، ولا أذكر أنه قد أعرض عن شخص ما. لم يكن مثل محمّد زجاجي القلب الذي دمّرتني رقّة قلبه وجعلتني تعيساً. في ذلك الغروب احتضنه محمّد زجاجي القلب وقال له: «إن نديم يقول صدقاً، فهذه شجرة الأمراء. إلا أن هذه الشجرة ليست شجرتك فقط، بل يجب أن تكون شجرتنا جميعاً؛ فعندما يغرس أبٌ شجرةً ما فإنه لا يغرسها من أجل ابنه فقط، فالأب الحقيقي يزرع بذرة أو يغرس شجيرة لجميع أولاده في العالم، ومن أجل أولئك الذين سيأتون

---

(19) وهي كلمة تعني باللغة الفارسية بيت القوة وهو المكان الذي يتدرب فيه الرياضيون على المصارعة الشعبية ورفع الأثقال مثل الحجر والقوس والهراوة وخشبة الضغط؛ وهي من الألعاب التي انقرضت حالياً لقلة من يمارسها. وقد انتقلت تسمية زورخانة إلى العراق والكويت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

من بعده. كان نسيم الأمير يعلم أنك لا تستطيع المجيء إلى القمة بمفردك، وعلى أحدهم أن يمسك بيدك. لقد كان يعلم أنه لو جاء أحدهم معك فستكون لديه أمنية هو الآخر أيضاً، ويرغب في شيء ويبحث عن مراد ما. وعندما وصل إلى هذا المكان انتبه إلى أن المرء يستطيع التفكير جيداً هنا، وأنه يرى أموراً جميلة في رؤاه. كلا، تخيل لمَ جاء نسيم الأمير هنا وقام بغرس هذه الشجرة؛ لقد فكرت لليالٍ طويلة في هذا الموضوع، وأعرف أنه كان من المهم بالنسبة له أنَّ نديماً لا يستطيع المجيء إلى هذه القمم بمفرده. أي أن على أحدهم أن يساعده؛ شخص يتصرف بشهامة وألا يترك يد نديم في هذه القمة، ويصل إلى مرحلة الأخوة معه ليمسك بيده دائماً، وأن يتقبّل نديم كأخيه الحقيقي، وألا يترك صديقه الأعمى أبداً. أتفهم؟ الأمر الذي كان مهمّاً بالنسبة إلى نسيم الأمير هو ألا يتركا بعضهما بعضاً، ولهذا السبب فإنه غرس الشجرة هنا كي يمسك بعضنا بأيدي بعض، ويمهّد أحدنا الطريق للآخر. لقد غرس هذه الشجرة لجميعنا... لمماتي ولحياتك... ولهذا أقول إن هذه الشجرة هي شجرة الإلهام؛ لأننا أربعتنا نعيش في عصر نهاية الأخوة، وفي هكذا عصر، تبشرنا هذه الشجرة بأخوة نقية». ودوماً ما كان ينهي كلامه على هذا النحو عند تحدثه معي، ويقول لي بنظرته العميقة والحزينة: «مماتي أنا وحياتك أنت». في ذلك اليوم حيث كنا تحت آخر شجرة رمّان في العالم لم تكن الحرب الأهلية قد بدأت بعد، إلا أنه كشخص يعلم بالغيب قال: «الآن نهاية عصر الأخوة... لأمت أنا... فكل هذا السلام والتفاهات كذب محض؛ علينا أن نستشهد بهذه الشجرة، وأن نقسم أننا سنهرع لمساعدة بعضنا بعضاً حتى مماتنا، وألا تفرقنا الحروب. وأن نجعل

الأرض والسماء شاهدتين على قسمنا وأن يستمر لفترة طويلة، وإلا فإنه بعد فترة سيتقاتل الأخوة مثل الكلاب فيما بينهم». كان يفكر بميثاق أكبر أطلق عليه اسم "ميثاقنا". في البداية لم نكن نعرف ما هو ميثاقنا بالضبط. في تلك الليلة كتبنا نحن الأربعة ميثاقاً وختمناه بدمائنا متعاهدين على أن نكون أصدقاء وأخوة إلى الأبد، ونتساعد حتى مماتنا، وأن نمسك بأيدي بعضنا بعضاً في الأيام العصيبة وفي وقت الحروب والبلايا. يا إلهي، كم تحدّث حسناً عن الموت؛ طيلة كل تلك السنوات التي قضيتها في الحروب وبين رجال الحروب، لم أرَ شخصاً يتكلم عن الموت أفضل منه. طيلة كل تلك السنوات واجهت أشخاصاً دائماً ما كانوا يقارعون الموت، إلا أنه لم يكن هناك أحد يتحدث عن الموت والإعجاب به مثل محمّد زجاجي القلب. في ذلك الوقت كنّا أربعة شبّان، وفي ذلك الوقت لم نكن نعرف ماذا سيحل بنا. أقسمنا في تلك الليلة أن نرفع بيرق أخوتنا في العالم؛ إلا أننا لم نعرف في تلك الليلة كيف سيُكسر هذا القسم دون إرادتنا. يا مظفر الصباحي، اليوم وفي هذا السجن المظلم أسمي شجرة الرمان تلك «الأخوَّة الأخيرة في العالم». كلا، لم يكن الاسم عديم المعنى، فهو الشيء الوحيد في حياتي الذي لم يكن تافهاً. في حين أن حياتي كانت كلّها حفنة تفاهات، باستثناء تلك الشجرة التي كانت تبدو مثل أجمل أشيائي وأكثرها قدسية. لم أكن أستطيع فهم المحتوى العميق لذلك الميثاق الذي عُقد بين الأخوة الأزليين الثلاثة في تلك الليلة. وضعنا الميثاق في علبة فضية وقمنا بدفنها تحت تلك الشجرة للأبد.

في ذلك اليوم الذي بدأت فيه الحرب الأهلية دخلتُ "بوراق"

بعتادي العسكري، وتصورت أنني آخر أسود أحراش الهند، وكانت تفوح من جسمي رائحة بارود قذائف الـ "آر بي جي" التي كنت قد أطلقتها. كنت ألفق الأكاذيب عن الحروب في مقهى بوراق وأرويها للحاضرين بشكل مبالغ فيه. لن أنسى نظرة زجاجي القلب اليائسة التي حدجني بها. وذات ليلة حيث كنّا نشرب الجعة في حانة صغيرة خاطبني زجاجي القلب: «لقد خنت ذلك الميثاق، لقد خنت ذلك الميثاق، لم تحترم ذلك الميثاق... لست أمزح معك، فمن هو شقيقنا عليه أن يكون مثل أشقائه الآخرين وعليه ألا يكون سبباً لإيذاء الآخرين». كانت هذه المرة الأولى التي أراه فيها غاضباً ومضطرباً؛ في السابق كنت أشعر أنّه يحبّني ولن ينزعج منّي. فدائماً ما كان يقول لي: «أين كنت طيلة هذه السنوات، يا ذا الرأس الصغير؟ ولمَ لمْ تطلب منّي أغنية الأخوة كامكار مبكّراً؟» في ذلك اليوم لم أعرف ما الذي قد ارتكبته، فقال محمّد زجاجي القلب: «من يقدم على ميثاق الأخوَّة، كيف يمكنه أن يذهب إلى الحرب؟ كيف يمكنه أن يظلم الناس الذين لا يعرفهم؟ وبأمر من يفعل ذلك؟ بأمر قوّاده؟ ولكنّ القوّاد لا يعرفون ماذا تعني الأخوة!»؛ كان يعد آخر شجرة رمان في العالم آخر شجرة الصداقة في الحياة... في الحياة النقية والبعيدة عن الرياء والخداع. فخرجت من الحرب بتوصيته وسلّمت أسلحتي.

في الأيام الأولى للحرب كان الجميع يتوسل كي تنتهي الحرب سريعاً. وكنّا نذهب باستمرار تحت آخر شجرة رمان في العالم ونفكر في حياتنا. في تلك الأيام وضعت أنا وسرياس رمانتينا على الأرض ونظرنا إليها، الرمانتين الزجاجيتين اللتين كانتا تدلان على صلة

الأخوة العميقة. رفعناها وقلنا: «يا رب... يا مالك الأرض والسماء، بحق هذه الرمانّة الجميلة أنهِ هذه الحرب سريعاً». الدعاء الذي بتّ أفهم اليوم كم كان أمنية واهية ولكنها عظيمة في الوقت ذاته.

الشريط الرابع

في الساعة الحادية عشر قبل الظهر أبلغني باعة "الدوغ"[20] الجوّالين بموت سرياس الصباحي.

حين قُتل كنّا لا نزال متخاصمين؛ كنّا نحن الاثنين ننتظر أن يأتي نديم الأمير ويصالحنا. بعد موت زجاجي القلب كنّا نفكّر في آخر شجرة رمان في العالم، ونتذكّر قمّة ذلك الجبل؛ ونذكر اللحظات التي ذقنا فيها طعم الحياة والصداقة والأخوة.

تخاصمت معه بعد معرفته بالشقيقين البيضاوين؛ إذ إنّني أصبت بالجنون بعد أن جاء ذات أصيل وعانقني قائلاً: «لقد عقدت ميثاق الأخوة مع تينك الشقيقتين». إني أكره الشقيقتين البيضاوين؛ كما أن الحقائق التي اتضحت لي بعد موت زجاجي القلب لم تغيّر نظرتي تجاههما. رأيتهما ذات ليلة صيفية في ساحة ينام فيها عددٌ من الباعة الجوالين. في تلك الليلة كنت قد جئت لأقول بعض الأمور لسرياس فتناهى من بعيد صوت غناء جميل إلى أذني. رأيت أصحاب العربات قد افترشوا الأرض متربعين وقد فغرت أفواههم من الدهشة؛ وكانت

---

(20) مزيج الزبادي والماء المثلج، ويعرف في بلاد الشام باسم لبن عيران.

الشقيقتان البيضاوان تقعدان على كرسيين تعودان للمقهى وتغنيان. نهضتا بعد انتهاء غنائهما وخاطبتا بروفيسور ليالينا المظلمة بنظراتهما الثقيلة والباردة: «أوصلنا إلى بيتنا». فردّ المارشال بحياء أخ: «على عيني، سأوصلكما الآن». كنت قد ذهبت في تلك الليلة كي أقول له الكثير من الأمور. فقلتُ لسرياس: «لا تذهب، فلدي ألف شيء لم أقله لك، ليس ألفاً، بل مئة ألف موضوع جديد. لدي الكثير من الكلام الرائع واللطيف عليَّ أن أرويه لك». كنّا في أغلب الليالي نجلس معاً ونتكلّم عن قصص زجاجي القلب ومغامراته؛ وكنّا نملك صورة له في محفظتينا. في تلك الليلة لم أرد أن يذهب سرياس مع الشقيقتين ويتركني وحيداً؛ إلا أنّه قال: «يا سرياس، لن ينتهي العالم الليلة. في وقت لاحق تخبرني بهذه الأمور؛ في وقتٍ آخر».

كانت تلك آخر ليلة صداقتنا ولم أتكلّم معه في اليوم التالي. جاء عدّة مرات وعانقني وقبّلني إلا أنّني لم أكلّمه؛ ولا أخفي عنكم أنّني كنت أودّ القضاء عليه. كنت أرغب في أن أجد نهاية لهذا الموضوع كلّه كي أكون سرياس الوحيد على وجه الأرض. في ذلك الوقت لم يكن نديم الأمير قد عاد بعد، ولم أكن أعلم أنه قد وجد قطعاً أثرية أخرى في الجبل. عاد نديم الأمير بعد فترة طويلة من موت سرياس ومحمّد زجاجي القلب... بعد فترة متأخّرة جداً، ولم تكن هناك أي فائدة عند عودته. كان قد عاد بعد لقائه بالسيد جلال شمس، وقلب المدينة كلها بحثاً عني والمارشال، إلا أنه لم يجد أيّاً منا؛ وفي النهاية روى قصته كلها لمحمّد زجاجي القلب. كان قد جاء هنا في مسير رحلته الطويلة الجديدة إلى الشرق، كي يقول شيئاً لنا ويمضي

في طريقه. كان يريد الذهاب صباحاً إلى ذلك الجانب من الحدود بشاحنة تويوتا صغيرة مع عدد من معارفه؛ فروى بفخر أسراره كلها لمحمّد زجاجي القلب. وقبل يوم من فيضان ذلك المساء وغافلاً عن موته المفاجئ، ذهب زجاجي القلب عند بروفيسور الليالي المظلمة وهو يبدو مثل أكثر رجال العالم ثملاً؛ كان ينشد أغنية ويعبث بمفاتيحه. ودون أن يكشف له شيئاً طلب منه أن يعيره رمّانته الزجاجية قائلاً: «إنّني على وشك اكتشاف سر كبير، لن أقول لك شيئاً الآن حتى أتأكّد من الموضوع». عند ذهابه كان سعيداً جداً ويمزح كثيراً بحيث أثار استغراب المارشال، وكان هذا آخر لقاء بين المارشال ومحمّد زجاجي القلب؛ وفي ذلك الغروب ذهب محمّد زجاجي القلب للقاء بائع الأنتيكات الذي لم يره قطّ.

آه، يا مظفّر الصبّاحي؛ عمَّ أتحدث لك... عمّ؟ هنا لا يمكنني أن أساعدك، في الليل المظلم السخيف لهذا السجن، لا يمكنني أن أساعدك. فقد أدركتُ كل شيء. لم تعد لدي أمنية كي أفكر فيها، وفي فترةٍ ما كنت أبصق على اسمي. بعد فترة طويلة من عودة نديم الأمير وجدني وقت الحراسة في أحد المتاريس. فقلتُ له: «لقد مسحت كل تلك الأيام من ذهني لأتبوّل عليك، وعلى آخر شجرة الرمّان في الدنيا الخاصّة بك، وعلى تلك القصص. اسمي ليس سرياس الصباحي، ليس لدي أي اسم، انظر... إنني أعيش فقط من أجل هذه البندقية التي على كتفي... »؛ وأضفت: «انهض وابعد عنّي هذه الأراجيف، انهض وقبل أن أتبوّل على عينيك العمياوين. اذهب؛ ولا أريد أن أراك ثانية».

إنّه يعرف كلّ شيء، ويستطيع أن يساعدك.

يا مظفّر الصبّاحي، في بعض الأحيان أضطرّ إلى إغلاق المسجّل كي أذرف الدموع.

كان الوقت قد تجاوز الحادية عشرة ليلاً حين أخبروني بموت سرياس الصبّاحي؛ ولم يكن هناك من يعرف سرياس قد صدَّق نبأ موته. ومن بين أولئك الذين سمعوا ذلك الصخب لم أعرف أحداً قد صدّقه. كانت قصّة غريبة وعديمة المعنى، ولا أصدّقها حتّى الآن. أتذكّر مساء تلك الواقعة، إذ كنت أتسكّع في السوق ثملاً مترنّحاً، وكان ثمّة مقهى صغير وسط المدينة، وهو مكانٌ لجلوس الأشخاص الذين يحبّون شمس الخريف. وأنا أيضاً حين كان يحلّ الخريف كنتُ أفضّل البقاء تحت الشمس. هناك انتبهتُ إلى صخب السوق؛ كنتُ قاعداً على مقعد في إيوانٍ صغير وآخذ قضمات متوالية من البوظة وأضحك. لقد مرّ شهران على خصامي مع الصبّاحي الكبير. كنتُ جالساً تحت الشمس وأنظر من الإيوان إلى جلبة الباعة الجوّالين. ثم حين سمعت صوت الرصاصة ضحكت مقهقهاً، ولمّا ترك مئات الباعة عرباتهم وركضوا باتجاه صوت إطلاق الرصاص، نزلت من الإيوان منزعجاً وبلا مزاج، وابتعدت عن صخب تلك الجلبة وصراخ المحتشدين. اتجهت إلى أدنى الشارع باتجاه محل بيع أشرطة الفيديو، حيث كان يعرض الأفلام المحظورة ومثل هذه الأمور؛ وحتّى وقت متأخّر من الليل كنت أتفرّج على تلك التفاهات وأتحسّر. عندما عدتُ ليلاً ونظرت إلى النجوم أدركتُ أنّ حادثاً كبيراً قد وقع؛ فتحسّستُ الرمّانة الزجاجية في جيبي وشعرت أنّها دامية. كنت متأكّداً أنّها دامية؛ وحين نظرت إلى يدي في ضوء النجوم رأيتها دامية. عندما نظرت إلى

الرمانة كانت مبتلة بالدماء؛ ولكنني حين وضعتها أمام الضوء لم أرَ شيئاً. عندما كنتُ أضع الرمّانة في الظلام كان جسمي كلّه يبتلّ بالدماء. عند عودتي إلى غرفتي شعرتُ بإحساس غريب وأنّني مبتل بالدماء. لم يكن هناك أحد في غرفتي؛ في ذاك الوقت كانت قد مرّت فترة منذ ذهاب شريف الفراشة إلى دمشق، وكنت أعيش وحيداً في تلك الغرفة. غرقت في النوم وأنا أشعر بالدماء على جسدي؛ وفي أثناء الليل قُتلت عدة مرّات وأحييت. وطيلة الليل كان جسمي ينزف وأفزّ من النوم وأضيء المصباح وأنظر إلى نفسي، ثم أعود إلى سريري. عند الصباح المبكّر خرجت وتركت رمّانتي الزجاجية في البيت، وكأنّني أهرب من وهم دام يلاحقني طيلة الليلة الماضية؛ وشعرتُ أنّ الرمّانة تنزف. في الساعة الحادية عشر صباحاً عرفت أن سرياس الصباحي قد قُتل.

تناولت طاس مخيض اللبن من بائع "الدوغ" وسألته: «لمَ لبنك هذا غير مثلج؟» فأجابني: «لقد بدأنا العمل تواً؛ إذ ذهبنا صباحاً عند قبر المارشال، وكان أهل السوق كلهم مجتمعين هناك، لقد قتله مأمورو الشرطة». فوقع طاس اللبن من يدي، كما حدث صباح ذلك اليوم الذي سمعتُ فيه خبر موت زجاجي القلب فوقع أبريق الشاي منّي. في البداية لم أثق بكلام ذلك الصبي، فكرّر جميع الصبيان باعة "الدوغ" القصة لي من جديد. فقلتُ مثل المجانين: «هذا مستحيل... هذا أمر غير ممكن». ثم سألت الجميع في السوق؛ باعة السجائر، وباعة الحليب، وباعة المرايا وباعة الأسماك. روى لي الجميعُ تفاصيلَ القضية كلها؛ وأخذوني إلى مكان إصابته، وأروني دماءً لم تنظف حتى ذلك الوقت. كان الجميع يعرفون المارشال ويبكون

من أجله، وكانوا يروون قصته بهدوء وقد تبلّلت عيونهم بالدموع. لم يكونوا يعرفوني ولكنهم من فرط حزنهم، ولشعورهم بالحسرة، ومن أجل أن يكونوا قد فعلوا شيئاً ما يخفف من ذلك الألم، كانوا يحتضنوني ويقبّلوني؛ وكنت أصرخ باستمرار وأقول: «هذا كذب، كذب... إنكم كاذبون». تركت الجميع؛ فمسك أحدهم بيدي وقال: «تعال كي آخذك إلى مسجد يقيمون فيه مراسم ختمة».

لم أكن أؤمن بمراسم العزاء ومثل هذه الأمور، ولم أؤمن بعمل أولئك الذين يقعدون مدة يومين على كراسي خشنة غير مريحة ويتناولون الماء ومثل هذه الأمور، ثم يذهبون إلى بيتٍ لتناول الفواكه ليطلقوا على هذه الأعمال مراسيمَ العزاء. كلّ تلك الأشياء كانت مجرّد تفاهة بالنسبة لي؛ إذ كنت أؤمن بالبكاء الشديد وإهالة التراب على الرأس وجرح الذات ومثل هذه الأمور. في ذلك اليوم ذهبت إلى زقاق فارغ وشرعت في البكاء... كلا، ليس البكاء؛ بل كنت أضرب رأسي بالجدار. ظللت أضرب رأسي بجدار حجريٍ لأحد البيوت. ابتلّ جسمي كلّه بالدماء، فقلت: «لمَ لم يمت تعس مثلي وتموت أنت؟... لمَ يعيش حيوان مثلي وتموت أنت؟ لمَ لا يُقتل بائس مثلي وتُقتل أنت؟» بهذه الآلام أوصلت نفسي إلى البيت؛ وكنت أصرخ طيلة الطريق مثل المجانين، وأضرب رأسي بأي شجرة أو جدار أصادفهما في طريقي، وأقبض على تراب الأزقة وأهيله على رأسي ووجهي؛ وأصرخ على نفسي: «لقد بقيت وحيداً، يا سرياس... لقد أصبحتَ وحيداً يا بن الزانية؛ وكأنه لم يحدث أي شيء». ضربت الرمانة الزجاجية عدة مرات، ولكنّها لم تتحطّم؛ فرميتها على الأرض

ولم تتهشّم. انتهى كل شيء بالنسبة لي؛ وذلك آخر يوم في حياتي.

حين مات سرياس الصباحي متّ أنا أيضاً.

بعد ذلك طردت نديم الأمير ثلاث مرات؛ كان يعود وكنت أروي له في كل مرة جزءاً من القصة، ودائماً ما كان يأتيني وقت حراستي؛ وأنا في مكاني أحرس الليل والمطر والإعصار. ظل ذلك الأعمى يأتي بعصاه الشيطانية ويقول: «لا تطردني، يا سرياس! لدي سر كبير... أريدك أن تعرف كل شيء. يجب أن يُفكّ هذا الطلسم بيدك وبيدي؛ وسننجح أنا وأنت في الكشف عن سرّ لم ينجح كلّ أولئك الآخرين في الكشف عنه». كنتُ أكرهه، ولم أكن أريد أن يذكرني أحدٌ بحياتي الماضية. جاءني في ليلة مظلمة وماطرة، فقلت له: «لمَ لا تدعني وشأني أيّها الكلب الأعمى؟ ألا تراني أحرس اللا شيء تحت هذا المطر؟ ألا ترى! ماذا تريد بعد؟ فلمَ لا تدعني وشأني؟» كان يحمل مظلّلة، صرخ: «يا سرياس ذو الرأس الصغير! أنت لا تعرف أيّ شيء، لا تعلم أيّ شيء، أنت لست وحيداً، هناك أشخاص آخرون غير المارشال. هناك سرياس آخر، هناك حياة أخرى، وسر آخر... ما أنت؟ هل تتصوّر أنت الوحيد الموجود؟ أتتصوّر أنّه لو مات مارشال ليالينا المظلمة فإنّ هذه القصة ستنتهي أيضاً؟ أتتصوّر أنّ العالم سينتهي؟ كما تريد... تريد أن تدفن سرَّكَ في القبر معك. يمكنك أن تقولَ لا أريدُ أن أعرف من أكون. كما تريد... تباً لك. تريد أن تقولَ إنّي أعيش مثل الكلاب، وأنّك لا تؤمن بكرام الكاتبين ومثل هذه الأمور، ويمكنك أن تدسَّ أنفك في مؤخّرة الكلاب حتى تلقي حتفك. ولكنّني أعرف أنّ هناك سراً يجبُ أن يكشف، ليس من أجلك

أنت، بل من أجل أولئك الملائكة الذين ينسبون كلّ شيء لروح هذين الشابّين، والذين حاولوا أن يجعلوا منك إنساناً ولم تصبح. لأجل أولئك الملائكة الذين يقولون لذينك الشابين المأسوف عليهما إنّ نديم الأمير لم يترككما، ولكن من يملك الحقائق لا يكشف أيّ شيء. إن لم يكن معي ضمان فذلك الرجل الذي يعرف الأسرار سيطلب مني تقديم الضمان. الدليل الذي لديك وليس لدي، أتفهم؟... أتفهم الآن لمَ أصرخ تحت هذا المطر؟»

كان المطر يهطل بشدة بحيث كنت أسمع كلامه بصعوبة، فقلت له: «أيّها الكلب الأعمى، لا تقترب، سأطلق عليك النار أتفهم؟ إني لا أخشى شيئاً؛ لا من حياتي، ولا من حياة أي شخص آخر أيّها الشيطان الأعمى... ليس لديك كرام الكاتبين، بل لديك الكلاب؛ تفو على حكاياتك. اسمي ليس سرياس... وليس مهمّاً بالنسبة لي من هناك في هذا العالم، ومن سيبقى ومن لن يبقى. لا أملك شيئاً ولم يبقَ لي ما يبهجني، فاذهب وخذ دليلك من الشيطان. قسماً بملائكة أبيك ذوي العيون الخضر دعني وشأني». في تلك الليلة طردت نديم الأمير ثلاث مرات ولكنه كان يعود بعد فترة قصيرة. كان المطر يزداد غزارة؛ وفي كلّ مرة كان يروي جزءاً من تلك القصّة. يا إلهي، وفي النهاية أطلقت عليه النار، مثل المجانين أطلقت النار فوق رأسه... كان يركض مثل المعتوهين وكنتُ أركض خلفه. كان يقع على الأرض وكنت أطلق الرصاص فوق رأسه. خطفت الرياح مظلته، فوقع عدّة مرات في الوحل؛ وكان ينهض ويشتمني وأنا أيضاً كنت أردّ عليه بإطلاق الرصاص، على الليل، والريح، وماضيّ أنا نفسي، وكنت أضغط

على الزناد مثل المجانين وأطلق النار. كنت أصرخ: «دعني وشأني يا بن الكلب، دعني وشأني... لقد قلت لك دعني وشأني»، فهرب وجلست مثل يتيم حزين وسط أوحال الليلة الماطرة تلك، وشرعت في البكاء كالأطفال. بعد موت سرياس انقلبت حياتي كلها؛ وللمرة الأخيرة ذهبت ذات يوم تحت آخر شجرة رمان في العالم؛ وقفت على القمّة وكأنني أودع جميع تلك الأيام التي تعرفت فيها إلى أولئك الشباب الحنونين. رفعت الرمّانة الزجاجية تلك ورميتها بكل قوتي من ذلك الارتفاع. ما زالت الرمّانة هناك في ذلك المنحدر والوادي وبين الصخور المرعبة التي لا تصلها يد أي إنسان. ذلك المنحدر الأسود الذي لا يمكن لأيّ شخص أن يصل إليه. لم أكن أعرف معنى تلك الرمّانة في ذلك اليوم الذي رميت فيه الرمّانة. كنت أفكّر في نفسي، وولادتي، وطفولتي ومراهقتي، وميثاقي مع المسكينين الميتين... فبعد موتهما شعرتُ بحرية شيطاني الداخلي. لم أعد أنا نفسي، لم يعد لي وجهي؛ بل كنت مدمّراً، أريد تدمير نفسي وجميع تلك الأمور الأخرى. أعادني موتهما إلى ساحة حرب؛ كانت حياتي كلها تلك الرمّانة الزجاجية التي رميتها بكلّ قوّتي؛ رميتها بعيداً وانطلقتُ صوب الجحيم. يمكنك أن تسألني: ما علاقة موتهما بعودتك إلى الحرب؟ لقد فكّرت كثيراً في هذا الأمر، لقد جرّبت السجن. إنك تعلم أن للمرء الكثير من الوقت في زنزانته الانفرادية ليفكّر. أشعر أنّه أنا وأنت نتحدّث لهذا السبب الحزين والميئوس منه؛ لأننا قد تعلّمنا التفكير في السجن. يا مظفّر الصبّاحي، لقد تعلّمت التفكير في السجن؛ وقبل ذلك كلّ شيء كنت أفكّر فيه كان عديم المعنى. في تلك الليلة حيث عدتُ فيها من لدن آخر شجرة رمّان في الدنيا آخر مرّة، شعرتُ أنه

ليس لديّ مكان على هذه الأرض. في تلك الليلة هشّمت جميع المرايا وأحرقت جميع صوري. الصورة الوحيدة التي لم أستطع حرقها كانت صورة الطفل الباكي في حضن الديكتاتور الضاحك. ربّما كانوا قد طبعوا مئات أو آلاف الملصقات من تلك الصورة. منذ ذلك اليوم لم أعد أرى وجهي. اسمعني يا مظفّر الصبّاحي... إنّ الذين لا يرون وجوههم هم أشخاص خطيرون. منذ ذلك اليوم حين رميت، عند آخر شجرة رمّان في العالم، روحي بعيداً لم أعد مستعداً للتفكير في شخص اسمه سرياس الصبّاحي. كان سرياس الصبّاحي كذبة كبيرة؛ لم يكن إنساناً بل كان شيئاً مصطنعاً كي يضيعَ في تلك الفترة المظلمة. ولم يكن لديّ أيّ طريق للخلاص إذ كنت قد سرت في طريقٍ لم يعد بإمكاني أن أتراجع عنه.

ذهبت ذات ليلة بلحية طويلة وعينين غائرتين وخاملتين إلى مقرّ القوّات القديمة التي كنت قد تركتها سابقاً؛ عدتُ إلى أحضان الحرب ببطن جائع وجيب فارغ كعادتي مثل أكثر أشخاص العالم بؤساً وعجزاً. في تلك الفترة كانت الحرب تشتدّ ضراوتها شيئاً فشيئاً، ثم تهدأ... تبدأ وتنتهي. حين عدتُ إلى الحرب كانت شرارة شيطانية قد سيطرت على روحي؛ ومثل جميع مهزومي العالم وفاقدي الأمل كنتُ أريد أن تزول الكائنات وآلهتها. في اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى المعسكر كانت قد مرّت فترة طويلة لم آكل فيها شيئاً؛ وكانت قد مرّت فترة طويلة أيضاً لم أغتسل فيها، وكنت قد أمسيت عاجزاً وذابلاً وبائساً، أجل، يا مظفّر الصبّاحي، شعرت بعد موت سرياس الكبير أنه لم يعد بإمكاني قضاء حياة هادئة؛ وأنّه لا يوجد شيء أحمله

في هذه البلاد سوى السلاح. فبعد أن رميت تلك الرمّانة لم يتبقَ لي سوى البندقية لأحملها. كان الأمر المهم هو أن أطلق النار على العالم من مكانٍ ما، ولم أعرف لمَ كنت أحارب ومن أجل من أحارب، ومن سأقتل. إلّا أن كل هذا لم يكن ذا أهمية، فالمهم هو اليوم الذي سأطلق فيه النار على العالم من مكانٍ ما.

لقد مرت فترة لم أعد أريد معرفة من أكون وما أكون، فشاركت في عدة حروب مدمّرة؛ وأمسيتُ جزءاً من ذلك العالم تماماً، ونادراً ما كنت أذهب إلى المدينة، إذ كنت أقضي وقتي كلّه في الجبال والتلال والخطوط الأمامية للحرب مثل رجل بدائي متوحّش. كنت أؤدّي التحية العسكرية للقادة وأستمتع لكوني عبداً قاسياً؛ وأشعر بالفخر لحراستي اللا شيء الذي يرغب فيه القادة، في الجليد والعاصفة الثلجية والظلام الدامس. كنتُ قد أصبحت مثل الدراويش، وباتت لحيتي تطول يوماً بعد يوم. وسواء أكانت هناك حرب أم لم تكن فإنني كنت مستعداً دائماً. لم أسمح لنفسي بالراحة لعشرات الليالي؛ ولعشرات الليالي كان زملائي يرقدون في أسرتهم وكنت أناوب مكانهم جميعاً، وأجلس في العتمة مثل المجاذيب وأصيخ السمع لصوت الرياح وهمس الحيوانات الساهرة في الليل.

حتى عند حلول السلام لم أكن أنزل من الجبال؛ كنتُ من زمرة الأشخاص الذين يقضون حياتهم في الجبال والكهوف والتلال من حرب إلى حرب أخرى. كنت قذراً ودنيئاً مثل تلك الحروب التي أشارِكُ فيها. يا مظفر الصباحي... آه، يا من تبدو مثل شخص لن نرى بعضنا بعضاً. في بعض الليالي أشعر بالندم وفي الليالي الأخرى لا

أشعر بذلك. لم يكن بإمكاني ألا أشارك في هذه الحروب، وألا أخدم أولئك الضباط والقادة الذين كانوا يشبعوني، ويقولون لي: «أطلق النار، يا سرياس الصباحي أطلق النار، يا لعين. أطلق النار يا بن الزنا». كان قادتي راضين منّي، وكانوا يحبّون جميع أولئك الذين يحرسونهم مثل الكلاب؛ وأنا كنت أولئك الكلاب؛ حيث كنت في جميع الحروب أهجم على الخطوط الأمامية للعدو. وكلّما كانوا يريدون الهجوم على قمّة جبل شديد الوعورة ولم يجدوا أحداً، كنت أنا الذي يتطوّع لهذه المهمّة؛ وأقول: «أنا سأذهب»، صاروا يطلقون عليّ اسم «المدرّع». كانت فترة السلام أسوأ أيام حياتي إذ شعرتُ بكآبة شديدة؛ ولم يكن لدي ما أفعله في هذه الفترة غير تنظيف بندقيتي والنوم. كنتُ أنظّف بندقيّتي مرتين في اليوم وأنام؛ ومنذ ذهابي إلى الحروب لم أعد أشاهد التلفاز مساءً ولا أستمع إلى الأخوة كامكار. وحين كان عناصر البيشمركه يستمعون إلى الأخوة كامكار كنت أذهب بعيداً عنهم، إذ كان يزعجني أي شيء يربطني بأيامي السعيدة الماضية تلك. لما كانوا يستمعون إلى الأخوة كامكار كنت أفرغ شاجور ذا 75 رصاصة في كبد السماء، أو كنت أحمل الآر بي جي، وأطلق النار في السهول والجبال والتلال المنهكة. كنت أريد تجفيف الذكريات في أعماقي، إلا أنّني لم أستطع فعل ذلك. ذات مساء كنت جالساً على صخرة كبيرة مرتفعة فناداني أحد عناصر البيشمركه قائلاً: «لقد جاء الأخوة كامكار، يا سرياس الصباحي، لقد جاء الأخوة كامكار». ناداني بصوتٍ عالٍ جداً بحيث انعكس صوته في تلك الجبال والوديان. كان قد سمع خبر مجيء الأخوة كامكار من المذياع، وكان يعرف أنّ أمنية حياتي الوحيدة هي أن أراهم يؤدون عرضاً أمامي. وفي الليلة التي كانوا

سيؤدّون فيها عرضهم ذهبت إلى وادٍ، ووضعت فوهة المسدس على صدغي. لا تخف، لا تخف... فإني لا زلت حيّاً؛ الأمر كلّه كان عبارة عن تفاهات، لا غير. انحرفت تلك الرصاصة بشكلٍ عجيب وخلّفت ندبة طويلة على جبهتي، إلا أنها لم تقتلني.

ذات يوم والندبة تعلو جبهتي سلّمني ورقة كي أوصلها لشخص في المدينة؛ فيما مضى لم يكلّفوني بمثل هذه المهمات. كانت فترة عصيبة جداً، وكان من الواضح أن الحرب والمعارك ستبدأ قريباً. لم يكن بإمكان قائدنا أن يذهب إلى المدينة، ولم يجد شخصاً أكثر خضوعاً وملتزماً مثلي. في البداية قال إنني أريد إرسالها إلى أختي؛ ثم قال بعد مكثٍ قصير: «كلا، ليس لأختي. بل لعاهرة دمرت حياتي، وأحبها بقدر مئة ملاك». أوصلت الرسالة لتلك العاهرة وكانت جميلة جداً، وتعمل موظفة في إحدى المؤسسات. كانت جميلة جداً بحيث أوشكت على التفكير في أن أحبّ حياتي السابقة؛ وكدت أوشك على الجثو على ركبتيّ أمامها وأقول: «تزوجيني». ولكن حين سلمتها الورقة قالت بلا مبالاة: «مرة أخرى ذلك اللعين. كنت سعيدة أنها رسالة إحسان؛ إلا أنها مرسلة من الجزمة ذاتها. ليغرب إلى الجحيم. أيها الطفل الأحمق والتافه، يا لهذه القذارة التي جلبتها لي؛ يا مسخ. اذهب وعُد بعد ساعة لتأخذ الجواب».

لمّا وصلت إلى السوق كان جيش أصحاب العربات قد تشتت، وجمع مأمورو الشرطة العربات وحطّموها. كانت هناك آلاف العربات المحطّمة مرمية في الشوارع والأزقة وأمام السوق ومراكز التسوق. عندما وصلت كانت الحرب قد انتهت. وقفتُ بين حطام

آلاف العربات اليدوية؛ وكانت قد تكّومت آلاف الصناديق الكرتونية والخشبية المحطّمة، وكان ثمة غبار يتماوج في الجو يشبه الغبار المتصاعد في ساحات الحروب. في بعض الأماكن كنت أرى دماء الباعة الجوالين المسفوكة على الفواكه والأسماك والسيجار والشامبو الإيراني. وفي الأماكن الأخرى رأيت مأموري الشرطة يأخذون الباعة الجوالين إلى شاحنة خضراء، ويضربونهم بالخراطيم والهراوات. كنت مثل شخص يبحث عن جسد زميله في ساحة حرب واسعة. كنت أبحث بنظراتي بين حطام العربات المرمية هنا وهناك، حتى وصلت إلى المكان القديم لبروفيسور الليالي المظلمة، حيث كان يضع عربته هناك، وهناك وجدت حطام "صدر كجال" المتناثرة. في فترةٍ ما كانت تلك العربة أجمل عربات العالم؛ وقد استلمها أحد الصبيان الصغار بعد وفاة سرياس. كان سرياس يضع عليها أشرطته التركية والإيرانية ويبيعها؛ ودوماً ما يعلّق عليها قلادة زرقاء. أردت أن أمد يدي وافتحها ولكني لم أتجرأ على فعل ذلك. لم تكن لدي جرأة كافية في تلك اللحظة كي أفتح باب جميع الذكريات على نفسي، فتوقفت وشرعتُ في البكاء والنحيب. كان تحطّم تلك العربة يدل على نهاية فترةٍ ما، فترة لم يتبق اليوم أحدٌ ليتكلّم عنها، فترة تعد بالنسبة لي بداية جمال العالم كلّه ونهايته أيضاً.

الشريط الخامس

لم يكن هناك من يفهمني... لا أحد...

في جميع الحروب كنت أنا آخر من يترك المتراس، وكنت أصرخ بين عواء القذائف والتراب المتصاعد من القنابل ودخان الصواريخ: «لا يترك... أيّاً منكم... المتاريس...» وكنت أصرخ بحيث يخرج الدم من بلعومي. لقد كنت أصرخ بصوتٍ عالٍ جداً بحيث كان العدو في ذلك الجانب يسمع صوتي أيضاً. فاشتهرت في تلك الفترة التي كنتُ أعد فيها أصغر جاش في البلاد. وبعد الثورة أيضاً بقيت هكذا، إذ شاركت في جميع الحروب الأهلية؛ وعاهدت نفسي ذات يوم طالما لم تنته الحرب نهائياً، فإنني لن أتخلى عن جزمتي العسكرية وحقيبة الظهر وحزام الرصاص. في كلِ يوم يمرّ كنت أشعر بالعجز والذبول أكثر، وكانت لحيتي تطول يوماً بعد يوم، فأصبحت أشبه العفاريت ومثل هذه السخافات. ولمّا كانت الحرب لم تبدُ أنها ستنتهي، لذلك كنت حاضراً في كل مكان. والآن إذ أفكّر مع نفسي أجدني كنت أحارب في يوم واحد في عدة أماكن؛ إذ كنت صباحاً في مكان ما وعصراً في مكان آخر، وليلاً كنت في مكان مختلف. كان بعضهم يعدّني أكثر أبناء الوطن شجاعة وجرأة. دائماً ما كنت آخر شخص يترك المتراس، وحتى عندما كان يأتينا أمرٌ بالانسحاب لم أكن أرغب بالعودة، لذلك لم أتوقّف قطّ عن صراخي المستمر والعالي: «لا يترررررك أحدددددد موووووقعه»، ولم يفهم أحد سبب ذلك.

يا مظفّر الصبّاحي، لم يكن هناك في العالم شيئان متقاربان كالجرأة وفقدان الأمل، أتفهم؟ فالإنسان الشجاع هو شخص قد فقد أمله؛ وأنّ جميع الأشخاص الذين يتمنّون شيئاً ما هم إلا جبناء. لهذا السبب كنت آخر شخص يترك المتراس؛ لأنني كنت الشخص الأكثر

يأساً في العالم. كان جميع أصدقائي لديهم أمنية ما؛ فبعضهم كان يريد الذهاب إلى خارج البلاد، وهناك من كان يريد أن يصبح قائداً كبيراً. إلا أنّني لم أكن أملك أمنية قطّ. في أيّ مكان من جبال كردستان يطلق فيها الرصاص، كنت أحضر هناك بلحية طويلة وحقيبة ظهر ونظرات شيطانية؛ كنت أحمل الكلاشينكوف والآر بي جي والسلاح الرشاش مثال الشيطان عند هروبه من الجحيم. كنتُ أصعد لأعلى مكان وأكشف صدري أمام الإعصار والغضب، وأصرخ بصوت جهوري وحنجرة دامية وجسد مرتعش تماماً: «لا يترررك أأأأي منكمممم مواااقعه». كنت أحمل قنبلة يدوية وأغير على العدو، وأجتاز الحقول المليئة بالألغام والأسلاك الشائكة وكلّ تلك الأشياء اللعينة الأخرى وأصرخ. كنت أركض بين لعلعة رصاص الرشاشات ودوي قذائف "الدوشكا" وأصرخ. وفي الوقت الذي كانت آلاف الأسلحة تطلق الرصاص كنت أصرخ في تلك الساحات الدامية: «أين أنت يا محمّد زجاجي القلب؟» كنت أهتف: «أين أنت يا مارشال؟ لمَ لا أصل إليك يا بروفيسور ليالينا المظلمة؟»

كانت سريّتنا من الفرق العسكرية التي لا تأخذ أيّ شخص أسيراً. كنّا عشرين شخصاً من ذوي الأجسام الضخمة واللحى الطويلة ومثل هذه السخافات. كنّا قد تماهينا مع العرب تماماً؛ وكان قائدنا شابّاً فتياً لم يكن يرتاح دون الاستمتاع بالخمر والنساء، كان اسمه كريم شيرين، وهو شيطان لم يكن يعرف بفطنته كلّها لم اسمه كريم شيرين. كانت هناك الكثير من القصص عنه، إذ كان يقول بعضهم إنه كان يعمل في محل بيع حلويات وعصائر "كُلالة"؛ ويقول بعضهم

إنه كان مغرماً بعاهرة اسمها "شيرين"، في حين أن بعضهم يدعي أنّه عندما كان متزوّجاً سأله أحدهم كيف هو طعم المرأة؟ فأجابه: «إنه عذب، عذب جداً». يا إلهي، لم أر شخصاً يبكي هكذا كل ليلة من أجل امرأة ما. حين كانوا يأمرون من هم في المتاريس بالصمت، كان يبدأ بالبكاء. لم يكن متزوّجاً قبل أن يكون قائداً، مع هذا كانت لديه عشيقات في جميع أنحاء البلاد. لو لم تبدأ الحرب لكنت أسند ظهري إلى شجرة وأقف بقدم واحدة، وأرتشف الشاي وأستمع إلى قصصه عن نساء حياته الأسطوريات. كان يقول: «سناريا... آه، يا سرياس الصبّاحي؛ إنّك لم ترها. فقد صرعتني تماماً. لقد خرجت روحي من جسدي سبع مرات حتى جاءت لي. كان لديها أخت أجمل منها باسم "كناريا"، ولم تكن مثلها؛ فبمجرد أن تشير إليها كانت تحضر عندك، ولكنّها لم تكن ممتلئة القوام مثلها. وكانت "نقدة" زوجة صائغ، ولم يكن ينقصها شيء ما؛ وحين كان زوجها يخلد إلى النوم، كنت أضاجعها في الفناء الخلفي. لم أرَ شيئاً رائعاً مثل هذا في الأفلام حتى. كانت تضع عطراً قد بعثته لها أختها من النمسا؛ كانت جميلة جداً بحيث تصيب المرء بالجنون. و"به فرين"، لا تنخدع باسمها فإنّي لم أرَ فتاة أكثر سمرة منها؛ لم تكن بيضاء ومن هذا الكلام». كان يروي قصصه على نحو لم يكن أحد يشكّ بصدقه. لم تكن عينه ترى في الحرب، وحين كان يطلق النار من مدفع الدوشكا، كان ينادي النساء اللواتي كان يشعر بالحسرة تجاههن. كان قد أمرنا ألا نأخذ أي أسير، حيث قال: «سريّتنا لا تأخذ الأسرى، فكلّ من يأتي بعدنا عليه أن يأسر حيوان الخُلد». في البداية كنا نمسك ببعض الأسرى، إلى أن أخذوا كريم ذات يوم وأعادوه في وقت متأخّر من الليل. كان يقال إنّ الزعيم

أراد تعنيفه بسبب عبثه مع النساء؛ ولكن كل هذا كان مجرد هراء. إذ كانوا قد أخذوه ليعطوه جائزة ما، ومن هذا الهراء، وحين عاد تجرع الشاي حتى منتصف الليل وتحدث عن كيف يتناول الزعيم الطعام، وسلوكه ونكاته ومزاحه. بعد ذلك أمرنا ألا نأخذ أي أسير مهما كانت الظروف. كان البيشمركه الآخرون يخافون قتل أسراهم. كلا، يا مظفر الصباحي، لا أعرف بالضبط متى ساد قتل الأسرى في تلك الحروب. لقد كان الجميع يقتلون أسراهم ولكنهم كانوا يحتفظون بعدة أسرى، كي لا يكونوا خاليي الوفاض في المفاوضات بعضهم مع بعض، وأن يكون لديهم بعض الأسرى للتبادل إن لزم الأمر.

يا مظفّر الصبّاحي، كان لقتل الأسرى في تلك الحروب قواعد أيضاً لم نكن نعرفها؛ وكانت على نحو أن تعرف الأسير الذي تريد قتله، كي لا يكون ابن كبار المسؤولين أو ابن أحد الوجهاء، وألا يكون ابن السياسيين الكبار؛ ويجب ألا يكون هناك من يدعمه ويحميه، كي لا يأتي حفيده من أجل أخذ الثأر له لاحقاً. لم يتعلّم كريم شيرين هذه القاعدة، أو لم يكن يهتم بها؛ كان يتنهّد بذكر عشيقاته ويقول لنا: «اقضوا عليهم جميعاً». ذات يوم أسرنا شخصاً لم يكن علينا قتله؛ كان صبياً في العاشرة أو الثانية عشرة من عمره وكان أبوه قد جلبه كي يرشده إلى المتاريس. لقد كان ابن أحد أقارب رئيس عشيرة، وزعيم ذلك الجانب، وكان الابن الأكثر ذكاءً والأعز لتلك العائلة. من أولئك الصبيان الذين سيصبحون مستقبلياً من مسؤولي مكاتب الأحزاب في إيطاليا وأوربّا وبلاد الخنازير البرية وبلاد النوق ودول أخرى لا أعرف اسمها. كان صبياً يمطر رقةً وتهذيباً ولباقة. عندما أسرناه لم يكن يصدق أننا سنقتله،

إذ كان كل شيء بالنسبة له يبدو لعبة؛ فقلت لكريم شيرين: «أرسله عند أمه فهذا ليس من أولئك الذين يمكن قتلهم. دعه يذهب ليشرب الحليب الممزوج بالشكولاتة». كان كريم شيرين حزيناً في ذلك اليوم، فقال: «سأقتله حتى لو كان ابن أحد الآلهة؛ حتى لو كان ابن عم اليسوع فإني لن أتركه». فرجوت كريم شيرين مرة ثانية: «دعه يذهب ليلعب الغميضة مع أخواته، فأمه تنتظره كي تحممه... دعه يذهب لينجز واجباته». فقال: «إنّني لم أترك "جلورة" التي كانوا يعدونها عذراء كردستان وآلهة الشرف والأخلاق. كانوا يقولون إنّها رابعة العدوية حتى ضاجعتها بكامل حجابها... فكيف تريدني الآن أن أدع هذا وشأنه؟» كان سفك الدماء يمتعه بقدر معاشرة النساء. في ذلك اليوم كنتُ أشعر بالسوء، إذ كنت أعرف أن قتل ذلك الصبي سيجلب كارثة كبيرة. فوقفت أمام الصبي بلحيتي الطويلة وحقيبة ظهري وأصبحت درعاً له وقلت: «إما أن تقتلني أو لا أدعك تقتله». كنت أكذب ففي صميم قلبي كنت أخشى الموت بشكلٍ مخزٍ؛ ولو لم أخشَ الموت بهذا الشكل المخزي كان علي قتل نفسي بعدَ موت سرياس الكبير. فقال: «أنت لا، لن أقتل صديقي. لن أقتل من شاركته ذكرياتي الجميلة؛ ولكنني سأقتله».

كان كريم شيرين ينفذ الأعمال التي تناسبه فقط؛ ونادراً ما كان يعاملنا بوصفه مسؤولاً عنا، إلا أنه في بعض الأحيان يصبح ذئباً قذراً. في ذلك اليوم كان مزاجه متعكّراً أيضاً ولم يكن بإمكان أي منا التحدث معه؛ فتحدث معه "سامال گنجي" الذي كان قد التحق بالپيشمركه منذ فترة طويلة أكثر منا، وكان يعرف أكثر من الجميع أي تبعات ستكون في انتظارنا في حال موت ذلك الصبي. لاذ بالصمت

حين عرف أن كريم شيرين لن يستمع له، وجلس على صخرة ونظر إلينا. في وقت متأخّر من الغروب استغلّ كريم شيرين غفلتنا وقتل ذلك الصبي عند مائدة العشاء. كان منظراً غريباً إذ لم أكن قد رأيت مائدة دامية هكذا سابقاً. فامتلأ الرز بالدماء، وطافت قطع الخبز على الدماء. وكأنه قد حضنني أو شيء من هذا القبيل، فسقط رأس الصبي الصغير على حجري وتناثر الدم وعظام جمجمته على حجري؛ فنهضت ورميت الرز وقلت لكريم: «إنك لا تدعنا نتناول طعامنا».
كنت أعرف أنني أتفوّه بالهراء، ولكنّني لم أكن أعرف ماذا أقول. نظرت في تلك اللحظة إلى سامال گنجي، كنت أعرف بمَ يفكر. بعد ساعتين لفّ الصبي بالبطانية كي ندفنه، ثم فجأة اختفى سامال گنجي. وقفت على صخرة وقلت للجميع: «لقد هرب سامال، لقد ذهب إلى ذلك الجانب وعند العدو، علينا أن نخلي موقعنا هذا. علينا أن نخلي هذا المكان فوراً». لقد كان لدى كريم شيرين المعروف بـ«رمل الجبال» فكرة شيطانية، وكان هو أيضاً متأكداً أن سامال گنجي قد هرب كي يتظاهر بصداقته مع العدو. كان يعرف أنهم سيهاجموننا ليلاً بقوات كبيرة؛ فاختار مكاناً أمام خندقهم للإيقاع بهم، أي أننا تقدمنا قريباً منهم كي نهجم عليهم عند خروجهم. لم أكن ضليعاً بالخرائط ومثل هذه التفاهات؛ كنت أعرف فقط أن أطلق النار حين أرى العدو. كانت تلك الليلة الأكثر رعباً وعتمةً في حياتي. خرجت قوات العدو من متاريسها وهي تغنّي في منتصف الليل؛ كان الجميع يغنّي «مرة أخرى المطر». وحين وصلوا أمامنا صرخت بكلّ قوّتي وبصوتٍ مبحوحٍ: «أطلقوا النار... أطلقوا النار». ولم تكن صرختي قد انتهت بعد، إلّا وكنا قد أوصلنا عدداً من هؤلاء المساكين إلى السماء عند الله

تبارك وتعالى. الكارثة العظمى بدأت حين أسرنا أحد عشر شخصاً منهم. في تلك الليلة كنت أرغب في ألا نأسر أي شخص منهم حياً؛ لأنني كنت أعرف أن كريم شيرين سيقوم بالعبث معهم حتى يقتلهم. كان عبثه يشبه عبث الشيطان؛ ولم يكن هناك شيء ممتع له بقدر إيقاع أسير في مصيدته. في تلك الليلة كنا جميعاً منهكين صنو الكلاب اللاهثة، وكانت أجسامنا ملوّثة بالدماء والبارود والتراب؛ وكان رأسي ولحيتي مخضبين بالدماء، فرميت نفسي في أول نهر وجدته أمامي. رأيتهم يوقدون النار، بينما أسبح في الماء بحقيبة ظهري. أثار صخبهم ونباح عدّة كلاب شريدة من بعيد شعوراً في أعماقي لم أكن أؤنسه منذ فترة طويلة، الإحساس بجمال الليل وسحر الطبيعة وجمال الحياة. لما خرجت من الماء جلست على صخرة ورأيت أن كريم شيرين يضرب الأسرى ويعذبهم. كان الجو لطيفاً ومنعشاً، بحيث كان يبدو وكأنه يرينا نقاء الهواء وضياء الليل وهدوء الأرض وعبثية تلك الحروب. شعرتُ أن الهواء المنعش لتلك الليلة قد غيّر الكثير من الأشياء في وجودي؛ وبعد قتل ذلك الصبي في ذلك المساء كان شيء ما قد تحطّم في أعماقي، ولكنّ الوقت كان قد تأخّر كثيراً، وكان أعضاء البيشمركه التابعين لنا يهتفون بأهازيج النصر ويرقصون حول النار. جفّفت لحيتي بوشاح خصري، ولم أفعل شيئاً، وانتبهت إلى أن كريم شيرين قد بدأ بلهوه مع الأسرى. كنت متأكّداً أنه سيقتلهم قبل انقضاء الليلة، ولكنني لم أكن أعرف كيف سيفعل ذلك.

لقد قلت لكم إن عبثه يشبه عبث الشيطان؛ رأيته يفصل أحد الأسرى عن جماعته ويقول له: «الليلة سنلعب لعبة طريفة، لعبة طريفة جداً.

سأقيد زملاءك بتلك الشجرة؛ أترى تلك الشجرة، فإنها ليست بعيدة جداً؟ سوف تستهدف جباههم؛ وسط جباههم فقط، ولا نقبل بأي مكان آخر. ومن أجل أن تستقر الرصاصة في جباههم عليك أن تمسك البندقية بنفسك؛ ولكنك إن لم تصب جباههم فإن رأسك سيلقى في أسفل تلك الشجرة. أفهمت؟ سينجو شخص واحد فقط في النهاية، وأرغب في أن تكون أنت من ينجو». كان شابّاً نحيفاً؛ لم تسمح لي النار أمامي أن أرى وجهه جيداً. كنت أمسك بوشاحي وأنظف وجهي به، وكنت أشعر ببرودة ملابسي المبللة الملتصقة على جسمي؛ ولكنّني لم أكن أريد الاقتراب من النار. فصرخت من بعيد: «لا تعطه البندقية، لا تعطه البندقية... لا تفعل ذلك». كنت أعرف أن عقله لم يعد قادراً على التفكير بسبب نشوة الانتصار تلك؛ فضحك بصوتٍ عالٍ وقال: «لا تخف يا سرياس الصباحي، فالليلة هي ليلة استمتاعنا». كانت هذه آخر مرة يضحك فيها؛ ولم يضحك بعد ذلك أبداً. لم أرَ الحادث عن قرب، إذ كنت قد انحنيت للحظة قصيرة كي أربط رباط جزمتي، فسمعت صوت إطلاق النار. ولاحقاً حكوا لي عن فعلة ذلك الجندي المميتة حيث أطلق النار على كريم شيرين وشخصين آخرين بدلاً عن استهداف رفاقه. كانت لحظة واحدة فقط، لحظة قصيرة بحيث لا أستطيع أن أعدها. سمعت أحدهم صرخ بالقرب من النار: «لقد قتلوا كريماً». وسرعان ما سمعت الكثير من صوت تلقيم البنادق؛ والآن أيضاً تتجسّد أمامي تلك اللحظات مثل وميض الرعد والبرق. الآن أذكر صوت الرصاص والصراخ الممزوج بالأنين، فاستدرت بلحيتي وشعري المبللين وحقيبة الظهر التي باتت ثقيلة بفعل الماء وهجمت باتجاه البندقية، وحين أدرت رأسي كان الأسرى يهربون في ظلام

الليل. رأيت أن ذلك الشاب يطلق الرصاص وأن جماعتنا من البيشمركه يركضون مثال البُله، ويلقون أنفسهم على الأرض ويلقمون بنادقهم. أدرت قفل أمان السلاح، وأطلقت النار؛ فسمعت أحدهم يصرخ في الظلام: «يا ويلي، لقد أصبت». ثم تبعنا الأسرى مثل المجانين. لا أتذكر وحشية في حياتي كأحداث تلك الليلة؛ لاحقناهم وأبدناهم بالحراب والرصاص. قمنا بإبادة أولئك الأخوة الصغار والبريئين، في حين أننا لم نكن قد تحدثنا معهم ولا كلمة واحدة حتى. كانوا يصرخون بلغتنا: «لا تقتلونا»، وكنّا نغرز الحراب في قلوبهم؛ كنّا نغرز خناجرنا الحادّة في أسفل ذقونهم. لقد أسقطناهم صريعين مضرجين بدمائهم في أثناء هروبهم. كان هناك شقيقان بينهم، أمسكت بأحدهما ووضعت ذؤابة الخنجر على رقبته؛ وقبل أن أذبحه صرخ مخاطباً أخاه: «اهرب يا شهاب، عد إلى أمي... لا تتوقف؛ عد مباشرة إلى أمي». مزّقت ذؤابة الخنجر حنجرته قبل أن ينهي كلامه.

لن أنسى تلك الليلة ما حييت؛ صرخت في أعماق الليل والماء كان يتقطر من لحيتي وتقذف شرارة النار من عيني: «لا تدعوهم يذهبون... لا تدعوهم». كان جميع المشاركين في ساحات الحروب الأهلية يميّزون صراخي؛ ولم يكن هناك من لم يسمع صراخ سرياس في الجبال والهضاب. الصراخ الذي كانوا يقولون إنه يبدو مثل صرخة فهدٍ جائع. كانت صرخاتي غريبة وقوية بحيث كانت تنعكس في الوديان والجبال والهضاب كلها، وكانت تلك الصرخة الأقوى في حياتي. لا أذكر الكثير من أحداث تلك الليالي، إلا أن تلك الصرخة لا تزال ترّن في أذني. كانت ليلة خِرمس، وقد وقعت تلك المجزرة

في الظلام الدامس. لم يعرف أحدٌ من يتألم، ولم نرَ وجوه الأسرى. لما كنا نصل إليهم، كنا نذبحهم بين تلك الصخور وعلى الحصى القريبة من النهر. خلال تلك الليلة قتلنا جميع الأسرى ما عدا اثنين هربا تحت جنح الظلام، ولكننا كنا قد تفرقنا جداً بحيث لم نصل إلى أول معسكر حتى بعد طلوعِ الصباح. حين وصلنا إلى جثمان كريم شيرين كان الفجر قد حلّ، وكانت بقايا آخر ضحكة لا تزال مرسومة على وجهه. كان لا يزال ظل كلامه حيث قال «الليلة هذه ليلة استمتاعنا...» مستقراً على شفتيه. خلعت ساعته اليدوية ووضعتها في جيبي كي أحتفظ بحاجياته. في جيبه كانت ثمة حمالة صدر، وكان من الواضح أنه يحب النهود الصغيرة. كانت ثمة قصاصة في داخلها بخط فتاة من الواضح أنها لم تتعلّم القراءة والكتابة جيداً. كانت قد كتبت: «تقديماً لك، يا كريم الغالي، وفي ذكرى ليلتنا في الحمام». رميت حمالة الصدر والقصاصة بعيداً وقلت لعناصر البيشمركه: «حتى وصولنا إلى معسكر قواتنا سأكون قائدكم».

في ظهيرة ذلك اليوم أمرونا بالعودة إلى المقر؛ حاولت أن أفهمهم عن طريق اللاسلكي أن خطراً كبيراً يحدّق بنا، ولكنهم قالوا: «لقد صدر هذا الأمر من القيادة العامة». لم أكن أعرف شيئاً عن مثل هذه الترهات، فصرختُ في اللاسلكي: «قولوا للقيادة العامة أن تأتي بمؤخّرتها تلك، وتدافع عن هذا التل الملوث بالخراء حيث تريدنا أن نموت عليه». كنت متأكّداً أننا سنموت في تلك التلال؛ لم أكن أشفق على نفسي بل كنتُ أشفق على أولئك الشبان، الذين كانوا قد تعلموا حديثاً كيف يمزجوا أحلامهم بأمنياتهم. وبعد ساعة اتصلوا باللاسلكي وقالوا:

«إنّ لم تعودوا إلى مقرّكم فإنّ الحزب سيعدمكم جميعاً»، فصرخت بصوتٍ منهكٍ وباكٍ يُسمع في جميع لاسلكيات العالم: «إني أتبول على الحزب... أتبول على...»، ثم قلتُ للپيشمركه بعينين مبللتين بالدموع: «استمعوا إليّ، يريد الحزب أن يقتلنا هنا جميعاً صنو الكلاب، أنهم يريدون قتلنا كما ذبحنا هؤلاء الأسرى ليلة أمس. في هذه الحرب ما من أحد أشرف من الآخرين؛ أتفهموني؟ لقد خاض جميعكم الحرب... تهجمون أنتم في ليلة ما، وفي الليالي الأخرى هم من يقومون بالهجوم. الليلة سيقتلونكم جميعاً؛ استمعوا إليّ جيداً، سأعود وحدي إلى ذلك التل؛ فمنذ فترة لم أعد أخشى شيئاً. لست شجاعاً، لا تتصوروني شجاعاً ومثل هذه التفاهات؛ فإنني أخاف الموت أكثر من الفأر، ولكن لا أحد منكم قد فقد أمله بقدري. فقط قرر الحزب أن يقدّم شهداء في هذا التلّ الخرائي، كي يعقد من أجلهم مجالس الختم مدة أربعين يوماً ومثل هذا الهراء. إنّني مثلكم جميعاً أخشى الموت، ولكنّني لا أريد أن يُقتل أي منكم هناك. عودوا إلى أمهاتكم؛ ومن يمكنه أن يذهب وألا يعود إلى هذه الحرب، فمن الأفضل له ألا يعود. من يستطيع أن يرحل وألا يعود إلى هذه البلاد فعليه أن يرحل فوراً وألا يعود. من يملك مالاً ويمكنه العمل بمهنة أخرى، فمن الأفضل له أن يشتغل بمهنة أخرى». لم أكن أفكّر هكذا فيما مضى، ولكن أحداث الليلة السابقة كانت سيئة بحيث لم أتمكّن قطُّ من قضاء حياتي شريراً مثل السابق. في تلك اللحظة تذكّرت كلام سرياس الكبير عن الرجل الخارق؛ وأردت أول مرّة أن أكون رجلاً عظيماً. لقد أردت أن أسلمهم ذلك التل الخرائي بأقل الخسائر، إذ كنت متأكداً أن الحزب لا يستطيع تحويله إلى مرحاض حتى. كنتُ متأكداً أنهم سيذبحون جميع هؤلاء الصبيان اليافعين، وكانت صور أجسادهم

بين الصخور والنباتات والأشواك وتراب الصيف الساخن تتجسّد أمام عيني؛ كنت أرى أجسادهم واحداً تلو الآخر. كنت أعرف أن ذينك الأسيرين اللذين هربا في جنح الظلام يعرفان كل شيء عنا؛ كنت أعرف أن متاريس العدو في ذلك الجانب تعرف صرخاتي العالية. في تلك الليلة رحل جميع أفراد البيشمركه باستثناء شخصين أصرّا على الموت معي على ذلك التلّ المكلوم. ننتظر ثلاثتنا مجيء العدو؛ كانت ليلة قائظة، وقد سيطر البعوض على أطرافنا كلها. انتبهنا إليهم في حدود منتصف الليل؛ كان العدو قد جاء بكامل عدّته ليأخذ بثأر شهدائه. في البداية هاجمونا بالقذائف؛ بقينا بجوار أسلحتنا الدوشكا دون أن نشعر بالخوف. وفي حدود الساعة الواحدة صباحاً بدؤوا هجومهم؛ وكنت قد قررت أن أحارب بشرف في آخر معارك حياتي. لم ننهضِ ثلاثتنا حتى انتهت آخر رصاصة، وفي حدود الساعة الثالثة صباحاً انتهت ذخيرتنا. في الساعة الرابعة صاح سامال گنجي الذي أصبح الآن مرشداً للعدو، وقد اختفى خلف متراسٍ قريب: «إني أعرف أن ذخيرتك قد انتهت، يا سرياس الصباحي، استَسلم. انزل، أوعدك بشرفي أنهم لن يقتلونكم». حين تفوّه بهذا الكلام كانت قد مرت ساعة ونحن نعانق بعضنا بعضاً ممددين على الأرض ونحدّق إلى النجوم. يا إلهي، هذه عادة قذرة حين يقولون للأسرى في حروب هذه البلاد بشكل مستمر: «نوعدّكم بشرفنا، انزلوا؛ لن نؤذيكم». طلبت من عنصري البيشمركه الآخرين أن ينشدا معي أغنية للأخوة كامكار؛ كانت قد مرت فترة طويلة لم أنشد فيها أي أغنية للأخوة كامكار، إذ كنت قد ابتعدت عن تلك الأمور بعد موت سرياس الصباحي. في تلك الليلة غنينا ثلاثتنا أغاني الأخوة كامكار، وحين وجدنا العدو كنّا ننشد أغاني الأخوة كامكار.

لما أنزلونا قاموا باحتضاني وقالوا: «أنت مختلف، أنت شيء آخر». أعطوني قنينة مياه غازية، فتجرّعتها بسعادة وضحكت. كنت أنظر مثال الحمقى إلى حرّاس العدو وأضحك. ثم برشقتين قصيرتين لنيران الرشاشات، قتلوا رفيقيّ بجوار صخرة في ذلك الجانب. مرّ كل شيء بسرعة عديمة المعنى؛ فشعرت أنّ العالم يمرّ سريعاً بشكل غريب. كان ذلك آخر صوت لرشاش أسمعه في ساحة الحرب؛ ولم يكن بارداً وجافّاً ومرعباً كرشقات نيران الرشاشات الأخرى. بل يشبه صوت طائر جريح يحاول أن يغرد، مثل صوت حجل جريح. قالوا لي: «يا سرياس الصبّاحي، لك حساب آخر، فأنت مختلف».

في تلك اللحظة عرفت أنّهم لن يقتلوني، وسيحتفظون بي من أجل شيء أشدّ من الموت. حين أخذوا حقيبة ظهري وخلعوا وشاحي وشريط الذخائر الخاصّ بي وجزمتي، عرفت أنّ الحرب قد انتهت في حياتي إلى غير رجعة؛ إلا أنه كان يبدو أن الحرب لا تزال مستمرة بطرق أخرى. يا مظفر الصباحي، حين أخذوني إلى مبنى التلفزيون كي أفشي بجميع معلوماتي حول الحرب، كانت فعلتهم هذه تُعدّ جزءاً من الحرب أيضاً. بيد أن أولئك الذين جرّبوا الحرب في الخنادق والصراخ والهروب تحت مطر الرصاص فقط، سيحتاجون إلى وقت طويل جداً كي يدركوا الأساليب الأكثر دناءة وحقارة من الحرب المباشرة، وهي أكثر حقارة من الحرب في الأحراش والغابات. إني أقول لك إن حرب الرجال العاقلين دنيئة مئة ألف مرة أكثر من حروبنا نحن الرجال المتوحّشين وغير المتمدنين؛ وأقول لك هذا كي تنتبه إلى نفسك.

حين أخذوني إلى مبنى التلفزيون لم أكن قد وقفت أمام الكاميرا

قبل ذلك؛ ولم أكن أتصوّر أن أكون شخصاً مهماً بحيث تحيط بي عدة كاميرات كبيرة وتقوم بتصويري. ذاك اليوم جاء فريق مجهّز بكامل عدّته كي يصوّرني؛ فأفضيت بكلّ ما أعرفه أمام الكاميرات؛ تحدّثت عن الحروب بشكل كامل، وعن الأسرى الذين قتلناهم وعن فتيات كريم شيرين الحزينات، كما أفعل ذلك الآن لك. كما أنني رويت كل الهراء الذي كنت قد سمعته طيلة عمري، والكلام الذي كنت قد سمعته في بيت "كيخسرو آغا صوفيان آغا صدر أرحمي"، والنكات التي رواها العمال في بوراق، وقصة بروفيسور ليالينا المظلمة، وموت محمّد زجاجي القلب؛ رويت كل شيء أمام الكاميرات بلا تردّد. كان مقدِّم البرنامج الذي أجرى الحوار معي من أولئك المهندمين جداً بحيث إنه ينام ببدلته وربطة عنقه ليلاً. قال لي: «تكلّم كما تريد، تحدّث كما تشاء فإننا سنقوم بالمونتاج لاحقاً». كرّر هذه المفردة عدة مرّات فحككت ذقني وسألته: «ماذا يعني المونتاج؟» فأجاب: «يعني إننا سنقصّ كلامك الزائد ونلصق أجزاء الفلم بعضها ببعض بحيث لا يكون فيه أي انقطاع». جلستُ أمام الكاميرا، ورويت قصة حياتي كلها كما أردت؛ وفي بعض الأحيان كان يتصوّرني معتوهاً فيقطع كلامي ويكرر سؤالاً أو سؤالين بشكل مكرّر. تحدثت عن آخر شجرة رمان في الدنيا، وسألني: «في تلك الفترة كيف كانت علاقتك مع عناصر الجاش والخونة؟» فأجبته: «لم تكن لدي علاقة. أي علاقة؟ في تلك الفترة كنت صديق المارشال، صديق بروفيسور ليالينا المظلمة. فما علاقة آخر شجرة رمان في العالم بالجاش والخونة؟» ودون أن يشعر بالمفاجأة، سأل المقدّم الذي لم يكن قد سمع اسم المارشال وبروفيسور الليالي المظلمة: «هل كنتم في تلك الفترة تستلمون

الأسلحة من الحكومة المركزية؟» فأجبته: «كلا، في تلك الفترة كان سرياس الكبير يستلم صباحاً البطاطا والطماطم ومثل هذه الأشياء التي كانت تأتي من عند الحكومة، في سوق الخضار ويأخذها للبيع». مهما كنت أتحدّث كان يشير بيده كي أستمر، وكان يقول: «لا تقلق، فإننا سنقوم بالمونتاج لاحقا»، وبعد انتهاء كل شريط كنا نشرب الشاي ونرتاح. في وقت الراحة كان الجميع يقبلوني ويقولون: «إنّ كلامك يعدّ داكيومنت مهماً بالنسبة للحزب، وسيكسر ظهر أولئك الخونة». فكنت أحكّ ذقني وأسألهم: «ماذا يعني داكيومنت؟» فيقولون: «يعني وثيقة... أي لو ادعى الجاش في ذلك الجانب أنهم لم يفعلوا مثل هذه الأمور، فإننا سننشر كلامك ونقول انظروا فهذا كلام أحد رجالكم. سنرسل هذه الأفلام إلى العالم كله؛ إلى خارج البلاد، ودول الجوار، والأمم الأخرى، وقادة الدول الكبار، والأمم المتحدة، ومحكمة العدل الدولية، ومؤتمر الدول الإسلامية، والفاتيكان...».

مرة في طفولتي انتشرت في جميع العالم صورة لي وأنا أقف بين ساقَي الزعيم؛ والآن باتت هذه الأفلام تنتشر في جميع العالم أيضاً. في الحقيقة لم أكن سعيداً لانتقال صوري من يدٍ إلى يدٍ على هذا النحو؛ كما أنني لم أكن سعيداً أن يرى معممو العالم وسماحة البابا الهراء الذي تفوّهت به. ولما تأكّدت أن هذه الأفلام ستُبث لأشخاص أهم بكثير مني ومنك، صرت أتكلّم أكثر عن الحرب. تحدثت عمّا كنت أعرفه عن عنف الحروب وقساوتها وتوحشها. ظللت أنظر إلى المقدم باستمرار وأقول: «لم نكن وحدنا من كان يقوم بذلك الأمر، فإنكم لستم أكثر شرفاً منا؛ ففي هذه الحرب ما من أحد أكثر شرفاً

من الآخرين». كنت أرغب في أن أجعل الناس يخافون الحرب، وأن أقول شيئاً يجعلهم يشعرون بالعار، وفي النهاية قلتُ لذلك الشاب: «أخبروني متى تبثون هذه الأفلام كي أراها». كان من الواضح أن كلامي كان عديم المعنى؛ وبعد انتهاء تسجيل الأفلام لم أذق الشاي ولا أي مشروب آخر، إذ نقلوني في الليلة ذاتها، بيدين مغلولتين وعينين مغطيتين، إلى سجن صغير، وقالوا: «ابق هنا حتى يوم غد؛ وغداً صباحاً سنعرف إلى أي نعيم يمكنك الذهاب». في الليلة التالية نقلوني إلى هذا السجن؛ ومنذ ذلك الوقت وأنا لم أرَ أحداً في هذا الحصن المظلم والصامت والنائي جداً سوى هؤلاء الحرس. ولم أعرف هل بثّوا تلك الأشرطة أم لا؛ وهل استمع أحدٌ إليّ حين رويت قصتي موت محمّد زجاجي القلب وسرياس أم لا؟ سواء أكانوا قد بثّوا الأشرطة أم لم يفعلوا، فإنّني لم أعد قادراً على العودة إلى أحضان عالمي الماضي. وإن أطلقوا سراحي ذات يوم، فإنني سأهاجر إلى بلاد أخرى، وأتزوج في بلدٍ آخر وأغيّر اسمي. يا مظفّر الصبّاحي، إن نجوت من هنا فإنني سأبذل جهدي كي لا تجدني. إنني أعرف أنه سيكون عملاً عديم معنى إن احتضنتني وقلت: «آه، يا عزيزي سرياس، يا ويلي، يا بني الغالي»، وبدوري أقول لك: «يا إلهي؛ يا أبي العزيز. يا إلهي». فإن حدث أمرٌ كهذا فإنني سأموت من فرط الخجل. إنني أشعر أن حياتينا نحن الاثنين بشعتان بحيث لا يمكننا أن نصعد أمام هذا الذنب... أليس كذلك يا مظفر الصباحي؟ أليس كذلك؟ فإنّ حياتينا بائستان بحيث لا يمكننا أن نقاوم حبّاً كهذا.

17

حتى فترة طويلة كنّا أنا وسرياس الصباحي نتبادل الأشرطة؛ أرسلت إليه آخر أشرطتي من "پاترا"، وكان ثمّة شيء من الحزن والمزاح والاستهزاء والفطنة التواضع في صوته. وفي كلّ مرة كان يكرّر أنه لا يريد رؤيتي، ولم يسألني مرة واحدة حتى ما قد حدث في الخارج؛ إذ لم يكن لديه في سجنه المظلم ووحدته أي أمنية في الحياة، كان يعيش في ذكرياته فقط. كنت متأكّداً أنه لو خرج من ذلك السجن في وقتٍ ما فإنه سيختار مكاناً بعيداً؛ مكان لا يصله أي شخص سوى ذكرياته.

كنت أشم رائحته من الأشرطة، وكان هناك سرياسون آخرون غيره. صار هناك أشخاص آخرون لم أكن أعرف شيئاً عنهم، وهذا ما خلق اضطراباً قاتلاً في أعماقي، وجعلني مرتبكاً أكثر من الأيام التي كنتُ أبحث فيها عن سرياس الثاني. في تلك الليلة سألت نفسي: «يا إلهي، في أيّ عالم موهوم قد وضعتُ قدمي، وبين أيّ كائنات وقفتُ بحيث إنها تبدو رقيقة وهشة إلى هذا الحدّ، وصارت كل واحدة منها تقع في اتجاه بحيث لا يمكن رؤيتها من أيّ جهة؟»

في كلّ أشرطته كان يقول لي: «اذهب وجد نديم الأمير، فهو يعرف الأسرار». حين عدت كان نديم الأمير في سفر طويل، ولم يره أحدٌ منذ عدة أشهر؛ وتحتم عليّ أن أبدأ من مكانٍ آخَر. لم أجد نديم الأمير قطّ، وكنتُ أعرف إن لم أعثر عليه وتركت كردستان، فإن الكثير من أسرار تلك الفترة وأحداثها ستبقى في المحاق. كنت أعرف أن

نديم الأمير يمكنه أن يروي لي عدة صفحات أخرى من أسرار تلك الأيام، التي لم يكن أحد يعرفها غيره هو الأعمى. لكن يبدو أنّ يداً في الظلام كانت تقطع صلتي بتلك الأسرار المتعلّقة بأولئك الصبيان، وتلك الفترة المظلمة. كان نديم أحد هؤلاء الصبيان الثلاثة الذين يعرفون الأسرار منذ بدايتها، إلا أنه هو أيضاً ضاع في غبار الأيام ولم أكن أستطيع أن أجد أيَّ أثر له. لقد قلبتُ كل الأماكن التي كان عليّ أن أبحث عنه فيها، فقد بحث إكرام الجبلي في كل تلك الأماكن إلا أنه لم يجده، وكأن نديماً لم يكن سوى حلم ووهم؛ وكأنّه مثل ضباب خرج من قصةٍ وانتشر في العالم وتلاشى. كلا، يا أصدقائي؛ لم أجد نديماً قطّ ولهذا السبب كان عليّ أن أخطو في طريقٍ آخر، وأذهب عند السيد جلال شمس.

لمّا سمعت اسم ذلك الرجل أول مرة عن طريق أشرطة سرياس شعرت أن اسمه يبدو مألوفاً لي، وكأنني قد سمعت هذا الاسم فيما مضى، واحترق لاحقاً في جحيم ذكرياتي. كنتُ أنقب في أكثر أماكن ذهني بُعداً وعتمةً، مثل جميع أولئك الذين يريدون إبعاد أشواك ذكرياتهم، ليعيدوا مرة أخرى تجسيد الصور المتلاشية في رماد تلك الأيام. ما فتئ ذلك الاسم يذكرني بشيء لم أكن أعرف ما هو، حتى جاءني إكرام الجبلي بوجهه السماوي ذاك الذي يبدو مثل ملاك قوي منشغل مع ملائكة آخرين بأمر ما في طبقات السماء. في تلك الليلة كانت تفوح منه رائحة غريبة وكأنه كان قد هبط من السماء في تلك اللحظة، وكأن عدة أرواح سماوية أخرى احتلت ذلك المكان أيضاً بسبب هبوطه. كان يبدو هادئاً وصامتاً مثال زعيم الملائكة الأخرى؛

فلم يكن جسده الضخم غير الطبيعي يمنع وجود صورة فراشة خفيفة في أعماقه، ويبدو مثل شخص يمسك بملفات الكثير من الناس، ولم يتسبب هدوؤه وحياؤه إلا بتمييزه بين صخب العالم كله. كان يأتيني في أغلب الليالي ويبقى معي، وكنّا نذهب معاً إلى الحقول والسهول المعتمة؛ كنّا شخصين هادئين تماماً قد عرّفنا الظلام بعضنا ببعض. في بعض الأحيان كان يستمع معي إلى الأشرطة، وفي أحيان أخرى كان يغيب ولا أعثر عليه. كنت أشعر بالأسف إذ لم أرَ إكرام الجبلي كما يجب أن أفعل، فهو من أولئك الأشخاص الذين كان عليك أن تبقى معهم دائماً كي ترى فيهم الجمال، ومن أولئك الذين تعدّ كل لحظة من فراقه حرماناً من الجمال والعظمة. لم يمنعه يأسه من البشر من أن يكون إنساناً كاملاً؛ ودائماً ما كنت أسأله: «أين أنت يا إكرام الجبلي؟ لمَ لا تأتي... لمَ؟»

لما يتحدث كانت مسحة من الحياء ترتسم على وجهه؛ كان يقول: «يا مظفّر الصبّاحي، إن هذه البلاد حافلة بأناس مهجورين لا يمكنهم معالجة آلامهم وجروحهم بمفردهم. كلا، لا يمكنني أن أفعل الكثير من أجلهم، ولكنّني أشعر أنه عليّ الذهاب، وأن أمد يدي للناس بشيء من الكلام أو تلويحة يد صغيرة. سأذهب وأؤدي الاحترام للأمهات الثكالى وأقول لهن: "تقبلونني بدلاً عن أبنائكن القتلى". سأقول للشقيقات أن تقبلنني بدلاً عن أخوتهم المقتولين. عليّ أن أكون هناك وأن أنتظر في تلك الغابة مجيء طائر جريح سيهبط عندي لأعالجه. سامحني، لو كان بمقدوري أن أوحّد جميع آلامي لكنت بقيت معك للأبد... إلى الأبد؛ إلا أن الآلام لا تتوحّد قط... لا تتوحد». كنت

أعرف أنه يقول هذا الكلام للآخرين أيضاً، إذ كان يؤمن أنّ فهم الآخرين ومواساتهم سيغيران لون العالم. حين اضطررت إلى ترك البلاد واحتضنّا بعضنا بعضاً للوداع، بكيتُ أنا بصوتٍ عالٍ وهو بوقار الملائكة، فقال لي: «يجب أن أكون هناك، في تلك الغابة وأنتظر طائراً جريحاً ليهبط عندي حتى أعالجه».

كان يستمع معي إلى الأشرطة في هدوء تامٍّ؛ وحين سألته في تلك الليلة عن اسم السيد جلال شمس نظر إليّ بهدوء وأجابني: «لا شكّ أنّه ليس هناك من لا يعرف السيد جلال شمس، فالجميع يعرفونه». لقد ذكّرني كلامه بذلك الرجل، زعيم قبيلة امتزجت عدة عوالم مختلفة في وجوده. كنت قد رأيته في الأيام الأولى للثورة، وقد نسيته بعد ذلك؛ وكان من أصدقاء يعقوب الصنوبر المقربين، وعندما مرض يعقوب ذات يوم تعالج في بيته. كان إكرام الجبلي يعرف السيد جلال شمس منذ أيام الثورة، إذ لم يكن شخصاً لا يمكن الوصول إليه، وكان معروفاً جداً في البلاد كلها بحيث كان يعدّ معتمد تلك المناطق وزعيمها وأميرها وملكها ورئيس قبائلها. انطلقتُ مساءً للقاء السيد جلال شمس، وكان يعيش في الجبل. عبرتُ من المناطق الجبلية الزاخرة بالأشجار متجهاً إلى فردوس خفي في الجبال؛ إذ كان يقضي حياته في بستان كبير بعيداً عن صخب العالم وتشويشه. رأيته يجلس على كرسي غريب يبدو مثل عرش الملوك، وكان منشغلاً بالقراءة وسط نجيل أخضر هادئ. كان طاعناً في السن ذا لحية بيضاء، وتخدمه فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ترتدي ثياب جواري الملوك الأسطوريين. كانت منضدته حافلة بالكتب والأوراق وقارورة كبيرة ممتلئة بالحبر؛

وتحيط به كروم تتدلى عشرات العناقيد الثقيلة من أغصانها. بدا مثل صورة الشعراء الكلاسيكيين مع عشيقاتهم كنت قد رأيتها على أغلفة بعض الكتب القديمة، وكان وجهه يذكرني بأشخاص صنو الخيام والفردوسي. كان ثمة مصباح على شكل فراشة وإبريق خمر على منضدته، ولاحقاً فهمت أن الفتاة التي كانت تخدمه هي آخر زوجاته، حيث إنه طيلة عمره كان قد تزوّج عشرات النساء. وقفتُ وسط بستانه وقلتُ: «أنا مظفّر الصبّاحي، يا سيد جلال شمس. رجل هائم لا يمكن لأحد غيرك أن يساعده». رفع رأسه عن كتبه بهدوء وألقى نظرة عليّ، ثم نهض قائلاً: «أأنت مظفّر الصبّاحي! أأنت هو نفسه؟» أحنيت رأسي وكأنني أقف في مواجهة ذات قوية، وقلتُ: «أرشدني، يا مولاي؛ فأنا أكثر رجال العالم ضياعاً. فليس لدي أحد غيرك يساعدني». فردّ قائلاً: «هيا اجلس؛ إن كنتَ مظفّر الصباحي فإنني سأعرف ذلك من كلامك وسلوكك. وإن لم تكن هو، فإنّني لن أسمح لك أن ترتشف شيئاً من خمري». جلست أمامه وخاطبته: «انظر إليّ يا سيد جلال شمس، انظر إليّ؛ يمكنك أن ترى من خلال نظراتي أياماً لم يمر أحدٌ غيري بمثلها. تشمّمني وستجد آثار صحراء شاسعة على جسمي. انظر إلى عينيّ وسترى فيهما ظلّ صحاري واسعة، فما من أحدٍ غير مظفر الصباحي تُبعث منه رائحة رمال الليالي عديمة النهار، ورائحة امتزاج الشفقة واضطراب الأرض والرمال. انظر إليّ واقرأ الصحراء من يديّ».

لم يكن يتوقّع أن يظهر في حديقته رجل عاجز يرتدي ملابس الفلاحين الرثّة ويتكلم على هذا النحو؛ نظر إليّ بهدوء وصبّ قدحاً من الخمر وترك قدحي فارغاً، وارتشف جرعة بهدوء تدلّ

على حياته المرفّهة، وقال: «حمداً لله... حمداً يا ربّ». ثم نظر إليّ بصمت، وبعدها قال: «لن أنسى ذلك الاسم أبداً، لن أنسى اسم مظفر الصباحي أبداً. لقد نسيت أسماء عدة أمراء وملوك ووزراء وولاة؛ إلا أنّ اسم مظفر الصباحي سيبقى في ذاكرتي». فقلت له: «إنه أنا، أنا مظفر الصباحي. وإن بحثت في هذه البلاد كلها فلن تجد مظفر صباحي آخر، فأنا شخص ولدت من الليل والصحراء والمتاهات. وأنا والدهما، والد الصبيين اللذين تعرف سرهما... وحدك أنت من تعرف سرّهما». أسند ظهره وقال: «تكلّم يا مظفر الصباحي؛ ارو لي قصتك».

ورويت قصتي كلها، قصّة لم تكن سوى انتظاراً طويلاً للموت. رويت له حكاية تشكّلت من أمل منذ بدايتها حتّى نهايتها؛ ولما استخدمت مصطلح «الأمل المظَلم» نهض وقال: «إنه أنت، إنه أنت... من لم يعش سنوات مديدة في الظلام من أجل آماله، فإنه لن يعرف ماذا يعني "الأمل المظلم"... أمل أسود، أمل مظلم». كان يحدّق إلى عيني ويستمع إليّ أكثر؛ وحين كنت أتحدث عن اشتباك الأمل واليأس، وعن وحدة الضياء والظلام وأشرح تشابه الماء والرمال، أدرك من أكون. أسند ظهره بهدوء وقال: «لقد أُلقي القبض عليك قبل إحدى وعشرين سنة، ومثل آلاف الأشخاص الآخرين جعلت من نفسك ضحية ليعقوب الصنوبر. لقد أغرقت نفسك في تلك الصحراء وضحيت بنفسك من أجل لا شيء». كان ثمّة شبح حكمة يكمن في صوته، وكانت خصلات شعره البيضاء قد خرجت من تحت طاقية بيضاء كبيرة. نظر إليّ بهدوء وارتشف جرعة، ثم صبّ

لي في قدح وقال: «يمكنك الآن أن تشرب من خمري، فإنها ممتلئة بنور السماء، ويمكنني الآن أن أنظر إليك بارتياح وأرتشف الخمر، وأنظر إلى حجم ثماري في الليل، وأن أروي لك كل شيء وأنا ثمل. لقد أنتظرتك فترة طويلة؛ فكنت أنتظرك خلال السنوات التي ضاع فيها السرياسين حيث لم أجدهما، وتصورت أنك قد متَّ. لقد حذف أحدهم اسمك، فحلّت أيام لم يعد أحدٌ يتذكّر اسمك واسم أصدقائك. إلا أنني كنت أعرف أنه على المرء أن يكون صبوراً جداً بحيث يمكنه انتظار الأموات؛ وقد علّمتني الحياة أن أنتظر الأموات. وذات يوم جاء أعمى تحت هذه العريشة وشرب من نبيذي؛ وقال إنه يعرف سرياسين الصباحيين؛ يعرف صبيين يملك كلاهما رمّانة زجاجية. لا أعرف ما الذي قد جرّ ذلك الأعمى إلى هنا، ولكنّه حين بدأ يروي سيرة حياته، روى قصة طويلة لحياة سرياسين دون أن يعرف عمّ يتحدث، ومع من يتكلّم. فقلت له: "اجلب لي إثباتاً؛ اجلب لي إثباتاً، يا أيّها الأعمى القذر". فقال: "إثباتي هو رمّانتانا؛ فالسرياسان لا يعلمان شيئاً عن حياتيهما وتشابههما. فأجبته: "أيّها الأعمى القذر، إن أعطيتني سرياسين فإنّي سأعطيك سرياس الثالث". لم يكن يعرف أنّ هناك سرياس آخر؛ من يعلم فربّما هناك عشرات "سرياس" آخرون لا نعلم أنا وأنت شيئاً عنهم. صبّبتُ النبيذ لذلك الأعمى وقلت له: "تحدّث، وقل لي أين السرياسان الاثنان؟ أين رجلا الثورة عديما الهموم؟".

صببّت له النبيذ حتى وقت متأخر من الليل، فشربه وتكلّم من دون انقطاع. أرادني أن أفشي الأسرار، ولكنّه كان من الواضح أنه مجرّد

أعمى ثرثار ومتوهّم. لم يكن يعرف الإرهاق؛ ولم أكشف له أي شيء، بل قلتُ له: "اجلب لي الرمّانتين، وإن لم تفعل فإنّي لن أخبرك بأي شيء، فليس لدي شيء لأعطيك؛ ولا أعرف أي شخص أيضاً". فقال لي: "إنّني على وشك رحلة طويلة إلى ذلك الجانب من العالم، فربما أعود أو لا أعود". فقلت له: "أرسل شخصاً ليعطي الرمّانتين للسيد مُجده شمس؛ إنه ابني ويشتغل بائع أنتيكات في المدينة". ومنذ ذلك اليوم وأنا أنتظره، ولم يأت أحدٌ من قِبَله. أقعد كلّ مساء هنا في البستان وعندما أتذكّر الحقل الكبير لتبادل الأنخاب، أنسى مباهج الدنيا ومصائبها. في تلك الأيام حين بدأت الحرب ولم يستمعوا إلى كلامي، آثرت الاعتكاف؛ فبالنسبة لي الوطن هو الكتب والنبيذ والعشيقة فقط. لا أخرج من بستاني، ويعرف الجميع أنّني لا أستطيع الخروج من هذا البستان. ولم أعد مثل الماضي أفتح الباب للزعماء؛ وهنا نقضي أنا والنبيذ وعشيقتي حياتنا، في الجمال السرمدي والإلهي للخمر وخلوة الحب».

كان يتحدّث وهو يرتشف النبيذ ويملأ القدحين بمهارة، بحيث لم تبدُ أي علامة للشيخوخة على يديه. كان شيخاً قد أحاطه الضياء بالكامل، وكانت عشيقة تشبه ملاك الجنان تخدمنا في هدوء. كلّما مرّ الوقت من ذلك المساء ازداد سُكراً وأصبح أكثر وسامة ولطفاً... وفي النهاية جعلته يفصح لي بما كان يخبئه وهو ينظر إلى عناقيد بستانه. ومع أنه كان يرتشف نبيذاً نارياً إلا أن شيئاً من الصبر والهدوء كان يتماوج في صوته. قال: «لقد استلمتهم جميعاً؛ قبل إحدى وعشرين سنة استلمتهم كلهم، ثلاثة سرياسين مع ثلاث رمّانات زجاجية، كانوا

ثلاثة أطفال رُضع بالقماط وعلى وشك الموت. يا إلهي... يا من خلقتنا أنا والحانة؛ إني أتذكّر جيداً أن يعقوب الصنوبر وقد جاء بالأطفال الرضع الثلاثة هؤلاء. لم يكن يريد معرفة شيء عن الأمر، فوضع أمامي ثلاثة أطفال رضع صغار عاجزين وهم يبكون؛ وكأنّ الربّ قد خلقهم من نطف ثلاثة ملائكة حزانى. كان ثلاثتهم منهكين من البكاء والمرض، فقلتُ له: "إنهم يريدون ماء الحياة، أكسير الحياة". في تلك الليلة لم يأت يعقوب لمجلسي مثال الأيام الخوالي، ولم يظهر أمام ضياء شموعي التي تخفق حولها الفراشات باستمرار. قال لي: "ليس لدي أكسير الحياة، وما من أحد غيركِ يملك نبيذ الحياة. ولو كانت لديك قطرة واحدة من ماء الحياة فَأَذِقْها لهؤلاء الرضع كي يبقوا أحياء". فسألته: "ما هؤلاء؟ وهل هم من نطف الملائكة أم الشيطان؟ وهل هم من دمك أو من دماء الآخرين؟" لم يقل شيئاً في البداية؛ كان يخشى أن يتفوّه بشيء وتنشره الأشجار والطيور والهواء. كان قد أخذ الرضع الثلاثة خفية وبعيداً عن أعين الناس. قال لي: "يجب أن يحظى ثلاثتهم باسم واحد، إنهم تذكار صديق وفي. لذلك عليهم ثلاثتهم أن يحملوا اسمه. اسمه مظفر الصباحي، مقاتل ثورتنا المفدي". لقد أصرّ على تقسيمهم بين ثلاث عائلات مختلفة في ثلاث ولايات متباعدة قبل أن يهلكوا مثلِ قطع لحم عارية. بين ثلاث عائلات متباعدة لا تعرف بعضها بعضاً، وكل واحدة منها في مكانٍ ما، إحداها في الجبال والأخرى في السهول و... حين نزل من فرسه وجاء بالأطفال الرضع الثلاثة كان الليل قد حلّ وساد الظلام في كل مكان.

كانِ قد غطى وجهه بحيث لم يعرفه أي كان؛ قال لي: "هذا سرّ

حياتي الكبير يا سيّد جلال، ما من أحد غيرك يمكنه إنقاذ هؤلاء الرضّع. ولا يمكنني فعل أيّ شيء لهم". أخذت الأطفال في الظلام وكل جسمي يرتعش؛ سألته عدة مرات: "لمن هؤلاء الأطفال يا يعقوب الصنوبر؟ أطفال من؟" وكان في كل مرة يجيبني بحياء: "إنهم نتاج الثورة؛ إنهم أبناء الثورة. ولا تنسَ أنهم لديهم اسم واحد، وأنهم أبناء الثورة". صارت الأشجار تهتزّ، وتصدر جلبة غريبة في الهواء، وكانت الأرض مضطربة تحتنا؛ إلا أنه قال: "لا تسألني أكثر من هذا، فعلي أن أذهب. عليّ أن أذهب، يا سيد جلال شمس؛ وحياة هؤلاء الرضع على عاتقك".

وضعت يدي على يدي السيد جلال شمس ونظرت إليه؛ كان ضياء الغروب وبرودته يدخلان من بين ثقوب العريشة، وتفوح رائحة عناقيد العنب السوداء الفردوسية في الجو. قلت له: «إنهم جميعاً أولادي، ولن أنكر أياً منهم. والآن عرفت من قد قام بتفرقة أولادي بعضهم عن بعض. عندما قاموا بأسري كان لدي ابن واحد فقط. ولكن لا يهمّ، فإنهم جميعاً قد وضعوا اسمي على أنفسهم. في تلك الليلة كانوا يطلقون النار علينا من جميع الجهات، فقلتُ ليعقوب الصنوبر: اهرب من الخلف، سأقوم بإلهاء العدو كي تنفذ بجلدك؛ ولكن اهتم بسرياس الصبّاحي، اهتمّ به!" كانت ليلة مميتة، وكانت لدي أمنية واحدة فقط، وهي أن يهتمَّ بسرياس الصبّاحي. في ذلك الوقت كانت قد مرت عدة أيام على ولادة سرياس؛ كانت أمّه قد ماتت في أثناء الولادة، فبقي الرضيع عند أحد أقارب يعقوب الصنوبر. رأيته يوماً واحداً فقط، ففي تلك الأيام لم يكن بمقدوري أن أقيم مراسم العزاء ولا رؤية ابني. وفي

ليلة حالكة وبعيداً عن أعين المخبرين ومأموري الشرطة، ذهبت إلى قرية صغيرة، وهناك وضعت سرياس على صدري ربع ساعة؛ فكانت تلك الدقائق أطولَ فترة لأبوتي. في السجن كنتُ مرتاح البال، وأقول إنّ يعقوب الصنوبر وجميع الذين قد بقوا في الوطن بدلاً عنّي، لن ينسوا سرياس. كنت متأكداً أنّهم سيهتمون به، ولكن عند عودتي لم أحصل إلا على عدة قصص؛ وكان سرياس تلو سرياس يظهر أمامي. لم أرَ شيئاً في حياتهم سوى الغربة والموت والوَحدة. يا إلهي... قل لي، أنت قل لي يا سيد جلال شمس؛ من تسبّب بهذا الشقاء لأبنائي... من؟»

ملأ السيّد جلال شمس كأسَه، ونظر إليّ بهدوء وكأنه لم يسمع كلامي، وكأنه يكّلم نفسه، قال: «كانوا ثلاثة أطفال رضَّع، نقلتهم ثلاثتهم إلى ثلاثة أماكن بعيدة بعضها عن بعض؛ إلى ثلاث قرى، إحداها في الشرق والأخرى في الغرب والثالثة في الجنوب. كانوا ثلاثة أطفال بريئين، ثلاث قطع لحم صغيرة وبريئة؛ وكلّ واحد منهم يملك رمّانة زجاجية. كلّ ليلة كنت أضع أحدهم في سيارتي، وأبتعد لمئات الفراسخ، وأجد عائلة هناك تتبناهم. في تلك الفترة كنت أثق بيعقوب الصنوبر مثل العميان؛ لم أكن أهوى السُّكر والخمر، وكنت أثق فيه فقط، وفي أولئك الرجال. لم أكن أهوى الخمر والنساء، وكان وطني قبلتي؛ لم أكن مثل الآن... لم أكن مثل الآن شيخاً معزولاً في الجبال والوديان».

وفجأة رفع رأسه، وكأنّه انتبه من فوره أنني موجود بالقرب منه؛ فقال بصوت حزين بدأ يتحول إلى نشيج شيئاً فشيئاً: «كانوا ثلاثة،

ثلاث قطع لحم، كان عليهم أن يكبروا معاً. نقلت كل واحد منهم إلى مكانٍ وكأنّني قمت بتقطيع جسدٍ إلى عدّة قطع. أخذت كلّ واحد منهم إلى مكان يبعد مئة فرسخ عن الآخر؛ ولاحقاً وجدت واحداً منهم فقط، واحداً منهم فقط... يا إلهي، فقد ضاع الاثنان الآخران في دخان بارود تلك الفترة، وقد ابتلعهما الدخان؛ لقد حجبهما الدخان».

وضعت يدي على يدي السيد جلال شمس الذي بدأت دموعه تهرق على لحيته وتسقط في كأسه؛ وقلت له: «إني أعرف قصة الاثنين الآخرين، وقد اطلعت على حياتيهما إلى حدٍ ما. قل لي يا سيد جلال شمس، أين ذلك الآخر. . .؟» كان السيد جلال الشمس لا يزال يرتشف نبيذه ويبكي بوقاره بوجهه المضيء ذاك؛ وضع رأسه على أوراقه وخاطب نفسه: «كانوا ثلاثة، ثلاثة أطفال. ثلاثة... ولاحقاً حين انهارت البلاد جميعها، وانهال علينا فيضان الموت من جميع الجهات وجاء إعصار قلع الملذّات وأخذها معه، ففقدت ذينك الاثنين. كنت أمرُّ عليهم مرة في كلّ موسم قبل أن تبدأ أيام القحط والنهب والموت المستمر. كنتُ أذهب وأعود بسرية تامّة، ولم أكن أعرّف نفسي لهم. وذات مرة قلت لأحدهم: "يا سرياس الصبّاحي، تعال لعمّك". فنظر إليّ بارتياب وركض هارباً، وبعد خراب هذه البلاد وجدت واحداً منهم فقط، واحداً فقط خرج محترقاً من كانون تلك الأيام. واحداً لم يكن لديه وجه، ولم يكن يستطيع الكلام. كانت أيام الحرب، أيام الحرب الدامية؛ وقد فقد جميع أشيائه في تلك الحرب».

انحنيت، ولثمت يده عدة مرات، ثم احتضنته وقبّلت الدموع على لحيته؛ وكأنّه يروي هذه القصة للأجيال القادمة، قال: «كانوا ثلاثة

أشخاص، لم أجد اثنين منهم قطّ. حين أضعت الصبيين عرفت كم هي شاسعة أرض الله؛ وأدركت اتساع البلاد والبشر الذين قد خلقهم الله. كانت فترة ينفذ المرء بجلده وحيداً. وخلال عدة أشهر سُوّيت آلاف القرى مع الأرض، وأبيدت مئات القبائل، وأحرقت كرومي كلها. أخذت الحكومة عشيقاتي وساقياتي ولم أرهن ثانية، وحطّموا دِنان خمري. ليس هناك شيء موجع أكثر من أن تكون محبّاً للخمر ويحطّمون دَنَّانك».

أعاد رأسه إلى منضدته بهدوء رجل عاركته الأيام بمشقاتها وصعوباتها؛ فتح الزر الأعلى لقميصه ووضع يداً على قلبه؛ وهو يخلع صدريته باليد الأخرى قال: «يا ربّ... لم يعد قلب العابد يقوم بالعبادة، بل يثمل فقط لا غير». كانت تلك الفتاة التي تشبه الملائكة تصبّ النبيذ باستمرار في قدح فضّي حُفرت عليه نقوش قديمة. نظر إليّ وأضاف: «إن الفلك امرأة عجوز و... » عندها كنتُ وكأنني قد جلست على نارٍ وأُبدي صبراً، إذ كنت أريد الوصول إلى حقيقة سرياس الأخير. كانت تلك الكروم والبستان والخمر في ذلك المساء تجعلني أحنّ إلى بيتي. لم تجعلني تلك اللحية البيضاء والعينان الساحرتان المضيئتان، وقامة تلك المرأة التي جمعت جمال الكون كلّه وتمتلك جميع مواصفات الملائكة، أهدأ. أمسكت بيد السيد جلال شمس وقلت: «أين هو سرياس الصباحي الآن، أين؟» في آلامه الفردوسية تلك كان يبدو مثل شيخ واهم غارق في ملذات كثيرة لموائد الدنيا العامرة؛ خاطبني قائلاً: «اشرب؛ ارتشف النبيذ؛ تجرّع الخمر؛ وأنشد أغنية في وصف الكروم، أي أغنية كانت».

مسح دموعه، وملأ قدحه الفضي وتجرّع الخمر دون أن يغمض عينيه؛ رفع رأسه كي يرى نجوم الأصيل وهو يتجرّع النبيذ. وضع قدحه على الأرض، وقال: «عن أي سرياس تبحث؟ وعن أي سرياس تسأل؟ فأنى لنا أنت وأنت أن نعرف كم سرياس آخر موجودين في هذه البلاد؟ وكيف نعرف كم ليلة، وكم من سيد جلال شمس آخرين قد أخذوا الرضع وقسّموهم في مناطق مختلفة؟ ومن يعلم أي منهم هو ابنك؟» فملأت كأساً أخرى بنفاد صبر وأجبته: «إنّي لا أبحث عن ابني، أتفهمني يا سيد جلال شمس؟ فأنا أبحث عن سرياس الصباحي». فنظر إليّ وقال: «كان لا يزال طفلاً حين احترق وجهه، إذ سقطت قنبلة أسيد في البيت الذي كان يعيش فيه. فسلّمته لامرأة وزوجها لم ينجبا، كي يربياه. سلّمتهم إلى ثلاث أسر من الفلاحين، وحين دمّروا القرى وانهار العالم، فقدت اثنين منهم. ومثل قارورة نبيذ لم يتذوقها أحدٌ، ولم يضعوها على أي مائدة ولم يمسها أي ساقٍ، ولم يرطب أي سكّير شفتيه به، لم يحل أي كائن مكان والديه، ولا أيّ شخص».

عقد فقيانته[21] البيضاء ومدّ يده صوب قدحه وقال: «لا تتصوّر أنّني قد ثملت؛ كنت أتتبعهم دون أن أكون مسؤولاً أمام الله وعباده. كانوا أصغر من أن يدركوا شيئاً، وكنت الوحيد من احتضن ثلاثتهم بمفردي. كانوا ثلاثة صغار حزانى؛ وقد ضاع اثنان منهم في أثناء جلبة الأيام الصخب تلك. إذ مات والدا أولهما، وفُقد الثاني في الغابة والوديان عند اجتيازه الحدود. انظر يا عزيزي، هل ترى تلك الحدود؟ أتعرف أن هذه الجبال والوديان الوعرة التي تفصل بلادنا

(21) كُم طويل لأحد ملابس الكرد التقليدية.

عن بلاد الملوك والشيوخ؟ لقد قُتل آلاف الأشخاص هناك أو فقدوا؛ كنتُ أتتبعهم كما أُتتبع غيمة ما؛ ولم أكن أنوي إعادتهم إلى أحضان والديهم، إذ كنت أُحبُّ النظر إليهم من بعيد كما ينظرُ ظامئ ما إلى كأس النبيذ من بعيد. هكذا كنت مسؤولاً عنهم منذ طفولتهم ولِستٍّ سنوات؛ إذ كنتُ أركبُ فرسي وأغطّي وجهي وأراهم يكبرون، على هذا المنوال كنت أراقبهم. ولما هدأت الأوضاع وانقشع غبار المصائب، وحين تمكّنت يد شيخ الحانة من صنع الخمر من جديد، وأثمرت الكروم، كنتُ أبحث عنهم في حدود تلك البلاد. سمعت ذات مرة أن واحداً منهم يساعد مربيي حمير في مزرعة ما، يجلب لهم الحشيش وينظّف حظيرة الحمير في الليل، ويخدمها ويسقيها، فانطلقت إلى هناك. ولما وصلت قالوا لي: "قبل أسبوع وجد صبي بهذه المواصفات عملاً عند أحد سائقي طريق الجنوب". كنت أشعر أنهم أحياء وهذا إحساس شارب الخمر نفسه الذي يعرف بتجربته كم تبقى من النبيذ في دُنّه. وا حسرتاه... كم هو مؤسف أن الإنسان لا يمكنه أن ينطلق خلف غيمة صغيرة؛ وكم هو مؤسف ألا يستطيع تتبع آثار الماء تحت الأرض». فقلت له: «ولكن سرياس الأخير عندك... عندك أنت». فرد قائلاً: «هناك كائن معي، كانوا يقولون إنه سرياس الصبّاحي، وهو كائن جريح لا أريدك أن تراه، لا أريد... » فرفعت يده ولثمتها قائلاً: «يا سيدي العزيز... أريد أن أراه... أن أراه». نظر السيد جلال شمس إلى مجمر ممتلئ بالشموع كانت زوجته، تلك الحورية السماوية، قد جلبته له. كان المجمر كبيراً، ولم أكن أعرف كم شمعة مشتعلة فيه. كان يبدو ذهبي اللون في ضياء الشموع؛ وكانت هذه المرة الأولى التي ينظر فيها إليّ على هذا النحو من قرب. قال: «لم يكونوا

أولادك فقط، بل كانوا أبناء هذه الطبيعة، وهذا الماء والتراب وهذه البلاد أيضاً. سوف أشعر بالأسف إن رأيته، كما أنني أراه بين فترات متباعدة. انظر... يمكنك أن ترى في حروقه حروق هذه البلاد». نظر إليّ، وارتشف من كأسه ثم أضاف: «لِمَ تريد لقاء شخص لا يمكنه التحدث معك؟ فأنا متأكّد أنّ ثمة شيئاً آخر في ذهنك، صورة شخص آخر في ذهنك... إني أتفهّم ذلك، فمنذ إحدى وعشرين سنة وأنت تفكر في ابنك؛ فأنت مثل سكّير قد ثملت بشيء آخر. إن جَذلاً ما جعلك تتصور وجه ابنك؛ وتتخيل أنه وسيم ورشيق وطويل القامة ومتناسق الجسم... إن الأمر ليس هكذا، فأكثر الخمور مرارة في انتظارك. لقد جربت كل أنواع الخمور، وبيّضت لحيتي على أقداح الخمر، وضعفت عيناي في انتظار الساقي. إني أقول لك إن الانتظار الطويل يجعل المرء يتوهم. ابنك هناك، إنه هناك مع أشخاص آخرين؛ مع أولئك الصبيان المحترقين والمجروحين والمتألمين الراقدين في ذلك المهجع، ويساعدهم الأشخاص الصالحون. ابنك هناك أيضاً؛ إلا أنه سيرحل، سيرحل هو الآخر أيضاً. كلا، سيقتله لقاؤك به يا مظفّر الصباحي؛ ويطيح بأمنياتك. لقد بكيتُ من أجله مثل أيّ أب، من أجله هو وجميع الأولاد الآخرين. مع كل جَرعة من النبيذ كنت أغرز قطرة من آلام أولئك الشباب في روحي بحيث لم تخرج لاحقاً. دعه وشأنه، دعه يرحل؛ دعهم يركبونه الباخرة ويأخذونه، دعه يركب ذلك الطائر الشبيه بالعنقاء ويرحل. ليس بمقدورك فعل أيّ شيء، لا شيء... وصنوَ جميع الآباء المكلومين تعال وهدئ نفسك بالخبر. امرح ولا تهتم، وفكّر في الكروم والخمر الصراح وكأس النبيذ».

كنت أعرف عن أيّ شقاء وتعاسة يتحدّث، وكنت أعرف أنّه حزين؛ إلا أن حجم الحزن وشدّته كانا قد قاداه إلى التهوّر واللجوء للوحدة والاعتكاف. قال بهدوء: «كان يا ما كان؛ كان هناك أمير وقع في غرام رسم على الجدار لسنواتٍ طويلة، وقد هام حبّاً بصورة داخل كهف سنواتٍ طويلة؛ وكانت الصورة قد حفرت على جدار الكهف بعيداً عن متناول اليد. خرج من قصره وترك أبهّة الحياة الملكية؛ ومن أجل حبّه الفاشل ترك قصره وعرشه. خلع حذائه وتاجه وارتدى خِرَق الدراويش، وجاب الدنيا لسنواتٍ طويلةٍ، إلا أنه لم يجد صاحبة الصورة كي يصل إلى مراده. وفي النهاية صار محدودب الظهر يشبه شيخ الحانة، وودّع الجمال والشباب. ومع أنه هرم وأصبح محني الظهر وذابلاً، إلا أن نار الهيام كانت لا تزال مستعرّة في قلبه. وذات يوم ذهب إلى مكانٍ ما فدعته امرأة عجوز قائلة: "تعال معي، فأنا عشيقتك ذاتها، الصورة ذاتها التي طويت من أجلها الأرض. تعال وكن ضيفي الليلة". وفي مساء ذلك اليوم نظر الأمير العاشق والمنهك إلى نفسه في المرآة ورأى ما فعلته به الشيخوخة، وعندها أدرك قسوة الزمان؛ وفكّر في أن الزمان لم يفعل هذا به فقط، بل بعشيقته أيضاً فهي من مخلوقات الربّ وتتبع قوانينه. لما وصل إلى بيت حبيبته ليلاً كانت الشيخوخة قد جعلت ركبتيه واهنتين. وقف أمام الباب وانتابه الشك هل يدخل أم لا؟ كان متردداً أنه هل سيواجه الوجه الحقيقي للأحداث أم لا، وسيرجع إلى الصورة الخيالية ليقضي حياته بتصوراته الخيالية حتى مماته؟ وعندما أراد أن يطرق باب منزل عشيقته كانت يده ترتجف وتكاد روحه تفارق حياته؛ وارتجفت ركبتاه. بعد ذلك قرّر أن يعيش مع خياله كما كان قد فعل لسنوات طوال؛ وأن يقضي حياته مثل تلك

الفترة حيث كان مغرماً بتلك الصورة. فابتعد عن الباب وجاب الجبال والسهول والوديان مثل درويش غير مستقرٍ وعديم المكان، ولم يولِ وجهه صوب بيت عشيقته ولا مرة واحدةً حتى. فالمعشوق الجميل وذو المعنى في الخيال فقط».

فأمسكت بيد السيّد جلال شمس وسألته: «أيّها الشيخ الحكيم، ما قصدك من هذه الحكاية؟ ماذا تريد أن تقول لي؟» فارتشف جرعة أخرى وردّ قائلاً: «أنت أكثر ذكاء من ألا تفهم كلامي! إني أقول لك أن ترجع إلى صورك الخيالية في ذهنك ذاتها... فحلاوة خمر الخيال، أفضل من مرارة الحقيقة». فقلتُ: «لا يا عزيزي، إني أفضّل مرارة تلك الحقيقة، إني لست من أولئك الزهاد الذين يضيعون القصر والعرش من أجل هوس موهوم؛ ولست من أولئك الذين ترتجف ركبهم أمام البيت خوفاً من اللقاء وأدير وجهي. إن كان أولادي قد تحولوا إلى فحم أسود فعليّ أن أحتضنهم أيضاً. لقد تعذبوا كثيراً بحيث صار لزاماً على الجميع أن يحبونهم بلا أي شروط. أنت لا تعرف قصة أولادي كلها... أنت تعرف بدايتها فقط، وتعلم من أين جاؤوا ولكنني أعرف كيف عاشوا، وكيف تاهوا على أرصفة المدن بين دخان الحروب. لقد ذاقوا ظلماً كثيراً بحيث يستحقون عفواً كثيراً، ويستحقون حبّاً حقيقياً، فإنهم أولادي... إنهم أولادي، وسأفديهم بحياتي حتى آخر لحظة من مصيرهم المؤلم». فقال بشيء من الغضب: «إنهم ليسوا أولادك، ليسوا أولادك فقط؛ إنهم أولادنا جميعاً وعلينا أن نفديهم بحياتنا». فنظرت إليه متألماً وقلتُ: «لم يكونوا أبناء أي شخص، ولا أي شخص... لا أبنائي ولا أبناءك ولا أبناء أي شخص آخر».

أغلق عينيه وأمام ضياء الشموع المرتعش بدا مثال صورة خيالية. كان يشبه روحاً تظهر لفترة، وحين تختفي لن تجدها في أي مكان؛ وبوقار ثمل لا يزال يملك سلطة الملك، كرر هذه العبارة عدة مرات وكأنه يخاطب نفسه: «كانوا أبناءنا جميعاً، جميعنا... جميعنا». لثمت يديه وقلتُ: «قل لي أين هو سرياس الأخير؟ قل... » سحب يده وأجاب: «يا ربّ، اعف سكري، فهذا ذنب لا يمكنني التخلّي عنه. يا ربّ، أعفني إن كنت ترى أن مصيرهم يقع على عاتقي؛ لأنني لا أعرف من هو المذنب. فهؤلاء كانوا أبناءنا جميعاً، ولم يكونوا أبناء أي شخص. كانوا مثل القمر، ومثل سحرك، ومثل نبيذ أوردة الكروم التي هي ملكنا جميعاً وليست ملك أي شخص خاص. ثلاثة أطفال، ثلاث قطع لحم أبرياء، وقد بلعهم شيء ما فجأة في النهاية. قد يكون إعصاراً أقوى من يد سكّير مثلي. يا مظفر الصباحي، كما أن الهزّات الأرضية تحطّم الدنان، وكما تسقط الكأس الطافحة بالنبيذ بفعل الريح، فهناك إعصار خاص يمكنه أن يخطف أولادنا منّا... كانوا ثلاث شجيرات سرقتهم الريح من البستان. وكان كل واحد منهم يملك رمّانة زجاجية كي لا ينسون فكرة البستان الذي ترعرعوا فيه. رمّانة زجاجية تحسّباً للقاء يجمعهم كي يتعرفوا إلى بعضهم بعضاً، ونستطيع أن نجدهم في حال بحثنا عنهم في تلابيب هذا العالم». فقلتُ منكسراً: «ولكن، لم يبحث أي شخص عنهم؛ ولا أي شخص». طأطأ رأسه على الكتب والأوراق بحزنٍ عميق، وفي صمت المساء وأمام ضياء الشموع التي كانت تعمّق أماني الصمت أكثر فأكثر، قال بصوتٍ حزين لا يشبه صوت رجل تحدّث طيلة ذلك المساء: «لأنه لم يتسن لنا الوقت يا صديقي. لأنه لم تسنح لنا الفرصة... فالحرب والدهشة كانتا قد

خطفتانا... الخمر والحرب، الخمر والاقتتال، الخمر والحرب». نظر إليّ ثم أضاف بأبهته تلك: «لم يكن يريد... لم يكن يريد أن يتصفح أحدٌ ورقة من تلك الأحداث». فسألته: «من هو؟ من؟ قل لي». فقال بصوت خفيض مثل شخص يخشى النجوم والغيوم والأشجار وقدح نبيذه: «الزعيم... الزعيم... يعقوب الصنوبر».

كنت أريد أن أجعله يتحدّث أكثر من هذا، كنت أريده أن يفهمني أين هو جوهر هذا السرّ؛ ولكنّه لم يفشِ شيئاً. وقبل أن يصل الليل إلى أعمق حالاته، وقبل أن يثمل كثيراً بحيث ينهض ويذهب إلى مخدع تلك الحورية السماوية التي كانت تطوف حولنا مثال الفراشة، قلت: «يا سيد جلال شمس، أنر طريقي؛ أنت تؤمن بالخمر والشمع وخلوة المعشوق... أحلّفك بالثلاثة أن تخبرني أين هو سرياس». وكأنني قد أنهكته، وكأنني لم أكن أتوقّع أن قصص هؤلاء الأولاد قد أزعجته هكذا، وكأن ليس بمقدور الخمر أن تسكره، وتحسباً لعدم استطاعته النوم، نهض من مكانه وقال بوجه عابس يبدو شبيهاً بتمثال قديم ووقور في ضياء الشموع: «إنه هناك، هناك في بيت الأولاد المحترقين ومع أخوته... اذهب، اذهب، يا مظفر الصباحي. اذهب عند مُجده شمس، ابني السيد مُجده شمس، إنه يعمل في مجال بيع وشراء الأنتيكات والأشياء القديمة؛ ستجده في المركز التجاري... سيأخذك عند سرياس الصباحي ويرشدك إليه».

جلس وكتب بخطّ نستعليق[22] جميل، كان أجمل خط قد رأيته

(22) ويسمى أيضاً الخط الفارسي. ظهر في إيران في القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14-15م، على يدي مير علي التبريزي بدمج خطي النسخ والتعليق ومن هنا جاءت تسميته نسخ التعليق أو نستعليق.

حتى تلك اللحظة، رسالة وقال دون أن ينظر إليّ: «أعطه هذه الرسالة فقط، وحين تعطيه أره الرمانة الزجاجية وقل له إني هو نفسه... هو نفسه؛ ولكن يا مظفر الصباحي، عليك أن تعرف شيئاً يمكن أن يكون نافعاً لك وربما عديم النفع. وهو أن المحبّة لن تعالج آلام ذلك الصبي».

كانت ليلة باردة حين خرجت من بستان السيد جلال شمس؛ كانت أكثر ليالي العالم برودة. ليلة شعرت أن أعمق جوانب حياتي قد امتلأت بسرٍ لا نهاية له. كنت أسير وأنتظر الصباح مثل المجانين؛ الصباح الذي جرّني نحو هذه السفينة بقسوة تامّة.

18

كان على محمّد زجاجي القلب أن يذهب عند السيد مُجدة شمس، قبل سنوات من ذلك الغروب الذي جرفه فيه الفيضان. في ذلك الغروب حيث كان يمسك برمانة زجاجية، شوّش الحبُّ ذهنه وجعله ينحرف عن مساره؛ وقد يكون ذلك المساء مهماً من أجل لقاء السرياسين الثلاثة. لكن حين حطّم الحبُّ فؤادَ محمّد زجاجي القلب وقاده إلى الموت سريعاً، لم تسنح له الفرصة كي ينظّم مساره على نحو ينهي قصة السرياسين. كلا، لن أجعلكم ترتابون مثل سرياس الثاني في مقتل محمّد زجاجي القلب؛ فإني أريد أن أعيش في أطلال حبّه وليس في طلسم موته الذي لا أستطيع فكّه. هو المذنب المجهول الذي لا أريد أن أبحث عنه، والقتيل الذي لا أريد أن أقتل حلم طفولته القديمة.

في ذلك المساء البارد الغريب للفيضان، وصلت قصة السرياسين الثلاثة إلى هذا البحر؛ اعرفوا أن جميع الحكايات ستصبُّ في النهاية كالأنهار الصغيرة في البحر الشاسع لآلاف الحكايات الأخرى. وإن مات أي راوٍ في هذه الرحلة فيجب أن يكون هناك رواة آخرون ليحلّوا محله؛ كي يستمروا في القصة من نهرٍ إلى نهر ومن بحرٍ إلى آخر.

كانت حكايتي على هذا النحو أيضاً، إذ إنني أنهيت الرحلة التي لم يتمكّن محمّد زجاجي من إنهائها في ذلك الغروب العاصف.

في تلك الليلة حين عدتُ من بستان السيد جلال الشمس، كان

الظلامُ قد ساد بحيث يبدو كأنّ حلقة من الظلمات قد ابتلعت العالم. صرخ أحدهم من ذلك الجانب للعالم: «إن الحياة كلها قد اتخذت منوالاً أبدياً ولم تبقَ فرصة للجدل والشك وإصلاحها».

كان الوقت ليلاً حين عدت إلى تلك القرية مثل شخص يتخبط في اللا شيء. وانتابتني الدهشة عندما رأيت الشقيقتين البيضاوين تنتظراني في الظلام؛ كانت قصة السرياسين الثلاثة قد أثّرت عليهما بشكل عميق، وكانتا تخشيان أن يظهر مئات السرياسين الآخرين في يوم ما، ومن أعماق تلك المدن والقرى يدخل جيش من الأيتام الصغارً حياتي بمئات الرمّانات الزجاجية. كانتا تشعران بالقلق من أن يكون هناك آلاف الأولاد تحت أطلال تلك البلاد وقراها تكون لجميعهم قصة سرياس ذاتها. وكانتا تشعران بالقلق من أن أغرق في دوامة مهلكة لا نهاية لها.

في تلك الليلة احتضنتهما معا؛ كانت الاثنتان تنتظراني قاعدتين على صخرةٍ في قارعة الطريق صنو ملاكين، وكانتا صامتتين وعميقتين وفاتنتين كما هو ديدنهما. كانتا كائنين لم يكنِ بمقدورك أن تراهما مفصولين بعضهما عن بعض في الحلم أيضاً. وحتى وصولنا إلى البيت تحدثت معهما في ذلك الطريق المظلم عن لقائي بالسيد جلال شمس. وأخبرتهما أن هناك سرياس آخر يعيش في مكانٍ آخر من المدينة وله وجه آخر؛ في ذلك الوقت لم يكن لدي أي تصور عن سرياس الأخير، غير العبارات الغريبة التي تفوّه بها السيد جلال شمس.

ولكن عليكم ألا تنسوا أن «سرياس الأخير» هو اسم قد أطلقته أنا على ذلك الطفل المعذَّب، الذي قد رأى أهوالاً مثل الجحيم بعد انتهاء كل شيء؛ والآن أيضاً أعتقد أنه لم يكن سرياس الأخير في العالم؛ بل كان سرياس الأخير في حياتي.

في تلك الليلة ومن أجل تسكين آلامي تكلّمت مثل العادة عن اتحاد البشر؛ وتحدثت عن أن سرياس لا شيء، مجرد اسم. وأن مفردة سرياس اسم نستخدمه بدلاً عن معنى الإنسان العام والمجاز؛ وقلت لهما إن قصة سرياسين الثلاثة من بدايتها وحتى نهايتها، ومهما كانت، وكيفما اتجهت، هي لا شيء سوى قصتهم جميعاً ضاعوا في إعصار هذه البلاد دون أن يقدم أحدٌ أي مساعدة لهم. كانت قد مرت فترة طويلة توقفت فيها عن البحث عن شخص تلاشت حياته في آلاف آلاف الحيوات الأخرى. كنت أعرف أن فصل أي منهم سيكون عبثاً وعديم المعنى وبمثابة قتله... آه، يا عشّاق هذه الليلة المعتمة... قد لا يكون الأمر هكذا بالنسبة لكم، وربما يكون الأمر مختلفاً بالنسبة لكم، يا من كنتم ساكني هذا البيت الأبديين. ولكن الأمر كان هكذا بالنسبة لي، أنا الذي قد جئت من مكانٍ بعيد؛ ولسنوات طويلة كان لدي منظر وحيد في الصحراء، وكنت مرتبطاً بكل شيء سنوات طوال، فكما علمتني الصحراءُ وحدةَ الطبيعة وانسجامها، وكما علمني بحر الرمال الشاسع أن جميع مخلوقات الله قد استقرت في بقعة ما، فقد علمتني أن أقضي حياتي عن طريق الاتحاد والتماسك أيضاً. قد تنظرون إلى حياتكم واحداً واحداً وتقولون هذه حياتي، ولكن عندما يعود المرء إلى بيته بعد إحدى وعشرين سنة قضاها بعيداً، فإنه عند

الجلوس والنظر لا يمكنه أن يقول لكم فرداً فرداً: «إن هذه حياتك». بل يمكنه القول «إنها حياتنا نحن وأنتم»، «إنها حياتنا»، «إنها الحياة». لم يكن بمقدوري أن أفصل سرياس عن هذا الاتحاد والارتباط والامتداد اللا نهائي. الليلة أعترف أمامكم أنني سعيد، وفي هذه الرحلة الطويلة بحثاً عن سرياس الصباحي، لم أجد سرياس الأصلي وابني الحقيقي الذي كانت لدي صورة عنه في ذهني؛ لقد رأيت العالم كله حيث ضاع سرياس فيه. بعد عودتي في تلك الليلة من عند السيد جلال شمس تحدّثت مع الشقيقتين في ظلام الحقول حتى وقتٍ متأخر. وبحماس درويش يتحدّث عن الرب قلتُ: «إن سرياس هو الاسم الآخر للإنسان؛ الإنسان الذي يحترق في هذا العالم، ويُبعث ويُطرد ويعود دون وجود الرب». إلا أنّ الشقيقتين البيضاوين كانتا مضطربتين ولم أكن أدرك ذلك؛ رَفعتُ يدي في الظلام وقلت: «يا لالاي وشاشاي البيضاوان... دعا الأمر أن يكون هكذا، دعاه يكون هكذا. واسمحا أن يأخذني السفر باتجاه الإعصار... باتجاه الصحراء، والقمم المظلمة والمضبّة وخلف كل الأبواب التي لا يملك أيٌّ كان مفاتيحها. لماذا تشعران بالأسف من أجلي؟ إني هنا كي أبحث عنه في البحار؛ وأعرف أنكما سوف تسألاني الآن من هو؟ وعن أي سرياس أبحث؟ وما سمات سرياس ذاك حتى أسلّم نفسي إلى الفيضان من أجل البحث عنه؟ لا أعرف، فقد تكون سلسلة من الأرواح الخبيثة قيّدتني بالأغلال بقصصها الشيطانية، وتسلمني كل واحدة منها إلى بعضها الآخر. سأسير حيثما أستطيع... وبقدر استطاعتي سأضيف هذا الانبعاث في مخيلتي. إن كان هناك ربّ فإنه سيأخذ بيدي، وإن كان شيطاناً فسأكون ممتنّاً أيضاً».

في اليوم التالي أخذت الرمّانة الزجاجية من الشقيقتين البيضاوين وذهبت بمفردي عند السيد مُجده شمس؛ وكان لا يوجد أي وجه تشابه بين بائع الأنتيكات الشاب، وبين ذلك الشيخ المغرم الذي كنتُ قد التقيته في الجبال. كان ذلك الرجل القاعد في ذلك المكتب الفخم يتكلّم بوقار وهدوء، وعلى نحوٍ لم أرَ مثله إلا عند السياسيين الذين كانوا يتحدّثون في بعض الأوقاتِ في المحطّات المحلّية وهم يقعدون خلف المكتب. كان ثمة طنين في صوته، وعند تحدّثه مع أي شخص كان يبدو وكأنه يتحدّث مع عددٍ من النساء ليسحرهن ويدهشهن بصوته. سلّمته رسالة أبيه والرمّانة الزجاجية؛ مدّ يده وفتح خزنة كبيرة موجودة بجوار مكتبه، وأخرج منها رمّانة زجاجية أخرى، وقارنهما معاً. قال: «بناءً على أوامر أبي أتكفّل بمعيشته... ليست هناك نسبة قرابة بيننا. إنه يعيش مع عدة أولاد آخرين، وترعاهم مؤسسة خيرية أجنبية». نظر إليّ ثم سألني مرتبكاً: «أتعرف ما ظروفه؟ هل رأيته؟ أتعرف كيف شكله؟» فأجبته: «كلا، كيف لي أن أعرف؟ فإني لم أره حتى الآن». أخذ مفاتيح سيارته قائلاً: «لنذهب». فأخذني إلى بيت كبير يقع في زقاق مبني حديثاً من الجزء الأحدث للمدينة. هزّ السيد مُجده شمس رأسه في الطريق وقال: «يا سيدي، إني لا أعرفه؛ بل أهتم بأموره بناءً على أوامر أبي السيّد جلال. فأنا من وجد له ذلك المكان؛ المكان الخاص بالأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة والمقعدين. قد ينقلونه إلى أوربا، فقد قال لي أحد الأطباء إنهم سيجرون فحوصات عليه. منذ فترة قلت لوالدي أن يُبعد نفسه عن هذه الأمور، ولكنه لم يعر بالاً. يا سيدي، لقد فعلت الكثير لأجلهم وذلك من أجل السيد جلال».

كان شخصاً يرى نفسه مهماً جداً بحيث لم يكن يهتم بأشخاص بائسين مثل سرياس. أنزلني أمام الباب وسألني: «أتريد أن أرافقك؟» فأجبته: «كلا يا عزيزي، فإني أعرف جميع طرقات العالم». لا أعرف لمَ لم يرافقني، ربما لم يكن بإمكانه دخول عالم أولئك الأطفال الذين كانوا يعيشون فيه؛ وكأن الخوف يبعده من هناك، وما يجعله يأتي هنا هو احترامه لوالده فقط، وسرعان ما أدار محرّك السيارة ورحل. لم يكن السيد مُجده شمس مثل أولئك الذين قد عاركتهم الحياة، بل كان من الأشخاص الذين لم يكن يهمهم أي شيء سوى أنفسهم، ولا حتى حياة الآخرين. أوصلني ذلك الرجل في ظهيرة يوم ساخن إلى مبنى كبير في داخله حصن مغلق آخر: شيء بين المستشفى والسجن. مكان للمكافأة والعقاب، بيت من أجل الاعتناء بالناس وتدميرهم. أوصلني ولم أره بعد ذلك؛ أجل... كانت هذه المرة الوحيدة، ولم أرَ السيد مُجده شمس بعد ذلك؛ الشخص الذي كان عليه أن يوصل محمّد زجاجي القلب إلى سرياس الأخير. عندما رأيته لم يكن يعرف أي شيء عن محمّد زجاجي القلب، كما أنه لم يكن يعرف شيئاً عن سرياسين الآخرين أيضاً. قال: «لدي القليل من الوقت بحيث أهتم بحياتي فقط؛ منذ سنوات وأنا أسأل السيد جلال شمس ما هذه الرمّانة الزجاجية؟ دعني أرميها، فالخزنة ليست سلّة مهملات! وفي كل مرة أسأله: "ما هذه الأشياء يا أبي؟ إلى أي فترة تعود؟ فهذا الشيء الزجاجي ليس بشيءٍ ذي بال، فماذا أفعل به؟ فقد أصبحت وبالاً عليّ". يجيبني: "لا ترمها، فإنها ستفشي سراً كبيراً ذات يوم"». أعطاني الرمّانة الزجاجية أمام ذلك البيت وقال: «منذ سنوات وأنا أحتفظ بها، والآن فقد باتت لك؛ وحين ترى السيد جلال شمس أخبره أنك قد استلمت الرمّانة من

مُجده شمس سليمة، كي لا أشعر بالإحراج أمام أبي». فأجبته بهدوء: «اطمئن... اطمئن... اطمئن». تركني ببرود، زمّر ثم ودّعني سريعاً، فدخلت بمفردي إلى ذلك البيت الذي كانت مؤسسة أجنبية قد بنته من أجل الشباب ذوي الاحتياجات الخاصة. لا أعرف بالضبط كم غرفة كانت في ذلك البيت؛ وكأنه يحتوي آلاف الآلاف من الغرف، وآلاف الآلاف من الممرات الملتوية، ومئات القاعات الكبيرة. كان من الخارج يبدو مثل أي بيت عادي، إلا أن داخله يبدو وكأنه يستمر حتى نهاية العالم. عليكم أن تعرفوا يا أصدقائي، أنني لن أنسى حتى مماتي تلك الرحلة المخيفة والمدهشة في الممرات الجافة والفارغة لذلك البيت.

كان يحتوي على آلاف الغرف، آلاف الغرف الممتلئة بالشبّان العاجزين والمقعدين؛ وأطفال فاقدي الأطراف، وكائنات غريبة وفريدة، وأطفال قُطّعوا إلى أجزاء وقامت يدٌ بتركيبهم على عجل.

يبدو وكأن الغرف تم تقسيمها حسب إعاقة كل مريض؛ كانت هناك عدة غرف كبيرة ممتلئة بالأطفال الذين كانوا قد فقدوا سيقانهم الاثنتين، وكانت مكاناً لأولئك الذين يمشون على أيديهم، وكانوا مثل عدة أجسام مقتلعة عن الأرض ملفوفين في بطانيات ومتدلين بنحوٍ غريب، أو يتأرجحون من أسرتهم الشبيهة بالشبكة.

كان يبدو وكأن بعضهم يتدلّون من عصاً ما، وبعضهم الآخر ينامون تحت أسرّتهم، وقد وضعوا أواني طعامهم على الأرض بالقرب منهم، وينظرون من القاعة إلى العابرين الذين كانوا يمرون بجوار أسرّتهم.

كان القسم الآخر يخصّ الشبّان الذين فقدوا أيديهم ويحملون أوانيهم بأفواههم، ويضعون الصواني الخاصة بالطعام على رؤوسهم ويتحركون في الممرات الطويلة، وكأنهم يشاركون في مباراة صامتة لا نهاية لها. اجتزت الممرات واحدة تلو الأخرى، فشعرت برائحة عالم خطير. كان الأمر باعثاً على الاستغراب، فكيف يتسع المكان لكل تلك الآلام والعذاب في مُحيطٍ كهذا؟ كان آلاف الأطفال الجرحى يأتون ويذهبون في صمت ومن دون خوف. كان أحد الأماكن الأكثر هدوءاً في العالم؛ وبالكاد كان يُسمع فيه الصوت. كانوا يتهامسون فيما بينهم بزمزمة خائفة؛ وكانوا يردّون على السؤال بصوتٍ خافض. في قسم المكفوفين كان هدوء رمادي قد خيّم على كل شيء، وكأن عمى العميان عديم النهاية قد جعل جميع الأشياء عديمة اللون. وكان هناك صمت في قسم الصُم يشبه صمت الصحراء؛ صمت ملكوتي يثقل على المرء. وفي مكان آخر رأيت صبياناً وكأنه تم تقطيعهم وألصقوهم بعضهم ببعض مجدّداً. كانوا كائنات مضطربة، كائنات تم تركيبها على بعضها وقد زرعت أعضائهم بأشخاص آخرين. كنت أشعر أن رأس أحدهم قد رُبط بجسد شخص آخر، وعين أحدهم في وجه شخص آخر، وأنف هذا على وجه ذاك. كان الأمر على نحو يجعلك تشعر أن يداً ما قد قطّعتهم جميعاً ومزجتهم مع بعض، وركّبتهم بحيث لم تتمكن من العثور على أصلهم. كان يمكنك أن ترى شخصاً أكثر من نصفه يعود إلى شخص آخر، وتجد طفلاً وكأن أياً من أعضاء جسمه لا تتناسب بعضها مع بعض. وأنا أتقدم كنت أسأل في جميع الممرات والغرف والقاعات: «أيعرف أحدكم سرياس الصباحي؟» وكان صوت خفيض يرد متمتماً: «لا نعرفه». صوت لم يكن معلوماً من أين

صدر، ولم يكن واضحاً من أجاب عن سؤالك. وحين تدير رأسك لتعرف من أجابك لن تجد من ينظر إليك.

في نهاية الممر كانت ثمة غرفة تُعد قسم الأطفال المحترقين، الأطفال الذين أصابتهم الحروق في الحرب، وهناك وجدت سرياس الصباحي؛ حيث تساءلت بصوتٍ عالٍ أمام القسم: «رجاءً أخبروني من يعرف سرياس الصباحي؟» كان ثمة صبي ضئيل الحجم ونحيف يدور نصف عارٍ مرتدياً قميصاً داخلياً وشورت. كان جسمه كله محترقاً على نحوٍ مخيفٍ؛ وكانت عيناه زرقاوين، ووجهه محترقاً. كان صبياً بدون حاَجبين وأهداب، وكأنه قد هرب من حلم مظلم كالأشباح. تقدّم بهدوء وسأل: «هل أرسلك السيد جلال شمَس؟» فهمست في أذنه: «لقد أرسلني... لقد أرسلني السيد جلال شمس... أأنت هو؟ هل أنت سرياس الصباحي؟» فأجابني بصوت أخفض: «كلا، كلا، لست أنا، ولكنني أعرفه. إني أعرف سرياس الصباحي؛ تعال كي آخذك إليه». فأمسك بيدي وأخذني بهدوء؛ وقال إنهم في هذه الأيام يعتنون به في قسم الحروق. كان مئات الشبّان قد احترقوا على نحوٍ وكأن أجسادهم قد ذابت مثال الشمع، وكانوا على أسرّتهم يبدون مثل البلاستيك المهروس، وباتوا يشبهون المطاط الذي بردَ ولم يعد أي قالب يعطيه شكلاً. بعضهم كان يبدو عليه الاشتعال باستمرار؛ وحين كنت تنظر إلى عيونهم كنتَ تراها ممتلئة بالفحم. كانت أنفاسهم حارقة مثل هواء الكانون؛ وحين كنت تمر أمام غرفهم كنت تشعر بلهيب أكثر حدّة وحرارة من لهيب الصحراء. ومقارنة بالآخرين كان يبدو وضع ذلك الصبي أفضل. قال: «اسمي هو "استيره كاميل"، وينادونني

باسم "النجمة السوداء"، لأنني الوحيد الذي أخرجُ في منتصف الليل وأسيرُ في الأزقة والأسواق المظلمة. أتعرف كيف أصبت بالحروق؟ لا تعرف... لقد احترقت في حقل أخضر؛ كنت نائماً مع بنت شيخ معمم تحت السماء الزرقاء، فأحرقَنا أقاربها نحن الاثنين. فأوصلت نفسي إلى الماء كيفما اتفق إلا أنها لم تستطع الهروب واحترقت هناك في حقل القمح». كان يتكلّم بهدوء غريب بحيث يجعلك تشعر وكأنك محبوس في سجنٍ مرعب، وليس في مستشفى ودار لرعاية الأيتام تابع لأشخاص خيِّرين. كان مصاباً بالحروق على نحوٍ لا يستطيع المرء أن يتخيّله كيف كان قبل إصابته؛ ألا أن شيئاً من ضَياء روحه ونقائها كان يسطع من عينيه. قال: «أتعرف لمَ نتكلم بصوت خفيض هكذا؟» فأجبته: «لا، لا أدري». نظر إليّ وقال: «كان عليك أن تعرف... هنا يصيح الجميع ويصرخون؛ ومن يتحدّث بصوتٍ عالٍ أو يئن فإنه يزعج هدوء الآخرين ويسلب راحتهم، ويزعج راحة الأطباء والمشتغلين في هذه المؤسسة الذين يشرفون علينا. لقد قاموا ذات يوم بطرد جميع الذين يصرخون ويتحدثون بصوتٍ عالٍ. عليك ألا تصرخ إن كنت تريد العيش هنا وتحصل على طعام وتنام تحت بطانية دافئة». توقف فجأة، ونظر إليّ بريبة وسألني: «من أنت؟ يبدو وكأنك لم ترَ هذا المكان ولم تعش في هذه المدينة». نظرت إليه وأجبته: «أنا والد سرياس الصباحي». لم أستطع قراءة شيء من عينيه، وكأنه لم يكن يريد أن يحدّق كثيراً في عينيّ؛ وكأنه يعلم كم سيفضح ضياء نظراته العميقة ونقاؤها إصراره. طأطأ رأسه وقال: «لم أرك قط». وكأنه كان يخشى شيئاً؛ ألقى نظرة حادّة عليّ، وأضاف: «سوف ينقلون سرياس لأوربا... لقد سجّلوا اسمه، وسيرسلونه إلى أوربا.

سيذهب بعد عدة أيام، وهناك سيقومون بدراسة وضعه. إنهم خمسة أشخاص، وقد اختارهم شخصان بريطانيان». ثم طأطأ رأسه بانكسار وتابع: «لم يعجبا بي؛ إذ أرادا شخصاً قد احترق بالأسلحة الثقيلة. كانا يختاران الأشخاص الذين احترقوا بالقنابل والغازات الكيماوية ولم يختاراني؛ وضع أحدهما يده على بشرتي وقال "لا أريد هذا"». ومدّ يده بهدوء باتجاه أصدقائه قائلاً: «يلقبوننا بأولاد الـ"فحم"، لأننا قد عبرنا النار؛ في السابق يسمّون هذا المكان قسم "الجحيم". حتى جاء هنا ذات يوم شاعر وأسمانا أولاد الفحم؛ وكتب قصيدة طويلة وألقاها في التلفزيون، ثم جاء هنا وقرأها لنا أيضاً. كانت قصيدة طويلة، ولا أذكر شيئاً منها». صمت فجأة ثم قال: «أتعلم أن سرياس الصباحي لا يتكلّم؟ أتعلم أم لا؟» لم أرد سابقاً أن أسمع شيئاً مهماً كهذا من السيد جلال شمس؛ بل كنت أريد احتضانه والتربيت عليه وأسأل عن آلامه. فأجبته: «كلا، لم أكن أعلم؛ لم أعرف بذلك». فقال بصوتٍ حزين بالكاد يُسمع: «لا يستطيع أن يتكلم؛ فمنذ احتراقه لا يستطيع التحدّث، يستطيع أن يقول عدّة مفردات موجودة في رؤياه. إن سريره ملاصق لسريري، لذلك أنتظر عدة أيام كي أربط كلماته كلها ببعضها بعضاً حتى أفهم شيئاً من كلامه. أنا وحدي من يمكنه فعل ذلك، ولا أحد يستطيع فعل هذا الأمر». ثم طأطأ رأسه خجلاً وأضاف: «لأنه ملاصق لسريري».

كانت الممرات أطول مما كنت أتوقع؛ ونحن نسير قال استيره الأسود: «إن سرياس لا يتذكرك؛ فإنه لا يتذكر أي شخص. ذات يوم جاء رجل أعمى مع شخص آخر ولكنه لم يعرفهما. ولاحقاً فهمت

أنه لم يعرفهما؛ أي أنني عرفت ذلك بعد ما جمعت كلماته خلال أسبوعين».

كان سرياس الصباحي يجلس على آخر سرير في ذلك الجانب من الممر. فقال استيره الأسود: «إنه سرياس الصباحي». اقتربت منه بهدوء؛ كان يعبث بسبحة طويلة. كان ثمانية أشخاص آخرون في الغرفة أيضاً، وكان هو يجلس وحيداً على السرير الأخير، ويلهو بحبّات تلك السبحة الكبيرة الملوّنة دون أن ينظر إلى شيء ما. لم أفهم لمَ لم يرد السيد جلال شمس أن ألتقي به حتى اقتربت منه تماماً. يا إلهي، يا للهيئة المخيفة... كان مجرد كومة لحم مشوّهة؛ وكأن عينه قد ذابت على خدّه. كانوا قد أداروا خدّه بشوكة كبيرة بحيث خرجت عظامه، وتدّلت شفتاه حتى ذقنه. كانت أذناه مبرومتين، وقد اقتلعت ريح شديدة شعره كله. كان جفن عينه اليمنى قد استقر على عينه كوريقة جافة متساقطة، ومن أجل أن يرى بشكل أفضل كان عليه أن يرفع قطعة اللحم المتدلية ويمسك بها. وكانت عينه اليسرى قد تضاءلت بشكل غريب خلافاً لعينه اليمنى التي كانت تبدو أكبر من حجمها المعتاد؛ وأنفه مجرد قطعة لحم محترقة، وتسمع صوت خشخشة صدره عندما يتنفس. اقتربت منه بهدوء، وانحنيت وسجدت أمامه ثم قبّلت قدميه كثيراً. ركعت أمامه وكأنني أمجّد آلهة صغيرة؛ لم يلتفت أحدٌ إلى أنني أقبّل قدميه، حتى سرياس نفسه لم ينظر إليّ؛ كانت الحياة قد نهشته بشكلٍ دام ومميتٍ، بحيث لم يستطع الشعور بتلك القبلات الصغيرة واليتيمة وعديمة المعنى. عندئذٍ تذكرت كلام السيد جلال شمس حيث قال: «حتى المحبة لا تستطيع معالجة آلام هذا الطفل».

كانت محبتي متأخرة جداً، كما أن الحب المتأخر يشبه الشفقة والندم وليس الحُب. عندما وقفت أمام ذلك السرير كنت أشعر وكأنني أنهيت رحلة طويلة جداً. وكأنه لا يوجد شيء في هذا العالم أكثر أهمية من اللحظات والدقائق التي سجدتُ فيها وأغرقت ذلك الصبي بقبلاتي؛ الصبي الذي كان ضائعاً في عالمه وغافلاً عني.

بدا وكأنه لم ينمُ، إذ كان بعد تعرضه للحرق قد قضى معظم عمره في مكانٍ مظلم وغرفة مغلقة؛ وقبل أن ترعاه هذه المصحة، كان قد قضى فترة طويلة في غرفة جامع مظلمة مع عدة مساكين آخرين، وبقي حياً بمساعدة السيد جلال شمس. لم يكن يستطيع الوقوف إذ كانت قدماه قد بقيت صغيرتين وعاجزتين بشكل غريب؛ فمنذ ذلك اليوم الذي أحرقته نار القنابل لم تنمُ قدماه، إلا أنَّ الجزء العلوي من جسمه قد نما بشكل غير متناسق. كان قد احترق في طفولته، وقضى حياته في الغرف المظلمة ولم يكن يعرف شيئاً عن العالم الخارجي. لم يكن بإمكانه أن يرى جيداً ولا التحدّث. قال استيره الأسود: «إنه يدرك بعض الأشياء». وقفت أمامه وقلت: «أنا أبوك». نظر إليّ بهدوء ولم يقل شيئاً، وكأنه لم يكن قد سمع مثل هذه الكلمة. وبعد لحظة قصيرة رفع رأسه ورأى الرمّانة الزجاجية في يدي، فقال: «رمّانة». أطرق برأسه وقال عدة مرات بصوت شجي: «رمّان... رمّان». احتضنته بهدوء ووضعت شفتاي على جبينه الجريح وقبّلته. لم أكن قد قبّلت شخصاً كهذا سابقاً، وكأن لم يكن هناك من قبّله هكذا قبلي أيضاً. كان أصعب أمر يمكن أن يفكر فيه المرء هو إيجاد طريق لدخول قلب هذا الطفل؛ عندما قبّلته رفع رأسه بفرح غامر وقال: «غداً... غداً». فقال استيره

الأسود الذي كان يقف بجانبنا: «سيأخذ الأمر عدة أيام لتفهم كلامه». يحدث بعض الأحيان ولم تتنبأ سلفاً بالتغييرات، فالصبي الذي كان هناك وقد خرج من النار بجسدٍ مهترئ وتبعث منه رائحة تلك الغرف المظلمة والسوداء، وقد ترعرع فيها، هو ابني. كانت هذه أول مرة يقف شخص أمامي وأحتضنه قائلاً: «بُني»؛ وهي لحظة قد شغلت تفكيري في الصحراء لإحدى وعشرين سنة. كلا، لا تتصوروا أنني فقدت مشاعري تجاه آلام الآخرين برؤية ذلك الصبي؛ لا تتصوروا أنني حين احتضنت ذلك الصبي نسيت سرياس الثاني وأسراره في ذلك السجن المظلم. ولا تتصوروا أنني فقدت علاقتي العاطفية مع قبر سرياس الكبير المدفون في أرض الأشواك، ولا تتصوروا أنني قد نسيت أطفال السوق والمزارع وساحات الحروب الأيتام والوحيدين.

منذ تلك اللحظة التي رأيت فيها سرياس الأخير، أدركت أنه لا يمكنني أن أكون أباً حقيقياً؛ وحين فتحتُ عيني أدركتُ أن من يقف أمامي ليس بمقدوره أن يعدّني أباه الحقيقي. لم يتبقَ لي شيء غير قبر وجسد ممزق وعدة أشرطة ورمّانتين زجاجيتين؛ كما أن سرياسين الثلاثة لم يصبحوا أشقاء أبداً، لذلك فإني لا أُعدّ أباهم أيضاً، إذ كنت أنا وهم قد غرقنا في عالم خيالي تحتاج كائناته إلى شيء أكثر عمقاً من الأخوة والأبوة والصداقة والحب.

أدركت معنى المواثيق التي أبرمها سرياس الكبير مع أصدقائه، والشقيقتين البيضاوين ذات يوم، وكذلك مفهوم قسم لاو لاو وشادريا؛ وكأن شيئاً قد توّهج في أعماق قلبي. ومنذ تلك اللحظة أدركت أن انضمامي إلى العهد والميثاق هو طريق حياتي الوحيدة، في مقابل

صمت مشاعري إزاء الصحراء والموت والحيرة والفراق اللا متناهي.

حين احتضنته، وحين شعرت بدفء جسمه، اكتشفت شعلة أعماقي المتقدة التي كانت لا تزال تستعر؛ وعندما أحطته بذراعيّ كأمواج السيل الجارفة، أدركت كم أن حياتينا بحاجة إلى ميثاق كبير، أكبر من الأبوة والحب والشفقة. وأنا أحتضنه وأشم رائحته كان كلام السيد جلال شمس الصعب يرّن في أذني؛ كنت أنظر إليه وأحتضنه وأقبّله وأضع يديه الظريفتين والمحروقتين على قلبي، وأبكي واضعاً رأسي على صدره الدامي. يا لَها من جمله مرعبة... «حتّى المحبّة لا تستطيع معالجة آلام هذا الطفل».

رفعت رأسي في تلك اللحظة وألقيت نظرة على الممرات الطويلة وتفحصت أولئك الأطفال المحترقين في الأسرة، الذين كانوا يشغلون أنفسهم بشيء ما؛ وكنت أشاهد وجوههم ونظراتهم الصامتة وأجسامهم العاجزة وحيواتهم المهدورة. رأيت استيره الأسود الذي كان يبدو وكأنه ينظر بحسد إلى سرياس الصباحي وهو في حضني. وفي تلك اللحظة قررت بعينين دامعتين ومن صميم قلبي أن أوقف حياتي في ميثاقٍ أبدي من أجل ذلك الصبي.

كنت أنا من كتب الميثاق الذي أبرمته مع نفسي، واحتفظت به. وكان الميثاق بيني وبينه هو ألا أترك سرياس الصباحي مجدداً، وأنطلق خلفه أينما يرحل؛ وحيثما نفترق أبحث عنه وأجده. وأوقف حياتي كلها من أجل البحث عنه في أي مكان أفقده فيه.

لم يكن سرياس يعرف لمَ أقبّله، ولم يكن يعرف ماذا يعني الأب؛

ولكنني شعرت أن احتضاني له يُبهجه كثيراً. نظرت إلى عينيه وكأنه كان يرى الأشياء ليس مثلنا بلِ على نحو آخر. ولما احتضنته كان دفء جسمه ينقل إحساساً قاتلاً من الوحدّة إلى جسمي. كنتُ أشعر أنني كنت بعيداً منذ سنوات عن احتضان شخص ما، وكنتُ أشعر أن الجسم المقطّع لهذا الإنسان قد حبس صرخة كبيرة في أعماقه توقاً للحياة. حين احتضنته كان يلصق نفسه بي مثل أي روح محرومة من الحنان. لم يكن يعرف لمَ احتضنته، ولم يكن يعرف ماذا أريد منه؛ إلا أنه كان يدرك احتياجاتي من خلال دموعي. كانت ثمة غريزة صغيرة ونقية ترشده؛ ومن أجل أن يعرف احتضاني له واحتضان الآخرين، كانت غريزته النقية الصغيرة ترشده. كم كان الأمر غريباً! بإيجادي لسرياس الصباحي كان عليّ أن أفقده. قال استيره الأسود الذي كان يجلس على السرير بالقرب من سرياس الصباحي وينظر إلينا: «بعد عدة أيام سيأخذونه إلى أوربا؛ ربما يشفونه، وربما يتحسن ويصبح نشيطاً سليماً بحيث يمكنه السير برجليه». واحتضن سرياس الصباحي مثلي وأضاف: «سوف أفتقده كثيراً، فنحن صديقان ونتناول طعامنا كل يوم معاً». كان استيره الأسود صبياً خجولاً، إلا أنه كان صادقاً. أمسك بيدي قائلاً: «يمكنك أن تخرجه معك لعدة أيام... فسيأخذونه إلى أوربا. يمكنك أن تأخذه معك قبل أن يأخذونه». ضغط على يدي بشدة وأضاف: «خذني معكما أيضاً، فقد مرّت فترة طويلة لم أنم خارج هذا المكان، أريد أن أرى النجوم ولا يمكنني هنا رؤية النجوم». في ذلك الوقت لم أكن أعرف بمَ أفكّر إذ كنت حائراً ومضطرباً؛ غسلت وجهي في الحمام الملاصق للغرفة، ونظرت بكل ذلك الخوف والتشويش المتجليين في عيني إلى المرآة. نظرت دون أن أنتبه إلى

أنني كنت أبكي بشكل متواصل. أحنيت رأسي على المغسل فشعرت أنني سأتقيأ دماً؛ كنت غاضباً من العالم، والسماء ومن الدنيا، ومن كل الأشخاص القريبين والبعيدين على هذا الكوكب الذين يتدخلون في شؤون الحياة، ومن كل شخص على الأرض يرى نفسه وكيل الربّ، ومن كل شخص جعل سرياسين الثلاثة يبتلون بهذه المصائب. بيد أنني لم أكن أعرف إلى من أوجه غضبي. وضعت رأسي تحت صنبور المغسلة، وحاولت التهدئة من روعي؛ فرؤية كل تلك الجروح على جسد شخص كانت تجعل أيّ شخص يشكّك في براءة نفسه. صارت رؤية تلك القاعة والممرات والأقسام الملأى بالمجروحين مؤلمة جداً، بحيث تجعل جميع كائنات العالم تشعر بالذنب.

لم يكن سرياس الأخير شخصاً يمكنك أن تعرف كل أسراره في فترة قصيرة؛ وليس فقط لم يفتح بوابات الطلاسم على قصة سرياسين الآخرين، بل إنه كان قد تحوّل إلى سر وطلسم كبيرين أيضاً. كنت أشعر أن خلف ذلك الوجه المضطرب والنظرة الحائرة وصمته القاتل ثمة قلب كبير ينبض. عدتُ إلى القاعة ووضعت رأسي على صدره واستمعت إلى صوت قلبه. فسمعت لحن أنفاسه الهادئ الذي كان يشبه تحليق فراشة ما. عندما شعر بالإرهاق تمدد على سريره وحدّق إلى السقف بعينه الكبرى؛ كنتُ أشعر أنه منذ فترة طويلة لم ينظر إلى شيء غير ذلك السقف. وبدأ يترنم مع نفسه بكلمات عديمة المعنى.

قال استيره الأسود: «إن كنت تريد أخذه معك، سأعلمك ماذا يجب أن تقول». وضعت يدي على كتفه وقلت له: «تعال يا استيره الأسود؛ هيا فإنني أريد أخذك معي. أريد أن آخذك أنت أيضاً؛ قبل

رحيله سنكون معاً، وسنبقى مع بعض في يوم رحيله أيضاً». لم يكن بالإمكان رؤية السعادة في وجه استيرة الأسود، فالنار كانت قد أحرقت مشاعره وسعادته وضحكاته؛ ولكن من صوته استطعت أن أشعر بسعادته العميقة وغير المرئية، إذ لم تستطع النار أن تصل إلى هناك.

علّمني كيف أستطيع أخذ سرياس الصباحي، ورافقني بنفسه إلى الأعلى، حيث كان الموظفون والأطباء والمسؤولون يعملون هناك. كنت أشعر أن لدى استيره الأسود تأثيراً خاصاً على جميع العاملين هناك. أخذني عند طبيبة كان عليّ أن أقدّم نفسي لها، وقد قال لي استيره الأسود: «مهما قالوا لك عليك ألا تغضب، وعليك أن تكرر كلامك بصوت خفيض دائماً، ولكن لا تغضب. لأنه بمجرد أن ترفع صوتك فإننا سنخسر كل شيء؛ فهنا لا أحد لديه الحق في أن يتكلم بصوتٍ عالٍ. وإن فعلت وتكلّمت بصوتٍ عالٍ فلا أنا ولا سرياس الصباحي يمكننا مرافقتك». حوّلتنا الطبيبة إلى امرأة أخرى باسم تشيمن؛ فأخذني استيره الأسود إلى الآنسة تشيمن وهي فتاة سوداء ونحيفة، وتبدو يافعة جداً وكأنها قد أنهت الدراسة الابتدائية في ذلك اليوم. سألتني بصوت طفولي وكأنها تخاطب طفلاً آخر: «تفضّل، ما أمرك؟» فرويت لها قصتي كلها، وقلت لها إنني أريد أخذ سرياس الصباحي واستيره الأسود كي يكونا معي عدة ليالٍ قبل رحيل سرياس الصباحي. كان استيره الأسود يقف في ذلك الجانب من الباب، فنظرت الآنسة تشيمن إلى الخارج بوجهها الطفولي ذاك وقالت: «يا ويلي، ويلي؛ أأنت أيضاً تريد الذهاب يا استيره العزيز؟»

وكانت هذه العبارات تتناسب مع وجهها كثيراً. دخل استيره الأسود الغرفة وأجاب: «أريد أن أذهب لفترة وأرى السماء، وأن أنام في العراء وأشرب حليب البقر». فردّت الآنسة تشيمن: «ماذا ستفعل إن لم أسمح لك بالذهاب، يا استيره الأسود؟» فأجابها: «سأعض نفسي؛ سأعض نفسي كثيراً حتى أموت». فقدّمت الآنسة تشيمن رأسها الصغير ورقّقت صوتها وخاطبتني بهدوء، وكأنها تتحدث مع زميلة لها: «إنه مجنون جداً؛ إذا ضغطت عليه سيعض نفسه، فانتبه له... سأوافق بشرط أن تنتبه له»، ثم سمّرت عيناها في عيني بشكل غريب، وأضافت: «إنهم بحاجة إليه هنا، فانتبه له كثيراً». ملأتُ الاستمارة وتعهّدت بإعادتهما إلى المستشفى بعد يومين في الصباح الباكر.

حين استلمت ورقة الإجازة أخذت بيد استيره الأسود، فعرفت أننا في المستقبل سنواجه أياماً لن تتكرر في حياتي؛ أوصلتهما بسيارة جيپ صغيرة إلى تلك القرية. يبدو وكأن سرياس الصباحي لم يرَ الخارج منذ فترة طويلة جداً، فكان دَهِشاً ومستغرباً جداً. كان ثمة خوف في عينيه لم أره سابقاً؛ قال استيره الأسود: «لم يخرج من ذلك المستشفى قط، فأغلب المرضى لا يمكنهم الخروج، لأن ما من أحد يستطيع النظر إليهم». كنت أظن أنهم لو فتحوا أبواب المستشفى ذات يوم، فإن المدينة ستمتلئ بالوجوه الجريحة والنظرات المخيفة لا يستطيع الناس تحمل رؤيتها؛ وستمتلئ المدينة بالوجوه الحقيقية التي ستفضح حياتنا في هذه البلاد، وستمتلئ بالوجوه المتوحشة التي ستفضح ذنوب الناس أمام بعضهم بعضاً. شعرت أنه لو ذات يوم خرجت تلك الوجوه، تلك الأرواح التي تعيش في العالم السفلي إلى

هذا العالم، وأولئك الذين لا يستطيعون إظهار وجوههم للشمس، عندئذٍ ستنشب حرب، حرب مدمرة، حرب كبيرة بين أشخاص قد نسوا حقيقة الحياة، وبين أولئك الذين يريدون إظهار الحقيقة لنا. عندما خرجت من المستشفى فهمت أن جيوشاً غير مرئية تعيش في تلك الأعماق، وفي تلابيب الزوايا الصغيرة لهذه البلاد؛ جيوش لا تريد أن يراها أحدٌ، جيوش من الأشخاص المحاصرين والمراقبين قد احتفظوا بشيء في ذواتهم، يختلف عن الأشياء التي نراها في الشوارع والأزقة.

طيلة الطريق كان استيره الأسود يتحدث حول الحياة في ذلك المستشفى؛ وروى قصص جميع الأشخاص الذين كانوا قد احترقوا خلال الحروب، والأحداث المختلفة كلاً على حدة. تحدّث عن أحد زملائه حيث نزل من الجبال مع نار أزلية، نار لم تطفأ قط. وكان قد دخل المدينة بهذه النار وأتوا به إلى المستشفى بهذه النار أيضاً؛ نار لم يطفئها أي ماء. كانت ناراً لم تطفأ أبداً، ولا تحرق جسمه أيضاً. قال: «مهما صبّوا عليها النار لم تكن لتطفأ، فألقوا البطانية عليه ولم تطفأ؛ فألقوه في المسبح ولمّا أخرجوه كانت النار كما هي. وعندما كان يسير في الأقسام كنّا جميعاً نخاف أن ينتقل لهيب النار إلى الستائر والملاءات وملابسنا. كان ينام على سرير معدني ولم يغطيه بالملاءة؛ وفي نومه كانت النار تستعر أيضاً. وذات يوم أخذوه إلى مبنى التلفزيون وقاموا بتصويره، وعاد مجدداً؛ وأخذوه مرة أخرى أيضاً. كان الشيوخ يقولون إنه من الجحيم ولهذا السبب فإنه يحترق؛ فهو معجزة إلهية كي نرى نار الجحيم الحقيقية بأعيننا. كان يتألم كثيراً؛

وذات ليلة هرب من الحراس وفقدنا أثره؛ لم يكن أحد يعرف إلى أين ذهب. كانوا قد أطلقوا عليه اسم "زهرة النار"».

كان يتكلم باستحياء ويرفع رأسه بشكل متواصل؛ وأضاف: «وهكذا هرب زهرة النار؛ كان زهرة النار يحب سرياس الصباحي كثيراً، لقد قضى سرياس الصباحي سبع سنوات في هذه الغرفة. كما أن زهرة النار كان يحبني جداً. ولكنني كنت أخشاه كثيراً، ولكنني لم أكن أخشى سرياس؛ ولم يكن هناك أحدٌ يخشى سرياس. وخلال سبع سنوات أخذوه إلى النجيل خلف المستشفى مرة واحدة فقط، وحتى الآن لم يرَ خارج هذا المكان قط». فقال سرياس بلحنٍ متقطع: «الشمس، الشمس، الشمس... الليل، الليل، الليل، النسيم، النسيم». كنتُ قد وضعت رأسه على صدري وكنت أريده أن يتكلّم، وكان استيره الأسود قد أخرج رأسه من نافذة السيارة وينظر إلى الطبيعة. لم أتجرأ على التحدّث مع أي منهما؛ لم أكن أفكر بتحدّثهما وتصرفاتهما وملامحهما، بل كنت أفكّر في روحيهما. بالنسبة لي أنا الذي كنتُ قد جئت من الصحراء، كان صعباً أن أعرف ماذا قد فعل بروحيهما كل ذلك الوقت الذي قد قضياه في أقسام المستشفى مع آلاف المرضى الآخرين الذين لم يكن بإمكانهم الخروج ولا قضاء الحياة بمفردهم. كنت أعرف ماذا تفعل الصحراء بروح المرء، لكنني لم أستطع معرفة ما قد تفعله دوّامة الاشتعال التي كانت تبتلع أولئك الأطفال بأرواحهم بشكل مستمر. وكلما كانت السيارة تتقدم في طريقها كان خطٌ من الظلام والغموض يتجلى أمامي بشكل بارز؛ خط الظلام الذي كان موجوداً بين الأجسام المهروسة وبين أنواع أخرى من الفناء.

فكّرت في كلام سرياس الثاني، وفي العربات المحطّمة لتلك السوق الكبيرة والمعتمة التي كانت تتحطم ذات صباح من ذلك الجانب إلى الجانب الآخر؛ وفي الدمار والهرج والمرج والفناء. وتجسّدت أمامي أطلال القرى المهدّمة التي لم يبق أي شيء منها على الأرض، فشعرت أن يداً غريبة قد دمّرت كل تلك الأشياء؛ اليد التي أجبرت سرياس الصباحي في النهاية على تسلّق قمة شجرة الرمّان ذات ليلة، ليرمي من فرط غضبه رمّانته الزجاجية إلى مكانٍ مجهول ويحطّمها. واليد التي احتفظت بالرمّانة الزجاجية لسرياس الأخير في ظلام خزنة، وحطّمت "صدر كجال" إلى قطع؛ المصير الذي قسّم التفاصيل الإنسانية الصغيرة بشكل متساوٍ بين الجميع.

نظرت إلى سرياس الأخير واحتضنته، فوجدت فيه الرمّانة الزجاجية المرمية لسرياس الثاني، ورأيت فيه "صدر كجال" المهشمة؛ والجسد المتحطّم والمنهك للمارشال وكأنه قد نهض من بين تراب القبر وغباره، وكأنه قد هرب من جحيم بعيدٍ وعاد إليّ. ورأيت فيه يدي سرياس الثاني المرتعبتين حيث أُلقيَ به من داخل تراب المتاريس وغبارها إلى سجنٍ ناءٍ جداً.

في ذلك اليوم كان سرياس الأخير يضع رأسه على كتفي، فشممت في أنفاسه الزمان كثيراً، بحيث لم أكن قد شممت رائحة أي شيء آخر على هذا النحو. حتى ذلك الوقت كان صعباً بالنسبة لي أن أرى البشر المنفصلين عن بعضهم كشيءٍ آخر، وأن أفصل البشر عن مصائرهم الخاصة. إلا أن سنوات السجن الطويلة تلك قد أعطتني فرصة كبيرة كي أفكّر في مصيري. خلال كل تلك السنوات

مع أنني كنتُ قد قضيتها في الوحدة الأكثر هلاكاً والصحاري الأكثر بعداً، ولكن مع هذا كنت قادراً على فهم كم أن مصائر البشر مرتبطة بأشياء أخرى؛ ففي أبعد الصحاري أيضاً يرتبط مصير الإنسان ببعض الأشياء، وأنه لا يزال بحاجة إلي حياة أشخاص آخرين وتحولاتهم وأخطائهم كي يخلّوا بقوانين العالم. لم أكن أريد أن يسرق أحدهم حياتي ويهبها لشخص آخر، وأن يأخذ أحدهم آلامي ويربطها بآلام شخص آخر؛ ولكنني مع هذا لم أكن أستطيع ألّا أربط آلام جسم هذا الشاب بآلام العالم الكبيرة كلها، بحيث بدوت وكأنني أعانق نار الدنيا كلها باحتضاني جسمه المحروق.

كان استيره الأسود يهيم في أفكاره، غافلاً عن أفكاري؛ وكان يشعر بالسعادة أنه قد خرج بعد سنوات وبات بإمكانه أن يرى السهول والحقول والبراري الخضراء، إذ كان منذ سنوات قد أصبح فتى المدينة. عند نظره إلى السهول كان ثمة شيء يجرّه إلى عالم داخل المستشفى، ولذلك كان ينظر إليّ بشكل متواصل وكأنه يريد أن يخبرني بسر ما. قال: «ليس كلهم سيئين، وكما قد رأيت فليس جميعهم أشراراً. فبعضهم يناديني "يا استيره العزيز"؛ في البداية كنت رقيق القلب جداً، ويتحطّم فؤادي مثل الزجاج فوراً وتلقائياً. ذات يوم جاءت ممرضة جميلة جداً، وكنت أحبها؛ كانت جميلة جداً ولديها شعر طويل، وذات ليلة صعدتُ إلى غرفتها في الطابق الأعلى متذرعاً بإصابتي بالصداع، وقلت لها بنبرة خائفة: "إني معجب بك كثيراً، فماذا ستفعلين بي؟ جداً، جداً، جداً... " ولكنها لم تجبني؛ بل أخذت بيدي وقادتني باتجاه السرير، ووضعت البطانية عليّ وقالت:

"نم، يا عزيزي... لا تفكر بهذه الأشياء". كنت كل ليلة أذهب إليها وأخاطبها قائلاً: "ماذا ستفعلين بي فأنا أحبك؟" وكانت تأخذ بيدي مثل كل ليلة وتضعني على سريري، وتقبّلني وكأنها تقبل طفلاً وتقول: "نم يا عزيزي". ولمدة سنتين استمرت علاقتنا على هذا النحو، حتى جاءتني ذات ليلة باكية وقبّلتني قائلة: "يا استيره العزيز، لم يعد بإمكاننا رؤية بعضنا". وفي اليوم التالي تركت المستشفى للأبد؛ لم أعرف أي مشكلة قد حلّت بينها وبين الأطباء، إلا أن شيئاً سيئاً كان قد حدث؛ ولاحقاً أحرقت نفسها بعد خروجها. ثم رأيتها، كانوا ينقلونها إلى قسم الحروق الخاص بالنساء. أتعرف أن لديهم هناك قسم خاص بالنساء أيضاً؟ لم أرَ ذلك المكان... لم أرَ ذلك المكان قط؛ إلا أن أحدهم قد رأى المكان ذاك. كان صحافياً قد جاء مرة ليكتب شيئاً عنّا، فروى لنا جميعاً، وقال إنه قد اقترح أن يجعل المرضى كلهم مختلطين كي يدركوا بعضهم بعضاً؛ كان يريد أن يوّحد قسم الرجال والنساء المحترقين كي يفهموا بعضهم. جاء ذات يوم ونقل لنا عالماً خيالياً من الأفكار. لم أره بعد ذلك، ولا أعرف أين ذهب». وعندما انتهى كلامه أطرق برأسه ونظر إلى أسفله؛ فسألته بصوت خفيض: «حسناً، ماذا بعد ذلك؟ ماذا حلّ بقلبك؟» فقال: «آ... قلبي... لم يعد قلبي مثل السابق؛ لقد تحجّر قلبي حين رحلت تلك الفتاة». كان يحكّ رأسه بسرعة بين الفينة والأخرى، ثم وكأنه يشعر بالخجل يخفض يده. كان غريباً لي أنه يردّد كلام محمّد زجاجي القلب وكأنه يذكرني بأحجية غريبة، ويشير إلى أنه شخص من تكرار شخصيات القصة التي أعيش فيها، وكأنه يريد أن يقول لي إنني شخصية أخرى من قصة أخرى؛ ولكنني قد سرتُ في طريقٍ آخر داخل قالب آخر.

ضغطت على يده بشدّة كي لا يتشوّش فكري كثيراً، فقلت: «يجب ألا يكون قلب الإنسان زجاجياً؛ يجب ألا يكون. لأنه سرعان ما سيموت ويأخذ كل شيء معه إلى قبره». كلا، لم أكن أريد أن أرى شخصاً آخر لديه قلب زجاجي. شخص يترك لي عدة أسرار معقّدة ومغلقة. حين قلت هذا أخفض استيره الأسود رأسه وقال بنبرة خائفة: «ولكنه كان هكذا... فذات يوم كان قلبي من الزجاج». كانت هذه آخر جملة بيننا؛ الجملة الأخيرة قبل وصولنا إلى بيت الشقيقتين البيضاوين.

19

ذات عصر انطلقنا أنا وسرياس الأخير نحو «آخر شجرة رمان في الدنيا»؛ وفي سفح تلك القمّة حملتُ سرياس الأخير على كتفي، وحتى وصولي إلى القمّة لم أضعه على الأرض. إذ كان خفيفاً ونحيفاً جداً بحيث شعرت أنني قد وضعت روحاً بخفة الريح على كتفي، وكأنني قد حملت خيالاً على كتفي.

كان على آخر سرياس أن يصعد تلك القمّة، وكان عليه أن يرى من هناك العالم مثل أخويه. إذ دائماً ما كان ظل مبهم وباهت يبحث عنه الجميع، أي جزءٍ من ماضيهم ومستقبلهم اللذين كانوا قد أضاعوهما.

فقط من هناك كان يمكنني أن أروي الزمان بحيث يكون سرياس الأخير جزءاً من سرياسين الثلاثة هؤلاء على ما نحوٍ ما، والذين لم تسمح لهم الحرب والعبثية والموت كي يلتقوا ببعضهم ويصبحوا ذوي شأن. من هناك كان يمكنني أن أحيي المواثيق التي قد أفناها الموت وأسفار الزمان. من هناك كان يمكنني أن أدخل تلك اللعبة كي أدفن قسمي تحت شجرة الرمّان تلك أيضاً؛ وفي الفترة التي كان يصبح فيها الأخوة سراباً كان الآباء يتحولون إلى صحاري والأبناء إلى رمادٍ.

لقد رأيت العالم من تلك القمّة وشممتُ الأحلام التي كانت تمطر على أغصان تلك الشجرة، وشعرتُ بهبوب نسيم السماء وسمعتُ نداءَ الأمل والمحبة وصرخة قد زرعها الشبّان تحت تلك

الشجرة أيضاً. هنا كتبت ميثاقي الأبدي وقررت أن أذهب خلفه أينما يذهب وأبقى عنده حتى مماتي؛ وآخذ معي قصة سرياسين أينما ذهبت. كتبت ميثاقي هناك، ولم يكن سرياس الأخير يستطيع أن يكتب شيئاً؛ ولم يكن بمقدوره أن يختم أي شيء معي، ولم يكن مديناً لأي شخص. كما أن السرياسين لم يكونوا مدينين لأحدٍ. كان علينا نحن الذين بقينا أحياء ونعرف قصتهم، أن نختم ميثاقاً ليتحرروا ويخرجوا من غبار النسيان؛ فكتبت ميثاقاً وختمته بدمي، وكان ميثاقاً بيني وبين السماء، بيني وبين تلك الشجرة، وبيني وبين آخر شجرة رمّان في العالم. الرمّانة التي كانت خليفة أحلامهم بين السماء والأرض، الأحلام التي لا يمكن اختيار أي اسم لها؛ الأحلام التي لو لم تكن في طبيعة شجرة بعيدة مثل هذه، لما كانت تتحقق. أحلام فهم الإنسانية، والأخوة والعداء و...

يا أصدقائي، يا من تستمعون إلى قصتي بدون أي كلل منذ عدة ليالٍ... لقد بتّم الآن تعرفون عم أبحث في هذه الدنيا، وتعرفون ماذا يفعل شيخ ذو لحية بيضاء ومُنهك مثلي على هذه السفينة. يا أصدقائي، إن ذلك العهد والميثاق، الميثاق الذي دفن مع ميثاق آخر تحت آخر شجرة رمان في الدنيا، قد قادني للبحر؛ والآن في هذه السفينة أبحث عن طريق يرشدني إلى مكان سرياس الأخير. وقد تعاهدت مع تلك الشجرة وكسرتُ غصناً صغيراً منها للذكرى ورميته أسفل الشجرة. وإن مررتم يوماً بتلك الشجرة اختموا ميثاقكم واكسروا غصناً للذكرى وارموه أسفلها؛ فعلى الإنسان أن يعرّف نفسه للحياة على نحوٍ آخر.

منذ عرّفت نفسي إلى آخر شجرة رمّان في العالم، بتُّ أشعر أني

قد بدأت حياةً جديدة؛ شعرتُ أنني قد وجدتُ أسباباً أخرى للحياة، وعثرتُ على الأهداف التي كان يجب أن أسعى خلفها. حين هبطتُ من القمّة كنتُ قد قضيتُ لحظات حياتي الأكثر ضياءً.

بعد إحدى وعشرين سنة أدركـت سرّ تلك الحرية العظيمة التي يكسبها الإنسان؛ الفترة التي يجد فيها طريقاً. وحين ركبت في "پاترا" بذلتُ كل جهدي كي لا أضيّع الطرق التي توصلني إلى سرياس الأخير؛ الشاب الذي ربّما ينظر الآن إلى النجوم من نافذة أحد مستشفيات الغرب. حين هبطت من قمّة جبل الرمّان وجدت طريقي... كلا، لا تقولوا انظر إلى نفسك، فقد أصبحتَ في هذه السفينة غافلاً عن الأرض والزمان. يا أصدقائي، إن هذا البحر لحافلٌ بالطرقات، وكل شبر من هذا الماء هو طريق... بكل اضطراباته ومتاهاته. إن الشخص الذي يعرف أين يذهب لا يضيع، وأنا أعرف أن الإنسان كائن يضيّع الطرقات سريعاً، وأعرف أن المرء لا يجد طرقاته. وهذه حقيقة مريرة نؤمن بها بعد فوات الأوان. ما من كائن آخر على الأرض يضيع الطرقات بقدر الإنسان، فالبشر لا شيء سوى كائنات تضيع الطرقات. أجل... يا أصدقائي، يا من تستمعون إليّ بشكل متواصل؛ إن الإنسان كائن عديم الطريق لأنه في النهاية لا يعرف إلى أين يتجه؛ ولهذا السبب يغلق الأبواب على نفسه كي لا يورّط نفسه في مشقة العثور على الطريق. ولكن دعوني أقول يا لَلخطأ المميت الذي ارتكبه الإنسان. حين كنتُ في السجن دائماً ما كنتُ أرى حلماً واحداً فقط؛ دائماً ما كان يتكرّر حلم واحد، الحلم الذي كان يغلق الطريق على الأحلام الأخرى بشكل مستمرّ ويتقدّم هو ليتكرّر عدة مرات.

حُلم من صحراء الرمال، صحراء صفراء ورمال ذهبية... طريق طويلة وعديمة النهاية.

طريق لا أعرف من أين جاءت وإلى أين تذهب، ودائماً ما كانت تأتي في نهاية حُلم مع ريح عاتية وتمحو أثرها، على نحوٍ لا يبقى أثر خلفها. وفي حُلمي كنت أستمرّ بتلك الرحلة الطويلة في الصحراء بتهوّر؛ وكان خوفي من نسيان ذلك الطريق يتقلّص سنة تلو الأخرى، وبمرور الوقت أدركت أنّ أيّ شبر من الأرض هو بداية موت طريق آخر يترك كافّة جوانب الأرض والبحار غير مكشوفة للبشر. انظروا يا أصدقائي، فالطرقات تنادينا باستمرار، وتأخذنا إلى مقاصد تستهدفها. كلا يا أصدقائي... يا أيّها اللاجئون في الماء والليل والظلام... قصدي ليس أن أقول لكم إن الإنسان كائن عاجز وعديم الإرادة. كلا! بل قصدي هو أن الإنسان يستطيع أن يتغلّب على ضياعه وفقدانه للإرادة؛ وعليه ألا يتصور عند إغلاق الطرقات أنه لم يعد هناك أي طريق آخر، بل عليه أن يؤمن أنه عند ضياعه يستطيع أن يبدأ من هناك، أي من المكان الذي توقف فيه. وعليه أن يخلق انقلاباً كبيراً وتحولاً عظيماً في الأشياء الاعتيادية واليومية.

ما الحياة سوى تحولٌ عظيمٌ حول الأشياء الاعتيادية، تحوّل عظيم حول الأشياء التي يمكننا أن نصل إليها في أماكن أخرى وبطرقٍ أخرى، وأن ننظر إليها من زاوية أخرى.

قالت لي آخر شجرة رمان في العالم أن أذهب وأتبع طرقات عليّ أن أكون في إثرها، كما كانت قد أوحت لنديم الأمير أن يذهب ويجد

علاجاً لعينيه في جميع زوايا الأرض. كما أنها قد أوحت لسرياسين أن يعشوا ولا يسعوا خلف الحروب والنزاعات، وأن يتكلموا عن الأخوة الخالدة والبحث الخالد عنهم.

عند شجرة الرمّان تلك شعرت أن قلب سرياس الأخير ينبض على نحوٍ مختلف أيضاً. كان يرفع الجلد المحروق عن عينه وينظر إلى الفردَوس الشاسع الذي لم يكن قد رأى مثيله قط. وكأنه قد عرف معنى سحر تلك الشجرة، أمسك بيدي ووضع رأسه على حجري، وغرق في النوم أمام ذلك العالم. لا أتذكّر الآن كم ساعة استغرق ذلك، ولكنّني لما أتذكّر فقط أن رأسه في حجري كان يجعلني أشعر أنني جزءٌ من عالم هؤلاء الأطفال ووجوههم وأحلامهم أيضاً، وأنّ الامتزاج والنوم هذين يدلّان على عروجي إلى ملكوتهم الإلهي. هناك شعرت أنّ سرياس الوحيد هذا ليس سرياس الأخير الذي احتضنته، بل إنه حياة جميع أولئك الذين قد وضعوا رؤوسهم على حجري. هناك سمعت تلك الموسيقى الأسطورية التي كان محمّد زجاجي القلب قد سمعها تحت تلك الشجرة. لقد رأيت تلك الصور الغريبة للعالم والسماء كان السرياسين قد شاهداها. وشممت تلك النُّهُر والأُمسيَة والليالي التي كانوا قد أشعلوا هناك النار. مثل النسيم مرّت كل تلك الصور أمامي، وكأنّه قد بُعثت ذكريات الشجرة في أعماقي، وربطت صور خيالها بصور خيالي. كنت أرى كلّ شيء من جديد، والآن أيضاً لا أعرف إن كانت رؤيا أو حقيقة، ولا أعرف أنني قد رأيت ظلّ تلك الأيام في الرؤيا أم في اليقظة، حيث كانت تروي تلك الشجرة أسرارها. وفي لحظة أصبحت بين تلك اللغات التي

عاش فيها سرياسون الثلاثة. وضعت يدي على قلب سرياس الأخير وشعرت باضطراب في أعماقي ذاتها.

لما استيقظ كان مستغرباً كثيراً بحيث لم تكن نيران العالم كلّها تستطيع أن تبتلع جمال تلك الدهشة. كان طافحاً بالأمل وحافلاً بصرخة السعادة والدهشة أمام السماء والرمّان والعالم؛ كان قد امتزج هناك بكيمياء تربطنا بعضنا ببعض.

حين وضعته على كتفي ونزلنا من القمة، كانت تفوح منه رائحة الرمّان بدلاً عن رائحة الاحتراق؛ فوضعته على الأرض في سفح الجبل، وقبّلته. كانت لا يزال تفوح منه رائحة الرمّان، وأيضاً رائحة أرض قد خطاها في أحلامه، كتلك الأرض التي قد خطاها أصدقاء تلك الشجرة. كانت أرضها زاخرة بالأساطير والآمال، والممكنات وغير الممكنات، والوجود والعدم.

كان ذانك اليومان اللذان احتضنت فيهما سرياس الأخير أقصر يومين في حياتي؛ وانقضيا بشكلٍ سريع وغريب، بحيث لم أدرك شيئاً منهما سوى دهشة ذلك الصبي وصمته.

كانت الشقيقتان البيضاوان تصرّان كعادتهما على عدم تقبّل أي شخص اسمه سرياس الصبّاحي، إذ كانتا تحبّان المرء بفرديته مثال شيء نادر وفريد. كنت أذهب إلى غرفتهما وألثم أيديهنّ البيضاء، وأسجد أمامهما والتمسهما كي تتقبلا أن سرياس الصبّاحي اسم كائن قد جاب عدة أماكن في العالم بطرائق مختلفة؛ وأنّ سرياس الصباحي ليس واحداً فقط، وليس قبراً بل إنّه قوس قزح كبير يرينا شيئاً مختلفاً مع

أيٍّ من ألوانه. ولكنهما كانتا تحدّقان إليّ بنظراتهما الباردة ولا تنبسان ببنت شفة، فلم تريدا خيانة ذكرى أخيهما. كانتا وفيّتان بميثاقهما مع سرياس الأول على نحوٍ فريد، ولم يبقَ أي سبيل ليدخل أحدهم إلى حياتيهما. فبالنسبة لهما كان العالم وكائناته تدور في حلقة من مشاعر الأخوة الخالدة تجاه سرياس. كانتا قد جاءتا إلى القرية كي تبتعدا عن الخداع والوساوس والظنون، وأوقفتا نفسيهما من أجل أطفال لم تتوقّعا أي شيء منهم أيضاً. وبين كل تلك الأحداث كان العالم يمرّ في حاشية من حياتيهما.

رجوتهما في تلك الليلة أن تأتيا وتتشمّما سرياس لتشعرا بلهيب النار الذي يحرق قلبه، إلا أنهما رفضتا المجيء. يا أصدقائي، يا من تستمعون إلى كلامي ولا تشعرون بالملل، لم تكن الشقيقتان تريدان تغيير أي شيء من تلك النهاية التي كانتا قد رأتاها؛ لذلك كانتا تعدّان كل هذا مجرد كذبة أطلقها رجل لا يريد تصديق حقيقة موت ابنه. كلمة رجل يصرّ على أن يجد في أوهامه ابنه الذي كان قد فقده قبل إحدى وعشرين سنة. كانتا تعدان هذه القصة تمهيداً من قِبلي لإنهاء تلك القصة التي كانت قد انتهت بالفعل؛ وصارتا تعدان التشابه بين اسم سرياسين الثلاثة مثل التشابه الموجود بين بعض الأسماء، لا مثل عدّة ذوات وبدايات ونهايات.

في ذينك اليومين كان استيره الأسود يتجوّل بحرّية بين النهر والسهل والأشجار، ويلهو ويشرب حليب الخراف؛ وحين رأيت سعادته شعرتُ أنا أيضاً بالسعادة. سألني: «يا مظفّر الصبّاحي، لو سافر سرياس الصباحي هل ستأتي إلى المستشفى وتزورني؟» فأجبته

بصوتٍ حزين: «كلا يا استيره الأسود، فحين يرحل سرياس سيتحتّم عليّ الرحيل أيضاً. عليّ أن أُعِدَّ نفسي للرحيل، ويجب أن أنطلق خلفه؛ سأركب باخرة في اليونان وأذهب إلى الغرب، وسأتبعه إلى إنجلترا». شعرتُ بحزنٍ عميق في صوته؛ كنت أعرف أنه لا يمكنني فعل شيء من أجله. كنت عاجزاً وبائساً جداً بحيث إنه لم يكن بإمكاني تقديم مساعدة ولو صغيرة لآلاف الأشخاص المحترفين هناك. كان صبياً أسيراً ولا يمكنه التسكع في الأزقة والشوارع صنوَ أي إنسان عادي، ولا بإمكانه السفر ولا البقاء في ذلك المستشفى للأبد.

عند عودتنا إلى المستشفى بدا وكأنني قد خنته؛ فقال أمام الباب بصوت مشوب بالحياء والحزن: «ألا تعود أنت أيضاً؟» لم أكن أريد أن أكذب عليه أو أعطيه أملاً كاذباً، ولم أكن أريد أن ينتظر شخصاً أو يبقى في انتظار شيء ما؛ فاحتضنته قائلاً: «اخرج يا استيره الأسود، فأنت يمكنك التحدّث... أنت يمكنك التحدّث بالنيابة عن جميع الأشخاص المحترقين هنا؛ فأنت أقوى من الجميع. اخرج واظهر وجهك الحقيقي؛ لا تخف، ودع سكّان هذه المدينة يتعلّمون النظر إلى وجوهكم». فقال استيره الأسود بلهجة خائفة: «لن نعيش إذا طُردنا من هنا... لو طردونا من هنا سنكون طعاماً لقطط الشوارع». هززته وقلت: «قُل لهم أن يخرجوك؛ عليكم جميعاً أن تخرجوا من هنا يوماً ما وتنطلقوا في الأزقة والشوارع. عليكم أن تخرجوا حتى أراكم، كي ينتبه إليكم من لم يسمعوا قصتكم بعد ويعرفوا بها». فحرّر استيره الأسود نفسه من بين يدي، وقال باكياً وهو يركض: «إنّ الجميع يعلم... الجميع يعرف... ليس هناك من لا يعرف». ابتعد،

فصرختُ: «اخرجوا! تعالوا وأرونا أنفسكم... أظهروا أنفسكم للرياح والأمطار... أمسكوا بيد بعضكم بعضاً واخرجوا». كنت أعرف أن صراخي بلا جدوى، وإن صرختي قد ضاعت في ذلك الزقاق؛ وا أسفاه يا اصدقائي، يا أسفي وحسرتي للآلاف المرات إذ لم أتعرف إلى استيره الأسود جيداً. فذلك الصبي كان جزءاً من قصة أخرى، جزءاً مريراً من قصة غير مروية أخرى دخل قصتنا بشكل غريبٍ وفي لحظة خاصة، لقد كان قصة معقدة لشخص لم تتسن لهُ الفرصَة كي يفكر بقصص الآخرين ويهتم بها. كان استيره الأسود يعلم أنه لا يمكنني أن أتبعه، وكانت تحيته لي تبدو مثل تحية حزينة لشبحٍ يمر من قصةٍ ما.

وأنا أحتضن سرياس وألوح بيدي أمام المستشفى توقّفت سيارة بجانبنا فجأة، وخرج منها أربعة رجال مسلّحين، وأحاطوا بنا سريعاً؛ أحاطوا بي من كل جهة. كانوا أربعة أشخاص بوجوه متشابهة، فقال أحدهم ويبدو أكثر وقاراً من الآخرين: «يا مظفّر الصباحي صباح الخير. أرجو أن تعذرنا، فلدينا أوامر باصطحابك معنا... ضع هذا المريض على الأرض بهدوء وتعال معنا، سنسلّم سرياس الصباحي بأنفسنا، سنعيده إلى مكانه... ولا تقلق لأي شيء. هيا اركب واجلس بهدوء، سنقوم بكل ما يلزم. عليك أن تجلس هنا بهدوء وألا تثير جلبة، فجميعنا نعرفك... ونحذرك بأننا لدينا أمر خاص بإلقاء القبض عليك. تفضّل... تفضّل! لقد وجدناك في النهاية... لقد وجدناك، يا مظفر الصباحي. يا إلهي، كم بحثنا عنك. لقد كنّا نبحث عنك منذ فترة طويلة... منذ فترة طويلة. أين كنتَ؟ أين كنتَ، يا مظفّر الصبّاحي؟»

كان هكذا منذ صغره، إذ كلما كان يكذب كان شيء آخر يحدث؛ إما تهطل الأمطار أو تسقط الأشجار أو تحلّق الطيور في أسراب فوق رؤوسنا. في ذلك اليوم حيث ألقوا فيه القبض عليّ كنت متأكداً أنهم سيأخذونني إليه. في تلك الفترة حيث كنت أتحرك بحريّة ولم أخشَ شيئاً، كنت متأكداً أنهم سيلقون القبض عليَّ يوماً ما ويأخذونني عنده. أكنتَ أخشاه؟ على كل عيوبه وذنوبه لم أكن أخشاه، إذ كان قد أصبح جزءاً من حياتي. كنت أعرف أن هناك الكثير من الأشخاص الذين تركوا هذه البلاد خوفاً منه، إلا أنّني لم أكن أخشاه.

في وقتٍ متأخّر وقبيل الغروب أخذوني إليه؛ كان متهالكاً في غرفة نصف مضاءة وتفوح منه رائحة الموت. كان قد شاخ كثيراً في تلك الأشهر التي لم أره فيها؛ كان يرتدي روب دوشامبير وقد لفّ نفسه بالبطانية، ويجلس متكئاً مثال الملوك. ومع أن الجوّ في الخارج لم يكن بارداً جداً، ولكنّني شعرتُ أنه يحس بالبرد كثيراً. كان قد قفل كل الأبواب من الداخل وكأنه يخشى شيئاً غير مرئي، وشعرت أنه يخشى حتى من حراسه كثيراً. لمّا رآني جمع نفسه احتراماً وقال لي: «لقد جئت، يا مظفر الصباحي. خشيت ألا يجدونك». كان الاستياء بادياً في صوته، ولم يكن يبدو غاضباً. ومع أنّنا لم نشِخ كثيراً إلا أننا كنّا نبدو شائخين تماماً.. كنّا مثل شيخين قد اجتمعا في غرفة من أجل تصفية حساب كبير، ولم يكن أيٌّ منا يعرف كيف يبدأ ومن أين. ولم يكن أيٌّ منا يذكر تتمة حوارنا الأخير في ذلك القصر الأخضر. لفترة نظرنا إلى بعضنا بصمت؛ كان قد شاخ كثيراً بحيث لم يكن يبدو الرجل ذاته الذي قد وضعني ذات ليلة مظلمة قبل سنوات طويلة في

بيتٍ ما. سرتُ إليه بهدوء، وقلتُ: «يا يعقوب الصنوبر لقد شختَ كثيراً». فأمسك بيدي سريعاً وقال: «لقد أخبرتك أن الطاعون قد انتشر في العالم، وأخبرتك أن ألماً فظيعاً قد انتشر. هل أخبرتك بذلك أم لا؟» فأجبته بهدوء: «إنني أتذكّر ذلك، لقد أخبرتني». هزّ رأسه بهدوء وقال بصوتٍ يشوبه الكثير من الحزن والحسرة: «هل أخبرتك أنك ياقوتة نقية أم لا؟ هل أخبرتك بذلك أم لا؟» ومن أجل تهدئته وضعت يدي على يده وأجبته: «لقد أخبرتني». نظر إليَ بنظرة ملأى بالانكسار والشيخوخة وقال: «لقد أخبرتك ألا تعود إلى العالم، وأن تُبعد نفسك عن ذلك المستنقع الآسن، وأن تصون روحك... الروح التي وهبها الله لتبقى نقيّة، فلمَ خرجت؟ لمَ لمْ تفهم عن أي شيء أتحدث معك؟ لمَ؟» حدجته بنظراتي وقلت: «يا يعقوب الصنوبر، لقد أصبنا نحن الاثنين بالمرض وقد شاخ كلانا؛ وهناك الكثير من الأمور العالقة بيننا... الكثير منها».

كانت غرفته تشبه غرفة الملوك، وهو نفسه كان يشبه مريضاً يحتضر؛ كان يسعل بين فينة وأخرى ويمسح شفتيه بمنديلٍ ثمين. ولما أشرت إلى أن «هناك الكثير من الأمور العالقة بيننا»، استقّرت ابتسامة على شفتيه، وكانت ابتسامة شيخٍ بالكاد يمكنه الضحك بوجه الدنيا؛ كان يريد أن يضحك إلا أن سعالاً حاداً كان يجثو على صدره. ثم قال بنظرته القديمة ذاتها، نظرة القائد الذي لا يعرف ماذا يريد بالضبط، الرجل الذي سار في كل الطرقات، والمريض الذي اختبر سرّ الموت والألم وذاق لذة الحياة والمسرّات، رجل يفكّر بالموت فقط: «ليس لدينا نحن الاثنين أصدقاء، ولا يمكن لأحدٍ أن يحكم بيننا؛ ما من أحد

يمكنه فعل ذلك». فقلت بحرقة: «من كان بإمكانهم الحُكم إما ماتوا، أو وقعوا في الأسر أو لم يعد لديهم لسان». فحدجني بنظرة ذات مغزى، وقال: «كانت هذه آمالنا الأخيرة، كان أملنا الأخير؛ والآن لم يعد لدينا أي أمل. كان من الممكن أن نسلّي أنفسنا في خلوة عديمة النهاية، بعيداً عن جميع الآلام وعن الطاعون. كان من الممكن أن نطّلع أنا وأنت على جميع الأمور؛ إلا أنك قد أصبحت الآن مطلعاً على كل شيء. إن المعرفة تخدش براءة الإنسان، فجميع الذين يعرفون الأسرار ليسوا بأبرياء؛ إذ إن الاطّلاع على الأسرار يلوثنا... وطالما نحن بريئون فإننا لا نعلم أي شيء. وعندما لا تنتابنا الريبة، وحين يمتزج المرء بالأسرار، وحين يدرك حقيقة الآخرين فإنه سيرتكب الذنوب. والإنسان هو بريء طالما لم يطّلع على ذنوب الآخرين؛ وهو بريء طالما لم يطّلع على شرور الدنيا». كنتُ أعرف ماذا يريد أن يقول، فوضعت يدي على كتفه وقلت: «لقد رأيت كل شيء الآن، وقد عرفت بعض الأسرار، وفتحت بعض الأبواب؛ وسرتُ حتى تمرّغت في الذنوب وقذاراتها. أتظن أنه كان عليّ ألا أذهب؟ ها؟ أتظن أنه كان عليّ أن أنتظرك في ذلك القصر الأخضر للأبد؟» رفع رأسه وكأنه ينظر إلى نقطة بعيدة أجابني: «لو لم تذهب لكان من المحتمل أن يكون هناك شيء بيني وبينك؛ وكان يمكننا أن نتحدّث عن سبب وجود الإنسان وجوهر الحياة وماهية الوجود دون أن تحدّق إلي وأنا أتحدث، وتفعل ذلك على نحو تجعلني أشعر بالخجل. كنتُ أريد أن نتباحث حول الخير والشر، والجمال والقبح؛ وأن نعيش معاً ونتحدّث في ذلك الجانب من ذاتينا الدنيئتين... أتفهم؟ في ذلك الجانب من ذاتينا الدنيئتين»، وكرّر هذه الجملة عدة مرات. كان يمقت ذات الناس الدنيئة، وكان

هكذا منذ فترة طويلة. كان يهدف إلى نوع من الحياة بالكاد يمكن أن يتشكّل دون نسيان ذات الناس الدنيئة. استراح قليلاً؛ نظرت إليه ولم أقل شيئاً. كنتُ أعرف أنه ما تزال لدينا فرص كثيرة كي نتحدّث معاً عن كل شيء. لم يكن المرض والفشل قد قلصّا شيئاً من شدة تخيلاته وعمق نظراته. حين كان يسمّر نظراته كنت تعرف أنه يرى أشياء لا تشعر بها. سعل قليلاً؛ ثم نهض وهو يلف نفسه بالبطانية قال: «كان بيتاً أخضر... كنت قد بنيته من أجل أيام شيخوختي؛ من أجل أيام لن تبقى فيها لنا أي أمنية، ونضيع في مشاغل الحياة. لكي نذهب هناك ونشغل أنفسنا بالمعاني العميقة؛ وألا نتحدث عن الحرب والسياسة، بل عن عالم بذات الوجود. فالإنسان يزيد من شدّتها دون أي ضغوط وتعذيب. وأن تستمتع بصمت المكان وطبيعته؛ فكم هو جيد أن يُفكر المرء في هدوء وراحة بال عميقين حتى مماته. لقد حرمتني من تلك المتعة... وأنا أخشى أن أفكر بالحياة وحيداً؛ فأنا أخشى أن أفكر بالحياة وحيداً وأنا على أعتاب الموت».

حين عرف أنه ليس لدي ما أقوله، قال: «هناك نوع من البراءة؛ نوع واحد فقط لا أكثر. وهو ألا يسمحوا أن يفهم الإنسان إنساناً آخرَ؛ فحين يفهم الناس بعضهم بعضاً سيتحوّل كلّ شيء إلى ذنب». فقلت: «يا يعقوب، ما هذه البراءة التي تحدث عن طريق عدم المعرفة؟» نهض وتابع بلهجة غير مألوفة: «إني أتحدّث عن معرفة تهبني البراءة، ولا تسمح لي بالنظر إلى أعماق قلبي. يا مظفر الصباحي، إني أمقت النظر إلى أعماقي؛ ويجب على الإنسان ألا يفكّر في الإجابة عن الأسئلة التي لم يستطع أن يجيب عنها طيلة حياته. أنا أريد قبل موتي أن تكون لدي

القدرة ألا أفكر بالإجابة عن أي سؤال تافه؛ فإني أريد أن نموت معاً براحة بال. بهذا المعنى ألا نبحث عن أي شيء قبل موتنا، وألا يكون تفكيرك كله يصب في البحث عن الإجابة قبل موتك. لقد تحدثت لك عن راحة البال، راحة البال؛ فلمَ لمْ تفهمني؟ لمَ قبل موته يفكر الإنسان بالماضي؟ ولمَ يعود إلى الماضي؟ لماذا؟ أريد أن أموت وألا أعود إلى الماضي». فأجبته بشيء من الاستياء والغضب: «لأنك لو عدت إلى الماضي لرأيت سرياسين كلهم، لأنك تخشى النظر إليهم. أتريد أن نبرم أنا وأنت ميثاق الصداقة مرفقاً بالنسيان والجهل ومحو الماضي؟ إنك تريد أن تموت مثل القادة الآخرين وأن تحرق أسرارك كلَّها قبل موتك؛ أن تموت وألا يكون هناك من ينظر إلى سجلك. مثل جميع القادة؛ مثل جميع الأنبياء. وأن تمحو الإنسان من ذكرياتك في طريق التفكير والتخيل في العالم وطبيعته الحياة والوجود؛ وأن تنسى هذا المخلوق الحقير ومن لا مَلاذ له. فإن طريقي يختلف عن طريقك، يا يعقوب الصنوبر. سامحني، إذ لم أستطع المجيء معك؛ لم أستطع، فسامحني. لأنني بعد إحدى وعشرين سنة قضيتها في السجن، وبعد تأمل عميق حول طبيعة الحياة والوجود وصحرائهما، وبعد تفكير طويل لما استطعت نسيان الإنسان. ولهذا السبب تريد أن نمحو معاً أي أثر للإنسان من ذكرياتنا، وأن يجتاز حياته وذاته الحقيرة. أنت لهذا السبب حي كي تنساهم؛ وأنا حي كي أتذكرهم ثانية. لذلك فإن طريقي يختلف عن طريقك». فهدأ قليلاً بفعل غضبي؛ إذ كان يعلم سلفاً ما سأقوله، وكان يتوقّع ردّي هذا أيضاً. قال: «سواء أكانوا قد ماتوا أم بقوا أحياء، وسواء أكنت ستنساهم أم لا، فإننا لن يصل بعضنا إلى بعض؛ فقلوبهم كانت طافحة بالتهور والاستهزاء، وغاضبة وعديمة

المشاعر وحاقدة. لم يكن بإمكاني ألا أنساهم، لم يكن بإمكاني فعل ذلك. لم يكن لدّي خيار آخر». قال هذا بلهجة غريبة جداً، لم أكن اعرف ماذا يشعر، فصوته كان مليئاً بالندم والثقة. اقترب مني وقال: «كنت أعرف أنك ستنطلق ورائهم... كنت أعرف أنك ستبحث عنهم. عندما سألتني عن سرياس الصباحي في ذلك اليوم تيقّنت أن كل شيء سينهار بيننا. كنت اعرف أنك ستنطلق يوماً ما وتصل إلى السيد جلال شمس... فوصلتُ إلى سيد جلال شمس أيضاً. اللّعنة على من أفشى سر هذه القصة... اللّعنة عليه».

عندما ذكر اسم السيد جلال الشمس، عرفت أنه يريد أن يروي لي قصة قد احتفظ بها سراً لسنوات طويلة. قال بصوت رجل أنهكته الشيخوفة: «تملك الآن رمانتين زجاجيتين في حين أنني لا أملك ولا واحدة حتى». ذهب أمام النافذة وأزاح الستارة، فأدخل ظلام الغروب حزناً ثقيلاً إلى داخل الغرفة. لفّ البطانية حول نفسه بإحكام وقعد على أريكة سوداء جلدّية قريبة من النافذة؛ ثم قال: «كانت ثلاث رمّانات زجاجية، ثلاث رمّانات صنعتها يد واحدة. صنعها أبٌ لأولاده الثلاثة؛ أبٌ بارع في عمله. فنّانٌ كان ثمة سحرٌ كبيرٌ يكمن في يديه؛ كان لديه ثلاثةُ أبناء، وكانوا ثلاثتهم من أعضاء البيشمركه، وقد قُتل ثلاثتهم في القصف الحكومي. لقد حدث هذا في بداية الثورة حيث كنتُ في قرية صغيرة في الشمال أعمل على تجنيد الرجال؛ فجاؤوا بالشهداء الثلاثة ووضعوهم بعضهم بجوار بعض في مسجد القرية، وجاء أبوهم عند الغروب. كان شيخاً فنّاناً ولم يكن يملك شيئاً سوى تلك الرّمانات الزجاجية؛ وحين رآني عانقني وانحنى ولثم يدي. لم يجعله استشهاد

أولاده يفقد الأمل، وكان مستاءً أنه لم يستطع إيصال الرمّانات إليهم قبل مقتلهم فقال لي: "كانوا ثلاثة أخوة لا يفترقون بعضهم عن بعض، وكانوا معاً دائماً. في المدرسة، والملاعب الرياضية وفي الجامعة. كانت كل أمور حياتهم مع بعضهم بعضاً، وحين انضموا إلى البيشمركه لم يفترقوا أبداً. ذات يوم أرسلوا رسالة إلى عنوان ورشتي، وكانوا قد كتبوا أن الثورة قد أمرتنا بالافتراق بعضنا عن بعض، وأن يذهب كل منا إلى منطقةٍ ما كي نخدم الوطن في قوات خاصة. طلبوا مني أن أصنع لهم شيئاً كي يحافظوا عليه ويحتفظوا به، كي ينظروا إليه أينما كانوا ويتذكر بعضهم بعضاً. أن أصنع شيئاً إذا وضعوه في أيديهم يهبهم مشاعر الأخوة؛ شيئاً يربطهم بعضهم ببعض". يا مظفّر الصبّاحي، إني ما زلت أذكر بعد كل هذه السنوات صوت ذلك الشيخ ونظراته، كان غروباً مضباً، فمشينا أنا وهو في الضباب، وبدلاً عن التحدّث حول مقتل أولاده تكلم عن شيء يجعلنا جميعاً نتحد. ومع أن الضباب كان قد غطى كل شي إلاّ أنني لا أزال اذكر نظرات ذلك الشيخ. كان الضباب في كل مكان، ولكنني لا زلت أتذكّر أنفاسه حين وضع يده على كتفي بحزن وقال: "لقد صنعت هذه الرّمانات من أجلهم... هذه الرّمانات". مدّ يده إلى جيبه، وأخرج ثلاث رمّانات زجاجية وقال بصوت خفيض: "لم تصل هذه الرّمانات إليهم... خذها يا قائدي! خذ هذه الرّمانات ودعها تكون شيئاً تجعلنا نتحّد جميعاً، وأن تكون شيئاً يربطني بك، ويربط أولادي بأولئك الذين على وشك الولادة الآن، وأن تكون شيئاً يربط اليوم بالغد. خذها يا قائدي... فأنت يمكنك أن تعطي معنى لهذه الرّمانات، فإنني لا يمكنني أن أقدّم شيئاً للثورة سوى هذه الرّمانات. كان على أولادي أن يأخذوها وقد ماتوا

الآن؛ فأعطها إلى أشخاص عليهم ألا ينسى بعضهم بعضاً. فهذه هي الهدية الوحيدة التي يمكنني أن أهبها للثورة". وفي الليلة ذاتها أخفيت الرّمانات الثلاث في مكانٍ ما؛ في مكان لا يمكن أن يجده أحدٌ.

لم يعد أبناؤه بحاجة إلى تلك الرّمانات، فتلك الرّمانات كانت للأحياء... للحياة... لأولئك الذين بقوا أحياء يا مظفر. واويلاه يا مظفر، يا ويلي! والآن يبدو وكأنه ذلك الوقت ذاته، وكأنها تلك الليالي المعتمة ذاتها التي أخرجتُ الرّمانات في خضم الثورة؛ وأنظر إليها وأنا أمشي. كان جميع البيشمركه مستعدين للتضحية، ومستعدين للموت، إذ كانوا قد أقسموا بالموت؛ إلاّ أن هذه الرّمانات كانت رمّانات الوفاء. رمّانات الأمل، أمل شيخ تمنّى حياة خالدة لأولاده. لم أكن أريد إعطاء هذه الرمّانات لأولئك الذين يموتون، ولا لأولئك الذين قد يقتلون في هذه الحروب؛ بل كنت أريد إعطائها لأولئك الذين يفكّرون بالحياة. الحياة، الحياة، الحياة. بكل المعاني الكثيرة لهذه المفردة اللعينة. بيد أني لم أكن متأكداً من أيّ شخص؛ وكان علّي أن أجد ثلاثة أشخاص يبقون أحياء، وألّا يضيّع بعضهم بعضاً كي لا أخون معنى الرمّانات الزجاجية. ثلاث رمّانات مثل ثلاث رسائل للأخوة، وبين ثلاثة أشخاص، بين ثلاثة رجال عليهم ألاّ يضيع بعضهم بعضاً يا مظفّر الصبّاحي. واويلاه... أنا أيضاً مثلك أعرف، ومثلك أشعر أنه ما من شيء أكثر عذاباً للناس من أن يفقد بعضهم بعضاً. كان علّي أن أهب الرمانات لثلاثة أشخاص عليهم ألاّ يفقد بعضهم بعضاً. في تلك اليلّة حيث وُلِد فيها السرياسون الثلاثة كان يبدو وكأنهم قد ولدوا من أجل تلك الرمّانات... أتفهم؟ يبدو وكأن أولئك الأطفال قد ولدوا من أجل

تلك الرّمانات». فقطعت كلامه وقلت: «ولكنك في النهاية أعطيت تلك الرمانات لأولئك الأطفال الذين أضعتهم وأضاعوك هم أيضاً؛ أضعتهم وهم أيضاً أضاع بعضهم بعضاً». رفع صوته قائلاً: «اسكت، يا مظفر الصباحي، اصمت. دعني أروي لك بداية هذه القصة التي لا يعلم بها أحدٌ سواي على هذا الكوكب. اصمت واستمع ولا تفسد هذه اللحظات، فإنني قد احتفظت بها طيلة عمري». نهض وارتشف القليل من الماء؛ أخذ نفساً عميقاً وقال بهدوء شخص قد قرّر أن يفشي أكبر أسرار حياته: «أوتعرف؛ أنت أب أحد هؤلاء السرياسين الثلاثة؛ أب أحدهم فقط. أنا متأكد أنك لم تسأل نفسك من هو أب ذينك الاثنين. إني أعرفك لأنني أقرأ روحك، ولا أشك أنك لم تسأل نفسك حتى من هو الأب القاسي الذي ترك ولديه في طوفان الأحداث، وسلّمهما لإعصار الزمان؟ لم تتساءل... لأنك كنت متأكداً أنك لن تجد جواباً لسؤالك هذا أبداً. لا يمكنك أن تصل إلى شيء، وإن كنت مرتاباً أيضاً فإنك لن تصل إلى اليقين. ولكنني أقول لك إن ذينك الاثنين هما ابناي؛ إن السرياسين الآخرين اللذين ليسا ابنيك هما لي. إنهما ولداي غير الشرعيين، أتفهم؟ نتاج ليالي الثورة وأيامها المظلمة، ابنا حرام زرعت نطفتهما في الليالي المظلمة في امرأتين تعيشان في القرى النائية ذات الطرق الوعرة في الجبال. إنهما ابنا ليالي قائد في المناطق الجبلية لو لم يحصل على النساء لقتلته الثورة. إذًا، كيف بقيت حياً في تلك الجبال؟ لقد بقيت حياً بفضل الليالي التي كنتُ أتحرك فيها بسرية تامّة، ولا أحد يعرف إلى أين أذهب. في تلك الليالي أينما كنت أذهب، في أي قرية ومدينة كانت ثمة امرأة أضاجعها؛ ولولا النساء لشعرت بالانهزام».

كان الصمت قد ساد عند تحدثه؛ كنت أشعر أنه يتكلّم من صميم قلبه. لم يكن أي شيء يتحرك؛ كان الجو ساكناً والأرض صامتة والمزهريات بكماء وجوّ الغرفة هادئاً، والستائر عديمة الحركة. لم يكن يكذب وكأنه كان قد أصدر أمراً ألا يتحرك أي شيء في تلك الغرفة، وألا يدخل أي شيء سوى الحقيقة في ذلك المساء؛ الحقيقة التي تهب السكينة لروحة وللأشياء الموجودة حوله. وهو يسعل بشدة، رفع يده مثل فرعون ما وقال بنظرة عميقة: «كانا ولداي... ولداي، من دمي... نتاج الليالي المظلمة، نتاج تلك الليالي التي يعرفها فقط أنا والرب وعشيقاتي. يجب ألا تفشى آثار تلك الليالي على أي لسان؛ تلك الليالي التي كانت أكثر ظلمة من أي عتمة، وأكثر سحراً من أي طلسم... لقد احتفظت بها؛ وحتى الآن ما من أحد يعلم بسر تلك الليالي. اسمعني، يا أيّها الصباحي؛ لا تغتم. فسوف يدفن الجزء الأكبر من تلك الآثار معي. يأخذ الإنسان أسراره معه إلى القبر؛ لولا الأسرار لكان العالم قد تحول إلى مسلخ كبير، حيث تتفكّك الأُسر، وتُهزم الجيوش، ويُفضح أمر الناس. وأنا دائماً ما كنت أمدح الأسرار؛ دائماً... دائماً... وذانك الصبيان كانا سرّي، كانا مني؛ وأمهما كانت أرملة فلاح قد ضاجعتها. لم أكن أعرف أنه سيولد صبيان من هذه المضاجعة؛ نغلان، صبيان لم أكن راضياً على ولادتهما. دائماً ما يسير الأمر على هذا المنوال، دائماً ما يسير الأمر هكذا؛ والثورة هي هكذا دائماً. دائماً ما يولد بعض الأطفال في خضم ثورة لا يريد أحد ولادتهم؛ يأتون ولا أحد يتوقع مجيئهم. لقد ماتت أمهما عند ولادتهما في تلك الليلة، وأنا كنت القابلة. أخذتهما إلى كهف مرتفع؛ غار أعلى من مستوى الأرض بكثير، وأقرب إلى السماء. كان يجب ألا يعرف أحدٌ بسرّ ذينك الطفلين؛ ولو

علم أحدٌ بقصتهما لكان علي أن أتخلى عن الثورة، ولكان تحتّم عليّ أن أسلّم القيادة لأولئك الذين رفعوا كماشاتهم مثل إبرة العقرب على رأسي. كان عليّ أن أفترق عن الأمة التي أصيبت بالشلل من دوني. اسمعني، يا مظفر الصباحي... استمع إلى هذا السرّ الذي عمره إحدى وعشرين سنة. ذات ليلة أخذت تلك المرأة إلى كهفٍ ناءٍ وأخفيتها هناك بعيداً عن أعين أعدائي وأقاربها، لأنني كنت أحبها. لو لم أكن أحبها لكان يمكنني ألا أهتم بها وأتجاهلها حتى تموت. كلا... لم أتركها، وهناك أنجبت الصبيين. كانت ليلة حالكة؛ أنجبت الصبيَين أمام مصباح مغطّى بالسخام، ولكنها ماتت بألم مهلكٍ. يا مظفر، يا صديقي، ادركني يا صديقي. تخيّل خوفي وعذابي في تلك الليلة؛ وتصوّر أنك ترى طفلين أمامك، نطفتي حرام وامرأة ميتة أمامك، ويغطيك الدم والخوف بالكامل. في تلك الليلة لففت الطفلين بالقماط ودفنت أمهما في قبرٍ لا تصله أيُّ يدٍ؛ في قبرٍ سيبقى مخفياً بحيث لا يجده أي شخص. ومثل الأسرار الكبيرة لهذه البلاد سيبقى هذا السرّ في صندوق مغلق ومظلم، ولن يتمكّن أحد من فتحه؛ صندوق لا يملك أحدٌ مفاتيحه. لقد أخبرتك، ورجوتك ألا تسعى وراء الأسرار الضائعة في بحرٍ عميق، وألا تبحث عن أسطورة لن تجدها، ولكنك لم تأخذ بكلاميَ وتجاهلته. في تلك الليلة دفنت المرأة تحت أضواء النجوم، ولم يعلم أحدٌ على هذا الكوكب بهذا السر؛ ودعّتها وهبطت من الجبل مع الطفلين. أتعلم متى كانت تلك الليلة؟ أتعلم؟ كانت بعد شهر من تلك الليلة التي ودعّ بعضنا فيها بعضاً؛ في ذلك الوقت كنتَ معروفاً بين الثوار، وكنتُ أحتفظ بطفلك أيضاً. أودعت سرياسك عند عائلة من أصدقاء الحزب، في قرية ما. كان ينبغي ألا يعرف أحدٌ أنهما ابناي؛

كنت أحملهما معاً وأرتجف في الظلام صنوَ شيطان خبيث، وكانت كل عروقي قد تورّمت من حماس شيءٍ مخيف. لم أكن أعرف ما أفعل مع ذينك الصبيين... ولم يكن بمقدوري أن أتركهما بين تلك الصخور؛ إذ كانا ابنيّ. كان عليّ أن أعرفهما، وأراهما، وأشعر بوجودهما؛ ولم أكن أريد أن أتركهما هكذا، أو أضعهما بجوار جدار مسجدٍ ما. كلا، مع أنه قد حصل الأمر هكذا لاحقاً، إلا أنني لم أكن هكذا، إذ كنت قد حلمتُ من أجل هذين الطفلين النغلين! أتفهم؟ لقد راودني حلمٌ من أجلهما، والحلمُ لا يُمكِّنُني من تغيير الحياة، فأنا مجرد قائد ولست بالربِّ... فأنت تعرف أن القادة يمكنهم تغيير الأحلام فقط. ولكن يا صباحي، أنت لا تفهم؛ كان لديهما حلم آخر، وعلى ولديَّ ألا يراودهما حلمٌ آخر. فما الشيء الأكثر حزناً من ألا تكون قادراً على تفسير أحلام أولادك بنفسك؟ أنت لا تفهم».

خلال تلك الفترة الطويلة كان يتكلم مع نفسه، مثل شخص يتحدث مع ظله في غرفة فارغة؛ ثم مسح شفتيه بتروٍ، وأضاف قائلاً: «ولكن دعني أروي الحكاية على نحوٍ آخر؛ في تلك الليلة كان الجميع يعرف أن لديك ابناً، وكانوا يعرفون بالليلة التي ألقي القبض فيها عليك. وأنك قد أصبحت أباً حديثاً، وكانوا يعرفون أن اسم ابنك هو سرياس؛ اسم غريب من قبل أب أكثر غرابة. في تلك الليلة حيث كنتُ أرتجف فيها بفعل الريح، كان ثمة شيء في أعماق قلبي يلهمني أن وحدة ذلك الطفل وضياعه لا يختلفان عن ضياع هذين الطفلين؛ فلم يكن لدى الثلاثة أم، ولم يكن بمقدور ثلاثتهم أن يكون لديهم أب أيضاً ولم يكن لدى الثلاثة مكان على الأرض يتقبّلهم. قل لي،

يا مظفّر؛ ماذا بإمكاننا نحن رجال الجبال أن نفعل مع ثلاثة أطفال؟ ماذا؟» أخذ نفساً عميقاً وصرخ في الغرفة: «يا ويلي... يا ويلي... يا ويلي». ثم تابع: «كان طريق خلاصهم الوحيد هو أن أطلق اسماً واحداً على ثلاثتهم... وكان هذا الخيار الوحيد المتاح كي لا يضيع سرّهم بين الأسرار الأخرى، ولا يضيع اسمهم بين الأسماء الأخرى. أي أن أضيّعهم، وفي الوقت ذاته لا أدعهم يضيعون، ولا أسمح أن يضيع رأس الخيط ذاك الذي يربطنا بتلك القصة في النهاية. يا ويلي... كان هذا خياري الوحيد؛ يا ويلي». كان يئنُّ بشكلٍ مرعب ويصرخ: «لم أكن أتوقع أن أعيش كثيراً كي أنقذهم، كان علَيهم أن ينقذوا أنفسهم بأنفسهم. في تلك الليلة ذهبت وأخرجت الرمّانات الزجاجية، ووضعت السرج على فرسي ولجأت إلى السيد جلال شمس. كنت أعرف أنه لا أنا ولا أنت بإمكاننا أن ننقذهم جميعاً، لا أنا ولا أنت... لم يكن بمقدورنا فعل ذلك». هدأ قليلاً ثم تابع: «يا مظفر الصباحي، لا تخش أنيني وصراخي؛ فكل هذه الأمور قد أصبحت ثقيلة مثال الكابوس... كانوا شخصاً واحداً، وكان يجب أن يكون لديهم اسم واحد، وباسمك أنت؛ حتى لو أرادوا يوماً أن يفتخروا بشيءٍ ما ليفتخروا بك. كان عليهم ثلاثتهم أن يكونوا باسم سرياس، وأن يعيشوا في ثلاثة أماكن متباعدة عن بعضها، وأن يذهب ثلاثتهم في ثلاثة طرقات مختلفة، ويعيشوا في ثلاثة أقاليم مختلفة، وفي أماكن مختلفة بعضهم عن بعض، كي لا يعرف أي شخص بقصتهم، وألا ينظر أحدٌ إليهم بوصفهم أبناء حرام. بل ينظر إليهم باعتبارهم أبناء مظفر الصباحي؛ ثلاث قصصٍ تحوّلت في النهاية إلى قصة واحدة. ولكن كان عليّ أن أفعل شيئاً كي لا يعرف أحد سرّهم؛ اللعنة

علـى أول شخص أراد أن يفشي سرّ هذه القصة، اللعنة عليه. سوف تنتقم السماء منه... اللعنة عليه؛ عليه أن يموت. يا إلهي... يا إلهي العظيم، كان عليّ أن أقسمهم كي يطمئن بالي؛ حتـى لو سأل أحدهم ذات يوم ابن من هو سرياس؟ لا يتطرق الأمر إلـى أبنائي بالحرام، بل أتحدث عن أولاد أسير يقاوم بكل فخرٍ في سجن المحتلّين. لم يكن هناك أحد باستثنائي أنا والسيد جلالَ الشمس يعرف أن هناك ثلاثة أشخاص باسم سرياس؛ يا مظفر الصباحي، ولكن كان لديّ حلم... حلم أن تقدم تلـك الرمّانات الزجاجية شهادتها، وأن يقدّم ذلـك الاسم شهادته. لهذا كان لدى الثلاثة اسم واحد كي يفهموا أنهم شخص واحد، وأنهم كائن واحد يتألم علـى نحوٍ متشابه ويترعرع في نار واحدة، ولديهم مشكلة واحدة، كي أقول لَهم إنني أنظر إليهم بصورة متساوية. يا مظفر، منذ تلـك اللحظة التي عرفت فيها أنهم سيكبرون بعيداً عنا للأبد، فإننا أنا وأنت وهم لا يمكننا أبداً أن نجتمع معاً، ولن نصل إليهم. لقد أدركت أنهم سيكبرون بعيداً عن أعين العالم، وبعيداً عن مشاعر العالم وعن بعضهم بعضاً أيضاً. إن الاسم مهم طالما يمكنه فصل الناس بعضهم عن بعض؛ ومنذ تلـك الليلة الباردة أدركت أن ما من شيء يمكنه فصل ماهيتهم بعضها عن بعض. يا مظفّر، لقد كنت ميتاً فكان عليهم ثلاثتهم أن يعرفوا أنني أنظر إليهم بصورة متساوية، وأعدّ ثلاثتهم كائناً واحداً يعيش في عالمي ويكبر ويموت فيه؛ ولكن، يا ويلي من عذابي... يا ويلي من سأمي وذبولي واضطرابي». مكث قليلاً ثم تابع: «كانت لديهم حياة واحدة، وأي اسم كنت أختاره لهم لم يكن حقيقياً». وبعد مكثٍ طويل سألته: «ألم يكن حقيقياً، أم أن اسم سرياس كان قناعاً تضعه علـى ذنبٍ لم يكن ذنب

أولئـك الأطفال؟» ولأول مرة أدار وجهه بهدوء، وقال: «هذا الأمر لا يغير أنهم كانوا أخوة؛ كان يجب أن يكون هناك أخوّة أو أي شيء آخر ليجعلهم متّحدين ويربطهم بعضهم ببعض. شيء يمكن انتخابه مثال مكان في المستقبل كي يبحثوا عن ذواتهم. في ذلـك الوقت وحين فصلتهم بعضهم عن بعض، كان يجب أن أترك رأس خيط كي يعودوا بعضهم إلـى بعض؛ ولكن هذا لم يكن ذنبي... لم يكن ذنبي... فما حدث بعد ذلـك لم يكن ذنبي؛ لأنّ كل شيء كان خارجاً عن سيطرتي؛ لذلـك كان الأمر غير ممكن بالنسبة لي. فمنذ اليوم الأول أدركت أنني لا أستطيع احتضانهم بوصفهم أبنائي؛ أتعرف ما كان سيحدث لو أفصحنا نحن الاثنين عن أولادنا غير الشرعيين؟ أتعرف؟ فهذا يعني النهاية، ويعني نهايتي أيضاً ويعني نهاية الوطن». فصرخت: «قل لي يا يعقوب الصنوبر، هل ذهبت بحثاً عنهم، بعد الانتصار أم لا؟ هل كنت تعتني بهم بعد الثورة أم لا؟» هزّ يعقوب الصنوبر رأسه وقال: «أنت تسألني شيئاً إجابته فوق مقدرتي؛ وأنت تسألني شيئاً يشمل جميع أسئلتي التي أبحث عن أجوبتها. ليس بمقدوري أن أصل إليها؛ فأنت تسألني سؤالاً إجابته هي الجواب عن كل الأشياء التي كنت أبحث عنها طيلة عمري ولم أصل إليها... أنت لا تعلم أي أيام كانت، لا تعلم، فإنني قد أضعتهم في بحبوحة الثورة. أضعتهم، وبعد سنوات فقط وجدتهم... بعد سنوات طويلة حيث كان عليّ أن أصفي حسابي مع الدنيا. ولكني عندما وجدتهم كانوا قد ضاعوا إلـى الأبد؛ حين وجدتهم كان ثمة جدار بيني وبينهم أعلـى من كل جدران العالم».

ألقـى نظرة مريبة إليّ وتابع: «كانوا ثلاثة أبناء حرام ولدوا في ليالي

الثورة المظلمة؛ ثلاثة أولاد، لم يكونوا أبنائي أنا وأنت، بل كانوا أبناء تلك الفترة. لم يكونوا أبنائنا بل أبناء هذا العالم كله». نهض غاضباً وصرخ: «يا مظفر الصباحي، كان من الممكن أن أعتنيَ بهم مثل أبناء الملوك، وكان من الممكن أن أرسلهم إلى مكانٍ بعيد، إلى بلدٍ كي يعيشوا فيه بسعادة؛ ولكن يا لها من كذبة كبيرة... يا لها من خيانة، ويا له من عدم الوفاء. اسمعني... فانا أيضاً بريء مثل جميع الأبرياء الآخرين». وتحدثّ عن براءته بأنين على نحو عجيب بحيث شعرت بالخوف. فقلتُ له بصوت خفيض: «يا يعقوب الصنوبر، إنني لا أسعى خلف المذنب؛ بل أبحث عن سرياس الصباحي وليس عن المذنبين».

لم يكن يسمح بأن أقول شيئاً وقطع كلامي كعادته؛ أحاط رقبتي بذراعه وقال بصوت خفيض: «لو كنت أنت مكاني لما كنت تدمر حياتهم وتتدخل فيها لتبني لهم حياة مزيفة. لقد ولدوا في الليالي المظلمة لهذا المكان، وكانوا مع أولئك الآخرين أيضاً؛ أتفهم؟ لقد كانوا مع أولئك الآخرين أيضاً، أولئك الذين جاؤوا وولدوا وماتوا. لقد ولدوا كي يعيشوا على نحو كما تفرضه هذه الفترة؛ لقد كانوا هنا معنا ورحلوا ولكنهم لم يصلوا إلى أي شيء... إلى أي شيء... ».

بعد صمت وهدوء قصيرين عاد إلى سريره وجلس عليه، فنظر قليلاً إلى الطيور التي كانت تنتظر بهدوء على الأشجار مجيء الليل في نهاية ذلك الغروب؛ أسند رأسه على يده وتطلّع إلى البعيد وقال: «في السنوات الأولى كنت أراقبهم، وكنت أعرف أين هم، وكيف يقضون حياتهم؛ وكنت أعرف من يتولى رعايتهم، وكنت أستفسر عنهم واحداً واحداً. ولكن لم يكن بمقدوري أن أتدخل بمصيرهم؛

وفجأة تغير العالم علـى نحو عجيب، فقد بات فعل أي شيء غير ممكن. ففي بعض الأحيان كأنت تقع مصائب كبيرة في الحياة علـى نحو لا تتوقّف بأي جهد. في تلـك السنوات كنّا مهزومين، وذات ليلة استيَقظت ورأيت أن الأوضاع قد ساءت بشدة. إذ كنا نهرب راكضين علـى جماجم أصدقائنا وعظامهم؛ وفي ذلـك الغروب فقدت سرياسين الثلاثة، إذ كانوا قد ذهبوا مع الآخرين، مع مئات الآلاف الآخرين الذين لم نجدهم. وبعد ذلـك لم يكن أي شخص مثل السابق، صنو الأرض والبساتين والحقول هذه التي لم تعد مثل الأرض والبساتين والحقول السابقة. يا مظفّر الصبّاحي، حين تترك أحدهم فإنـك تتركه للأبد؛ وحين تترك مكاناً مرة واحدة فإنـــك قد تركته للأبد. يا مظفر الصباحي، قل لي؛ قل لي عن أي شيء كان عليّ البحث؟ كنت أمشي ولا أرى الأرض، فكان ثمة جبل من الأموات أمامي، بحر من الأشلاء... وحين عدتُ كانت حياتهم قد استعادت وجهها الدائمي».

أسند ظهره بهدوء، وكأنه قد رأى روحاً هادئة وشبحاً مبشراً قال بصوت خفيض: «عندما عدتُ رأيت جسم سرياس المشوّه للمرة الأولى، وكان سيد جلال الشمس قد وجده في قريةٍ ما. ذهبنا نحن الاثنين عنده في ليلة مظلمة، وكانت من الليالي الأكثر ظلاماً في العالم. كان بين عددٍ من الأطفال المحترقين، ولم يكن يعرف من نحن، ولم أقل له "أنا أبوك"... كلا، لم أقل له هذا. لأنه كان بلا جدوى... لم أكن أباه، فلا أحد أبوه، إذ كان ابن تلـك النار، ابن ذلـك اللهيب الذي قد استعرّ في أعماق قلبه. كان ابن أصدقائه الصغار الذين احترقوا مثله في لهيب النار. أجل، أجل، فقد تحدث ظروف في

الحياة لا يمكن للمرء أن يساعد الآخرين؛ لم يكن بمقدورنا أنا وهم مساعدة بعضنا بعضاً. كنتُ متأكداً أنه كلما اقتربت منهم كانوا يبتعدون أكثر... وكلما مدّدت يدي كثيراً... كانوا يشعرون بالغضب والاستياء أكثر. لم يكونوا وحيدين... كانوا مع أولئك... مع أولئك. ولم نكن نحن وهم يصل بعضنا لبعض قطّ».

يا أصدقائي الأعزاء، يا أصدقائي اللاجئين، يا من اقتسمنا معاً الليل والظلام والماء بشكل متساو؛ حين قال إنه لا يمكن فصل سرياسين الثلاثة عن عالمهم، وإنه لا يمكن فصلهم عن أصدقائهم، انتابني شعور غريب أن إحساساً غير مرئي قد أحاطني. فالشيء الذي كنت أسمعه لم يكن صوت يعقوب الصنوبر، وأن الشخص الذي يقف أمامي ليس يعقوب الصنوبر. بل إنه صورة أخرى لي؛ وأن ذلك الصوت هو صوتي، ولكن بلغة أخرى. كنتُ أستمع إليه وأشعر بالغرابة.

يا إلهي، لقد اتحد بعضنا مع بعض؛ إذ كنّا واحداً قد تفتّت إلى قطع. صمت برهة، وفي تلك اللحظة كنتُ متأكداً لو كنتُ قد سرتُ في طريقه لتابعت هذه اللعبة ذاتها، وأطلقت اسم سرياس على الثلاثة وأعطيتهم الرمّانات الثلاثة، وجعلتهم يسيرون في ثلاث طرقات مختلفة، ولقلتُ لهم: «اذهبوا واقضوا حياتكم». إني أعرف أنه كان من المحتمل أن أفعل عدة أمور أخرى، وكان من الممكن أن أقعد أمامهم باكياً وأظهر لهم محبتي، وكان يمكن أن أقول اجعلوني شريكاً في ذلك العهد والميثاق. ولكن ثمّة أمراً كان سيبقى في الأعماق لم يكن بمقدوري أفعل شيئاً تجاهه، وهذا الشيء هو رائحة أجسامهم وصراخهم وأحلامهم النارية. والشيء الذي كان سيبقى هو الجدار السميك بينهم وبين العالم.

الجدار الذي كان سيفصلهم عن العالم بأسره؛ الجدار الذي كان يعقوب الصنوبر متأكداً أنه لا يستطيع اجتيازه. ولكنني حتى هذه اللحظة كنت أريد بشدة أن أتغلّب على هذا الحاجز.

يا أصدقائي، يا من اقتسمتم الطوفان والأمل والحزن، بعد هذا الكلام شعرت بتقارب عميق بيني وبينه. شعرت أننا قد ذبنا في بعضنا بعضاً، وشعرت أننا مجموعة من الصور الممتزجة والمتداخلة بعضنا في بعض؛ وكلما تحدّث أكثر غرقتُ في التفكير أكثر، وأدركُ أكثر أن وجهه وصوته ونظراته تشبهني أكثر. كان ثمة شيء بيننا يُعد اختلافاً بين نصفي جسمٍ واحد قبل أن يكون فروقاً بين روحينا؛ وكأننا كنّا نصفي جسماً واحداً، وشبحين قد انفصلا عن جسم واحد. كان صوته يشبه صوتي ولكنه يخرج من حنجرة أخرى. كل تلك الطرقات المختلفة التي كنّا قد طويناها أوصلتنا إلى هذه الحقيقة، أن إحساس غربة عميقة قد تشكّل بيننا وبين أولئك الصبيان الثلاثة؛ وكنتُ أريد بكلّ وجودي تحطيم هذه الغربة، إلا أنه كان يحاول بكل قوته أن يبقى كما هو. لم نكن والدين... كلا، حين وقفت أمامه وسمعت صراخه، كانت الصراخ والنعرات والبكاء ذاتها التي كنت قد تحمّلتها في أعماقي طيلة حياتي؛ وكانت أنّاتي ذاتها. لما احتضنته احتضنت نفسي. وقفت للحظة... وأطبقت جفني للحظة، فخطر خيال غريب على ذهني بسرعة البرق. أدركت أن الخلوة التي كان قد تحدث عنها ما هي إلا ميثاق آخر كان علينا أن نختمه ولكننا لم نفعل ذلك، وأن تلك الخلوة التي قد تحدّث عنها ما هي إلا رؤيا تشبه الرؤى تحت آخر شجرة رمان في العالم. كنت أنا وهو شخصاً واحداً تم اقتسامه؛ كما

كان سرياسون الثلاثة شخصاً واحداً تم اقتسامهم. لم يمنعه جبروته بألا يكون لديه في النهاية قرينٌ منفصلٌ مثلي أنا أو النصف المنقسم، كنا قد افترقنا عن بعضنا البعض للأبد ولم نعد نتَّحد مجدداً؛ إذ كنت أنا وهو جسماً واحداً محطماً، أباً مقسماً. مثل سرياسين الثلاثة الذين كانوا صبياً متفتتاً إلى ثلاث قطع. في اللحظة التي احتضنته فيها كنت متأكداً أنني قد احتضنت نفسي، وأنني احتضن شيئاً إما هو جسمي أو جسمه، إما أنا ظله أو هو ظلي، جسمي، جسمه، أو جسمه، جسمي. مع كل هذا كنت متأكداً أن ما من خلّوة يمكنها أن تربطنا سوية، وما من رؤيا ستجمعنا مجدداً. لقد كان صادقاً في كلامه؛ يا أصدقائي، يا أصدقاء ليالي البحر البارد، لقد كان صادقاً، فقد كنت أنا وهو مطّلعين بعضنا على أسرار بعض إلى ما لا نهاية لها. لم يعد بإمكاني أن أبرم ميثاقاً معه، لأنني كنتُ أعلم أنه يريد ميثاقاً ينهي هذه القصة براحة بال. وأنا أيضاً كنت أبحث عن ميثاقٍ سيطبع قصص سرياسين حتى النهاية وألا أنهيها أبداً؛ وألّا أتملّص من وزر ذنوبها. إنّ الخلوة التي كان قد تحدّث عنها هي راحة بالي أنا وإيّاه في نهاية رحلتنا بحثاً عن ذاتينا؛ وأن الميثاق الذي كنت قد تحدثت عنه هو الاستعداد لعدم راحة البال... الميثاق الذي صنع نهاية أخرى لهذه القصة. في اليوم الذي أخذني فيه واحتضن بعضنا بعضاً كان يريد أن نصل إلى النهاية، إلا أنني كنتُ مؤمناً أنني ما زلتُ في بداية الطريق. وكأنه قد عرف فيما أفكّر، وكأنّه أراد تسليتي ويوضّح لي سبب تهوّره ولا مبالاته قال: «نحن وهؤلاء لا يعرف بعضنا بعضاً، نحن وسرياسون لا نعرف بعضنا بعضاً. قبل عدة سنوات وفي خضم الحرب حيث كنت أتفقّد قواتي، سمعتُ في أحد الخنادق أن أحد أعضاء البيشمركه نادى شخصاً آخر قائلاً: "يا

سرياس الصباحي، قل لهم أن يحمّلوا المزيد من العتاد في الشاحنة". كانت صرخة عابرة، ولكنني عرفت أن أحد أولادي هناك... وبعد عدّة ساعات أخرى حيث قمتُ بإحصاء أعضاء البيشمركه، وقف أمامي شاب نحيف ذو لحية طويلة وحزين وقال: "يا سيدي، أنا سرياس الصباحي، وقد جئت كي أطلب منك شيئاً؛ أرسلني إلى الخط الأمامي حيث تشتد ضراوة الحرب هناك". كان شاباً وسيماً وقد اعتراه اليأس تماماً؛ وأنا الذي كنت معروفا ببرودي وقسوتي وتفرعني كدت أوشك على احتضانه. كنت على وشك تقبيله، كنت أريد السجود أمامه والتماسه قائلاً سامحني. نظرت إليه بسكينة وقلت: "لم يا بني؟ لم تريد الذهاب إلى مكان يوجد فيه الموت؟" فأجابني مرتبكاً: "سامحني يا سيدي، إنني أذهب إلى مكان توجد فيه الحياة... فالموت هنا يا سيدي. فما هي الحياة الأخرى الموجودة هنا كي أبقى حياً من أجلها؟ وهل هناك مكان آخر غير الحرب لا تجرى فيها الحرب؟" لم أكن متأكداً هل يريد أن يمزح معي، أو يسخر مني أمام أصدقائه أو أنه كان جادّاً. في تلك اللحظات كنت مستغرباً جداً، لأنني لا أستطيع احتضان ابني ولا أستطيع أن أناديه بـ"يا إبني"؟ كنت قد لذتُ بالصمت دهشاً وأشعر بالاستغراب مما تفوه به بتهور. لم يكن يعرفني وكان في صوته ثمة حقد كنت أشعر به وحدي؛ كان يتكلّم باحترام ولكنه كان يبدو وكأنه يخدعنا، ويشعر بالسعادة من أننا نعرف أنه يخدعنا. كان صادقاً فيما يخصّ المشاركة في الحرب، ولكن هذا لا يعني أنه يستمتع بالحرب، بل إنه يهزأ بالحرب. عرفت من نظراته أننا لن يدرك بعضنا بعضاً قط؛ إذ كانت عيناه ممتلئتين بالسخرية تجاهنا وتجاه الحياة. يا مظفّر، لو كان يعرف أنني أبوه

لأصيب بالحيرة والضياع أكثر. وضعت يدي على كتفه وقلت: "اذهب أينما تريد، اذهب، ولكن خذ حذرك وانتبه لنفسك". لم يكن يشعر أنني أبوه، ولولا اسمه لما كنت قد عرفته... وكأنه كان قد جاء ليقول لي: "ليس هناك طريق تصلني بك"... وكأنه قد جاء ليقول: "هذه هي الحياة ذاتها التي صنعتها لنا، وأنا أيضاً أعيش فيها دون أي خوف؛ ولكنني قد أخفيت في قلبي سخرية قاتمة وحقد أسود تجاهك وتجاه العالم بأسره". يا مظفّر الصبّاحي، وقبل أن يخرج قال بلهجته الوقورة والمهذبة ذاتها، وفي الوقت نفسه الممتلئة بالحقد والسخرية: "إن الموت في سبيل هذا الوطن المقدّس وفي سبيل شهرتك وقوّتك لهو فخر كبير، أنا سعيد جداً أنك قد قبلتني كأحد جنودك وتطعمني". كان كلامه كله سخرية. يا مظفر، كان قد جاء ليقول لي إنني لهذا السبب أحارب من أجلك، لأنه ليس لدي عمل آخر. لم يواتني النوم في تلك الليلة وكنت مضطرباً حتى الصباح في ذلك المقر العسكري؛ فهمتُ في الجبال مثل المعاتيه وقعدت تحت شجرة وبكيت حتى الصباح. كان قد مرّ خمسة عشر عاماً لم أبكِ فيها، تعرف جيداً كم هو سيء ألا يبكي المرء لفترة طويلة. وحين حلّ الصباح كتبتُ آلاف الرسائل؛ لأعدائي، ولأصدقائي المقرَّبين، وللبلاد القريبة والبعيدة... ولكن لم يجبني أحد. يا مظفر، لم يجبني أحد قطّ».

تقدّم يعقوب الصنوبر أمام النافذة، وحاول عدّة مرّات أن يفتحها، لكنه شعر بالندم؛ ثم نظر إليّ بهدوء. وكي لا أسمح بأن تطول ليلة لقائنا هذه أكثر، قلت: «يا يعقوب، إن الصبي الذي رأيته كان سرياس الثاني، لقد أسميته سرياس الثاني، وهو الآن في الأسر». فقال بحرقة:

«أعلم... أعرف... إنني أعلم بكل شيء، ولهذا السبب قد جلبتك هنا كي أترجاك ألا يعرف أني أبوه؛ إذ لم يعد بيننا أي شيء، غير الحقد والندم. قد أبادله ذات يوم مع أسير ما، لكني لا أستطيع أن أختلي به، لأنه لا ينفع لمجالستي». اقترب مني ثم تابع: «أنا أيضاً قد حكم عليّ أن أفكر في وحدتي بموتي، في وحدتي». طمأنته قائلاً: «لا تخف يا يعقوب؛ فحين يخرج سرياس الصغير من السجن فإنه سيغير اسمه ويذهب إلى بلاد أخرى». أخذ نفساً وسأل بتأثر: «حسناً، فماذا ستفعل أنت؟» فأجبته: «سأذهب؛ سأذهب مع سرياس الأخير إلى الغرب». فرد بحرقة: «سأتركهم كلهم لك؛ سأتركهم كلهم لك وأذهب إلى الجحيم».

كنا هكذا منذ طفولتنا؛ كان يترك أشياءه لي وأنا أيضاً كنت أعطيه أشيائي.

وضعت يدي على كتفه وقلت: «اتركهما لي، يا يعقوب الصنوبر؛ لا تخف. اتركهما لي، وكن مرتاح البال، فإني لا أريد شيئاً منهما. أنت تطلب عملاً صعباً منهما، في حين إنني لا أريد شيئاً منهما. أتفهم ما أقول؟ ها؟ أتفهم؟ إن قصدي هو واجب الأبوة، وأنت تريد أن يتقبلنا ذانك الصبيان بصفتنا أبوين، ويتذكرانا ويدركاننا، وأن يكون شيئاً مشتركاً بيننا. كلا، أنا لا أريد أي شيء منهما... فأنا لا أريد أي شيء منهما؛ فقد تعلمت من الصحراء والصمت والرمال ألا أنتظر أي جواب. سأوقف نفسي من أجلهما فقط، ولا شيء آخر. فليس لدينا أنا وأنت أي حق لنطلب منهما شيئاً... لا نملك أي حق». أمسك بيدي وكأنه يريد توديعي، وقال: «كان يمكنني أن أفعل أي شيء باستثناء وقف نفسي من أجلهم. ولو عشت مرة أخرى مثل الماضي فإني، مع كل شعوري

بالندم، لن أستطيع أن أوقف نفسي من أجلهم ثانية. كلا، ليس أنا من يفقد الناس، وليس أنا من ينسى أولاده، بل إنها الطرقات التي يفترق بعضها عن بعض... إنها الطرقات... إنها الطرقات، يا أخي».

في تلك اللحظة كنت أرغب بشدة في التحدث عن آخر شجرة رمّان في الدنيا، وأن أقول إن ثمة شجرة كانت للأولاد، وتعد شجرة أحلامهم وأملهم وإلهامهم؛ شجرة كانت أكثر سحراً ورحابة من قصره. ولكنني شعرت أنه لا يرغب حقاً في سماع قصتهم؛ إذ كان يشعر أنه لم تعد أي صلة متبقية بينه وبين سرياسين المتبقين، ولن يبقى أي شيء من هذه الصلة. رفع رأسه وحدق إلى عينيّ عميقاً، وكأنه ينظر إليهما للمرة الأخيرة ويريد قراءة أفكاري، قال: «كنت آمل أن يصل بعضهم إلى بعض في غيابي؛ ولكنها كانت فترة مظلمة. يا مظفّر، كانت أياماً حالكة، ولم يكن للبحث عنهم في الظلام أي معنى؛ فالبحث في الظلام عن شيء لم تره، عديمُ المعنى». أمسكت يده متأثراً وأعدته إلى مكانه وقلتُ: «ولكنني سأذهب بحثاً عنهما، فليس لدي عمل آخر أفعله سوى أن أذهب وراءهما. أنت لديك الكثير من الأعمال، ووقتك مخصص للقيادة فقط، وليس للبحث عن شيء لا تعرفه في الظلام». كان يسعل مثال شيخ مريض؛ سعل كثيراً بحيث خشيت موته، كان ينقي حنجرته بالسعال والحشرجة. مسح شفتيه وقال: «أنا لدي وقت كي أقود العالم البشع فقط؛ فأنا مضطر إلى الاهتمام بهذا العالم البشع. لأن العالم هو هكذا، وفي النهاية يجب أن يكون هناك من يحكم؛ ويجب أن يكون الحاكم يشعر بالسأم من كل شيء، وعندما يسأم كل شيء عليه أن يكون لديه عشيقة. وحين يحارب عليه أن يخلف

ابن حرام. ويجب أن تكون لديه القدرة على إنكار أبوته لأولاده وأن يدوس عليهم، وأن يحبس نفسه في سجن الحياة. يرى أن من حقه ألا يعلم أحد بذلك السجن، وأن يكون لديه كامل الحق في ذلك. فالحكم على عالم غير مرئي هكذا هو حق كبير ومكافأة كبرى، ويستحق مكافأة كبيرة أيضاً. هناك متعة وألم كبيران في الحكم على هذه البلاد المصابة بالطاعون؛ وقد جرّبت الاثنين حتى النهاية».

يا أصدقاء الليل والبحر... في تلك الليلة أراد أن يخلد للنوم إلى الأبد، في حين أنني كنت أريد أن أستيقظ. أمسك بيدي بقوة وقال: «أريد أن أنام، أن أخلد للنوم بارتياح؛ فمن يُحكم عليه، يجب أن يخلد للنوم بارتياح».

زحف تحت البطانية بهدوء؛ فقعدت بقربه وقلت: «أنا ذاهب، يا يعقوب الصنوبر؛ فقل لحراسك ألا يمنعوني. عليّ أن أذهب وأتابع طريقي». فقال: «كانوا أبنائي وأبناءك، أبناءنا نحن؛ ولا أحد غيري وغيرك يعرف هذا الأمر. ومن أجل إنقاذهم من الجحيم أبعدتهم عن نفسي. لقد ذهبوا مع أشخاص، ورحلوا إلى أماكن لا نعرف أين تقع مثل عدة أوراق في قبضة الرِّيح... فقد أخذتهم الريح». فقلت بصوت خفيض: «كل امرئٍ يترك أثراً وعلامة خلفه؛ وأنا أبحث عن تلك العلامة والأثر اللذين خلفوهما... ولكن، يا يعقوب؛ اسمعني. لا أريد أن أهرب منك مجدداً؛ فقل لحراسك أن يفتحوا الأبواب لي».

وبينما هو مستلق تحرك زاحفاً في مكانه، وقال: «يا مظفّر الصباحي، أنت حر. ودائماً ما كنت حراً، ويعرف جميع الحراس أنك حر، ويعرفون أن بعضنا لا يناسب بعضاً. اذهب يا مظفر الصباحي؛

لترافقك السلامة، سوف أنتظرك. وإن عدت يوماً فسوف نتكلم عن الموت. فأنا أرغب في أن نموت معاً. سوف أنتظرك يا مظفّر الصبّاحي، سوف أنتظرك».

خرجت من الغرفة دون أن أودعه، وأوصلت نفسي إلى بوابة القصر الكبيرة، وهناك أدركت أن يعقوب الصنوبر يعيش في قصر من الأوهام. عندما خرجت تجسّدت الصور العجيبة لسنوات الثورة في ذهني من جديد؛ وشعرت أن ريحاً شديدة تهبّ، وأن الأشجار اهتزت بشدة. فرأيت مئات الطيور تثب حائرة في كل جهة من ذلك البستان. كنت قد جربت هذا الإحساس قبل سنوات طويلة في الجبال أيضاً، حيث كان يعقوب يجمع عناصر البيشمركه الذين فقدوا أملهم، من الجبال والكهوف ويخطب فيهم عن الحرية والعدالة. تائهاً في ذلك الفناء الكبير رجوت الحراس أن يرشدوني إلى طريق الخروج، ففتحوا الباب لي وأروني الطريق؛ وأمام الباب قلت: «يا رب؛ لا أريد أن أموت معه، لا أريد». ولكن الآن إذ أتذكر كلامه ينتابني خوف غريب، الخوف الذي يجعلني أقول لنفسي إنني لن أموت، ولن أقبل بأي موت؛ لا موت سرياسين ولا موتي أنا. من يريد ألا يهتم للموت، عليه أن يبحث حتى النهاية عن الأحياء الذين فقدهم. اسمعوا، يا أصدقائي... فطريق الذين لا يهتمون للموت مختلف، فهو طريق أطول وأكثر تعقيداً؛ ويشبه طريقي في الصحراء والبحر هذين. من لا يهتم للموت عليه أن يبدأ بخوض مباراة ثقيلة مع الحياة؛ فهو محكوم بالبحث عن جميع أصدقائه ورفاقه، وأن يكون متأكداً أنه سيجدهم مجدداً في مكان آخر.

20

بعد أسبوع، في الصباح الباكر، استيقظت على صوت الشقيقتين البيضاوين، اللتين كانتا تقفان مثل عمودي نور عند عتبة الباب وتنتظران استيقاظي. كان من المفترض أن أزور اليوم قبري سرياس الأول ومحمّد زجاجي القلب «الصبي الذي كنت أعيش في غبار رحلاته». كما كان من المفترض أن أذهب مع إكرام في آخر الوقت من المساء إلى الجبل، وأتجه في الصباح الباكر باتجاه الغرب. الشيء الوحيد الذي كان في جيبي هو عنوان مشفى في إنجلترا، حيث يجب أن يكون فيه الآن سرياس الأخير هناك، وينظر من النافذة إلى النجوم.

في ذلك اليوم المشرق الذي كانت فيه الشقيقتان البيضاوان معي منذ الصباح حتى الغروب، لم أستطع أن أصدق أنهما تستطيعان البكاء بتلك العيون ذات النظرات الباردة كثيراً. أحدث ذهابي نقطة فاصلة أخرى في حياتهما؛ حياتهما اللتين كانتا تعدّانها صنوَ الأيام الأخرى، محزنة وآسرة. كانتا متأكدتين أنني أسير نحو السراب، وأنني قد بدأت لعبة لا نهاية لها. وفي اليوم ذاته لجأتا إلى فن قديم ومنسي: «قراءة الكف» وقالتا لي ستضيع في البحر. يومها قلت ضاحكاً: «إذا كنت سأضيع، فلا بد أن أذهب». في الوقت الذي ذهبنا فيه إلى قبر سرياس حاملين فيه باقات الزهور والبخور والشمع، وهما مرتديتان غطاء رأسهما الأبيض قالتا في الطريق عدة مرات: «لا تذهب إلى تلك البحار، ستضيع، لا تذهب... لن تستفيد شيئاً من ذهابك». كانت لاولاو البيضاء الفتاة الجميلة الشبيهة بعروس البحر والغاضبة من

السماء، تقول لي بشكل مستمر: «يا والد سرياس، ما الذي تبحث عنه؟ منذ عدة سنوات بعثرت الرياح حفنة رمال في العالم، وحتى الآن لم تُجمع». وقالت شادريا: «أنا صغيرتك شاشا ولاولاو البيضاء، الشقيقتان الحزينتان بمصابك، سنكون في خدمتك حتى مماتنا؛ كما أنك تعرف أننا لن نتزوج أبداً، وأننا فتاتاك العذراوان، فلتبق معنا حتى الموت لنظل بجانبك. انظر كم هي السهول جميلة، وكم المياه بديعة، وكم الأطفال بريئون، وكم هي جميلة الدجاجات والبط والخراف التي تعتني بها. إن شاشا ولاولاو إلى جانبك دائماً؛ ولا يوجد سبب يدعوك أن تفكر في ترك الأمكنة كلها بعد تحررك من الصحراء. سوف يسبب الذهاب إلى مكان آخر مشكلة لك. لقد رأيت حلماً، فلا تذهب. لقد حلمت أنك ستضيع في البحر... لقد رأيت ذلك في الحلم».

طوقتْ لاولاو البيضاء يدي وقالت: «يا أبا سرياس، ابق معنا؛ سنذهب كل أسبوع إلى قبر سرياس، نصل إلى قبر ابنك هذا. فأنا أعلم أنه كان يشبهك في كل شيء أكثر من أي شخص آخر. فلا تبحث عن أي شيء آخر».

احتضنت كلتيهما وقلت: «لقد ذهبت تحت آخر شجرة رمان العالم، لقد حملت ذلك الصبي المحروق وذهبت به تحت تلك الشجرة؛ وهناك أقسمت وعاهدت نفسي أنني سأتبع مصير ذلك الصبي المحترق، فهو الكائن الحي الوحيد الذي تبقى لي. تعلمان كم أحبكما، لقد تركتما ذكرى استثنائية وجميلة بوجداني. لقد علمتماني بوجود شيء يُدعى الإنسان. شيء رقيق وقوي، مخلوق يجب أن

يخلص لأبناء جنسه. لقد أنقذتماني من الصحراء، ولو أنني لم آتي إلى منزلكما، ولولا أنكما لم ترويا لي حكاية سرياس، ولولا وقوفكما معي في مواقف موحشة، لكنت لا زلت في الصحراء. لولاكما لما استطعت أن أحيا، وألا أشعر بالخوف من الأشجار وأوراقها. أنا مدين لكما لإشراقكما حياتي؛ لا يمكن لأحد أن يعيش معكما ولا يكون مديناً لجمالكما ولإشراقكما وسماحتكما. ولكن إخلاص الإنسان لأخيه الإنسان أهم من أي شيء، ويجب على الإنسان أن يقضي دينه. أليس كذلك؟ على الإنسان أن يقضي دينه». بكت الشقيقتان البيضاوان المرتديتان الثوبين الأبيضين في ذلك السهل وقالتا: «إنك لست مديناً لنا... لا تذهب. لن تستطيع الوصول إلى إنجلترا، نحن نعلم ذلك، فقد حلمنا بك. يا شيخاً مثقلاً بالأحزان، يا أباً غارقاً في الآلام، إنك لن تصل إلى إنجلترا، ستضيع هناك في البحر... لا تذهب».

تجادلت معهما جدالاً لطيفاً، إذ دائماً ما كنت أدخل معهما في مناقشات جذابة. كنت أنا الشخص الوحيد الذي يقول إن هذه الحكاية مستمرة، وكان الآخرون يقولون إن حكاية سرياس انتهت بموته. في ذلك اليوم بكيت عند قبر سرياس الأول بقدر ما استطعت، بكيت بشدة لدرجة أنني لم أستطع أن أهدأ. ودّعت قبر بروفيسور الليالي المظلمة بصيحات ونحيب الأسى، وبكت هما أيضاً بدون توقف، وتوسلتا قائلتين «لا تذهب!» كنت أبكي وأقول: «قلب هذا الميت، وحياته، وأنفاسه ليست هنا؛ بل في قلب وحياة وأنفاس سرياس الأخير الذي يعيش بدلاً عن سرياسين... يجب أن أبحث عن الأحياء». بكيت بشكل جعلني أشعر أن السماء تهتز فوق رأسي؛ كنت

أشعر بدقات قلبيهما وهما تقولان: «من بعدك فنحن فتاتان عزباوبتان وبائستان لا تستطيع أي ذكرى أو أي أحد إسعادهما». يا أصدقائي، هاتان الفتاتان، كانتا تعيشان دائماً في ماضيهما... في هذا الزمان البائس من الصعب أن تجد امرأة تعيش فقط على ذاكرة ماضيها. ولكنهما كانتا هكذا، وتعيشا على ذاكرة ماضيهما القصير، وأنا كذلك كنت جزءاً من ماضيهما. كان وجهي مثل الزمن الذي يمر ببطء ويترك الشقيقتين البيضاوين. كانت تانك الشقيقتان فصلين من قصة قديمة، قصة لا تستطيعان الانفصال عنها أو خيانتها.

عند قبر محمّد زجاجي القلب رأيت الألم ذاته في وجهيهما؛ قبَلنا ثلاثتنا شاهدة القبر، وقلنا بصوتٍ عال: «نحن نحبك يا محمّد زجاجي القلب». وعندما نهضنا لنترك المكان، شعرنا ثلاثتنا بنسمات روحه، مثل النسمة الباردة المفاجئة، في الهواء.

عندما نظرت إلى عيونهما، قالتا بحرقة: «يا شيخ الآلام، بعد كل فترة طويلة من التفكير بهذا الشاب، بتنا نشعر الآن أننا نحبه. ومنذ اللحظة الأولى التي كان يقف فيه بملابسه المبللة عند الماء شعرنا أننا نحبه. كنا نعشقه، ولكن لا ينفع الحب في فعل أي شيء... إذ كان حباً مباغتاً وعقيماً». أمسكت يدي الشقيقتين البيضاوين وجذبتهما وقلت: «ابتعدا عن هذا القبر، فهذا القبر يشعركما باليأس ويحزنكما ويؤذيكما». في صميم قلبي، لم أرد أن ينتابهما الشعور بالذنب؛ إذ كنت أريد ألا يفقدا اطمئنانهما ببراءتهما ونقائهما.

والآن حيث أنظر كل ليلة إلى البحر، أقول مع نفسي: «أيها البحر

الكبير، أيتها النجوم، ساعدوا تينك الشقيقتين؛ واسمحوا لهما أن تعيشا بيقينهما النقي»، وأقول للبحر: «ما من متهم في هذه القصة التي أرويها لك ولهؤلاء اللاجئين التائهين. يا أيها البحر الكبير، يا أيتها الأمواج الساكنة؛ إنني لا أروي لك حكاية فيها متهم كبير»، فكيف يمكن أن تكون الشقيقتان البيضاوان، الشقيقتان النقيتان، مذنبتين؟ فالإنسان كائن رقيق... آه، يا إلهي؛ فالإنسان كائن جريح. في اليوم الذي أمسكت فيه بيدي الشقيقتين البيضاوين عند قبر محمّد زجاجي القلب شعرتُ بتلك الرقة الكبيرة؛ وشعرت أنهما كائنان زجاجيان أيضاً، كائنان يتهشمان عند اصطدام أي شيء بهما. يا رب، كم شعرت بالخوف! لقد خفتُ كثيراً... كثيراً جداً؛ لا تعلمون بأي ذعر قد أبعدتهما عن ذلك القبر وأخبرتهما أن انتبها إلى نفسيكما، وانتبها إلى قلبيكما، انتبها إلى جسديكما. فأنتما كائنان زجاجيان؛ فتاتان من الزجاج.

في اليوم الذي تركت فيه البلاد، ومنذ تلك اللحظة التي افترقت عن الشقيقتين البيضاوين، كان فكري كله وهمومي أنهما ستتهشمان في غيابي؛ ولا يزال هذا القلق يرافقني حتى الآن. وإذا عدتُ ذات يوم إلى البلاد فإني أخشى أنِ تكون تانك الشقيقتان قد تهشمتا مثل كائنين زجاجيين، وخلفتا مسحوقاً أبيض وراءهما كي نضيع أنا وأي شخص آخر فيه. عندما نهضنا من عند قبر زجاجي القلب كنت لحظة تلو الأخرى أتصورهما كأسين زجاجيتين، وأتخيل صورتيهما مثل صورة فتاتين أصبحت مبهمة وشاحبة شيئاً فشيئاً كالضباب، وتتحولان إلى مسحوق أبيض، مسحوق تنشره الريح على الأرض. فتاتان تذوبان

في الهواء وتمتزجان بطعم الغروب ولا تظهران ثانية. فتاتان تخلّفان قماشين أسودين يدلان على وفائهما إلى سرياس الكبير. يا أصدقائي، لقد ودّعت الشقيقتين البيضاوين بإحساس عميق، بهاجس أنهما سوف تتهشمان ولن أراهما ثانية. لقد بذلتا جهداً كبيراً وختمتا ميثاقاً أبدياً، كي لا يخرق أبداً، وألا تُجيبا على طلب العشاق. كانتا بحاجة إلى أخ أزلي كي لا تتهشما؛ وقد هاجرتا من المدينة كي لا تتهشما. منذ ليلتيَ الأولى في البحر استقر هذا الخوف فيّ أنهما سوف تتهشمان. وكانتا قد غارتا في غبار وظلام يدمران الجمال.

طيلة الفترة التي كنت أستعد فيها من أجل السفر، كانتا تجهزان حقيبتي، وتغنيان بصوت يترقق شيئاً فشيئاً. شعرت أنهما على كل همومها الكبيرة، تحاولان أن تمر ساعاتي الأخيرة معهما بسعادة وفرح. وفي المساء ذاته جلبتا لي زهرتين بيضاوين صنعتاها بنفسهما من القماش، ووضعتاها بين ملابسي كي لا أنساهما. في ذلك المساء، جاءت لاولاو البيضاء بمزهرية فضية ورمّانة زجاجية. جميعكم تتذكرون تلك المزهرية الفضية التي أمسك بها محمّد زجاجي القلب ورفعها من بين المياه حيث كان الفيضان يجرفه، وأهداها للشقيقتين البيضاوين في مساء موته الماطر؛ لقد كانت تُعد أكبر ذكرى له. أهدتاني تلك المزهرية كي أدور بها في البلاد والبحار؛ وكانتا قد لفتّا الرمّانة الزجاجية بقطعة قماش كحليّة جميلة. قالت لاولاو: «هذه رمانتك، وأنت مثلنا تحبها أيضاً؛ عسى أن تساعدك في هذه الرحلة ولا تضيع في البحر». وضعتُ الهديتين في الحقيبة، فقبّلتُ جبين لاولاو وبكيت.

جاء إكرام الجبلي مساءً. كان كعادته عميقاً، ولكن في القوت نفسه كان صامتاً وحزيناً. قال لي عدة مرات: «انتبه لنفسك في البحر». لقد تركت له في قائمة طويلة أمنياتي وطلباتي التي يمكن للملائكة الكبيرة فقط تحقيقها. انحنيت أمامه وشرحت له تفاصيل قصة تلك الأيام كلمة كلمة؛ قصة ذهابي عند السيد جلال الشمس، وقصة ذهابي إلى مستشفى مظلم وهادئ ومرعب، وقصة إيجادي سرياس الأخير المحترق، وأحداث أخذي بالقوة ولقائي بيعقوب الصنوبر، وكذلك قصة ذهابي إلى آخر شجرة رمان في الدنيا، وختمي لقسم أبدي. كانت كل تلك الأحداث قد وقعت خلال فترة قصيرة؛ فنظر إلى باستغراب وقال: «لم حرمتني من هذه اللحظات... لم؟ كان سيكون رائعاً لو كنت قد أخبرتني». تناولنا العشاء الأخير معاً وجمعنا المائدة الأخيرة معاً، وكانت تفوح منه رائحة لقائنا ووداعنا الأخيرين. قلت له: «يا إكرام الغالي، كان عليّ أن أفعل هذه الأمور وحدي؛ كان عليّ مثل شخص يحمل مصيره بمفرده، ويحلّق عند موته، أن أفعل كل هذه الأمور بمفردي؛ فتلك الأعمال كانت طريقي الوحيدة، الطرقات التي لا يمكن لأحد اجتيازها سواي. وعلى المرء أن يعرف أياً من الطرقات هي طرقه، الطرقات المخصصة له وحده؛ الطرقات التي لا يمكن لأحد سواه اجتيازها... فهناك بعض الطرقات في الحياة على المرء أن يعود من القيامة بعد موته ليسلكها. لأنه لو لم يكن قد سلكها بعد موته سيبقى ناقصاً، وأنا لا أريد لأن يكون موتي غير مكتمل». كانت لديه نظرة ملاك صامت قد فرض ظلاً عظيماً على الغرفة بجسده الضخم ذاك؛ وكان يشعر بالخجل أن ظله كبير بحيث يضعف ضياء المصابيح. ارتشف شايه على مهل، وقال: «انتبه لنفسك في البحر،

فالكثير من الناس يغرقون هناك». وكعادته كان داعمي ومن يساندني؛ وكعادته كان قد جلب كيس نقوده، ووهبني كل ما يملكه قائلاً: «يجب أن تعمل في اسطنبول... احذر اللصوص، احذر الطرقات والبحر. وحين تصل هناك أخبرني». فأجبته: «يا صديقي، يا إكرامي؛ سأترك لك مهمة صعبة، وأنا متأكد إنك ستستطيع إنجازها». فقال بحرقة: «سأفعل أي شيء يمكن إنجازه، ولكنني لا أستطيع تحمل كل المصائب وحدي». فقلت له: «أعرف، يا إكرامي؛ أعرف كم أنت ملاك قوي، وأي قلب لديك، ولا أريد أن أتكلم عن جمالك. إنني أعرف أن الإنسان لا يستطيع تحمل جميع المصائب بمفرده؛ أنت أيضاً ابن هذه البلاد التي أناسها وحيدون دائماً. لا تتلخص المشكلة في هل أننا قادرون أم لا، بل علينا أن ننجز العمل في صمت. وعلينا ألا نسمي أي شيء في الحرب، لأن الحرب تضخم آلام العالم ومصائبه. وحتى لو كانت الحرب ضد الدمار إلا أنها في النهاية ستملأ الأرض بالآلام والمصائب؛ وإذا كانت الحرب في قمة العدالة فإنها ستملأ الأرض بالأحزان. كلا، يا إكرامي الجبلي؛ إنني لا أتكلم عن العدالة. لو كنت قد تحدثت عن العدالة لكان عليّ أن أبحث عن قتلة سرياس الأول؛ وأن أبحث عن أولئك الذين أوقعوا سرياس الثاني في هذه المصيبة، وأن أبحث عن أولئك الذين أحرقوا سرياس الأخير. إنني لا أتحدث عن العدالة، ففي أغلب الأحيان تكون العدالة أكثر قسوة وعنفاً من الظلم. بل إنني أتحدث عن شيء لا اسم له؛ شيء لم يطلق الإنسان أي اسم عليه بعد. فعلى المرء أن يفعل شيئاً يستلهم منه الجميع في حياته. ولكن يا إكرامي، عم أتحدث؟ هل استلهمت كل أشيائي منك؟ كلا، يا إكرام الكبير، إنني أتحدث عن وقف الإنسان

من أجل إنسان آخر». في هذا المساء الأخير رفعت صوتي مثال المساء الأول قائلاً: «سأترك لك أشياء كثيرة؛ سأترك لك الشقيقتين البيضاوين، وسرياس الثاني في ذلك السجن البعيد، وسأترك لك نديم الأمير أيضاً. إنني لم أره، ومن دونه ستبقى هذه القصة غير مكتملة مثل باقي قصص العالم الأخرى. سأترك لك اسيتره الأسود، الفتى الذي يجب أن يخرجه أحدٌ ما من ذلك المستشفى المظلم؛ وسأترك لك أولئك المرضى في قسم الجروح الذين قد نساهم العالم. وسأترك لك قبري سرياس ومحمّد زجاجي القلب، كي تزورهما بدلاً عني؛ وسأترك لك آخر شجرة رمان الدنيا».

نظر إليّ بصمت ولم يقل شيئاً. فيما مضى، نادراً ما كان يتحدث عن الأمور التي فعلها. وفي تلك الليلة وحتى الصباح لم يقل شيئاً غير أن يحذرني من البحر؛ وفي بعض الأحيان كان يقول: «لا يمكنني أن أؤكد لك أنني سأفعل كل هذه الأمور، لا يمكنني أن أعدك بذلك».

في الصباح حين ودعت الشقيقتين البيضاوين للمرة الأخيرة وقبلت جبينيهما وانهمرت الدموع على خدي ولحيتي، أمسك إكرام بيدي بصمتٍ، وأركبني سيارته وقال: «هيا لنذهب». لا أخفي عنكم أنني لم أكن قادراً على رؤية الشقيقتين البيضاوين للمرة الأخيرة؛ ولم يكن بمقدوري أن أراهما آخر مرة مودّعاً. كان عليهما أن تفهما أن القصة كلها تتلخص في خوفي الكبير من الوداع.

كانتا تقفان هناك، وتداعب الريح الصباحية شعرهما؛ الشعر الذي أشعر أنه يتماوج معي الآن في البحر. الشعر الذي دائماً ما تنشره الريح

إلى ذلك الجانب من العالم. كانتا تقفان أمامي ولم أكن أتجرأ على أن أستدير إليهما لتوديعهما. لم أرَ نظرتيهما، والشيء الوحيد الذي رأيته هو شعرهما المتمرد والمحب للريح. وفي الطريق كانت الريح تعبث بشعرهما، وكان قمر الصباح، قمر الليل الضائع يسطع وراءهما.

نزلت من سيارة إكرام في مكان ما، وركبت سيارة أخرى واتجهت نحو الحدود حيث كانت شمس جديدة قد طلعت حديثاً. وفي سطوع أشعة الصباح الأولى احتضنت إكرام الجبلي وذرفت الدموع؛ بكيت مثل الثكالى، وهو أيضاً ذرف الدموع بوقار كائن سماوي. احتضنا بعضنا بعضاً فترة طويلة، وكان ثمة شيء أكثر عمقاً وغرابة من صداقتي معه قد تشكل، يمكن أن نسميه الإدراك المتبادل بين إنسانين، أو فهمه في تلابيب ليالي تخيلاتي الظلمة وصحاريها. وفي آخر لحظة قال: «عليّ أن أكون هناك؛ في تلك الغابات، سأنتظر طائراً جريحاً سيهبط بالقرب مني كي أعالجه». كانت هذه جملته الأخيرة؛ مسح عينيه وأعطاني منديله وودعني وذهب. كنت أذرف الدموع، ومن مكاني حيث كنت أجلس لم أرَ شيئاً قد تركته سوى ظله الذي كان قد ملأ المكان كله. كنت أشعر بالضعف والعري، ولم يفارقني هذا الإحساس حتى هذه اللحظة. كنت أشعر أنني وحيد للأبد ولكن كان أمامنا طريقان، وكان عليّ أن أسير باتجاه البحر وأنهي رحلة كان عليّ إنهاؤها.

وهكذا انطلقت إلى البحر بعد توقف قصير في تلك المدينة الذي جعلني أتعرّف إلى كل هؤلاء الناس... هكذا انطلقت إلى البحر من الصحاري النائية.

في تلك الليلة حيث ركبتُ السفينة في "پاترا"، كانت حقيبتي ممتلئة بالأشياء الضرورية: ملابسي، والرّمانتين الزجاجيتين اللتين ضاعت ثالثتهما، والمزهرية الفضية، وأشرطة سرياس الثاني، وعنوان مستشفىٰ في إنجلترا حيث ينظر سرياس الأخير من خلال نوافذها إلى النجوم، وغصن صغير من آخر شجرة رمّان في العالم حيث كنتُ أحمله معي حتىٰ مماتي، وقصاصة صحيفة متهرئة فيها صورة للمارشال وعربته الصغيرة، وزهرتين بيضاوين خالدتين، زهرتين تفوحان ليلاً بأريج تينك الأختين.

في اسطنبول وصلني الشريط الأخير لسرياس الثاني، وبدوري أرسلت له شريطي الأخير من پاترا. والآن حيث أقف على متن هذه السفينة، وأروي هذه القصة لا يزال ينتظر سلاماً في ذلك السجن يحرّره من تلك القلعة، ويحلم بأيامٍ يغير فيها اسمه وأن يكون لديه ابن لم يسمع اسم سرياس الصباحي.

يا أصدقائي، عم يجب أن أتحدّث معكم ليلّة غد؟ فهذه القصة لن تنتهي أبداً... قصة أولئك الأولاد الزجاجيين الذين يعيشون في بلادٍ من زجاج وفي فترة زجاجية. ليلة الغد علّي أن أبدأ هذه القصة من جديد؛ وسأبدأ من هناك وأعيدك من طرقات أخرى إلى متن هذه السفينة. والأمر المهم التالي هو أن الرجل الذي خرج من بين الرمال، وتاه في البحر في سفينة اللاجئين، هو أنا الذي يزداد كل ليلّة شكي بهذه الرحلة. كنّا ندور بحمق في ذلك المحيط المرعب... منذ عدّة ليالٍ ونحن ندور ولا نصل إلى مكانٍ ما. كانت هذه السفينة تدور بنا في هذا البحر للأبد، وكل ليلّة كنتَ أصرخ من هنا: «أين أنت يا

سرياس الصباحي؟ فأنا رجل جاء من الرمال والماء، وأنت صبي قد جئت من الرماد». كل ليلّة حيث إنكم غارقون في النوم آتي بشكل مستمر، وأقول للبحر: «خذ له شيئاً مني، واجلب لي شيئاً منه أيضاً». وأصرخ: «أجنبي يا سرياس»، ولكنني لا أسمع شيئاً سوى صوت الأمواج. وأصرخ بأنني قادم إليك يا طفل النار، فكلّمني. ولكنه لا يقول شيئاً، فهو أكثر صمتاً من هذا البحر. في أغلب الليالي أشعر أن ضياعي في هذا المحيط هو ضياع في صمت لا نهائي، الكائن الذي يتشكل أحياناً على الأرض ويحترق ويصمت، وليس لديه ما يختاره من ذلك الصمت. صمت هذا البحر هو صمت سرياسين، وضياعي هنا وهناك، واختناقي هنا وهناك وكلِ هذه الأمور، تعُد شيئاً واحداً. يا أصدقائي، يا من تستمعون إليّ دائماً، تعالوا لننظر إلى البحر... هيا أعطوني أيديكم حتى ننظر إلى هذا البحر الذي يبدو وكأنه يدور بنا في هذا البحر إلى الأبد. انظروا فالنجوم تنظر إلينا من الأعلى؛ وكل الأشياء تجلب لنا أغنية واحدة، وكل الأشياء تقول لنا أن توقفوا وانظروا إلينا. كلا، إنني لن أشعر بالإرهاق من هذا البحر الشاسع الذي يعبث بنا بقسوة... انظروا إلى هذه الأمواج كيف تأتي غاصبة من بعيد وتعبث بسفينتنا الصغيرة. إني أشم إعصاراً مرعباً؛ وأشعر بطوفان مدّمر في البحر سيأتي ويجعل السماء مظلمة. يبدو وكأن البحر لا يستمع إلينا. يا إلهي، يا لها من أمواج مرعبة وكبيرة قادمة من بعيد. إني أشعر بنسيم الموت المظلم في هذا المحيط حيث يهب فوقنا بلا حزن؛ وأشعر أن المياه تقودنا إلى أماكن بعيدة ومظلمة أكثر فأكثر. ولكن يا أيها البحر، إنني لا أخشاك؛ اسمعني يا أيها البحر، اسمعني... إنني لا اشعر بالتعب، فأنا متأكد أنني لو متّ هنا سيحمل

شيءٌ ما صوتي مع الأصوات الأخرى الموجودة في الأماكن البعيدة. سيأخذ شيءٌ ما قصتي إلى ذلك الجانب من المحيط... سيأتي شيء، شخص، غناء، إنسان ما، ويقرأ نوتاته لأشخاص آخرين. هلموا ننظر إلى البحر... غداً سأروي لكم هذه القصة من جديد، حتى لو لم تذكروها سيحفظها البحر، وتحفظها الأسماك، وتحفظها النجوم. غداً سنجلس هنا، وسأروي لكم، على نحوٍ آخر، وبصرخة أخرى، قصة أطفال دخلتُ هذا المحيط بحثاً عنهم. لا تذهبوا، فأنا متأكد أنه لو لن تستمعوا فإن الرياح سوق تستمع؛ وإن لن تستمعوا فإن النوارس الجاثية على السارية ستسمع. تعالوا ننظر إلى البحر بنَفَسٍ واحد... ننظر بنفس واحد... بنفس واحد... بنفس واحد... بنفسٍ واحد... فقد ضعنا في هذا المحيط للأبد؛ ومن يضيع في البحر عليه أن يكون قادراً على النظر إلى الماء خلفه. تماماً مثل الشخص الذي يضيع في الصحراء ويتفرج على الرمال حوله. وأنا قد ضعت هكذا في هذا البحر؛ لقد ضعتُ هنا. وأصرخ من أعماقي ومن أعماق المياه والظلمات: «أين أنت يا سرياس الصباحي... أين أنت؟... أين أنت؟... أين أنت؟».

نُبذةٌ عن المؤلّف

ولد الأديب الكردي "بختيار علي" عام 1960 في مدينة السليمانية شمالي العراق؛ وفي نهاية سبعينيات القرن العشرين التحق بكلية العلوم فرع الجيولوجيا بجامعة السليمانية، إلا أنه سرعان ما انخرط مع عدد من أصدقائه الأكراد في أنشطة طلابية تنادي بحرية التعبير. كما أنه شارك في مظاهرات مناهضة للحرب العراقية - الإيرانية، وبسبب هذه النشاطات الطلابية قررت الحكومة العراقية نقل جامعة السليمانية إلى مدينة أربيل؛ ومن هناك استمرّ الطلاب في نشاطهم السياسي ومظاهراتهم المناوئة لسياسات حكومة البعث في العراق، وأصيب بختيار علي برصاص رجال الأمن ونُقل إلى المستشفى حيث ألقوا القبض عليه ونقلوه إلى سجن كركوك وبقي هناك قرابة سنة.

بعد إطلاق سراحه وطرده من الجامعة، لم يرد المشاركة في الحرب العراقية - الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات، لذلك انتقل إلى إيران بوصفه لاجئ، وهناك أقام مكتبة أدبية كبيرة للاجئين بمجهوده الشخصي. وفي فترة إقامته في مخيم اللاجئين كتب قصائده، وروايته الأولى "موت الوحيد الثاني". وحين اطّلع الروائي الكردي المعروف "شيرزاد حسن" على روايته، نقلها إلى بغداد كي يأخذ موافقة الرقابة لنشرها، إلا أنّ الرقابة الحكومية رفضت ذلك لأن الكاتب يعدُّ من الطلاب المغضوب عليهم، ومتهرّباً من أداء الخدمة العسكرية.

وبعد نجاح الانتفاضة الكردية عام 1991، عاد بختيار علي إلى

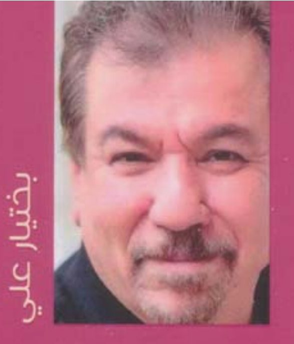
مسقط رأسه السليمانية وبادر مع زملائه الآخرين مثل مريوان وريا قانع، وفاروق رفيق، وبرزان فرج بتأسيس مجلة "آزادي" الفكرية وإحياء ندوات ثقافية وأدبية؛ كما أنه نشر مجموعته الشعرية الأولى "الذنوب والكرنفال" عام 1992. إلا أنه وبعد سنتين وبسبب الحرب الأهلية بين الحزبين الكرديين هاجر مع الكثير من أبناء الشعب الكردي الذين فقدوا الأمل بالسلام والمستقبل، إلى دمشق واستقرّ فيها سنة ثم انتقل إلى أوربا.

استقر بألمانيا في مدينة كولونيا حيث أسس بختيار مع رفاقه الآخرين مجلة فكرية أخرى باسم رهند (البعد)، كما أنه استطاع نشر روايته الأولى في السويد، بعد عشر سنوات من كتابتها. إلا أن شهرته تعود إلى روايتيه الثانية "غروب الفراشة" (1998) والثالثة "آخر رمّان الدنيا" (2001) اللتين نشرتا في أكثر من خمسين ألف نسخة لكل منهما باللغة الكردية، وهذا رقم كبير جداً نظراً إلى عدد الأكراد الذي لم يكن يتجاوز أربعة ملايين ونصف مليون في ذلك الوقت. وقد كتبت عدة أطروحات جامعية عن كتبه، كما أن أعماله ترجمت إلى اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية والتركية والفارسية، التي يجيدها هو بطلاقة.

كما أن روايته الرابعة "مدينة الموسيقيين البيض" صدرت في عشرة آلاف نسخة (2005) ونالت جائزة كتاب العام في كردستان العراق. وفي عام 2017 نال جائزة نيلي زاكس الألمانية على روايته مدينة الموسيقيين البيض، وهي جائزة مرموقة أنشئت باسم الشاعرة والكاتبة المسرحية نيلي زاكس الحائزة على جائزة نوبل للآداب في

عام 1996، وقد نالها أدباء كبار مثل الروائي ميلان كونديرا، والروائي والكاتب المسرحي إلياس كانيتي، وآخرون.

ومن رواياته الأخرى "الغزلي وبساتين الخيال" (2008)، و"قصر الطيور الحزينة" (2009)، و"جمشيد خان" (2010)، و"سفينة الملائكة" (2012)، و"غيوم دانيال" (2015)، و"درياس والأجساد" (2018). كما أن لبختيار علي ست مجموعات شعرية، وأكثر من عشرين كتاباً في مجالات الفلسفة والنقد السياسي والنقد الأدبي.



بختيار علي

آخر رمان الدنيا

رواية بوقع متسارع. ستفهم من فورك لماذا يتمتع المؤلف بمكانة سماوية في الشرق الأوسط. كيف تسنى لمثل هذا المؤلف أن يختبئ فترة طويلة من عالم الرواية؟ هناك الكثير مما سنسمعه ونقرؤه منه.

-صحيفة سود دويتشه تسايتونغ

منذ عشرين عاماً، عاش ساحر الخيال الكردي في ألمانيا دون أن يُكتشف. الآن أصبحت دار نشر أونيونسفالاغ تنشر حكاياه الرمزية.

-صحيفة نيو زيرتشير سايتونغ

رواية سرمدية معاصرة، مغلفة بجو رواية خرافية.

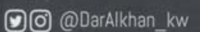
-إل ليبرايو. مجلة ثقافية

صورة بانورامية قاتمة لمجتمع شوّهه التاريخ.

-الملحق الأدبي لصحيفة التايمز.


ISBN
9 789921 712124







Info@daralkhan.com